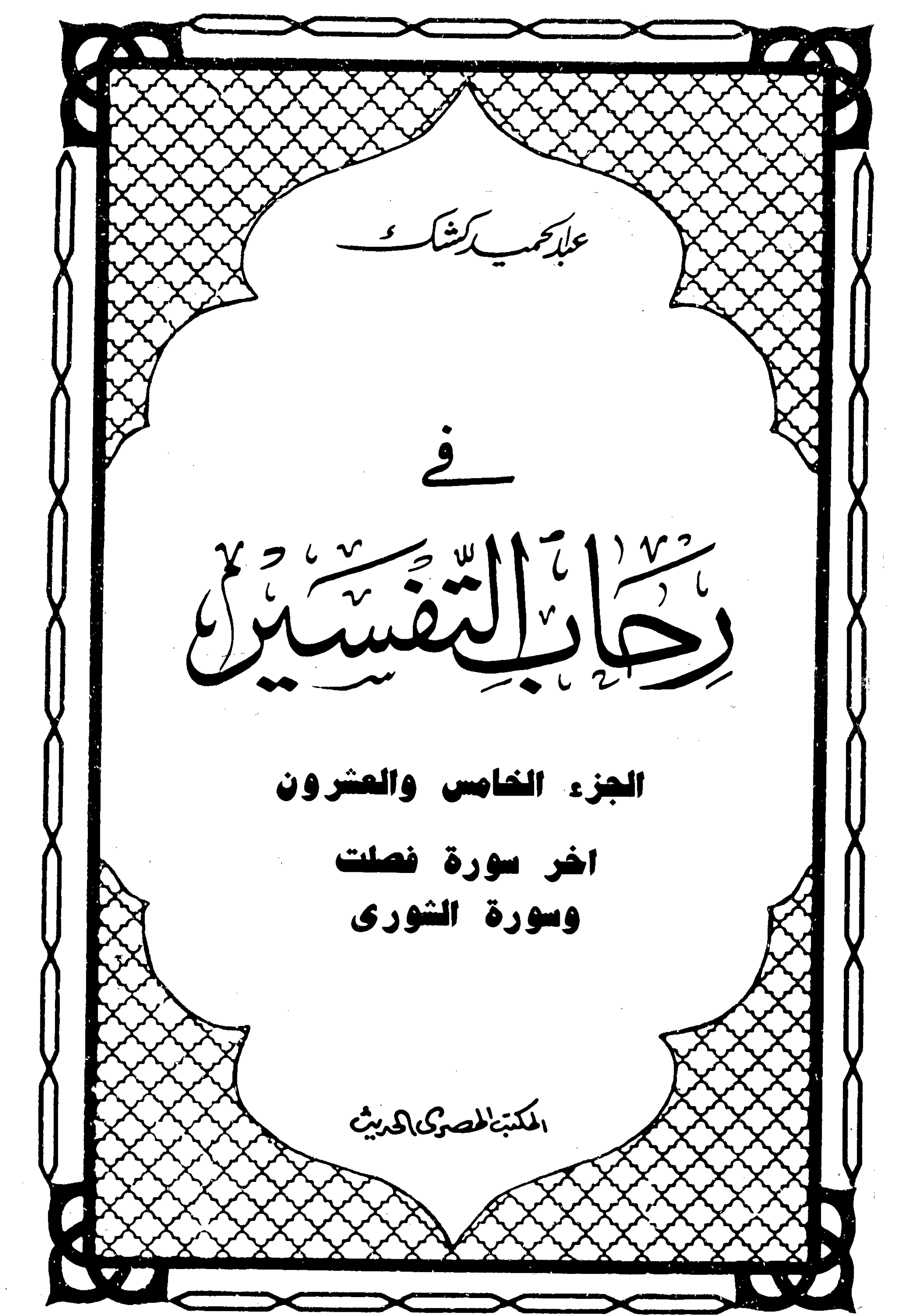


عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الخامس والعشرون

اخر سورة فصلت
وسورة الشورى

المكتب المصري الحديث

من أحوال الإنسان

قوله تعالى : ﴿ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

معانى المفردات

(لا يسأم) أى : لا يملّ ، (والخير) المال والصحة والعزة والسلطان ونحو ذلك (والشر) الفقر ، والمرض ، ونحوهما ، (واليأس) انقطاع الرجاء من حصول الخير ، (والقَنوط) بفتح القاف من اتصف بالقنوط (وبالضم) وهو ظهور أثر اليأس على الإنسان من المذلة والانكسار . (والرحمة) هنا : الصحة وسعة العيش (والضراء) المرض وضيق العيش ونحوهما (هذا لى) أى : هذا ما استحقه لما لى من الفضل والعمل (والحسنى) الكرامة (الغليظ) هنا الكثير (نأى بجانبه) أى : تكبر واختال

(عريض) أى : كثير مستمر ، وأعرض فى الدعاء : إذا أكثر . (أرأيتم) أى : أخبرونى (أضل) أى : أكثر ضلالا وبعْدا عن الحق (الشقاق) الخلاف ، (والآفاق) النواحى من المشارق والمغارب ، واحدها (أفق) . (شهيد) أى : شاهد على كل ما يفعله خلقه ، (مرية) أى شك ، (من لقاء ربهم) أى : من البعث بعد الممات ، (محيط) أى : عالم بجميع الأشياء لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه حال الكافرين فى الآخرة ، وذكر أنهم حينئذ يتبرءون من الشركاء بعد أن كانوا معترفين بهم فى الدنيا ـ أردف ذلك بيان أن الإنسان متبدل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أحس بخير وقدرة انتفخت أوداجه وصعّر خديه ومشى الخيلاء ، وإن أصابته محنة وبلاء تطامن واستكان ويئس من الفرج ، وهذا دليل على شدة حرصه على الجمع ، وشدة جزعه من الفقد ، إلى ماضيه من طيش يتولد عنه إعجابه واستكباره حين النعمة ، وتطامنه حين زوالهما ، وذلك مما يومىء بشغله بالنعمة عن المنعم فى حالى وجودها وفقدها أما فى حال وجودها فواضح ، وأما فى حال فقدها فلأن التفرع جزعاً إنما كان على الفقد الدال على الشغل عن المنعم بالنعمة . ثم أعقب ذلك بلفت أنظار الطاعنين فى بنوة محمد ﷺ إلى التأمل والتفكر فيما بين أيديهم من الدلائل ، ليدعوا عماهم فيه من الغى والضلال ، ويقروا بها لتظاهر الأدلة عليها ، وعلى أن القرآن منزل من عند الله حقاً ، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور وأنه سبحانه هو العلى الكبير .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ أى : لا يمل من دعائه بالخير . والخير : هنا المال والصحة والسلطان والعز . قال السدى : والإنسان ها هنا يراد به الكافر . ﴿ وإن مسه الشر ﴾ الفقر والمرض (فيؤوس) من روح الله (قنوط) من رحمته . وقيل (يؤوس) من إجابة الدعاء ، (قنوط) بسوء الظن بربه .

وقوله تعالى : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا ﴾ عافية ورضاء وغنى (من بعد ضراء مسته) ضر وسقم وشدة وفقر (ليقولن هذا لى) أى : هذا شىء استحقه على الله لرضاه بعملى ، فيرى النعمة حتماً واجباً

على الله - تعالى - ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة ، ليتبين شكره وصبره (وما أظن الساعة قائمة) أى : يكفر بقيام الساعة أى : لأجل أنه خول نعمة يبطر ويكفر كما قال تعالى : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾[1] ﴿ **ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى** ﴾ أى : ولئن كان ثَم معاد فليحسنَنَ إلىّ كما أحسن إلىّ فى هذا الدار ، يتمنى على الله - عز وجل - مع إساءته العمل وعدم اليقين . قال الله تعالى : ﴿ **فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقهم من عذاب غليظ**) يتهدد تعالى من كان هذا عمله ، واعتقاده بالعقاب ، والنكال . ثم قال تعالى : ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه** ﴾ أى : أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله - عز وجل - (وإذا مسه الشر) أى : الشدة (فذو دعاء عريض) أى : كثير .

ونحو هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضُرٍّ مَسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾[2] وكقوله تعالى : ﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئاتُ عنى إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾[3] وكقوله تعالى : ﴿ **إذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار** ﴾[4] وكقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . يدعوا من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ، يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير** ﴾[5] .

فالكافر يعرف ربه فى البلاء ، ولا يعرفه فى الرخاء ، أما المؤمن فهو عابد لله سبحانه على الحالين ، لهذا جاء فى وصية النبى ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - (**تعرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة**)[6] ، قال رجل لأبى الدرداء : - رضى الله عنه - أوصنى : فقال : أذكر الله فى السراء يذكرك فى الضراء ، فإن العبد إذا ذكر الله فى السراء ، فنزلت به ضراء فدعا الله - عز وجل - ، قالت الملائكة : صوت معروف ، فشفعوا له ، وإذا كان ليس بدعّاء فى السراء ، فنزلت به ضراء فدعا الله - عز وجل - قالت الملائكة : صوت ليس بمعروف فلا يشفعون له .

وقوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ، سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ، ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط** ﴾ .

---

(١) سورة العلق الآيات ٦ - ٧ (٢) سورة يونس الآية ١٢ (٣) سورة هود من ٨ - ١١

(٤) سورة الزمر الآية ٨ (٥) سورة الحج الآيات ١١ - ١٣

(٦) أنظر كنز العمال جـ ٢ رقم ٣٢٢١ - فى آداب الدعاء - وانظر مسند الأمام أحمد جـ ١ ص ٣٠٧ عن ابن عباس وانظر كشف الخفاء جـ ١ ص ٣٦٦ رقم ٩٩٣ (عن ابن عباس)

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ، أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله ، ثم كفرتم به ؟ أى : كيف ترون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال ـ عز وجل ـ : ﴿ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ أى : فى كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى .

وقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق ﴾ أى : سنريهم علامات وحدانيتنا وقدرتنا (فى الآفاق) قال ابن زيد : (فى الآفاق) آيات السماء (وفى أنفسهم) حوادث الأرض . وقال مجاهد : (فى الآفاق) فى آفاق الدنيا خصوصاً من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وفى أنفسهم فتح مكة وهذا اختيار الطبرى . وقال عطاء وابن زيد أيضاً : (سنريهم آياتنا فى الآفاق) يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق ، والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها (وفى أنفسهم) من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول ، فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين ، وبديع : صنعه وحكمته فى عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وفى أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه . (ذكره القرطبى) .

وقوله تعالى : ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ قيل الإسلام الذى جاء به الرسول ـ ﷺ ـ وقيل : القرآن ، وقيل : إن محمداً ـ ﷺ ـ هو : الرسول الحق . والأقوال كلها صحيحة . فسيتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق ، ومن ثم نصر حامليه ، وأظهرهم على أعدائهم فى قليل من الزمان ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ ﴾ أى : كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد بأن محمداً صادق فيما أخبر به عنه كما قال سبحانه : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾[2] .

وقصارى القول ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التى أوضحها سبحانه فى هذه السورة وفى كل سور القرآن ، وفيها البيان الكافى لإثبات وحدانية الله وتنزيهه عن كل نقص ، وإثبات النبوة والبعث .

وبعد أن أقام الأدلة ، وأوضح الحجج ـ حتى لم يبق بعدها مقال لمتعنت ولا جاحد ـ بين سبب عنادهم واستكبارهم فقال سبحانه :

﴿ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ﴾ أى : إنهم فى شك من البعث والجزاء ، واستبعادهم إحياء الموتى بعد تفرق أجزائهم ، وتبدد أعضائهم ، ومن ثم لا يلتفتون إلى النظر فيما ينفعهم عند لقائه كالتفكر فى صدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن حق لا شك فيه .

---

(١) سورة الصف الآية ٩ ، سورة التوبة الآية ٣٣

(٢) سورة النساء الآية ١٦٦

وقوله تعالى : ﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ أى : إنه تعالى عليم بمجمل الأشياء وتفاصيلها مقتدر عليها لا يفوته شيء منها ، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام ويقدر على إعادتها إلى أمكنتها ، ثم بعثها وحسابها ، لتستوفى جزاءها على ما قدمت من عمل . كقوله تعالى : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾[1] ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾[2] .

تفسير سورة الشورى

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية إجماعاً ، عدد آياتها ثلاث وخمسون فى الكوفى .

كلماتها : ثمانمائة وست وستون وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمان وثمانون . ومجموع فواصل آياتها (زر لصب قدم) .

ولها اسمان : عسق ، لافتتاحها بها ، وسورة الشورى لقوله تعالى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .

معظم مقصود السور . .

بيان حجة التوحيد ، وتقرير نبوة الرسول ، وتأكيد شريعة الإسلام والتهديد بظهور آثار القيامة ، وبيان ثواب العاملين دنيا وأخرى ، وذل الظالمين فى عرصات القيامة ، واستدعاء الرسول ﷺ من الأمة محبة أهل البيت العترة الطاهرة ، ووعد التائبين بالقبول وبيان الحكمة فى تقدير الأرزاق ، وقسمتها ، والإخبار عن شؤم الآثام والذنوب ، والمدح والثناء على العافين من الناس ذنوب المجرمين . وذل الكفار فى مقام الحساب ، والمنّة على الخلق بما مُنحوا : من الأولاد وبيان كيفية نزول الوحى على الأنبياء ، والمنة على الرسول بعطية الإيمان والقرآن ، وبيان أن مرجع الأمور إلى الله الديان فى قوله تعالى : ﴿ إلى الله تصير الأمور ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ وفى لقمان (من عزم الأمور) ؛ لأن الصبر على وجهين : صبر على مكروه ينال الإنسان ظلماً كمن قُتل بعض أعزته ، وصبر على مكروه ليس يظلم ؛ كمن مات بعض أعزته . فالصبر على الأول أشد ، والعزم عليه أوكد ، وكان ما فى هذه السورة من الجنس الأول لقوله ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ فأكد الخبر باللام وما فى لقمان من الجنس الثانى فلم يؤكده .

---

(١) سورة النساء ١٢٦ (٢) سورة الطلاق الآية ١٢

قوله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولى ﴾ وبعده ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ ليس بتكرار ، لأن المعنى ، ليس له من هاد ولا ملجأ .

قوله ﴿ عَلِيٌّ حكيم ﴾ ليس له نظير . والمعنى : تعالى عن أن يكلم شفاها حكيم فى تقسيم وجوه التكليم .

قوله : ﴿ لعل الساعة قريب ﴾ وفى الأحزاب (تكون قريباً) زيد معه (تكون) مراعاة للفواصل . وقد سبق .

ومناسبتها لما قبلها :

اشتمال كل منهما على ذكر القرآن ، ودفع مطاعن الكفار ، فيه تسلية النبى ﷺ على ذلك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

﴿ فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾

معانى المفردات

(يتفطرن) يتشققن ، (يسبحون) أى : ينزهون الله عما لا يليق به ، (والأولياء) الشركاء والأنداد (حفيظ) أى : رقيب على أحوالهم وأعمالهم (بوكيل) أى : بموكول إليك أمورهم حتى تؤاخذهم بها ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنما عليك البلاغ فحسب . (الإنذار) التخويف (وأم القرى) مكة ويوم الجمع يوم القيامة : سمى بذلك لاجتماع الخلائق فيه كما قال تعالى : ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع** ﴾[1] (الفريق) الجماعة ، (السعير) النار المستعرة الموقدة . (الولى) الناصر والمعين ، (أنيب) أى : أرجع ، ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أى : مبدعهما لأعلى مثال سابق ، (من أنفسكم) أى : من جنسكم (يذرؤكم) أى : يكثركم يقال ذرأ الله الخلق ، بثهم وكثرهم ، (مقاليد) وأحدها مقلاد ، أو مقليد ، أو إقليد ، وهو : المفتاح (يبسط) أى : يوسع (يقدر) أى : يقتر ويضيق .

المناسبة وإجمال المعنى

بين سبحانه : أن ما جاء فى هذه السورة موافق لما فى تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل ، من الدعوة إلى التوحيد ، والإيمان باليوم الآخر ، والتزهيد فى جمع حطام الدنيا ، والترغيب فيما عند الله ، ثم ذكر أن ما فى السموات والأرض فهو ملكه وتحت قبضته ، وله التصرف فيه إيجاداً وإعداماً وتكويناً وإبطالاً ، وأن السموات والأرض على عظمهما تكاد تتشقق فرقا من هيبته وجلاله سبحانه ، وأن الملائكة ينزهونه عما لا يليق به من صفات النقص ، ويطلبون المغفرة لعباده المؤمنين ، ثم أردف هذا تسلية رسوله ﷺ بأنه ليس بالرقيب على عبدة الأصنام والأوثان يستطيع أن يردهم إلى سواء السبيل ، بل ليس عليه إلا البلاغ وعلينا حسابهم ، فلا يبخع نفسه عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون ، ثم بين سبحانه أنه أنزل كتابه بلغة العرب ليفهمه قومه من أهل مكة وما حولها كما قال : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾[2] وينذرهم بأن يوم القيامة آت لا شك فيه ، وأن الناس إذ ذاك فريقان : فريق يدخل الجنة بما قدم من صالح الأعمال وفريق يدخل النار بما دنّس به نفسه من سيء الفعال ، ثم ذكر أن حكمته اقتضت أن يكون الإيمان بالتكليف اختياراً ولم يشأ أن يكون قسرا وجبراً ، ولو شاء أن يكون كذلك لفعل ، فمن أخبت الله وأناب وعمل صالحاً أفلح وفاز بالسعادة ، ومن

---

(١) سورة التغابن الآية ٩ (٢) سورة إبراهيم من الآية ٤

عاث فى الأرض فساداً ، واتجهت همته إلى ارتكاب الشرور والآثام خسر وباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المهاد ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ثم طلب إليه أن يدع الاهتمام بأمرهم ، ويقطع الطمع فى إيمانهم ، مبيناً أنهم اتخذوا من دون الله أولياء ، وهو سبحانه الولى حقاً ، القادر على كل شىء ، فقد عدلوا عنه إلى مالا نسبه بينه وبينهم بحال .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ حم . عسق ﴾ مثلها مثل أخواتها من فواتح السور وهى : دالة على إعجاز هذا الكتاب العزيز بما تحمله من تحدى المعاندين والمكابرين .

قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما أنزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[1] وقال جل شأنه : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[2] ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[3] ثم أفحمهم وألجمهم وألزمهم الحجة عندما يبين لهم نهاية التحدى فى قوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ .

أى : مثل ما أوحينا إليك من الآيات والذكر الحكيم ، أوحينا إلى الأنبياء من قبلك فأنزلنا عليهم كتباً اشتملت على الأمر بالتوحيد والإيمان بالمعاد ، والأمر بمكارم الأخلاق ، وقد جمع الله ذلك كله فى الوصايا العشر التى جاءت فى قوله تعالى :و﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[5]

الموحى إليك وإلى الذين من قبلك هو ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾[6] .

وما أجمل قوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فهو الغالب الذى يجير ولا يجار عليه فإذا ما أنزل الوحى على أنبيائه فإن أحداً لا يقوى على منع ذلك الوحى من النزول ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ (٢) سورة هود الآية ١٣ (٣) سورة يونس من الآية ٣٩
(٤) سورة الاسراء الآيتان ٨٨ ـ ٨٩ (٥) سورة الأنعام الآيات ١٥١ ـ ١٥٣ (٦) سورة البقرة الآية ٢٥٥

على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلّا أنا فاتقون ﴾[1] فانظر كيف سمى الوحى روحاً لأن فيه حياة المموات وانظر كيف سماه نوراً فى قوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[2] فقد سماه نوراً لأنه يبدد غياهب الظلمات ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[3] .

وهو الحكيم الذى تنزهت ذاته عن العبث ، وتنزه فعله عن اللغو ، وتنزهت صفاته عن المشابهة ، يضع الأمور فى نصابها والنقاط على حروفها ، ويسمى الأشياء بأسمائها .

وهو الذى أوحى إلى الأنبياء كما أوحى إلى نبيه وخاتم أنبيائه ورسله ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً ، لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيد ﴾[4] وقال جل شأنه : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾[5] وقال جل شأنه : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[6] وقال جل شأنه : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾[7] وقال تبارك اسمه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ﴾[8] وقال عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وجل جلال الله إذ يخبر أنه حفظ الوحى من اختراق الشياطين فيقول : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً ﴾ .

فكل الأنبياء قد أوحى الله ـ تعالى ـ إليهم فلا نبوة بلا وحى وكل الرسل قد أمرهم الله بالتبليغ فكما أنه لانبوة بلا وحى كذلك لا رسالة بلا نبوة وسبحان من أكمل دينه وأتم نعمته ورضى لنا الإسلام دينا ، فجعل خاتم النبيين خاتماً للمرسلين فلا نبوة بعد رسول الله ﷺ ، وحيث لا نبوة بعده فلا رسالة بعد رسالته ، وإنما العلماء ورثة الأنبياء فى تبليغ ما أمر الله به الأنبياء وسبحان من قال : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليماً ﴾[9] فختم النبوة ختم للرسالة إذ النبوة أعم من الرسالة فمن ختم الأعم فقد ختم الأخص من باب أولى وقد كذب كل من قال : إنه رسول بعد رسول الله فقد رضى الله لنا الإسلام ديناً ، ولا إسلام بعد إسلام رسول الله الذى أمرنا الله ـ تعالى ـ باتباعه .

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

(١) سورة النحل الآية ٢
(٢) سورة الشورى الآيتان ٥٢ ، ٥٣
(٣) سورة إبراهيم الآية ١
(٤) سورة النساء ا ١٦٣ ـ ١٦٦
(٥) سورة آل عمران الآية ٤٤
(٦) سورة هود الآية ٤٩
(٧) سورة الانبياء الآية ٢٥
(٨) سورة الجن الآيات : ٢٦ ـ ٢٨
(٩) سورة االأحزاب اية : ٤٠

أحاديث نبوية فى الوحى

قال الإمام مالك ــ رحمه الله ــ عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وَعَيْتُ عنه ما قال ، وأحياناً يأتينى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ فلقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً . أخرجاه فى الصحيحين ولفظه للبخارى .(١)

وقد رواه الطبرانى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ عن الحارث بن هشام ،أنه سأل رسول الله ﷺ كيف ينزل الوحى ؟ فقال ﷺ : « فى مثل صلصلة الجرس فيفصم عنى وقد وعيت ما قال : ــ وقال ــ وهو أشده علىّ ــ قال : وأحيانا يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى فأعى ما يقول » .(٢)

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ « أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض » تفرد به أحمد .(٣)

مبحث فى الوحى

ما هو ؟ .

الوحى بمعناه الشرعى حقيقة يشترك فيها الأنبياء جميعاً ، وهو إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه .

وقد يطلق أيضا على كلام الله المنزل على النبى ﷺ .

وجاء فى تعريف الوحى أيضا عند بعض العلماء أنه عرفان يجده الشخص فى نفسه مع اليقين بأنه من عند الله بواسطة وبغير واسطة .

(١) الحديث فى صحيحه البخارى فى (كتاب بدء الوحى) باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ جـ ١ صـ ٢ ، ٣ وأخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الفضائل) باب : عرق النبى ﷺ فى البرد وحين يأتيه الوحى جـ ٤ صـ ١٨١٦ ، ١٨١٧ رقم ٢٣٣٣/٨٧

(٢) أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير فيما رواه الحارث بن هشام المخزومى جـ ٣ صـ ٢٩٣ رقم ٣٣٤٣ ، ٣٣٤٤ ، ٣٣٤٥

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ــ مسند عبد الله بن عمرو جـ ٢ صـ ٢٢٢

قال الله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسلَ رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ، وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾[١] .

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن انسان أن يكلمه الله إلا وحيا وإنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث :

١ ـــ إما أن يكون وحياً ، بمعنى أنه يلقى الله فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله .

٢ ـــ وإما أن يكون من وراء حجاب ، كما كلم الله موسى ـــ عليه السلام ـــ حين طلب الرؤية ولم يجب إليها ، ولم يطق تجلى الله على الجبل ﴿ **وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين** ﴾[٢] .

٣ ـــ وإما أن يرسل رسولاً ، وهو الملك ﴿ **فيوحىَ بإذنه ما يشاء** ﴾ .

صور الوحى التى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

الأولى : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال ﷺ : « أن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا فى الطلب »[٣] .

والثانية : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها . ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت تردها .

---

(١) سورة الشورى الآيات : ٥١ ـــ ٥٣

(٢) من الآية : ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٣) الحديث فى كشف الخفاء ج ١ صـ ٢٦٨ رقم ٧٠٧ وقال : رواه فى مسند الفردوس عن جابر ، ورواه أبو نعيم والطبرانى عن أبى أمامة والبزار عن حذيفة ، وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود كذا فى فتح البارى .
وفى تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الشورى جـ ١ صـ ٢٠٤ كما جاء فى صحيح ابن حيان .
وفى الحلية لأبى نعيم فى ترجمة أحمد بن أبى الحوارى جـ ١٠ صـ ٢٧

والرابعة : أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين ، كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم ﴿ **علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى** ﴾[1] .

هذه صور الوحى وطرق الاتصال ﴿ **إنه عليم حكيم** ﴾ يوحى من علو ، ويوحى بحكمة إلى من يختار .

قال بعض المحققين : إنه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحى ، أو حديث يتكلم عنه ، لأتأمل هذا الاتصال ، إلا أحسست له رجفة فى أوصالى . كيف .. كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله الأولى الأبدى الذى ليس له حيز فى المكان ، ولا حيز فى الزمان المحيط بكل شيء والذى ليس كمثله شيء . كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله العلى ، وذات الإنسان المتحيزة فى المكان والزمان ، المحدودة بحدود المخلوقات من أبناء الفناء ؟!

ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معانى وكلمات وعبارات ؟ وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأولى الأبدى ، الذى لا حيز له ولا حدود ، ولا شكل له معهود ، وكيف ؟ وكيف ؟ ولكنى أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف ؟ وأنت لا تملك أن تتصور إلا فى حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية ؟!

لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت فى صورة وصار لها وجود . هو الذى تكلم أن تدركه من وجود . ولكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزال ! إن النبوة هذه أمر عظيم حقا . وإن لحظة التلقى هذه لعظيمة حقا . تلقى الذات الإنسانية لوحى من الذات العلوية .

أخى الذى تقرأ هذه الكلمات .. أأنت معى فى هذا التصور ؟! أأنت معى تحاول أن تتصور ؟! هذا الوحى الصادر من هناك . أأقول (هناك) ؟! كلا . إنه ليس هناك (هناك) الصادر من غير مكان ولا زمان ولا حيز ولا حد ولا وجهة ولا ظرف . الصادر من النهائى الأزلى الأبدى ... الصادر عن الله ذى الجلال ... إلى انسان ... انسان .. مهما يكن نبيا رسولا . فإنه هو هذا الانسان ذو الحدود

---

(١) سورة النجم : الآيات : من ٥ ــ ١٥

والقيود هذا الوحى . هذا الاتصال العجيب المعجز الذى لا يملك إلا الله أن يجعله وقعة تتحقق ، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق .

أخى الذى تقرأ هذه الكلمات ، هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارات المتقطعة التى أحاول أن أنقل بها ما يخالج كيانى كله ؟ إنى لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كيانى كله من الروعة والرجفة ، وأنا أحاول لأن أتصور ذلك الحديث العظيم العجيب الخارج فى طبيعته ، والخارق فى صورته ، الذى حدث مرات ومرات ، وأحس بحدوثه ناس رأوا مظاهره رأى العين على عهد رسول الله ﷺ .

وهذه عائشة — رضى الله عنها — تشهد من هذه اللحظات العجيبة فى تاريخ البشرية ،فتروى عن واحدة منها فتقول : قال رسول الله ﷺ « يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام . قلت : وعليه السلام ورحمة الله قالت : وهو يرى ما لا نرى » أخرجه البخارى .[1]

وهذا زيد بن ثابت — رضى الله عنه — يشهد مثل هذه اللحظة ، وفخذ رسول الله ﷺ على فخذه ، وقد جاءه الوحى ، فثقلت حتى كادت ترض فخذه .

وهؤلاء هم الصحابة — رضوان الله عليهم — فى مرات كثيرة يشهدون فيدعونه للوحى ، حتى يسر عنه فيعود إليهم ويعودون إليه . ثم .. أية طبيعة . طبيعة هذه النفس التى تتلقى ذلك الاتصال العلوى الكريم ؟ .

أى : جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذى يتصل بهذا الوحى — ويختلط بذلك العنصر ويتصل مع طبيعته وفحواه ؟

إنها هى الأخرى مسألة ! إنها حقيقة . ولكنها تتراءى هنالك بعيدا عن أفق عال ومرتقى صاعد ، لا تكاد المدارك تتملاه ! روح هذا النبى ﷺ روح هذا الانسان ، كيف يا ترى كانت تحس بهذه الصلة وهذا التلقى ؟

---

(١) أخرجه البخارى — باب : فضائل أصحاب النبى ﷺ باب : فضل عائشة — — رضى الله عنها — جـ د صـ ٣٦ ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب : فضل عائشة جـ ٤ صـ ١٨٩٥ رقم ٢٤٤٧/٩٠

كيف كانت تتفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجسد الوجود فى هذه اللحظات العجيبة التى يتجلى فيها الله على الوجود ، والتى تتجاوب جنباته بكلمات الله ؟

ثم : أية رعاية ؟ وأية رحمة ؟ وأية مكرمة ؟ والله العلى الكبير يتلطف فيعنى بهذه الخليقة الضئيلة المسماة الإنسان ، فيوحى إليها لإصلاح أمرها وإنارة طريقها ، ورد شاردها ، وهى أهون عليه من البعوضة على الإنسان ، حين تقاس إلى ملكه الواسع العريض ؟!

إنها حقيقة ، ولكنها أعلى وأرفع من أن يتصورها الإنسان إلا مطلعا إلى الأفق السامى الوضاء .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾[1] .

يريد الله — تبارك وتعالى — أن يقول لصفوة خلقه : ومثل الوحى الذى أوحيناه إلى الأنبياء السابقين عليك ، أوحينا إليك روحا من أمرنا ، فيه حياة يبث الحياة ويدفعها ، ويحركها وينميها فى القلوب ، وفى الواقع العملى المشهود ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ والمقصود بهذا النص هو اشتمال قلب الحبيب محمد ﷺ على هذه الحقيقة ، حقيقة الكتاب والإيمان ، والشعور بها والتأثر بوجودها فى الضمير ، وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الذى لابس قلب محمد ﷺ ﴿ **ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ .

وهذه طبيعته الخالصة ، طبيعة هذا الوحى هذا الروح ، هذا الكتاب إنه نور ، نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ .

هذا توكيد على تخصيص هذه المسألة ، مسألة الهدى بمشيئة الله — جل شأنه — وتجريدها من كل ملابسة ، وتعليقا بالله وحده ، يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص ، الذى لا يعرفه سواه ، والرسول ﷺ واسطة لتحقيق مشيئة الله ، فهو لا ينشىء الهدى فى القلوب ، ولكنه يبلغ الرسالة ، فتقع مشيئة الله ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فهى

(١) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

الهداية إلى طريق الله الذى تلتقى عنده المسالك ، لأن الطريق إلى المالك ﴿ **الذى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فالذى يهتدى إلى طريقه يهتدى إلى ناموس السموات والأرض ، وقوى السموات والأرض ، إلى مالكها العظيم ، الذى إليه تتجه ، والذى إليه تصير ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾

فكلها تنتهى إليه ، وتلتقى عنده ، وهو يقضى فيها بأمره ، وهذا النور يهدى إلى طريقه ، الذى اختار للعباد أن يسيروا فيه ، ليصيروا إليه فى النهاية مهتدين طائعين .

ومن الجدير بالذكر أن هذه السورة التى ختمت بآيات الوحى قد بدأت بالحديث عن الوحى ، إنها سورة الشورى ، التى بدأها الله تعالى بقوله : ﴿ **حم عسق . كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ لقد كان الوحى محورها الرئيسى ، وقد عالجت قصة الوحى منذ النبوات الأولى لتقرر وحدة الدين ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق ، ولتعلن القيادة الجديدة للبشرية ، ممثلة فى رسالة سيدنا محمد ﷺ وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة ، ولتلقى على عاتق هذه العصبة أمانة القيادة إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز الذى تصلح به القيادة ، وتحمل به هذه الأمانة ، الأمانة التى تنزلت من السماء إلى الأرض ، عن ذلك الطريق العجيب العظيم .

بشائر النبوة

بعد الفراغ من تعريف الوحى ، وأنه حقيقة واقعة ، يشترك فيها جميع الأنبياء فإن للوحى بشائر قبل نزوله ، تبعث الأمن والطمأنينة فى قلب النبى الذى يوحى إليه ألا وهى الرؤيا الصالحة .

عن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ قال : أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحى بعد فى اليقظة .

قد روت عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ فى حديث بدء الوحى أنه أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .[1]

---

(١) أخرجه البخارى فى كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ جـ ١ صـ ٣

شبهات باطلة

ركز المستشرقون جهودهم حول قضية الوحى ، لأنها الأساس الأول فى الإسلام فأخذوا ينفثون سمومهم ، ويثيرون غبار الشبهات حول إثبات الوحى لكى يسلم ما تهواه نفوسهم الرخيصة ، وقلوبهم السقيمة ، ولكن الحق أقوى مما يتصورون وأكبر مما يظنون ، ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾(١) ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾(٢).

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الشبهة والرد عليها ، فإننا نضع بين يدى القارىء الكريم صورة مفصلة عن بدء الوحى ، كما جاء فى كتب السنة الصحيحة ، حتى يكون للقارىء علم يبدأ به هذه القضية التى تعتبر الدعامة الأولى فى صرح العقيدة .

روى الإمام البخارى بصحيحه عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته أنها قالت : « كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد - قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فاجأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : إقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملونى ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة : أى خديجة مالى ؟ فأخبرها الخبر ، قال لقد خشيت على نفسى . قالت له خديجة : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (وهو ابن عم خديجة) وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : أى ابن عم : اسمع من ابن أخيك ، قال ورقة بن نوفل : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه ،

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٨
(٢) سورة سبأ الآية : ٤٩

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى ــ عليه السلام ــ يا ليتنى فيها جزعاً . يا ليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك . قال رسول الله ﷺ : أومخرجى هم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً » .[١]

وهذا الحديث اشتمل على الخطوات التى مر بها رسول الله ﷺ عندما أراد الله ــ تبارك وتعالى ــ أن يبعثه إلى العالمين بشيراً ونذيراً ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا** ﴾[٢] ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾ .[٣]

﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾ .[٤]

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾[٥]

نعم لقد اتصل نور السماء بأرض الصحراء .. وكانت أول خطوة فى الطريق (الرؤيا الصادقة فى المنام) ، فكان ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح جلية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا مراء ولا خفاء ، وظلت هذه الحالة ستة أشهر ، ولذلك فإن الرؤيا الصادقة مع رسول الله ﷺ تعدل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى فى كتاب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ جـ ١ صـ ٣ ، ٤

(٢) سورة الفرقان الآيتان : ١ ، ٢

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٥٨

(٤) سورة سبأ الآية : ٢٨

(٥) سورة الفتح الآيتان : ٢٨ ، ٢٩

بيان ذلك أن الرسول ﷺ استمر ثلاثاً وعشرين سنة يوحى إليه ، فتكون الأشهر الستة تساوى بالنسبة لهذه المدة جزءاً من ستة وأربعين ، ثم انتقل الوحى إلى اللقاء المباشر بين الملك الموكل به وهو الأمين جبريل الذى بيَّن الله وصفه فى قوله : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين** ﴾[1] وفى قوله : ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** ﴾[2] .

وفى قوله تعالى : ﴿ **قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين** ﴾[3] .

وكان اللقاء الأول بين سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء ، وبين المبعوث رحمة للعالمين فى غار حراء ، الذى كان الرسول يخلو فيه متأملا فى رحاب الكون ، مقلبا طرفه فى أرجاء العالم بكواكبه ونجومه ، وأرضه وجباله ونباته وجماده ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، هاتفاً بخالقه ، مردداً آيات الحمد والثناء لرافع السماء بلا عمد ، سبحه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون .

وكان الأمر بالقراءة ، وكان الرسول يقول : ما أنا بقارىء ، وقال له : أمين الوحى (اقرأ باسم ربك الذى خلق)[4] وانطلق الرسول بهذه الآيات يرجف فؤاده من هول ما رأى .

إن هناك طائفة ملائكية شديدة الجذب ، كان جبريل يضمه إليه حتى يبلغ منه الجهد ثم يرسله ويأمره بالقراءة ، وهكذا ، دخل الأمين محمد ﷺ على زوجه الوفية خديجة بنت خويلد يقول لها : زملونى زملونى ، فتبعث إلى قلبه ما يشرح الصدر ، وتريش بجناحها جناحه ، وتقسم له بالله أن الله لا يخزيه أبداً ، وتنطلق به إلى ابن عمها ورقة الرجل الذى قرأ الكتاب الذى أنزل على عيسى ، ورأى فيه البشارات الصادقات ببعثة محمد بن عبد الله ﷺ فيخبر رسول الله أن هذا الملك الذى أنزل عليه هو الذى نزل على موسى قبل ذلك ، وينبئه بأمور ستقع ، فيقول له : ليتنى أكون حياً ! إذ يخرجك قومك ، يقصد هجرته من مكة إلى المدينة ، يسأل الرسول متعجباً « أومخرجى هم ؟ » فيقول له ورقة :

---

(١) سورة التكوير الآيات : ١٩ — ٢١

(٢) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ — ١٩٥

(٣) سورة البقرة الآية : ٩٧

(٤) سورة العلق الآية : ١

نعم ، ثم يبين له السبب وهو أنه ما من أحد يأتى قومه بمثل ما أتى به محمد ﷺ إلا عاداه الناس ، إنه يحمل لواء الحق فلابد أن يصطدم بأصحاب الباطل ، ويتمنى ورقة بن نوفل أن يكون حياً وقت أن يخرجه قومه حتى ينصر النبى ﷺ نصراً عزيزاً مؤزراً .

وهكذا يثبت لنا هذا الحديث الشريف الخطوات الكاملة التى خطاها رسول الله ﷺ على طريق الوحى .

ونستنتج من هذا قاعدة فى العقيدة لابد لكل مسلم أن يعلمها . هذه القاعدة تثبت أنه لا نبوة بلا وحى ، ولا رسالة بدون نبوة ، بهذا نطق القرآن العظيم فى قوله جل شأنه : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً . لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً** ﴾[1] .

ففى هذه الآيات أثبت الله أنه قد أوحى إلى نبيه محمد كما أوحى إلى النبيين من قبله ، وبناء عليه فليس هناك نبوة بدون وحى ، ثم أثبت القرآن أن هناك رسلاً من هؤلاء الأنبياء جاءوا مبشرين ومنذرين ، ليقطع المعاذير والحجج ، فإذا كان ذلك كذلك فإن النبوة أوسع من دائرة الرسالة ، فكل رسول لابد أن يكون نبياً ، وإذا كان الحبيب محمد قد ختم النبوة ، وهى الأعم فإنه يلزم على ذلك لزوماً حتمياً أن يختم الرسالة وهى الأخص ، ولذا فإنه لا أساس من الصحة لقول من قال : إن هناك رسالة بعد رسول الله ﷺ ، لأن الوحى لم ينزل على أحد بعده ، وحيث لا وحى فلا نبوة وحيث لا نبوة فلا رسالة .

وإذا كان ﷺ رسول الله وخاتم النبيين ، فهو رسول الله وخاتم المرسلين أيضا ، لأن دائرة المرسلين مندرجة تحت دائرة النبيين فلا نبوة بلا وحى ، ولا رسالة بلا نبوة ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليماً** ﴾[2]

---

(١) سورة النساء الآيات : ١٦٣ — ١٦٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٤٠

ماذا قالوا عن الوحى ؟

والآن نبدأ فى عرض شبه المبطلين الذين هاجت صدورهم بعقارب البغضاء فنقول لهم : إن الرسول ﷺ نبى ثبتت نبوته ثبوتاً قطعياً ، وتضافرت على ذلك الأدلة التى لا مراء فيها ، وعلى رأسها الكتاب الخالد الذى تعهد الله بحفظه فى قوله : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[١] .

فهو الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يذهب إلى أستاذ ، ولم يجلس أمام فيلسوف ، فنزول هذا الكتاب عليه بما اشتمله من قصص السابقين فى القرون الأولى ، ومن الوعد والوعيد والأنباء بالغيب ، والنظم الفريدة التى اشتملت الحياة كلها من شتى نواحيها ، والدعوة الخالصة لإصلاح الفرد والمجتمع ، وهو الأمى ، دليل قاطع على أنه الصادق الأمين قال تعالى : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾[٢] .

لما لم يجد أعداء الرسول فى حياته ، ولا فى أخلاقه ، ما يمكنهم من الطعن فيه ، جندوا أقلامهم ، وجمعوا صحفهم ، ليفتروا على الله ورسوله الكذب ، فيقولون : كان قسًّا رومانيا غضب لأنه لم ينتخب لكرسى البابوية ، وأنه وهو الفيلسوف الحكيم ، عز عليه ذلك ، ولم يشأ أن يصبح شيخاً لقبيلته ، أو رئيساً لأمته ، إنما أراد أن يكون إلهاً أو فى مصاف الآلهة !!!

ومما يثبت كذب هذا الافتراء أن محمداً جاء برسالته فى وقت تناحرت فيه الفرق الدينية ، وتشعبت المعتقدات ، وتناول البعض الرسالات الدينية السابقة بالتحريف والتغيير ، وبلغ الأمر إلى الارتفاع بالأنبياء إلى مقام الألوهية ، فلو كان محمداً يرجو مجداً دنيوياً لوجد البيئة الصالحة لذلك ، ولكنه كان يتلوا عليهم قرآن الله الذى يقول :

﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ إنما إلٰهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[٣] .

﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ إنما إلٰهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين** ﴾[٤] .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩

(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩

(٣) سورة الكهف الآية : ١١٠

(٤) سورة فصلت الآية : ٨

ويحسم الرسول الأمين الأمر حسماً فيقول فى حديثه الشريف : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، فإنما أنا عبد الله ورسوله ، فقولوا عبد الله ورسوله »[٣] .

فهل بعد ذلك يستقيم قول قائل : إنه كان يريد مجداً أو كان يريد أن ينصب نفسه إلهاً ؟

تهمة باطلة

ويتمادى أعداء الله فى غيهم وبهتانهم فيزعمون أن رسول الله ﷺ كان مريضاً بالصرع ، وأن ظواهر الوحى التى كانت تعتريه ما هى إلا نوبات الصرع ، ثم يزيدون افتراءهم بهتاناً وإثماً مبيناً ، فيقولون : إنه كان يسمع كلاماً أثناء نوبات الصرع ، سمى بعد ذلك قرآناً .

هذه فرية فيها ما فيها :

إن ما قالوه : كلام سخيف لا أساس له من الصحة ، وهراء باطل لا نصيب له من الحقيقة العلمية ، ولذلك فإننا عندما نوجه شمس الحقيقة على هذه الخرافات ، فإنها ستبدد ظلماءها الداكنة ، لتبدو الحقيقة جلية واضحة لا يعتريها لبس ، ولا يعتريها غموض ولا شك .

يرد الدكتور (يحيى طاهر) أخصائى وأستاذ الأمراض العصبية بكلية طب ومستشفى قصر العينى بجامعة القاهرة على الفرية فيقول :

« لقد أراد بعض الناس أن يطعنوا الدين الإسلامى فى شخص الرسول ﷺ فقالوا : إن النبى محمداً كان مريضاً بالصرع ، وإن الوحى الذى كان ينزل على الرسول بالقرآن ما هو إلا نوبات صرعية كان يسمع أثناءها كلاماً ردده ليصبح قرآناً .

والذى يدرس الصرع من أى ناحية من نواحيه الطبية ، أو العلمية ، أو الفسيولوجية يتبين له جسامة هذا الافتراء ، إذ أن النوبات الصرعية ليست نوبات نفسية كما يتبادر إلى الذهن ، ولكنها ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية فى المخ بدليل أنه أمكن تسجيل تغيرات كهربائية فى المخ أثناء تلك النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجي .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب بدء الخلق) باب : واذكر فى الكتاب مريم جـ ٤ صـ ٢٠٤ .

ومن المعروف أن هناك مظاهر خارجية عديدة ومختلفة للنوبات الصرعية ، وذلك تبعا لمراكز المخ التى تبدأ فيها التغيرات الكهربائية ، وطريقة وسرعة انتشارها ، فإذا بدأت فى مراكز الحركة كانت النوبة على شكل تقلصات أو تشنجات عضلية ، وإذا بدأت فى مراكز الإحساس كانت النوبة على شكل إحساسات مختلفة ، وإذا بدأت فى مراكز الإبصار كانت النوبة على شكل ذكريات أو أحلام وهكذا . ويكفى أن نشرح نوعاً واحداً من النوبات الصرعية الذى يشتبه أن يكون هو النوع الذى قيل عنه أن النبى ﷺ كان مصاباً به ، ألا وهو النوبات الصرعية النفسية .

ففى هذه النوبات الصرعية يكون التغير العقلى هو المظهر الأساسى للنوبة ولا يفقد المريض شعوره تماماً ، كما فى الأنواع الأخرى من النوبات ، ويمكنه إلى حد ما تذكر التجارب النفسية التى حدثت له أثناء النوبة بعد انتهائها ، وتكون هذه التجارب النفسية التى تمر بالمريض أثناء النوبة إما على شكل انفعالات مثل الخوف ، أو على شكل تفكير فى اتجاه معين كأن يردد المريض فى ذهنه « يجب أن أقول لفلان كذا وكذا » ، أو على شكل خيالات أو هلاوس ، وفى هذه الحالة تمر بذهن المريض ذكريات أو أحلام مرتبة ، أو سمعية ، أو الاثنان معاً ، ومن أمثلة الهلاوس المرئية ما قالته مريضة : أنها ترى أثناء النوبة شبحاً أسود يهددها ، ولا يمكنها أن تتبين ملامحه وصورته ، وتتكرر بنفس الشكل فى جميع النوبات .

ومن أمثلة الهلاوس السمعية ما قالته مريضة : إنها تسمع أصواتاً قادمة من الجهة اليمنى ، ولكنها ليست أصوات أطفالها ، كما أنها تسمع فى نوبات أخرى : قطعة موسيقية تظن أنها قادمة من المذياع الموضوع فى حجرة الجلوس ... من ذلك نرى أن الأحلام والهلاوس التى تمر بذهن المريض فى أثناء النوبة الصرعية ما هى إلا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالإنسان ، أو فكر فيها ، ثم حفظت فى ثنايا المخ ، وقد ثبت ذلك علمياً بأن نبهت مراكز المخ المصابة بتيار كهربائى من الخارج فشعر المريض بنفس الهلاوس التى تنتابه أثناء النوبة الصرعية ، كما نرى من الأمثلة التى ذكرت أن الهلاوس تتكرر بنفس الشكل بتكرار النوبات ، وقد يكون هناك أكثر من نوع واحد من الهلاوس فى المريض الواحد ، ولكنها تتكرر وكلها أو بعضها بالشكل نفسه ، كذلك نرى : أن المريض يتذكر التجارب النفسية التى مرت به أثناء النوبة عامة ، ولا يمكنه أن يتذكر التفاصيل ، أو أن يصف ما مر به فى أثناء النوبة وصفاً دقيقاً » .

ثم يستطرد الدكتور يحيى طاهر قائلاً : « إنه بتطبيق ما وصلنا إليه من هذا العرض السريع للصرع على الافتراء الذى يفتريه خصوم الإسلام على الوحى الذى أنزل على سيدنا محمد ﷺ نجد أن الهلاوس والأحلام التى تمر بذهن المريض بالصرع ما هى إلا أجزاء من ذكريات قديمة نبهتها النوبة ، ولا يمكن

للمريض بالصرع أن يؤلف أثناء النوبة شيئا ، فكيف بالقوانين والآداب والقصص ، والعلوم وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم ؟

كذلك لا يمكن أن تتحسن لغة المريض بالصرع أثناء النوبة أو بعدها ، لأن هذا التحسن يحتاج إلى تعليم ، أما الصرع فهو ارتباك مفاجىء فى كهرباء المخ ووظيفته ، وقد نزل القرآن بلغة عربية فصحى لم يتعلمها النبى ﷺ قبل الرسالة .

فهل يمكن أن يقال ، بعد هذا العرض العلمى البحت : أن القرآن ما هو إلا هلاوس رجل مصروع ؟!! سبحانك هذا بهتان عظيم ، وقد كذبوا ورب الكعبة ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً** ﴾[1] .

أما بعد .. فقد تبين لنا بالعلم الصحيح ، والحقائق الثابتة أن هذه الشبهة التى وجهوها إلى الوحى قد اجتثت من أصلها ، كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

سبحانك ربى يا من قلت : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾[2] .

ويا من قلت لحبيبك محمد ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** ﴾[3] .

ويا من قلت له : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾[4] .

ويا من تحديت العالم أجمع فقلت : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾[5] .

وقلت للمعاندين : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾[6] .

---

(١) سورة الكهف من الآية : ٥
(٢) سورة الإسراء الآيتان : ٨٨ ، ٨٩
(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٩٢ ــ ١٩٥
(٤) سورة النمل الآية : ٦
(٥) سورة الطور الآية : ٣٤
(٦) سورة البقرة الآية : ٢٣

كيف يتفق هذا التحدى مع الفرية القائلة إنه هلوسة مصروع ؟ وهل تقوى الهلاوس والخرافات أن تنزل ميدان التحدى الصارخ ؟ والله إنها الأباطيل والأكاذيب ، لا حياة لها ولا قرار ، أمام صولة الحق ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾[١] .

وينتقل بنا الحديث بعد ذلك فى هذا الصدد إلى أستاذ أوروبى هو ر . ر . ف بودلى فى كتابه : حياة الرسول محمد . يقول فى هذا الشأن : « يذكر الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق منه ، وقد زخر عقله بأفكار لامعة ، وإنه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها محمد ، حتى قبل مماته بأسبوع واحد ، وما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً ، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً ، وكان من تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً ، أو به مس من الجن ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد » .

ونخلص مما تقدم : إلى ما قاله الدكتور يحيى طاهر : من حقائق عن الصرع على ما كان يعترى سيدنا رسول الله ﷺ نجده يختلف أصلاً وظاهراً عنه ، ويقرر بشكل قاطع أن ما كان يعترى الرسول إنما هو وحى الله ــ جل شأنه ــ ، فإن الحقائق العلمية الطبية تثبت أن الهلاوس التى يراها أو يسمعها المريض أثناء نوبته ، لابد أن يكون قد رآها أو سمعها فى طفولته أو شبابه ، أو قبل مرضه ، فهل كان الرسول ﷺ قد رأى الأقوام قبل عصر الإسلام ، وعاش بينهم واستمع إلى أحاديث الرسل والأنبياء السابقين ، فردد مثل آيات القرآن الكريم التى بلغت قمة السمو ، وعلو الطبقة فى الإعجاز المطلق ، مثل قوله تعالى حاكياً عن نبى الله نوح : ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾[٢] إلى أن تنتهى هذه المشاهد بشأن نوح فى قوله تعالى : ﴿ **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾[٣] .

هل كان رسول الله ﷺ مع نبى الله نوح وعاصره وخالطه ، ثم ردد هذه الوقائع والذكريات فى نوبات الصرع ! كلا .. وألف لا ، إنه الوحى كما قال تعالى فى نهاية قصة نوح : ﴿ **تلك من أنباء**

---

(١) سورة سبأ الآية : ٤٩

(٢) سورة هود الآيتان : ٣٨ ، ٣٩

(٣) سورة هود الآية : ٤٨

الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[١] .

وهل كان صلوات الله وسلامه عليه مع يوسف وإخوته ، وما دار فى هذه القصة من أحداث ووقائع من أول قوله تعالى : ﴿ **إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** ﴾[٢] إلى أن تنتهى القصة بقوله جل شأنه على لسان يوسف ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين** ﴾[٣] .

هل كان رسول الله ﷺ مع يوسف وإخوته حتى ردد هذه الذكريات فى نوبة من نوبات الصرع ؟ كلا .. ثم كلا .. إنه الوحى الذى قال فيه مولانا تعقيبا على قصة يوسف ــ عليه السلام ــ موجها الخطاب للرسول الكريم : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾[٣] .

وهل كان ﷺ مع آل عمران وما جرى فى هذه القصة من أحداث ووقائع ، بدأت بقوله تعالى : ﴿ **إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم** ﴾[٤] إلى أن انتهت القصة بقوله تعالى : ﴿ **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ﴾[٥] .

هل كان الرسول الكريم معاصراً لتلك الأحداث ، حتى ظهرت هذه الذكريات عليه فى حالة من نوبات الصرع ؟ كلا .. ثم كلا .. إنه الوحى كما قال تعالى تعقيبا على قصة آل عمران : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾[٦] من الذى علم هذا الأمى أخبار السابقين وقصص الأنبياء المكرمين وهو الذى لم يختلف إلى أستاذ ، ولم يذهب إلى جامعة ؟ وإذا كان الصرع ترديداً لذكريات مضت تنتاب المريض

---

(١) سورة هود الآية : ٤٩
(٢) سورة يوسف الآية : ٤
(٣) سورة يوسف الآية : ١٠١ والآية : ١٠٢
(٤) سورة آل عمران الآية : ٣٥
(٥) سورة آل عمران الآية : ٤٣
(٦) سورة آل عمران الآية : ٤٤

فى نوبة من نوباته ، فهل يتفق هذا مع الإنباء بما سيحدث فى المستقبل فى مثل قوله جل شأنه : ﴿ **آلم غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾[1] .

وهل يتفق هذا مع الإخبار بما سيقع من مشاهد القيامة من بعث وجزاء وحساب ونعيم وعذاب ؟ أين نوبات الصرع من هذا الوحى الذى نزل به الروح الأمين جبريل ؟ صدقت يا رب العزة إذ تقول وقولك الحق : ﴿ **والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾[2] .

هذا المشهد القرآنى الرائع البديع ، يثبت حقيقة الوحى ثبوتاً لا مراء فيه ، ولا لبس ولا جدال ولا غموض ، وينفى أى ضلال ، أو غواية ، أو زيغ أو بهتان . عن المعصوم صاحب الرسالة الطاهرة ، ويثبت أنه قد رأى الأمين جبريل مرتين ، وهو على صورته الملائكية ، يقول فى المرة الأولى : (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

فهذه أوصاف لأمين الوحى ، وسفير الأنبياء جبريل ، فهو شديد القوى ، شديد البأس ، ينتقم الله به من أعدائه ، فيزلزل الأرض تحت أقدامهم ، فتأخذهم الرجفة ، وإذا هم أعجاز نخل خاوية ، وجبريل ذو مرة أى ذو هيئة جميلة ، وذو قوة متينة ، استوى فى الأفق الأعلى بهيئته الملائكية الجليلة ، ولما استقر فى الآفاق ، دنا وقرب وتدلى هابطا ، حتى ازداد قربا من رسول الله ﷺ ، وصارت المسافة بينه وبين الحبيب المصطفى ﷺ أقل من مقدار قوسين ، وأوحى إلى رسول الله ﷺ ما أوحاه الله ، وأمر بتبليغه إياه . هذه كانت المرة الأولى من المرتين اللتين رأى الرسول ﷺ فيهما جبريل بهيئته الملائكية .

وكانت المرة الثانية : ليلة المعراج عند سدرة المنتهى ، وفيها يقول تعالى : ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى** ﴾ أى : مرة أخرى ﴿ **عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى** ﴾ وذلك فى العالم العلوى ،

---

(١) سورة الروم الآيات : ١ ــ ٥

(٢) سورة سورة النجم الآيات : ١ ــ ١٨

والملأ الملائكى ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ من النور والبهاء والجلال ، كان الرسول ثابت البصر ، ملتزما الحدود التى رسمها الله له ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ إنها آيات الجلال والكمال والعظمة والقدرة الباهرة .

وهكذا أثبتت هذه الآيات الكريمة المشهدين اللذين ظهر فيهما كبير أمناء وحى السماء ، وسفير الأنبياء ، فى صورته الملائكية الجليلة .

لقاء آخر مع جبريل

ونرى من تمام الفائدة أن نسجل هذا المشهد الذى يتم فيه لقاء كريم بين جبريل الأمين ، والسيد الجليل محمد ﷺ وكان ذلك على مرأى ومسمع من عدد من صحابة رسول الله ﷺ وقد دخل جبريل فى صورة بشر ، جميل الهيئة ، بديع الرؤية ، والصحابة حول رسول الله ﷺ يحيطون به إحاطة الكواكب الدرية بصاحب الرسالة ، ومبعوث العناية الإلهية . وها نحن أولاء نستمع إلى الإمام مسلم رضى الله عنه وهو يروى لنا هذا الحديث الجليل القدر ، العظيم الأثر ، الذى وقف الأمين جبريل فيه موقف السائل ، ووقف سيدنا محمد ﷺ موقف الأستاذ المجيب :

عن عبد الله بن عمر قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، قال يا محمد : أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم .. قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »[1] .

(١) أخرجه مسلم فى (كتاب الإيمان) باب : بين الإيمان والإسلام والاحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى .. جـ ١ صـ ٣٧ ، ٣٨

هذا نص صريح وحديث صحيح ، يدل دلالة قاطعة على أن الوحى حقيقة ، شهد بها الجمع الغفير الذى رأى الأمين جبريل رؤية لا يعتريها شك ، ولا يطرأ عليها لبس ، رأوه فى أى صورة ؟ فى صورة بشرية جميلة ، عبر عنها عملاق الإسلام عمر بن الخطاب يقول : « طلع علينا » وفى التعبير « بطلع » إشارة إلى أن ذلك الذى رأوه يشبه فى جماله الكواكب النيرة ، كالشمس والقمر ، ثم بعد ذلك وصفه بقوله : « شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر » فهذه المواصفات تدل على ثقة الرائى للمرئى رؤية واضحة ، وضوح الشمس فى كبد السماء ، إنها الحقائق الثابتة التى لا يجادل فيها إلا مكابر لم يصل نور الإيمان إلى قلبه ، ولم يشرح للإسلام صدره .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يوحى إليك النور فى ظلمائه ... متتابعا تجلى به الظلماء
والآى تترى والخوارق جمة ... جبريل رواح بها غداء
دين يشيد آية فى آية ... لبناته السورات والأضواء
الحق هو الأساس وكيف لا ... والله جل جلاله البناء

رؤيا الأنبياء وحى

من الأشياء التى يجب على المؤمن أن يعتقدها أن رؤيا الأنبياء فى منامهم وحى من الله إليهم ، ولقد ذكر القرآن العظيم نماذج من هذه الرؤيا فها هو خليل الرحمن إبراهيم يبشر بغلام حليم ، ثم يرى فى المنام أنه يذبحه بعد ما بلغ معه السعى ، فيصحبه لينفذ أمر الله فيه ، فلو لم تكن الرؤيا وحيا ما عزم إبراهيم على تنفيذ الأمر .

وهذا هو المشهد القرآنى ينطق بالجلال ويفيض بالرحمة .

﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ﴾[1] .

نموذج آخر :

---

(١) سورة الصافات الآيات : ٩٩ ــ ١٠٧

ويحدثنا القرآن عن رؤيا رآها سيدنا محمد ﷺ ونفذها ، رأى فى المنام أنه يزور بيت الله الحرام معتمراً ، وأعلن ذلك فى صفوف أصحابه فخرجوا معه ولبوا نداءه ؟ وطافوا بالبيت الحرام ، وفى هذا يقول تعالى : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ . أ . هـ[1]

(من كتابنا : صور من عظمة الاسلام) .

بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاء ذاتياً من نفس محمد ﷺ

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز : فى كتابه القيم (النبأ العظيم) .

إن صاحب هذا الخلق العظيم وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن ، ما كان ينبغى لأحد أن يمترى فى صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب ، وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البرىء دليلاً آخر على صراحته وتواضعه .

على أن الأمر أمامنا أوضح من أن يحتاج إلى سماع هذا الاعتراف القولى منه أو يتوقف على دراسة تلك الناحية الخلقية من تاريخه .

أليس يكفى للحكم ببراءة الإنسان من تحمل من الأعمال أن يقوم من طبيعته شاهد بعجزه المادى عن انتاج ذلك العمل ؟

فلينظر العاقل : هل كان هذا النبى الأمى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أهلاً بمقتضى وسائله العلمية لأن يجيش نفسه بتلك المعانى القرآنية ؟

سيقول الجهلاء من الملحدين : نعم ، فقد كان له من ذكائه الفطرى وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء ، والحسن والقبيح من الأخلاق ، والخير والشر من الأفعال ، حتى لو أن شيئا فى السماء تناله الفِراسة أو تلهمه الفطرة أو توحى به الفكرة لتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل وتأملاته الصادقة .

(١) سورة سورة الفتح الآية : ٢٧

طبيعة المعانى القرآنية ليست مما يدرك بالذكاء وصدق الفراسة .

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله . ولكننا نسأل هل كان ما فى القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير ، ومما يدركه الوجدان والشعور ؟ اللهم كلا ، ففى القرآن جانب كبير من المعانى النقلية البحتة التى لا مجال فيها للذكاء والاستنباط ، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقى والعلم . ماذا يقولون فيما **قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق ، ومافصله من تلك الأنباء على وجهه** الصحيح كما وقع ؟ أيقولون إن التاريخ يمكن وضعه أيضا بإعمال الفكر ودقة الفراسة ؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون : إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية ، وتنقل فيها **قروناً** فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان ، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين فى علم دقائقها ؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه عليه السلام لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم** ﴾[1] سورة آل عمران ﴿ **وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾[2] سورة يوسف ﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾[3] الآيات من سورة القصص ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون** ﴾[4] سورة العنكبوت ، ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** ﴾[5] سورة هود ، ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾[6] سورة يوسف . لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير فى ديارِ عاد وثمود ، وطوفان نوح ، وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين ، فإن هذه النتف اليسيرة قلما تغرب عن أحد من أهل البدو أو الحضر ، لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأفعال ، وإنما الشأن فى تلك التفاصيل الدقيقة ، والكنوز المدفونة فى بطون الكتب فذلك هو العلم النفيس الذى لم تنله يد الأميين ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين . وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرراً فى القرآن . حتى الأرقام طبق الأرقام ، فترى مثلاً فى قصة نوح ـــ عليه السلام ـــ فى القرآن أنه لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ٤٤

(٢) سورة سورة يوسف من الآية : ١٠٢

(٣) سورة القصص من الآية : ٤٤

(٤) سورة سورة العنكبوت الآية : ٤٨

(٥) سورة هود من الآية : ٤٩

(٦) سورة يوسف الآية : ٣

وترى فى قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب إنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية ، وفى القرآن أنهم لبثوا فى كهفهم ﴿ **ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً** ﴾ وهذه السنون التسع هى فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية . قاله الزجاج يعنى بتكميل الكسر . فانظر إلى هذا الحساب الدقيق فى أمة أمية لا تكتب ولا تحسب

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

نعم إنها لعجيبة حقاً : رجل أمي بين أظهر قوم أميين . يحضر مشاهدهم فى غير الباطل والفجور — ويعيش معيشتهم مشغولا برزق نفسه وزوجه وأولاده راعيا بالأجر ، أو تاجراً بالأجر ، لا صلة له بالعلم والعلماء ، يقضى فى هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره ، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها ، فيكلمنا بما لا عهد له به فى سالف حياته وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه من قبل ذلك ، ويبدى لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم فى دفاترهم وقماطرهم . أفى مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره ؟ أىّ منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمى نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية ؟ إنه لا مناص فى قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفرى سر آخر يُلتمس خارجا عن حدود النفس ، وعن دائرة المعلومات القديمة ، وأن ملاحدة الجاهلية وهم أحلاف الأعراب فى البادية كانوا فى الجملة أصدق تعليلا لهذه الظاهرة ، وأقرب فهما لهذا السر من ملاحدة هذا العصر . إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء : إنه استقى هذه الأخبار من وحى نفسه ، بل قالوا : إنه لابد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة ، فدرس منها ما لم يكن قد درس ، وتعلم ما لم يكن يعلم . ﴿ **وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست** ﴾[1] سورة الأنعام ﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا** ﴾[2] سورة الفرقان .

ولقد صدقوا ، فإنه درسها ، ولكن على أستاذه الروح الأمين . واكتتبها ،ولكن من صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة كرام بررة ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون** ﴾[3] سورة يونس .

ذلك شأن ما فى القرآن من الأنباء التاريخية ، لا جدال فى أن سبيلها النقل لا العقل ، وأنها تجىء من خارج النفس لا من داخلها .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٥

(٢) سورة الفرقان الآية : ٥

(٣) سورة يونس الآية : ١٦

فأما سائر العلوم القرآنية فقد يقال : إنها من نوع ما يدرك بالعقل ، فيمكن أن ينالها الذكى بالفِرَاسَةِ ، أو بالرؤية . وهذا كلام قد يلوح حقاً فى بادىء الأمر ، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختيار .

ذلك أن العقول البشرية لها فى إدراك الأشياء طريق معين تسلكه ، وحدّ محدود تقف عنده ، ولا تتجاوزه ، فكل شىء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة ولم يكن مركوزاً فى غريزة النفس إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول ، إما بسرعة كما فى الحدْس وإما ببطء كما فى الاستدلال والاستنباط والمقايسة ، وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات ، لا يمكن أن تناله يد العاقل بحال ، وإنما سبيله الإلهام أو النقل عمن جاءه ذلك الإلهام .

فهل ما فى القرآن من المعانى غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات فى نظر العقل ؟ ذلك ما سيأتيك نبؤه بعد حين . ولكننا نعجِّل لك الآن بمثالين من تلك المعانى نكتفى بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد :

« **أحدهما** » : قسم العقائد الدينية « **والثانى** » قسم النبوءات الغيبية

الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها

فأما أمر الدين فإن غاية ما يجتنيه العقل من عمرات بحثه المستقل فيه ، بعد معاونة الفطرة السليمة له ، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلٰهاً قاهراً دبره ، وأنه لم يخلقه باطلا ، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة . فلابد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شراً . هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين ، ولكن القرآن لا يقف فى جانبه عند هذه المرحلة بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة ، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته ، ويصف الجنة وأنواع نعيمها ، والنار وألوان عذابها ، كأنهما رأى عين ،حتى أنه ليحصى عدة الأبواب ، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب ، فعلى أى نظرية عقلية بينت تلك المعلومات الحسابية ، وتلك الأوصاف التحديدية ؟ إن ذلك ما لا يوحى به العقل البتة ، بل هو إما باطل فيكون من وحى الخيال والتخمين ، وإما حق ، فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين ، لكنه الحق الذى شهدت به الكتب واستيقنه أهلها ﴿ **وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً** ﴾[1] ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾[2]

---

(١) سورة المدثر من الآية : ٣١

(٢) سورة الشورى من الآية : ٥٢

﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾[١] ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾[٢]

أنباء المستقبل لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحى الصادق

وأما النبوءات الغيبية :

فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل ؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحاً يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة ، جاعلاً الشاهد من هذه مقياساً للغائب من تلك ، ثم يصدر فيها حكمه محاطا بكل تحفظ وحذر ، قائلاً : « ذلك ما تقضى به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها ، ولايقع ما ليس فى الحسبان » .

أما أن يبت الحكم بتاً ويحدده تحديداً حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية ، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين : إما رجل مجازف لا يبالى أن يقول الناس فيه صدق أو كذب ، وذلك هو رأى جهلاء المتنبئين من العرَّافين والمنجِّمين ، وإما رجل اتخذ عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده ، وتلك هى سنة الأنبياء والمرسلين ، ولا ثالث لهما إلا رجلاً روى أخباره عن واحد منهما . فأى الرجلين تراه فى صاحب هذا القرآن حينما يجىء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع فى أعوام ، وما سيكون أبد الدهر ، وما لن يكون أبد الدهر ؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم ، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتقحم ، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطا من الصدق والكذب ، والصواب والخطأ ، بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه ، يجيئه عفواً ما تعجز صروف الدهر وتقلباته فى الأحقاب المتطاولة أن تنقص حرفاً واحداً مما ينبىء به ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[٣]

---

(١) سورة ص الآية : ٦٩

(٢) سورة يونس الآية : ٣٧

(٣) سورة فصلت الآية : ٤١ والآية : ٤٢

أمثلة من النبوءة القرآنية

ولنسرد لك ها هنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابستها التاريخية ، لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحى به الفراسة والألمعية ؟ وسنحصر الكلام فى ثلاثة أنواع :

١ ــ ما يتعلق بمستقبل الإسلام فى نفسه أو فى شخص كتابه ونبيه .

٢ ، ٣ ــ ما يتعلق بمستقبل الحزبين : حزب الله وحزب الشيطان .

(**مثال النوع الأول**) ما جاء فى بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود ، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته .

﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾(1) **﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾**(2) **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾**(3) تعلم متى وأن صدرت هذه البشارات المؤكدة ، بل العهود الوثيقة ؟ .

إنها آيات مكية من سور مكية ، وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية فى مكة ثلاث عشرة سنة كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآنه ، وصد لغزوهم عن الإصغاء له ، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التى آمنت به ، ثم مقاطعة له ولعشيرته ، ومحاصرته مدة غير يسيرة فى شعب من شعاب مكة ، ثم مؤامرات سرية ، أو علنية على قتله أو نفيه .

فهل للمرء أن يلمح فى ثنايا هذا الليل الحالك الذى طوله ثلاث عشرة سنة، شعاعا ولو ضئيلاً من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين ، برفع صوتهم وإعلان دعوتهم ؟ **ولو شاء المصلح** تلك البارقة من الأمل فى جوانب نفسه من طبيعة دعوته ، لا فى أفق الحوادث ، **فهل يتفق له فى مثل** هذه الظروف أن يربو فى نفسه الأمل حتى يصير حكماً قاطعاً ؟ **وهبه امتلأ رجاء بظهور دعوته فى**

(1) سورة الرعد الآية : ١٧

(2) سورة إبراهيم الآية : ٢٤

(3) سورة الحجر الآية : ٩

حياته مادام يتعهدها بنفسه ، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية ؟ وكيف يجيئه اليقين فى ذلك وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت فى عضد هذا اليقين ؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح . وكم من مدينة قامت فى التاريخ ثم عفت ودرست آثارها ، وكم من نبى قتل . وكم من كتاب فقد ، أو انتُقص أو بُدل .

وهل كان محمد ﷺ ممن تستخفه الآمال فيجرى مع الخيال ؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع فى أن يكون نبيا يوحى إليه ﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك** ﴾[1] . ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحى محفوظاً لديه ﴿ **ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا إلا رحمة من ربك. إن فضله كان عليك كبيراً** ﴾[2] . فلابد إذاً من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه . ومن ذا الذى يملك هذا الضمان **على الدهر المنقلب المملوء بالمفاجآت ؟ إلا رب الدهر الذى بيده زمام الحوادث كلها ، والذى قدر مبدأها** ومنتهاها ، وأحاط علماً بمجراها ومرساها فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما فى الآية الآنفة لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التى أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن .

سل التاريخ ؟

كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام ، وتسلط الفجار على المسلمين ، فأثخنوا فيهم القتل ، وأكرهوا أمماً على الكفر ، وأحرقوا الكتب ، وهدموا المساجد وصنعوا ما كان يكفى القليل منه لضياع هذا القرآن كلاً أو بعضاً ، كما فُعل بالكتب قبله ، لولا أن يد العناية تحرسه فبقى فى وسط هذه المعامع رافعاً راياته وأعلامه . حافظاً آياته وأحكامه . بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق فى كل عام لمحو هذا القرآن ، وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان ، والخداع والإغراء ، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون** ﴾[3] .

ذلك بأن الذى يمسكه أن يزول هو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا .

ذلك بأن الله ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[4] .

---

(١) سورة القصص من الآية : ٨٦

(٢) سورة الإسراء الآيتان : ٨٦ ، ٨٧

(٣) سورة سورة الأنفال من الآية : ٣٦

(٤) سورة سورة الصف الآية : ٩

والله بالغ أمره ، ومتم نوره ، فظهر وسيبقى ظاهراً لا يضره من خالفه حتى يأتى أمر الله .

(**مثال آخر**) ما جاء فى التحدى بهذا القرآن وتعجيز العالم كله عن الإتيان بمثله . ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾[1] . ﴿ **فإن لم تفعلوا** ﴾ سورة البقرة . فانظر هذا النفى المؤكد ، بل الحكم المؤبد هل يستطيع عربى يدرى ما يقول أن يصدر هذا الحكم وهو يعلم أن مجال المساجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه ؟ وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية فى تعقب قول القائل المتقدم لا يُعييه أن يجد فيه فائتا ليستدرك ؟ أو ناقصا ليكمل ؟ أو كاملاً ليزداد كمالاً ؟ ألم يكن يخشى بهذا التحدى أن يثير حميتهم الأدبية فيهبوا لمناقشته وهم جميع حذرون ؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب ، كما كانوا يصنعون فى نقد الشعر فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم ، وهكذا ، حتى يخرجوا كلاماً له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره ، فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة ، بل على الإنس والجن ؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها إلا رجل يعرف قدر نفسه إلا وهو مالىء يديه من تصاريف القضاء ، وخبر السماء ، وهكذا رماها بين أظهر العالم ، فكانت هى القضاء المبرم سلطاً على العقول والأفواه ، فلم يهم بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح ، والفشل الفاضح ، على مر العصور والدهور .

(**ومثال ثالث**)

تلك الآية التى يضمن الله بها لنبيه حماية شخصه والأمن على حياته حتى يبلغ رسالات ربه : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾[2] إن هذا وأيم الله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان ملكاً محجباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه . فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة وهم فى مواكبهم تحيط بهم الجنود والأعوان ، ولكن انظر مبلغ ثقة الرسول بهذا الوعد الحق . روى الترمذى والحاكم عن عائشة ، وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال : « كان النبى يُحرَس بالليل . فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله »[3].

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٨

(٢) سورة المائدة من الآية : ٦٧

(٣) أخرجه الترمذى فى (كتاب أبواب التفسير) تفسير سورة المائدة . وانظر تحفة الأحوذى : ٨ / ٤١٠ ، ٤١١ .
وأخرجه الحاكم فى المستدرك : فى (كتاب التفسير) ٢٠ / ٣١٣ وانظر تفسير الطبرى الأثر ١٢٢٧٤ : ١٠ / ٤٦٩
وانظر الحديث الذى أخرجه الطبرانى وابن مروان عن أبى سعيد فى الدر المنثور فى تفسير المأثور ـــ تفسير سورة المائدة جـ ٣ صـ ١١٨

وحقاً لقد عصمه الله فى مواطن كثيرة ، كان خطر الموت فيها أقرب إليه من شراك نعله ، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده .

من ذلك ما رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة ، ورواه مسلم فى صحيحه عن جابر قال : « كنا إذا أتينا فى سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرّقاع نزل نبى الله تحت شجرة وعلّق سيفه فيها . فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبى ﷺ : أتخافنى ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله يمنعنى منك . ضع السيف « فوضعه » . وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان فى الغزوة التى شرعت فيها صلاة الخوف[1] .

ومن أعظم الوقائع تصديقاً لهذا النبأ الحق ذلك الموقف المدهش الذى وقفه النبى فى غزوة حنين ، منفردا بين الأعداء ، وقد انكشف المسلمون وولوا مدبرين ، فطفق هو يركض بغلته إلى جهة العدو ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه ، وجعل يقول :« أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه ، فوالله ما نالوا منه نيلاً ، بل أيده الله بجنده ، وكف عنه أيديهم بيده . الحديث رواه الشيخان عن البراء بن عازب ورواه مسلم عن العباس وسلمة بن الأكوع ، ورواه أحمد وأصحاب السنن عن غيرهم هم أيضاً[2] .

وهكذا أمتع الله به أمته ، فلم يقبضه إليه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وحتى أنزل عليه قوله : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾**[3] .

(وإليك مثالاً من النوع الثانى) .

كان القرآن فى مكة يقص على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت فؤادهم ويعدهم الأمن والنصر الذى كان لمن قبلهم **﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا هم**

---

(١) انظر مسلم فى صحيحه جـ ٤ صـ ٧٨٦ رقم ١٣ / ٨٤٣ فضائل الرسول ﷺ وأخرجه فى الدر المنثور فى تفسير المأثور تفسير سورة المائدة جـ ٣ صـ ١١٩ وقال : وأخرجه ابن حبان وابن مروان عن أبى هريرة وذكر الحديث .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب الجهاد والسير) باب : فى غزوة حنين جـ ٣ صـ ١٣٩٨ ــ ١٤٠٢ رقم ٧٨ / ١٧٧٦ وأخرجه البخارى فى (غزوات النبى ﷺ) باب : قول الله تعالى : ويم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم جـ ٥ صـ ١٩٥

(٤) سورة سورة المائدة من الآية : ٣

الغالبون ﴾[١] . ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾**[٢]

فلما هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتنة ظنوا أنهم قد وجدوا مأمنهم فى مهاجرهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب المبلحة من كل جانب ، فانتقلوا من خوف إلى خوف أشد ، وأصبحت كل أمنيتهم أن يجىء يوم يضعون فيه أسلحتهم ، وفى هذه الأوقات العصيبة ينبئهم القرآن بما سيكون لهم من الخلافة والملك ، علاوة على الأمن والطمأنينة ، فما هذا ؟ أأحلام وأمانى ؟ لا ، بل وعد مؤكد بالقسم ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾**[٣] .

روى الحاكم وصححه عن أبى بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحد ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا : أترون أنا نعيش حيث نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت الآية[٤] .

فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها فى عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة فى قوله : ﴿ **منكم** ﴾ فبُدلوا من بعد خوفهم أمنا لا خوف فيه واستُخلفوا فى أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاربها .

وتأمل قوله : فى هذه الآية ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾ وقوله : فى الآية الأخرى ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾**[٥] تجد فيها نبأ آخر عن سر ما يبتلى به المؤمنون أحيانا من انتقاص أرضهم وتسلط أعدائهم عليهم ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ﴾**[٦]

﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾**[٧] .

---

(١) سورة الصافات الآيات : ١٧١ — ١٧٣ .

(٢) سورة غافر الآية : ٥١

(٣) سورة النور من الآية : ٥٥

(٤) الحديث أخرجه الدر المنثور فى التفسير المأثور — تفسير سورة النور ج ٧ صـ ١١٦ وقال : وأخرجه ابن المنذر والطبرانى فى الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل والضياء فى المختارة .

(٥) سورة الحج من الآية : ٤٠ ، ٤١

(٦) سورة آل عمران الآية : ١٦٥

(٧) سورة الأنفال من الآية : ٥٣

ومثالاً آخر

مُنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية ، واشترطت عليهم قريش إذا جاءوها فى العام المقبل أن يدخلوها عُزلاً من كل سلاح إلا السيوف فى القرب . فهل كان لهم أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود ، وقطع الأرحام ، وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غداً ؟ على أنهم لو صدقوا فى تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ ؟ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف فى القراب ، وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوا بأيديهم ورماحهم ، ولكنه لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ، وينالهم فى هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة ، الدخول والأمن ، وقضاء الشعيرة ، ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون** ﴾[1] . فدخلوها فى عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم .. الحديث أخرجه الشيخان .[2]

(ومثالاً ثالثاً)

كان المشركون يجادلون المسلمين فى مكة قبل الهجرة يقولون لهم : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية : ﴿ **ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين** ﴾ أول سورة الروم .

لقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن فى وقت معين إخباراً بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون . ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفى من دلائله أنها غزيت فى عُقر دارها وهزمت فى بلادها كما قال تعالى : ﴿ **فى أدنى الأرض** ﴾ ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم بعد ذلك قائمة ، فضلا عن أن يحدد الوقت الذى سيكون لها فيه النصر . ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين ، بل عززهما بثالث ، حيث يقول : ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ إشارة إلى أن اليوم الذى يكونه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين وإن كان كل واحد من النصرين فى حد ذاته مستبعداً عند الناس

---

(١) سورة الفتح من الآية : ٢٧

(٢) الحديث أخرجه البخارى (فى كتاب الحج) باب : الحلق والتقصير ٢/٢١٣ ومسلم باب : تفضيل الحلق على التقصير ، وجواز التقصير : ج ٤ / ٨٠ ، ٨١

أشد الاستبعاد ، فكيف الظن بوقوعهما مقترنين فى يوم ؟ لذلك أكد أعظم التأكيد بقوله : ﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .[١]

ولقد صدق الله وعده ، فتمت للروم الغلبة على الفرس ، باجماع المؤرخين فى أقل من تسع سنين وكان يوم نصرها هو اليوم الذى وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين فى غزوة بدر ، كما رواه الترمذى عن أبى سعيد ، ورواه الطبرانى عن ابن عباس وغيره .[٢]

وهذه أمثلة من النوع الثالث (ما يتعلق بحزب الله وحزب الشيطان) .

استعصى أهل مكة على النبى ﷺ فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف . فانظر ما قاله القرآن فى جوانب هذا الدعاء ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم** ﴾[٣]

فماذا جرى ؟ أصابهم القحط حتى أكلوا العظام وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . رواه البخارى عن ابن مسعود[٤] ثم انظر قوله : بعد ذلك ﴿ **إنا كاشفوا العذاب قليلاً ، إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾[٥] تر فيها ثلاث نبوءات أخرى : كشف البؤس عنهم ، ثم عودتهم إلى مكرهم الشيء ، ثم الإنتقام منهم بعد ذلك . وقد كان ذلك كله كما بينه الحديث الصحيح المذكور ، فإنهم لما جاءوا إلى رسول الله ﷺ يستسقون وتضرعوا إلى الله ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾[٦] سقاهم الله فأخصبوا ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى عتوهم واستكبارهم ، فبطش الله بهم البطشة الكبرى يوم بدر ، حيث قتل من صناديدهم سبعون ، وأسر سبعون .

وقد تكرر فى القرآن المكى إنباؤهم بهذا الانتقام على صور شتى : فتارة يأتى مجملاً كما فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد**

---

(١) سورة الروم الآية : ٦

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه وقال صحيح غريب : انظر تحفة الأحوذى تفسير سورة الروم الحديث ٣٢٤٥ : جـ ٩ صـ ٥١ ، ٥٢

(٣) سورة الدخان الآيتان : ١٠ ، ١١

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة الدخان جـ ٦ صـ ١٦٤ فى قوله : يغشى الناس هذا عذاب أليم .

(٥) سورة **الدخان** من الآية : ١٥ — ١٦

(٦) سورة **الدخان** الآية : ١٢

الله ﴾[1] سورة الرعد . وقوله : ﴿ **فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم ، فسوف يبصرون** ﴾[2]

وتارة يعين نوعا من العذاب بأنه الهزيمة الحربية كما فى قوله تعالى : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾[3] . وهذا كما ترى من عجيب الأنباء فى مكة . حيث لا مجال لأصل فكرة الحرب والتقاء الجموع ، فضلا عن توقع قرارها وهزيمتها ، حتى أن عمر — رضى الله عنه — لما نزلت هذه الآية جعل يقول : « أى جمع هذا ؟ » قال : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يقولها . رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه . والجزء الأخير فى الصحيحين[4] وتارة ينص على حوادث جزئية محددة منه — وهذا أعجب وأغرب — كما فى قوله تعالى : فى شأن الرجل الزنيم (والمشهور بأنه هو الوليد بن المغيرة) الذى كان يقول فى القرآن إنه أساطير الأولين ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾[5] . فأصيب بالسيف فى أنفه يوم بدر ، وكان ذلك علامة له يعيَّر بها ما عاش . رواه الطبرى وغيره[6] وتطير هذه الأنباء فى كفار قريش ما ورد فى كفار اليهود . انظر كيف يقول فيهم : ﴿ **لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾[7] . وقد فعل ، ثم يقول : ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس** ﴾[8] ويقول : ﴿ **وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب** ﴾[9]

فيا عجبا لهذه الآيات ! هل كانت مؤلفة من حروف وكلمات ؟ أم كانت أغلالاً وضعت فى أعناقهم إلى الأبد ، وأصفاداً شدت بها أيديهم فلا فكاك ؟ ألا تراهم منذ صدرت عليهم هذه الأحكام أشتاتاً فى كل واد ، أذلاء فى كل ناد ، لم تقم لهم فى عصر من العصور دولة ، ولم تجمعهم قط بلدة . وهم اليوم على الرغم من تضخم ثروتهم المالية إلى ما يقرب من نصف الثروة العالمية لا يزالون مشردين ممزقين عاجزين عن أن يقيموا لأنفسهم دويلة كأصغر الدويلات ، بل تراهم فى بلاد الغرب المسيحية يسامون أنواع الخسف والنكال ، ثم تكون عاقبتهم الجلاء عنها مطرودين . وبلاد الإسلام التى هى أرحب أرض الله صدراً — إنما تقبلهم رعية محكومين لا سادة حاكمين .

---

(١) من الآية : ٣١ من سورة الرعد

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٧٤ ، ١٧٥

(٣) سورة القمر الآية : ٤٥

(٤) انظر تفسير ابن كثير — تفسير سورة القمر

(٥) سورة ن الآية : ١٦ ج ٧ صـ ٤٥٧ وقال : رواه ابن أبى حاتم

(٦) انظر تفسير الطبرى : ج ٢٩ صـ ١٨ ، ١٩

(٧) سورة ال عمران الاية : ١١١

(٨) سورة آل عمران من الآية : ١١٢

(٩) سورة الأعراف الآية : ١٦٧

وهل أتاك آخر أخبارهم ؟

لقد زينت الآن لهم أحلامهم أن يتخذوا من « الأرض المقدسة » وطناً قومياً تأوى إليه جالياتهم من أقطار الأرض ، حتى إذا ما تألف منهم هنالك شعب ملتئم الشمل وطال عليهم الأمد فلم يزعجهم أحد ، سعوا إلى دفع هذا العار التاريخى عنهم بإعادة ملكهم القديم فى تلك البلاد ، وعلى برق هذا الأمل أخذ أفواج منهم يهاجرون إليها ، وينزلون بها خفافاً أو أثقالاً ــ فهل استطاعوا أن يتقدموا هذه الخطوة الأولى ــ أو لعلها الأولى والأخيرة ــ مستندين إلى قوتهم الذاتية ؟ كلا . ولكن مستندين إلى (حبل من الناس !!) فماذا تقول ؟ قل صدق الله ، ومن أصدق من الله حديثا .

أما ظنهم الذى يظنون وهو أنهم بمزاحمتهم للسكان فى أرضهم وديارهم يمهدون لما يحملون به من مزاحمتهم بعد فى ملكهم وسلطانهم ، فذلك ما دونه خرط القتاد . يريدون أن يبدلوا كلام الله ، ولا مبدل لكلماته ﴿ **أم لهم نصيب من الملك ، فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا** ﴾[1] . والله من ورائهم محيط .

انظر إلى عجيب شأن النبوءات القرآنية كيف تقتحم حجب المستقبل قريباً وبعيداً ، وتتحكم فى طبيعة الحوادث توقيتاً وتأييداً ، وكيف يكون الدهر مصداقاً لها فيما قل وكثر ، وفيما قرب وبعد ؟

ثم اسأل نفسك بعد ذلك « أترين هذا الرجل الأمى (ﷺ) جاء بهذا الحديث من عند نفسه ؟ » .

تسمع منها جواب البديهة الذى لا تردد فيه « إنه لابد أن يكون قد استقى هذه الأنباء من مصدر علمى وثيق واعتمد فيها على اطلاع واسع ودرس دقيق ، ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة عقله وثمرة ذكائه وعبقريته ، وإلا فأين هذا الذكى أو العبقرى الذى أعطاه الدهر عهداً بأن يكون عاصماً لظنونه كلها من الخطأ فى كشف وقائع الماضى مهما قدُم وأنباء المستقبل مهما بعد ؟ ..
﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[2] .

(١) سورة النساء الآية : ٥٣
(٢) سورة النساء من الآية : ٨٢

بيان أن محمداً لابد أن يكون أخذ القرآن عن معلم

لا مناص إذاً للباحث عن مصدر القرآن من توسيع دائرة بحثه فإذ لم يظفر بمطلبه عند صاحب القرآن فى ناحية عقله وفراسته ، وجب أن يلتمسه ـــ وأن يظفر به حتماً ـــ فى ناحية تعليمه ودراسته ، لأن المتكلم بكلام ما لا يعدو أن يكون قائلاً له أو ناقلاً . ولا ثالث لهما .

نعم إن صاحب القرآن لم يكن ممن يرجع بنفسه إلى كتب العلم ودواوينه ، لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أمياً نشأ أمياً وعاش أمياً فما كان يوماً من الأيام يتلو كتاباً فى قرطاس ولا يخطه بيمينه ، فلابد له من معلم يكون قد وقفه على هذه المعانى لا بطريق الكتابة والتدوين ، بل بطريق الإملاء والتلقين هذا هو حكم المنطق .

ستقول : فمن هو ذلك المعلم ؟

نقول : هذا هو الشطر الثانى من مسألة القرآن .

وأنت إذا تأملت فيما سقناه لك من البراهين على الشطر الأول وجدت بجانب كل منها برهاناً آخر على هذا الشرط الثانى ، وعرفت من هو ذلك المعلم غير أننا نحب أن نزيدك به معرفة حتى تقول معنا فيه ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ، مبلغ عن رب العالمين .

أما أن محمداً ﷺ لم يكن له معلم من قومه الأميين فذلك ما لا شبهة فيه لأحد ، ولا نحسب أحداً فى حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم « الأمية » الذى يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين شيئاً ، وكذلك اسم « الجاهلية » الذى كان أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام . فهؤلاء الذين فقدوا أساس هذا العلم فى أنفسهم حتى اشتق لهم من الجهل اسم ، كيف يحملون وسام هذا التعليم فيه لغيرهم ، بل التعليم لمعلمهم الذى وسمهم بالجهل غير مرة فى كتابه ، وسرد جهالاتهم فى غير سورة من هذا الكتاب ، حتى قيل : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما بعد المائة من سورة الأنعام .

وأما أنه لم يكن له معلم من غيرهم فحسب الباحث فيه أن نحيله على التاريخ وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث والإسلامى منه والعالمى ، ثم نسأله هل قرأ فيه سطراً واحداً يقول : إن محمد بن عبدالله بن عبد المطلب لقى قبل إعلان نبوته فلانا من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين من قصصه عن الأولين والآخرين .

ليس علينا نحن أن نقيم برهاناً أكثر من هذا التحدى لإثبات أن ذلك لم يكن ، وإنما على الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان ، فإن كان عندهم علم فليخرجوه إن كانوا صادقين .

لا نقول أنه عليه السلام لم يلق ولم ير بعينه أحداً من علماء هذا الشأن لا قبل دعوى النبوة ولا بعدها . فنحن قد نعرف أنه رأى فى طفولته راهباً اسمه بحيرا فى قُرى بُصَرى بالشام ، وأنه رأى فى مكة نفسها عالما اسمه ورقة بن نوفل ، وكان هذا على أثر مجيء الوحى العلنى ، وقبل إعلان نبوته بثلاثين شهراً . كما نعرف أنه لقى بعد إعلان نبوته كثيراً من علماء اليهود والنصارى فى المدينة ، ولكننا ندعى دعوى محدودة ، نقول : إنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء العلماء لا قبل ولا بعد ، وإنه قبل نبوته لم يسمع منهم شيئا من هذه الأحاديث البتة .

أما الذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه ، ولكنهم كانوا له سائلين وعنه آخذين ، وكان هو لهم معلماً وواعظاً ومنذراً ومبشراً . وأما الذين رآهم قبل ، فإن أمر لقائه إياهم لم يكن سراً مستوراً ، بل كان معه فى كل مرة شاهد : فكان عمه أبو طالب رفيقاً له حين رأى راهب الشام ، وكانت زوجه خديجة رفيقة له حين رأى ورقة ، فماذا سمعه هذا الرفيقان من علوم الأستاذين ؟ هلا حدثنا التاريخ بخبر ما جرى ؟ وما له لا يحدثنا هذا الحديث العجب الذى جمع فى تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته !! ولماذا لم يتخذ خصومه من هذه الحجة الواضحة سلاحاً قاطعاً لحجته مع شدة سعيهم فى هدم دعواه ، والتجائهم لأوهن الشبهات فى تكذيبه ، وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم ، وكان وحده أمضى فى إبطال أمره من كل ما لجئوا إليه من مهاترة ومكابرة .

إن سكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية على عدم وجوده ، لأنه ليس من الهينات التى يتغاضى عنها الناس الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد . على أن التاريخ لم يسكت ، بل نبأنا بما كان من أمر الرجلين : فقد حدثنا عن راهب الشام أنه لما شاهد هذا الغلام رأى فيه من سيما النبوة الأخيرة ، وحليتها فى الكتب الماضية ما أنطقه بتبشير عمه قائلاً : إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم . وحدثنا عن ورقة أنه لما سمع ما قصه عليه النبى من صفة الوحى وجد فيها من خصائص الناموس الذى نزل على موسى ما جعله يعترف بنبوته ، ويتمنى أن يعيش حتى يكون من أنصاره .

على أننا نعود فنسأل : هل كان من العلماء يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد وقرآنه تلك اليد العلمية ؟

يقول الملحدون أنفسهم : « إن القرآن هو الأثر التاريخى الوحيد الذى يمثل روح عصره أصدق تمثيل » وهذه كلمة حق فى حدود معناها الصحيح فنحن نأخذهم باعترافهم وندعوهم إلى استجلاء تلك الصورة التى حفظها القرآن فى مرآته الناصعة مثالاً واضحاً لعلماء عصره . فليقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران وما فيهما من المحاورة لعلماء اليهود والنصارى فى العقائد والتواريخ والأحكام ، أو ليقرءوا ما شاءوا من السور المدنية أو المكية التى فيها ذكر أهل الكتاب ، ولينظروا بأى لسان يتكلم عنهم القرآن ، وكيف يصور لهم علومهم بأنها الجهالات ، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات ، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات .

انظر إلى هذه الآيات من سورتى النحل والنمل المكيتين : كيف جعلتا من مقاصد القرآن الأساسية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب ، بل جعلته أول تلك المقاصد حيث بدأت به ، وثنت بالهدى والرحمة للمؤمنين . ﴿ **إن هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون** ﴾[1]
﴿ **تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه** ﴾[2] .

ونعود للمرة الثالثة فنقول لمن يزعم أن محمداً كان يعلمه بشر : قل ما اسم هذا المعلم ! ومن ذا الذى رآه وسمعه ؟ وماذا سمع منه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟ فإن كلمة « البشرية » تصف لنا هذا العالم الذين يمشون على الأرض مطمئنين ، ويراهم الناس غادين ورائحين ، فلا تسمع دعواها بدون تحديد وتعيين ، بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا فى الخيال والوهم ، فيقال له : كما قيل لهم : ﴿ **قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول** ﴾[3] .

بل نقول : هل ولد هذا النبى فى المريخ ؟ أو نشأ فى مكان قصىّ عن العالم فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى ، ثم كانوا بعد ذلك لا يرونه إلا لماماً ؟ ألم يولد فى جحورهم ؟ ألم يكن يمشى بين أظهرهم يصبحهم ويمسيهم ؟ ألم يكونوا يرونه بأعينهم فى حله ورحيله ؟ ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون** ﴾[4] .

---

(١) سورة النمل الآية : ٧٦
(٢) سورة النحل الآيتان : ٦٣ ، ٦٤
(٣) سورة الرعد من الآية : ٣٣
(٤) سورة المؤمنون الآية : ٦٩

نعم إن قومه قد طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة ﴿ **إنما يعلمه بشر** ﴾ سورة النحل ، ولكن هل تراهم كانوا فى هذه الكلمة جادين ، وكانوا يشيرون بها إلى بشر حقيقى عرفوا له تلك المنزلة العلمية ؟ كلا انهم ما كان يعنيهم أن يكونوا جادين محقين . وإنما كان همهم أن يدرءوا عن أنفسهم سعرة السكوت والإفحام بأى صورة تتفق لهم من صور الكلام : بالصدق أو بالكذب ، بالجد أو باللعب . وما أدراك من هو ذلك البشر الذى قالوا إنه يعلمه ؟

أتحسب أنهم اجترءوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم ؟ كلا فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلّموا رجلاً جاءهم بما لم يعرفوا هم ولا آباؤهم .

أم تحسب أنهم لما وجدوا أرض مكة مقفرة من علماء الدين والتاريخ فى عهد البعثة المحمدية عمدوا إلى رجل من أولئك العلماء فى المدينة ، أو فى الشام ، أو غيرهما فنسبوا ذلك التعليم إليه ؟ كلا إن ألسنتهم لم تطاوعهم على النطق بهذه الكلمة أيضاً .

فمن ذا ، إمّا لا ... ؟

لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصاً يتحقق فيه شرطان :

أحدهما : أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملى عليه بكرة وأصيلا .

وثانيهما : أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ، ليمكن أن يقال : إن عنده علم ما لم يعلموا ، وقد التمسوا هذه الأوصاف ، أتدرى أين وجدوها ؟ فى حدّاد رومى !! نعم وجدوا فى مكة غلاماً تعرفه الحوانيت والأسواق ، ولا تعرفه تلك العلوم فى قليل ولا كثير . غير أنه لم يكن أمياً ولا وثنياً مثلهم ، بل كان نصرانياً يقرأ ويكتب . فكان من أجل ذلك خليقاً فى زعمهم أن يكون أستاذاً لمحمد ، وبالتالى أستاذاً لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين ، ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغاً لدراسة الكتب وتمحيص أصلها ... لعرفت أنه كان حداداً منهمكاً فى مطرقته وسندانه ، وأنه كان عامّى الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أمانىّ ، أعجمى اللسان لا تعدو قراءته ، أو تكون رطانة لا يعرفها محمد ، ولا أحد من قومه ، لكن ذلك كله لم يكن يحول بينه وبين لقب الأستاذية الذى منحوه إياه على رغم أنف الحاسدين .

وهكذا أمعنوا فى هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكان مثلهم كمثل من يقول : إن العلم يستقى من الجهل ، وإن الانسان يتعلم كلامه من الببغاء ! وكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين** ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل من الآية : ١٠٣

هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص الناس على خصومته ، وأدرى الناس بأسفاره ورحلاته ، وأحصاهم لحركاته وسكناته ، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم فى عصره .

فما للملحدين اليوم وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرناً انقضت فيها سوق الحوادث ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف ، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة من قمامات التاريخ ، وفى الناحية التى أنف قومه أن ينبشوها ؟ ألا فليريحوا أنفسهم من عناء البحث ، فقد كفتهم قريش مؤونته ، وليشتغلوا بغير هذه الناحية التى قضى التاريخ والمنطق على كل محاولة فيها بالفشل . فإن أبوا فليعلموا أن كل شبهة تقام فى وجه الحق الواضح سيحيلها الحق حجة لنفسه يضمها إلى حججه وبيناته .

حيرة المعاندين واضطرابهم فى الجدل قديماً وحديثاً

ومن تتبع أنواع المجادلات التى حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هى أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم ، وأن أكثرها وروداً فى جدلهم هى نسبته إلى نفس صاحبه على اضطرابهم فى تحديد تلك الحال النفسية التى صدر عنها القرآن : أشعر هى ؟ أم جنون ؟ أو أضغاث أحلام ؟ فانظر : كم قلبوا من وجوه الرأى فى هذه المسألة حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التى يمكن افتراضها فى كلام رصين كالقرآن » وفى عقل رصين كعقل صاحبه ، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التى يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين .. إن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار فى الخارج أو فى اعتقادهم ، وإنما أرادوا أن يدلوا بكل الفروض والتقارير مغمضين على ما فيها من محال ونابٍ ونافر ، ليثيروا بها غباراً من الأوهام فى عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة ، وليلقوا بها أشواكاً من الشك فى طريق السائرين إلى روض اليقين .

فإن شئت أن تطلع على هذه الصور المضحكة من البلبلة الجدلية فاقرأ وصفهافى القرآن ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر** ﴾[1] سورة الأنبياء فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالى حروف الإضراب مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب فى رأيهم ، وتريك من خلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بحرج موقفه . كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشمال ؟ وكيف تتفرق به السبل فى تصحيح ما يحاوله من محال ؟ ﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا** ﴾[2] سورة الإسراء وسورة الفرقان .

---

(١) سورة الأنبياء من الآية : ٥

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٨ والفرقان الآية : ٩

ظاهرة الوحى وتحليل عوارضها

لا تحسبن أننا فى هذه المرحلة الثالثة سنضرب فى بيداء تيهاء ، أو أنناسيترامى بنا السير إلى شقة بعيدة وسفر غير قاصد . كلا ، فلن نخرج ببحثنا عن دائرة محدودة نراها مظنة للسير الذى نطلبه ، وذلك بدراسة الأحوال المباشرة التى كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبدالله — صلوات الله وسلامه عليه — وعلى آله .

وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة التى كانت تبدو على وجهه الكريم فى كل مرة حين ينزل عليه القرآن ، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر إليه ، فكانوا يرونه قد احمرَّ وجهه فجأة ، وأخذته البُرحَاء حتى يتفصد جبينه عرقاً ، وثقُل جسمه حتى يكاد يُرضُ فخذهوفخذ الجالس إلى جانبه ، وحتى لو كان راكباً لبركت به راحلته ، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلطة تشبه دوىَّ النحل .. ثم لا يلبث أن تُسرَّى عنه تلك الشدة ، فإذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً مُحدثاً . (هذه الأوصاف كلها ثابتة فى الأحاديث الصحيحة عند الشيخين وأبى داود والترمذى وغيرهم) .

فمن شاء أن يبحث عن مصدر هذا القرآن فهاهنا أقرب مظانه ، ففيها فليحصر الباحثون بحوثهم ، ولينشد طلاب الحق ضالتهم ، وأين تُلتمس الأسباب الصحيحة لأثر ما إن تلتمس حيث يظهر ذلك الأثر ، وحيث يدور وجوده وعدمه ؟

فلننظر الآن فى هذه الظاهرة : هل كانت شيئاً متكلَّفاً مصنوعاً وطريقة تحضيرية يستجمع بها الفكر والروية ؟ أم كانت أمراً لا دخل فيه للاختيار ؟ وإذا كانت أمراً غير اختيارى فهل كان لها فى داخل النفس منشأ من الأسباب الطبيعية العادية ، كباغتة النوم ، أو من الأسباب الطبيعية الشاذة ، كاختلال القوى العصبية ؟ أم كانت انفعالاً بسبب خارجى منفصل عن قوى النفس ؟

وإن نظرة واحدة نلقيها على عناصر هذه الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتكلفاً ، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلطة التى كانت تسمع عن الوجه النبوى الشريف ، وأيضا لو كانت صناعة وتكلفا لكانت طوع يمينه فكان لا يشاء يوماً أن يأتى بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذى اعتاده فى تحضيره ، وقد علمت أنه كثيراً ما التمسه فى أشد أوقات الحاجة إليه وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله . ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾[1] فهى إذن حال غير اختيارية .

---

(١) سورة مريم من الآية : ٦٤

ثم إننا نرجع البصر كرة أخرى فنرى البعد شاسعاً بينها وبين عارض السبات الطبيعى الذى يعترى المرء فى وقت حاجته إلى النوم ، فإنها كانت تعروه قائماً أو قاعداً ، وسائراً أو راكباً ، وبكرة أو عشياً ، وفى أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه ، وكانت تعروه فجأة وتزول عنه فجأة ، وتنقضى فى لحظات يسيرة ، لا بالتدريج الذى يعرض للوسنان وكانت تصاحبها الأصوات الغريبة التى لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم ، وبالإجمال كانت حالاً تباين حال النائم فى أوضاعها ، وأوقاتها ، وأشكالها ، وجملة مظاهرها . فهى إذاً عارض غير عادى .

ثم نرى المباينة التامة والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التى تصفر فيها الوجوه ، وتبرد الأطراف ، وتصطك الأسنان وتتكشف العورات ، ويحتجب نور العقل ، ويخيم ظلال الجهل ، لأنها كما علمت مبعث نمو فى قوة البدن ، وإشراق فى اللون ، وارتفاع فى درجة الحرارة ، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة ، ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يجىء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته وتتضاءل الأنوار عند طلعته .

ها نحن أولاء قد كدنا نصل .. فلتقف بنا وقفة يسيرة لنرى مبعث هذا الضوء الذى كان يبدو حينا ، ويختفى أحياناً من حيث لا يد لصاحبه فى ظهوره ولا فى اختفائه : هل عسى أن يكون منبعثاً من طبيعة هذه النفس المحمدية ؟ إذاً والله لكان خليقاً أن ينبعث منها أبداً ، ولكان أحق بأن ينبعث منها فى حال اليقظة العادية ، والرويَّة الفكرية أكثر مما ينبعث منها فى تلك اللحظات اليسيرة حينما تغشيها هذه السحابة الرقيقة التى قد تشبه السنة أو الإغماء .. فلابد إذاً أن يكون وراء هذه السحابة مصدر نورانى يمد هذه النفس المحمدية بين آن وآن ، فيسمو بها عن أفق شعرها المحدود ، ويزودها بما شاء الله من العلوم ، ثم يرسلها إلينا محمَّلة بهذه الشحنة العلمية إلى أن يلاقيها مرة أخرى . وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مستضاءا من ذاته ، وإنما مستضاء من ضياء الشمس ، لأنهم رأوا اختلاف نوره تابعا أبداً لاختلاف مواقعه منها قرباً وبعداً ، فكذلك فليؤمنوا بأن نور هذا القمر النبوى إنما كان شعاعاً منعكساً من ضوء تلك الشمس التى يرون آثارها ، وإن كانوا لا يرونها . نعم إنهم لم يروها بأعينهم طالعةً فى رابعة النهار ، ولم يسمعوا أصواتها بآذانهم جرساً مفهوماً ، وكلاماً يفقهه الناس ، ولكنهم كانوا يرونه قبساً منها فى الجبين ، وكانوا يسمعون حسيسها حول الوجه الكريم ، وإن فى ذلك لهدى للمهتدين .

هى إذاً قوة خارجية ، لأنها لا تتصل بهذه النفس المحمدية إلا حينا بعد حين ، وهى لا محالة قوة عالمة ، لأنها توحى إليه علماً .

وهى قوة أعلى من قوته ، لأنها تحدث فى نفسه وفى بدنه تلك الآثار العظيمة ﴿ **علمه شديد القوى ، ذو مرة** ﴾[١] .

وهى قوة خيِّرة معصومة ، لأنها لا توحى إلا الحق ولا تأمر إلا بالرشد فلا جرم أنها لا تكون قوة طائشة شريرة كقوة الجن والشياطين ، إذ ما للجن وعلم الغيب ، ولقد ﴿ **تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** ﴾[٢] ،وما للشياطين وخبر السماء وهى محفوظة من كل شيطان رجيم ﴿ **وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾[٣] .

فماذا عسى أن تكون هذه القوة إن لم تكن قوة ملك كريم ؟

ذلك هو مبلغ العلم فى وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهدى إليه البحث العقلى المستقيم .

فأما الذى يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه ، وإن لم يره ، لأنه رأى أثره ، ولأنه يؤمن بمن أخبره . وأما الجاهلون الذين أوتوا قليلاً من علم ظاهر الحياة فظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء علما ، فإنهم سيكذبون بكل مالم يحيطوا بعلمه ، وسيقولون لك : لعله اضطراب فى أعصاب البصر خُيِّل إليه أنه يرى شيئاً من لا شيء ! وأنت فاستعذ بالله من عمى القلوب والعيون وقل : كلا ، ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾[٤] . أو يقولون : لعله اضطراب فى قوى الفكر صوَّر له المعانى أشباحاً ماثلة ، والأحلام حقائق مجسمة ! فابرأ إلى الله من هذا الجنون ، وقل : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ .

استئناس بما كشفه العلم فى العصور الحاضرة

ولعمرى لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب ، فإننا نفهم أنه لو ساغ مثله فى عصور الجاهلية الأولى ما كان ليسوغ اليوم ، وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التى تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية .

---

(١) سورة النجم الآية : ٥ ومن الآية : ٦

(٢) سورة سبأ من الآية : ١٤

(٣) سورة الشعراء الآيات : ٢١٠ ــ ٢١٢

(٤) سورة النجم الآية : ١٧

وإن من أقرب هذه الآيات إلى متناول الجمهور آية الهاتف « التليفون » فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما فى أقصى المشرق ، والآخر فى أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءان ، من حيث لا يرى الجالسون فى مجلس التخاطب شيئاً ولا يسمعون إلا أزيزاً كدوى النحل الذى فى صفة الوحى .

فإن كانوا يريدون آية علمية أوضح من هذه تمثل لهم الوحى تمثيلاً ، وتريهم عن طريق التجارب ــ التى لا يؤمنون إلا بها ــ إن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها قد يُحدث فيها ظاهرة من جنس هذه الظاهرة ، وينقش فيها معلومات لم تكن مخزونة فى العقل ولا فى الحس قبل ذلك ، فها قد أراهم الله تلك الآية العجيبة فى « أعجوبة التنويم المغناطيسى » فقد أصبح الرجل القوى الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نوماً عميقاً لا يشعر فيه بوخز الإبر .

وهنالك يكون رهين إشارته ، وتنمحى ارادته من ارادته فلو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه ويلقنه اسماً آخر يقنعه بأنه هو اسمه لما وجد منه إلا إيماناً وتسليماً ، ولأصبح اسمه الحقيقى نسياً منسياً ، ولبقى هذا الإسم المصنوع منقوشاً على قلبه ولسانه بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله . فإذا كان فعل هذا الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟

فذلك مَثل حامل الوحى ومتلقيه عليهما السلام : هذا بشر مطواع ذو روح صاف يقبل انطباع العلوم فيه ، وذاك ملك شديد القوى ذو مرة يحمل إليه رسالته ويقرئها إياه ، فلا ينس إلا ما شاء بَيْدَ أن بُعداً شاسعاً بين هذا الوحى النبوى ، ووحى الناس بعضهم لبعض ، فالناس كما عرفت قد يوحون زخرف القول غروراً ، وكثيراً ما يترك وحيهم فى نفس متلقّية أعراضاً عقلية أو بدنية يصعب علاجها . فأين هذا من الوحى بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته : رسول من الملائكة ، ورسول من الناس ؟ فأما الرسول الملائكى فإنه كما علمت لا يوحى إلا الحق ، ولا يأمر إلا بالخير ، وأما الرسول البشرى فإنه لا يزال من بعد كما كان من قبل ، ثابت الفؤاد ، كامل العقل ، قوى النفس والبدن ، ﴿ **الله يعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[1] . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم** ﴾[2] أى : الجميع عبيد له ، وملك له ، تحت قهره وسلطانه وتصريفه ، ﴿ **وهو العلى العظيم** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **الكبير المتعال** ﴾[3] ﴿ **وهو العلى الكبير** ﴾[4] وكقوله جل فى علاه : ﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب**

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٤
(٢) سورة الشورى الآية : ٤
(٣) سورة الرعد الآية : ٩
(٤) سورة سبأ الآية : ٢٣

الأرض رب العالمين وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[١] وكقوله سبحانه : ﴿ **الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾**[٢] .

وقوله : ـ عز وجل ـ ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن** ﴾[٣] قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وقتادة والسدى : أى فرقاً من العظمة .

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى أرى ما لا ترون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » رواه الترمذى[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض** ﴾[٥] هو كقوله تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **ألا ان الله هو الغفور الرحيم** ﴾ ألا هنا أداة استفتاح وما بعدها تقرير وتثبيت لمغفرته ورحمته فهو عظيم المغفرة ، كثير الرحمة قال تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾[٧] ، وقال عز من قائل : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾[٨] كان أحد الصالحين يقول فى دعائه ومناجاته لربه : « يارب ان لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى فأنت القائل : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ وأنا شىء فلتسعنى رحمتك » .

---

(١) سورة الجاثية الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٢) سورة سبأ الآية : ١

(٣) سورة الشورى من الآية : ٥

(٤) الحديث فى سنن الترمذى (فى كتاب الزهد) باب : لو تعلمون ما أعلم جـ ٤ صـ ٥٥٦ رقم ٢٣١٢ وقال : حديث حسن غريب .

(٩) من الآية : ٥ من سورة الشورى

(٦) سورة غافر الآيات : ٧ ـ ٩

(٧) سورة الزمر الآية : ٥٣

(٨) سورة الأعراف من الآية : ١٥٦

سبحانك ربى :

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه

الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه

والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمداً فى خلاياه

والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

يا إلهى :

فَعلنا خطايانا وسترك سابل وليس لشىء أنت ساتره كشف

إذا نحن لم نخطىء وتعفو تكرما فمن غيرنا يهفو ومن غيرك يعفو

إلهى :

أصبحت ضيف الله فى دار الرضا وعلى الكريم كرامة الضيفان

تعفو الملوك عن النزيل بساحتهم كيف النزول بساحة الرحمن

يا من إذا وقف المسىء ببابه ستر القبيح وجاد بالإحسان

وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى تعفو وتصفح للعُبيد الجانى

يا من يجيب العبد قبل سؤاله ويجود للعاصين بالغفران

وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالإحسان

يا أخا الإسلام

قف بالخشوع وناجى ربك يا أخى فهو القريب يجيب من ناداه

أطلب بطاعته رضاه فإنه بالجود يعطى السائلين رضاه

هو أول ، هو أخر هو ظاهر هو باطن ليس العيون تراه

قال ﷺ :

« يأيها الناس توبوا إلى الله وأستغفروه فإنى أتوب إليه فى اليوم الواحد مائة مرة » رواه مسلم[1] .

وقال ﷺ :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاه ، فانفلتت منه وعليها **طعامه وشرابه** فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ **بخطامها** ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك اخطأ من شدة الفرح » رواه مسلم[2] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب : استحباب الاستغفار والاستكثار فيه ج ٤ صـ ٢٠٧٥ ، ٢٠٧٦ رقم ٢٧٠٢/٤٢

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب التوبة) باب : فى الحض على التوبة والفرح بها جـ ٤ صـ ٢١٠٤ رقم ٢٧٤٧/٧

وعن أبى موسى الأشعرى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »[١] رواه مسلم .

« وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : « إن الله ــ عز وجل ــ يقبل توبة العبد مالم يغرغر »[٢] « **مالم يغرغر : أى تصل روحه حلقومه ، من الغرغرة » وهى فعل الشراب فى الفم ،** ثم يديره إلى أصل حلقومه فلا يبلعه ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن** ﴾[٣] **وفسر ابن عباس حضوره بمعاينة ملك الموت** . [٤]

وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن نبى الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : « لا » فقتله فكمّل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله ــ تعالى ــ فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ــ تعالى ــ ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم : أى : حكماً فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة » متفق عليه .

وفى رواية فى الصحيح : « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى . وقال : قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب التوبة) باب : قبول التوبة من الذنب .. جـ ٤ صـ ٢١١٣ رقم ٢٧٥٩/٣١

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ــ مسند ابن عمر جـ ٢ صـ ١٥٣ وأخرجه الترمذى فى الدعوات وابن ماجة الزهد والحاكم فى المستدرك وقال الترمذى حسن غريب

(٣) سورة النساء من الآية : ١٨

(٤) الحديث أخرجه مسلم (فى كتاب التوبة) باب : قبول توبة القاتل وإن كثر قتله وأخرجه البخارى فى (كتاب الأنبياء) باب : حدثنا أبو اليمان فى كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٧٦٠ صـ ٧٥٢

وعن عمر بن الحصين — رضى الله عنهما — إن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهى حُبلى من الزنى فقالت : يا رسول الله أصبت حداً فأقمه علىّ ، فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال : أحسن إليها ، فإذا وضعت فأتنى بها ، ففعل ، فأمر بها نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ فقال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل »(١) رواه مسلم .

وعن ابن عباس وأنس بن مالك — رضى الله عنهم — أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملأ جوفه إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب »(٢) متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل** ﴾(٣)
أى : والمشركون الذين اتخذوا آلهة من الأوثان يعبدونها — الله هو المراقب لأعمالهم ، المحصى لأفعالهم وأقوالهم ، المجازى لهم يوم القيامة على ما كانوا يعملون ، ولست أيها الرسول بالحفيظ عليهم ، إنما أنت نذير تبلغهم ما أرسلت به إليهم ، ﴿ **إن عليك إلا البلاغ** ﴾(٤) فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنك لست بمدرك ما تريد من هدايتهم إلا إذا شاء ربك .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير** ﴾(٥) .

يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ **أوحينا إليك قرآناً عربياً** ﴾ أى : واضحاً جلياً بيناً ﴿ **لتنذر أم القرى** ﴾ وهى مكة ﴿ **ومن حولها** ﴾ من سائر البلاد شرقا وغربا ، **ونحو الآية قوله** تعالى : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾(٦)

---

(٢) أخرجه مسلم فى (كتاب الحدود) باب : من اعترف على نفسه بالزنى جـ ٣ صـ ١٣٢٤ رقم ١٦٩٦/٢٤
(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٢ وقال : أخرجه مسلم فى (كتاب الزكاة) باب : لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً . وأخرجه البخارى (فى كتاب الرقاق) باب : ما يتقى من فتنة المال .
(٣) سورة الشورى الآية : ٦ (٥) سورة الشورى الآيتان : ٧ ، ٨
(١) سورة الشورى من الآية : ٤٨ (٦) سورة الأنعام الآية : ٩٢

الآية . وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لقول رسول الله ﷺ فى الحديث الذى أخرجه الإمام أحمد فى مسنده « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىّ ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » وهكذا رواه الترمذى وقال الترمذى حسن صحيح[١] .

وقوله عز وجل : ﴿ **وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه** ﴾ أى : لا شك فى وقوعه وأنه كائن لا محالة كقوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد** ﴾[٢] وقوله ــ جل وعلا ــ : ﴿ **فريق فى الجنة وفريق فى السعير** ﴾[٣] أى : إنهم بعد جمعهم وعرضهم للحساب يفرقون ، فريق منهم يدخل الجنة لإيمانه بالله ورسوله وبما أحسن من عمل فى دنياه استحق به الكرامة عند ربه ، والنعيم المقيم فى جنته ، وفريق منهم فى نار الله الموقدة المسعورة على أهلها ، وهم الذين كفروا بالله ورسله واتخذوا من دونه أولياء .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، ومانؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها شهيق وزفير خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾[٤]

وكقوله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون** ﴾[٥] .

ثم سلى رسول الله ﷺ على ما كان يناله من الغم والهم بتولى قومه عنه وعدم استجابة دعوته ، وأعلمه أن أمور عباده بيده ، وأنه الهادى إلى الحق من يشاء ، والمفضل من أراد فقال تعالى :

﴿ **ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير** ﴾[٦] أى : لو شاء الله لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه ولكن حكمته اقتضت

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ــ عن حديث عبد الله بنعدى .. ج ٤ صـ٣٠٥ وأخرجه الترمذي في (أبواب المناخب) باب : فضل مكة جـ ٥ صـ ٣٨٠ رقم ٤٠١٧

(٢) سورة سبأ الآية : ٤٦

(٣) سورة الشورى من الآية : ٧

(٤) سورة هود الآيات : ١٠٣ ــ ١٠٨

(٥) سورة الروم الآيات : ١٤ ــ ١٦

(٦) سورة الشورى الآية : ٨

أن يكون بعضهم مؤمنين كما تحب ، وبعضهم كفاراً وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، لأنه سبحانه شاء أن يكون الإيمان مبنياً على التكليف والاختيار ، يدخل فيه المرء بمحض الرضا والتأمل فى الأدلة الموصلة إلى الهدى ، وبذلك يتم الفوز والسعادة فى الدارين ، وينفلت منه من دنَّس نفسه بأدران الشرك ، وركب رأسه وأطاع هواه فكان من الخاسرين ، ولو شاء سبحانه لجعل الإيمان بالقسر والإلجاء ، فكان الناس جميعاً أمة واحدة ، ولكن له الحجة البالغة ، والمثل الأعلى ، لم يشأ ذلك ، فلا تأس على عدم إيمان قومك ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات وقد جاء هذا المعنى فى غير آية سلف كثير منها كقوله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** ﴾[1] وكقوله : ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ﴾[2] وكقوله : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾[3] .

وكقوله تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ، يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً** ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ، وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ، فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم** ﴾[5] .

يقول تعالى : منكراً على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ومخبراً أنه هو الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير كقوله تعالى : ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾[6] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٥
(٢) سورة السجدة من الآية : ١٣
(٣) سورة هود الآيتان : ١١٨ ، ١١٩
(٤) سورة الإنسان الآيتان : ٣٠ ، ٣١
(٥) سورة الشورى الآيات : ٩ ــ ١٢
(٦) سورة السجدة الآيات : ٤ ــ ٩

ثم قال عز وجل : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله** ﴾[١] أى مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عام فى جميع الأشياء ﴿ **فحكمه إلى الله** ﴾ أى : هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ كقوله تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول** ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾[٣] الآية وكقوله سبحانه : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾[٤] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾[٥] أى : ذلكم الموصوف بهذه الكلمات الصفات ، من الإحياء والإماتة ، والحكم بين المختلفين هو ربى وحده ، لا آلهتكم التى تدعون من دونه ، ﴿ **عليه توكلت** ﴾ فى دفع كيد الأعداء وفى جميع شئونى ﴿ **وإليه أنيب** ﴾ وإليه أرجع فى كل شىء .

وكان ﷺ حينما يستفتح الصلاة يقول أحياناً هذا الدعاء : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك حق ، وقولك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أنت ربنا وإليك المصير ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، أنت إلهى ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله » (البخارى ومسلم وأبو داود وأبو عوانه)[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ **فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾[٧] ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أى : خالقهما

---

(١) سورة الشورى من الآية : ١٠

(٢) سورة النساء الآية : ٥٩

(٣) سورة المائدة الآية : ٤٨

(٤) سورة المائدة من الآية : ٤٩

(٥) سورة الشورى من الآية : ١٠

(٦) أخرجه البخارى فى (كتاب التوحيد) باب : قول الله أنا الرازق جـ ٩ ص ١٤٣ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب صلاة المسافرين) باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ج ١ ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ رقم ٧٦٩/١١٩

(٧) سورة الشورى آية ١١ .

ومبدعهما لا على مثال سابق ، فهو الجدير بأن يعتمد عليه ، ويستعان به ، لأنه خالق العوالم جميعها ، علويها وسفليها ، على عظمتها التى ترونها ، لا آلهتكم التى لا تستطيع أن تخلق شيئاً .

ثم يبين سبحانه بعض ما خلقه وأنعم به فقال جل وعلا : ﴿ **جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه** ﴾ أى : ومن حكمته لبقاء العمران فى هذه الحياة إلى الأجل الذى حدده فى علمه ـ أن خلق لكم من جنسكم زوجات ، لتتوالدوا ، ويكثر النسل ويستمر بقاء هذا النوع كقوله سبحانه : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** ﴾[2] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن الأنعام أزواجاً** ﴾ أى : وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج وقوله تعالى : ﴿ **يذرؤكم فيه** ﴾ أى : يخلقكم فيه أى : فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق ، وجيلاً بعد جيل ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام .

وقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾ أى : ليس كخالق الأزواج كلها شىء لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له ﴿ **وهو السميع البصير** ﴾ لا كسمع ولا بصر أحد من الورى ، القائل لموسى وهارون ﴿ **إننى معكما أسمع وأرى** ﴾[3] فمن نفى عن الله ما وصف به نفسه أو شبه صفاته بصفات خلقه فقد افترى على الله كذباً وقد خاب من افترى ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ أى : له تعالى مفاتيح خزائن السموات والأرض ، فبيده مقاليد الخير والشر ، فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك منها فلا مرسل له من بعده وقد بين هذا بقوله تعالى : ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾[5] أى : يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويقتر على من يريد ، ثم ذكر سبب هذا فقال سبحانه : ﴿ **إنه بكل شىء عليم** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾[6] .

---

(١) سورة الروم الآية : ١١
(٢) سورة النحل من الآية : ٧٢
(٣) سورة طه من الآية : ٤٦
(٤) سورة الأنعام الآية : ١٠٣
(٥) سورة سبأ من الآية : ٣٦
(٦) سورة الإسراء الآية : ٣٠

الأنبياء دعوتهم واحدة

قال تعالى :

* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ

ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

معانى المفردات

﴿ **أقيموا الدين** ﴾ : أى : حافظوا عليه والمراد بالدين : دين الإسلام ، وهو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله واليوم الآخر ، وسائر ما يكون به العبد مؤمناً .

﴿ **ولا تتفرقوا فيه** ﴾ : أى : لا تختلفوا فيه ، ﴿ **كَبُر** ﴾ : أى عظم وشق عليهم ، ﴿ **يجتبى** ﴾ : أى يصطفى ، ﴿ **ينيب** ﴾ : أى يرجع ﴿ **البغى** ﴾ : الظلم ومجاوزة الحد فى كل شيء ﴿ **لقضى بينهم** ﴾ : أى باستئصال المبطلين حين تفرقوا ، ﴿ **ادع** ﴾ : أى إلى الائتلاف والاتفاق ، ﴿ **واستقم** ﴾ : أى اثبت على الدعاء كما أوحى إليك ، ﴿ **آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ : أى صدقت بجميع الكتب المنزلة ، ﴿ **لا حجة** ﴾ : أى لا احتجاج ولا خصومة ، ﴿ **يحاجون فى الله** ﴾ : أى يخاصمون فى دينه ، ﴿ **استجيب له** ﴾ : أى استجاب الناس لدينه ودخلوا فيه لوضوح حجته ، ﴿ **داحضة** ﴾ : أى زائفة باطلة ، ﴿ **الميزان** ﴾ : أى العدل بين الناس ، ﴿ **يدريك** ﴾ : يعلمك ﴿ **الساعة** ﴾ : القيامة ، ﴿ **مشفقون** ﴾ : خائفون منها حذرون من مجيئها ، ﴿ **الحق** ﴾ : أى الأمر المحقق الكائن لا محالة ، ﴿ **يمارون** ﴾ : أى يجادلون ، ﴿ **لطيف بعباده** ﴾ : أى هو بر بهم يفيض عليهم من جوده وإحسانه ، ﴿ **حرث الآخرة** ﴾ : ثمرات أعمالها تشبيهاً لها بالغلة الحاصلة من البذور ،

﴿ **حرث الدنيا** ﴾ : لذاتها وطيباتها ، ﴿ **شركاء** ﴾ : أى فى الكفر وهم الشياطين ، ﴿ **شرعوا لهم** ﴾ : أى زينوا لهم ، ﴿ **ما لم يأذن به الله** ﴾ : أى كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فحسب ، ﴿ **كلمة الفصل** ﴾ : هى القضاء والحكم السابق منه بالنظرة إلى يوم القيامة ، ﴿ **روضات الجنات** ﴾ : الروضة : مستنقع الماء والخضرة ، وروضات الجنات : أطيب بقاعها وأنزهها ، ﴿ **القربى** ﴾ : التقرب ، ﴿ **يقترف** ﴾ : أى يكتسب ، ﴿ **يختم على قلبك** ﴾ : أى يجعل قلبك من المختوم عليهم حتى تجترىء على الافتراء ، ﴿ **يمحو** ﴾ : أى يزيل ، ﴿ **يحق** ﴾ : يثبت ، ﴿ **كلماته** ﴾ : هى حججه وأدلته ، ﴿ **يستجيب الذين آمنوا** ﴾ : أى يقبل دعاءهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عظم وحيه إلى رسوله ﷺ وأبان ماله من كبير الخطر حين نسبه إليه تعالى ، وأنه صادر من عزيز حكيم لا يوحى إلا بما فيه مصلحة البشر ومنفعتهم فى دينهم ودنياهم ـــ ذكر هنا تفصيل هذا الوحى ، وأرشد إلى أنه هو الدين الذى وصى به أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة ، وأردف ذلك أن المشركين يشق عليهم دعوتهم إلى التوحيد وترك الأوثان ، وأن الله يهدى من يشاء من عباه لهدى دينه ، وأنهم ما خالفوا الحق إلا بعد إبلاغه إليهم ، وقيام الحجة عليهم ، وأنه ما حملهم على ذلك إلا البغى والعدوان والحسد ، وأنه لولا الكلمة السابقة من الله بإنذار المشركين باقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة فى الدنيا ، وأن من اعتنقوا الأديان من بعد الأجيال الأولى ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك مريب ، وشقاق بعيد ، ثم أمر رسوله بالدعوة إلى الاتفاق على الملة الحنيفية والثبات عليها ، والدعوة إليها ، وألا يتبع أهواءهم الباطلة ، ثم أمر بالإيمان بجميع الكتب السماوية ، وبالعدل بين الناس ، ثم أردف ذلك ببيان أن إلٰههم جميعاً واحد ، وأن كل امرىء مسئول عن عمله ، وأن الله يجمع الناس يوم القيامة ويجازيهم بأعمالهم ، ثم يبين سبحانه : أن الذين يخاصمون فى دين الله من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا فيه أفواجاً ، حجتهم فى الصرف عنه زائفة لا ينبغى النظر إليها ، وعليهم غضب من ربهم لمكابرتهم للحق بعد ظهوره ، ولهم عذاب شديد يوم القيامة ، ثم أردف ذلك تخويفهم بيوم القيامة حتى يستعدوا له ويتركوا المماراة بالباطل ، ثم ذكر أن المشركين يستعجلون به استهزاء وإنكاراً لوجوده ، والمؤمنون خائفون منه ، لعلمهم بالجزاء حينئذ ، ثم أعقب ذلك بذكر أن المماراة فى الساعة ضلال بين لتظاهر الأدلة على حصولها لا محالة .

ثم بين سبحانه : أن من يعمل للآخرة ويرجو ثوابها يضاعف له فيها الجزاء ، ومن يعمل للدنيا وجلب لذاتها يؤته ما يريد ، وليس له فى الآخرة نصيب من نعيمها ، ثم أعقب هذا بذكر ما وسوست

به الشياطين للمشركين ، وزينت لهم به من الشرك بالله وإنكار البعث إلى نحو ذلك ، ثم بين أنهم كانوا يستحقون العذاب العاجل على ذلك ، لكنه أجله لما سبق من علمه من إنظارهم إلى يوم معلوم ، ثم ذكر مآل كل من الكافرين والمؤمنين يوم القيامة .

ثم أعقب هذا بأن أمر رسوله أن يقول لهم : إنه لا يسألهم على هذا البلاغ والنصر أمراً ، وإنما **يطلب منهم التقرب الى الله بحسن طاعته ، ثم رد عليهم قولهم « إن القرآن مفترى » بأنه لايفترى الكذب على الله إلا من كان مختوماً على قلبه ، ومن سنن الله إبطال الباطل ، ونصرة الحق ، فلو كان محمد كذاباً مفترياً** لفضحه وكشف باطله ، ولكن أيده بالنصر والقوة ، ثم ندبهم إلى التوبة ووعد المؤمنين بأنه يجيب دعاءهم إذا دعوه ، ويزيدهم من نعمه ، وأوعد الكافرين بشديد العقاب جزاء وفاقا .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ، إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ، إبراهيم وموسى وعيسى** ﴾ : أى شرع لكم من الدين ما شرع لنوح ومَن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزم من الرسل ، وأمرهم به أمراً مؤكداً ، وتخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر لعلو شأنهم وعظيم شهرتهم ، ولاستمالة الكفار إلى اتباعهم لاتفاق كلمة أكثرهم على نبوتهم ، واختصاص اليهود بموسى — عليه السلام — ، والنصارى بعيسى — عليه السلام — وإلا فكل نبى مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد ، وأصول الشرائع والأحكام ، مما لا يختلف باختلاف الأعصار كالإيمان بالله واليوم الآخر ، والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات .

والإسلام دين المرسلين والنبيين معاً ، من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التى بها ختم الله الرسالات .

فذكر سبحانه على لسان نوح قوله : ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾[(١)] وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ﴾[(٢)] ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[(٣)] وفى وصية يعقوب لأولاده ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾[(٤)] وذكر سبحانه عن موسى أنه قال لقومه : ﴿ **فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾[(٥)] وعن سحرة فرعون الذين آمنوا بالله وصدقوا برسالة موسى قالوا : ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾[(٦)] وفى معرض الحديث عن التوراة يقول سبحانه : ﴿ **يحكم بها النبيون الذين أسلموا** ﴾[(٧)] وعن حوارى عيسى ابن مريم أنهم قالوا : ﴿ **آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾[(٨)] وقد ورد فى الحديث الصحيح الذى أخرجه الشيخان البخارى ومسلم « الأنبياء أخوة أبناء علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد »[(٩)] . وقال الله تعالى يجمل هذا كله : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه** ﴾ .

يقول الشيخ محمد الغزالى : فإن جميع النبوات قبل الرسالة الخاتمة كانت نبوات محلية محدودة الزمان والمكان تستغرق جزءاً من الزمن لا تتجاوزه وجزءاً من المكان لا تتعداه يستوى فى ذلك المرسلون كلهم بدءاً من نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام كلا منهم كان موضوعيا محدود الزمان والمكان .

يقول الله فى رسالة نوح : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه إن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم** ﴾[(١٠)] ويقول فى شأن عيسى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل أنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعد اسمه أحمد** ﴾[(١١)] الآية .

---

(١) سورة يونس من الآية : ٧٢
وفى سورة النمل من الآية : ٩١
(٢) سورة البقرة من الآية : ١٢٨
(٣) سورة البقرة الآيتان : ١٣١ ، ١٣٢
(٤) سورة البقرة الآية : ١٣٣
(٥) سورة يونس من الآية : ٨٤
(٦) سورة الأعراف الآية : ١٢٦
(٧) سورة المائدة من الآية : ٤٤
(٨) سورة آل عمران من الآية : ٥٢
(٩) أخرجه البخارى (فى كتاب بدء الوحى) باب : واذكر فى الكتاب مريم جـ ٤ صـ ٢٠٣
وأخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الفضائل) باب : فضائل عيسى عليه السلام ـــ جـ ٤ صـ ١٨٣٧ رقم ٢٣٦٥/١٤٥
(١٠) سورة نوح الآية : ١
(١١) سورة الصف من الآية : ٦

أما الرسالة الخاتمة فجاءت على غير ذلك ، خالفت جميع الرسالات السابقة من ناحية الأبعاد الثلاثة طولاً ، ايستغرقت الزمن كله ، عرضاً ، استغرقت البشر جميعاً علىّ كل شبر من القارات الخمس ، عمقاً تناولت ما يحتاج إليه البشر من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق ، ووضعت القواعد العامة والمبادىء المنيرة التى توجه الناس إلى الصالح فى معاشهم ومعادهم على السواء .

وبذلك أصبحت هذه الرسالة ، لا معقب عليها ، وأصبح نبيها مسك الختام ، فلا وحى بعد ذلك ، ولن يجىء من عند الله هدى جديد يحمله بشر آخر .

اكتفت الحكمة العليا بهذا القرآن الكريم مع النبى الخاتم — عليه الصلاة والسلام — ولما كان الإسلام دين الإنسانية منذ بدأت بمعنى : أن العقائد الركنية فيه هو ما بُعث به المرسلون السابقون ، أما الشرائع المنظمة فلها أطوار أخرى شرحها القرآن وفصلتها السنن ، فإن الإسلام بوضعه الجديد يعتبر دين السموات والأرض ، دين الأزل والأبد ، وليس وراء ذلك شىء له قيمة ﴿ **فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾[1] ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[2] ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ، قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ : أى اجعلوا هذا الدين وهو دين التوحيد والإخلاص لله قائماً دائماً مستمراً ، واحفظوه من أن يقع فيه زيغ أو اضطراب ، ولا تتفرقوا فيه ، بأن تأتوا ببعض وتتركوا بعضاً والنهى **إنما هو عن** التفرق فى أصول الشرائع ، أما التفاصيل فلم يتحد فيها الأنبياء كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ : أى شق على المشركين دعوتهم إلى التوحيد ، وترك عبادة الأصنام والأوثان ، ثم قال جل جلاله : ﴿ **الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾[5] : أى هو سبحانه الذى يقدر الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرها على

---

(١) سورة يونس الآية : ٣٢
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٩
(٣) سورة آل عمران الآيات : ٨٣ — ٨٥
(٤) سورة المائدة من الآية : ٤٨
(٥) سورة الشورى الآية : ١٣

طريق الرشد ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما تَفرَّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم** ﴾ أى إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغى والعناد والمشاقة ثم قال عز وجل : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى** ﴾ : أى لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة فى الدنيا سريعاً . ثم ذكر سبحانه أن تفرقهم فى الدين باق فى أعقابهم مضافاً إليه الشك من كتابهم مع انتسابهم إليه فقال تعالى : ﴿ **وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب** ﴾ : أى وإن أهل الكتاب الذين كانوا على عهده ﷺ ورثوا التوراة والإنجيل من السابقين لهم فى شك من كتابهم إذ لم يؤمنوا به حق الإيمان ، فهم مقلدون أسلافهم بلا حجة ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك أقضَّ مضاجعهم ، وأوقعهم فى اضطراب وقلق .

وقصارى القول ــ أنهم تفرقوا بعد العلم الذى حصل من النبى المبعوث إليهم المصدق لكتابهم، لأنهم شكوا فى كتابكم فلم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه من أمر ونهى .

قوله تعالى : ﴿ **فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير** ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير :

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التى قبلها ، حكم برأسها قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسى فإنها أيضا عشر فصول كهذه الآية الكريمة .

وقوله عز وجل : ﴿ **فلذلك فادع** ﴾ : أى فالذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم فادع الناس إليه .

وقوله عز وجل : ﴿ **واستقم كما أمرت** ﴾ : أى واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله ــ تعالى ــ كما أمركم الله ــ عز وجل ــ ومثل الآية قوله سبحانه : ﴿ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير** ﴾[1] .

---

(١) سورة هود الآية : ١١٢

وقوله عز وجل : ﴿ **ولا تتبع أهواءهم** ﴾ كقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾(١) وكقوله عز وجل : ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير** ﴾(٢) .

وقوله ـ عز وجل ـ ﴿ **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ : أى صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء كما فى الآية الأخرى ﴿ **قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **وأمرت لأعدل بينكم** ﴾ : أى فى الحكم كما أمرنى الله ـ عز وجل ـ ﴿ **وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** ﴾(٤) ﴿ **وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين** ﴾(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ **الله ربنا وربكم** ﴾ : أى هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختياراً أو أنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من فى العالمين طوعاً وإجباراً .

وقوله تعالى : ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ : أى نحن براء منكم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾ : قال مجاهد : أى لا خصومة . قال السدى وذلك قبل نزول آية السيف ، وهذا متجه لأن هذه الآية مكية وآية السيف بعد الهجرة وقال الشيخ المراغى : أى لا خصومة بيننا ولا احتجاج ، فإن الحق قد وضح ، وليس للمحاجة مجال ، فما المخالف إلا معاند أو مكابر ، وسيأتى الوقت الذى يستبين فيه الحق ، ويتضح سبيل الرشاد ، وإلى ذلك أشار بقوله ﴿ **الله يجمع بيننا** ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ **الله يجمع بيننا** ﴾ : أى يوم القيامة كقوله سبحانه : ﴿ **قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم** ﴾(٧) .

(١) سورة الجاثية آية ١٨ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٠
(٣) سورة آل عمران الآية : ٨٤
(٤) سورة المائدة من الآية : ٤٩
(٥) سورة المائدة من الآية : ٤٢
(٦) سورة يونس الآية : ٤١
(٧) سورة سبأ الآية : ٢٦

وقوله عز وجل ﴿ **وإليه المصير** ﴾ : أى المرجع والمآب يوم الحساب .

وقوله عز وجل : ﴿ **والذين يحاجون فى الله من بعد ما استُجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، وما يدريك لعل الساعة قريب ، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد** ﴾ .

يقول تعالى : متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ **والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له** ﴾ : أى يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ، ﴿ **حجتهم داحضة عند ربهم** ﴾ : أى باطلة عند الله ﴿ **وعليهم غضب** ﴾ : أى منه ﴿ **ولهم عذاب شديد** ﴾ : أى يوم القيامة .

قال ابن عباس — رضى الله عنه — ومجاهد : جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى ، وطمعوا أنَ تعود الجاهلية ، وقال قتادة : هم اليهود والنصارى قالوا لهم : ديننا خير من دينكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم وأولى بالله منكم ، وقد كذبوا فى ذلك . يقول الله — عز وجل — : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾[2] وكقوله سبحانه : ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾[3] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وما يدريك لعل الساعة قريب** ﴾ : فيه ترغيب فيها ، وترهيب منها وتزهيد فى الدنيا . وقوله — عزل وجل — ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها** ﴾ : أى يقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً . ﴿ **والذين آمنوا مشفقون منها** ﴾ : أى خائفون وجلون من وقوعها ، كما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ **أمن هو**

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ١١١ ، ١١٢

(٢) سورة الحديد من الآية : ٢٥

(٣) سورة الرحمن الآيات : ٧ — ٩

قانت أناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[٤] .

وقوله — عز وجل — : ﴿ **ويعلمون أنها الحق** ﴾ : أى كائنة لا محالة منهم مستعدون لها عاملون من أجلها كما أخبر سبحانه عنهم ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد** ﴾ . وبين حالهم أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقراً ومقاما** ﴾[١] وفى قوله تعالى ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[٢] وفى قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾[٣] .

وفى سنن أبى داود عن حفصة — رضى الله عنها — أن النبى ﷺ كان إذا أراد أن يرقد وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك » ثلاث مرات ، قال الترمذى حديث حسن[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال مبين** ﴾ : أى يجادلون فى وجودها ويدفعون وقوعها ﴿ **لفى ضلال مبين** ﴾ : أى فى جهل بين لأن الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى كما قال تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾[٦] وكقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾[٧] .

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩١ — ١٩٣

(٢) سورة الفرقان الآيات : ٦٤ — ٦٦

(٣) سورة السجدة الآية : ١٦

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٦٠

(٥) أخرجه الترمذى فى (كتاب الدعوات) باب : ما جاء فى الدعاء إذا آوى إلى الفراش جـ ٥ صـ ٤٧١ رقم ٣٣٩٨ ، ٣٣٩٩ .

(٦) سورة القيامة الآيات : ٣٦ — ٤٠

(٧) سورة الروم الآية : ٢٧

قوله تعالى : ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ، من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ، أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم ، ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم سواء فى رزقه البر والفاجر ، كقوله — عز وجل — : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين** ﴾[1] وكقوله سبحانه : ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾[2] الآية ﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾[3] . وقوله — عز وجل — : ﴿ **يرزق من يشاء** ﴾ : أى يوسع على من يشاء. ﴿ **وهو القوى العزيز** ﴾ : أى لا يعجزه شىء سبحانه وتعالى : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده .

وقوله تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة** ﴾ : أى عمل الآخرة . ﴿ **نزد له فى حرثه** ﴾ : أى نقويه ونعينه على ما هو بصدده ، ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله . ﴿ **ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب** ﴾ : أى ومن كان سعيه ليحصل له شىء من الدنيا ، وليس له فى الآخرة هم البتة بالكلية ، حرمه الله الآخرة والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة ، والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا : مقيدة بالآية التى فى « الإسراء » وهى قوله تبارك اسمه ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾[4] .

---

(١) سورة هود الآية : ٦

(٢) سورة لقمان من الآية : ٢٠

(٣) سورة فاطر الآية : ٣

(٤) سورة الإسراء الآيات : ١٨ — ٢١

عن أبى كبشة الأنمارى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل بعلمه فى ماله ينفقه فى حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً وهو يقول : لو كان لى مثل هذا عملت فيه بمثل الذى يعمل ، قال رسول الله ﷺ : فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط فى ماله ينفقه فى غير حقه ، ورجل لم يؤته الله علماً ولا مالاً فهو يقول لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل . قال رسول الله ﷺ : فهما فى الوزر سواء »[1] أخرجه الترمذى فى أثناء حديث وصححه وأحمد وابن ماجة واللفظ له .

وقال الثورى عن معمر عن أبى العالية عن أبى بن كعب ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب » (ذكره ابن كثير فى التفسير)[2] .

وقوله ـــ عز وجل ـــ : ﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله** ﴾ : أى هم ما ابتغوا ما شرع الله من الدين القويم ، بل اتبعوا ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، فحرموا عليهم ما حرموا من البحيرة والسائبة والوصيلة ، وحللوا لهم أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو أولئك من الضلالات والجهالات التى كانوا قد اخترعوها فى الجاهلية ، قال تعالى : ﴿ **قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون** ﴾[3] .

قصارى ذلك ـــ أن الشيطان زين لهم الشرك والمعاصى والشرائع المضلة وإنكار البعث والعمل للدنيا .

ثم بين أنه رحمة بعباده أخر عذاب المشركين ليوم معلوم ، ولم يعجله لهم فقال سبحانه : ﴿ **ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم** ﴾ : أى ولولا القضاء السابق منه تعالى بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لعوجلوا بالعذاب .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ : أى وإن الظالمين أنفسهم بشرع مالم يأذن به الله مما ابتدعوه من التحليل والتحريم ـــ لهم عذاب شديد الإيلام فى جهنم وبئس المصير .

---

(١) انظر سنن الترمذى : (كتاب الزهد) باب : ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر رقم ٢٣٢٥ جـ ٤ صـ ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ـــ حديث أبى بن كعب جـ ٥ صـ ١٣٤

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٠

ثم ذكر سبحانه : أحوال أهل العقاب وأهل الثواب يوم القيامة مبتدئاً بالأولين فقال سبحانه : ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ﴾ : أى ترى الظالمين خائفين أشد الخوف مما كسبوا من السيئات ، وهو واقع بهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا ، كقوله تعالى : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾[1] الآية .. هذا حالهم يوم القيامة وهم فى هذا الخوف والوجل ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ : فأين هذا من هذا ؟ أى : أين من هو فى العرصات من الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ، ممن هو فى روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟

عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ــ عز وجل ــ يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[2] متفق عليه .

وعن صهيب ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم »[3] رواه مسلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك هو الفوز الكبير ﴾ : أى الفوز العظيم والنعمة التامة السابقة الشاملة العامة ..

قوله تعالى : ﴿ ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور ، أم يقولون

---

(١) سورة الشورى من الآية : ٤٥

(٢) أخرجه صاحب كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث رقم ١٨٠٢ وقال : أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ــ باب : صفة الجنة والنار .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الإيمان) باب : اثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه جـ ١ ص ١٦٣ رقم ١٨١/٢٩٧ .

افترى على الله كذباً ، فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور .

يقول تعالى : لما ذكر روضات الجنات ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ : أى هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله — تعالى — لهم به .

وقوله — عزل وجل — : **﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ﴾** : أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه ، وإنما أطلب **منكم أن تكفوا شركم عنى ، وتذرونى أبلغ رسالات ربى إن لم تنصرونى ، فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة .**

قال البخارى : عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه سئل عن قوله تعالى : **﴿ إلا المودة فى القربى ﴾** ؟ فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد فقال ابن عباس :/**علمت** إن النبى — صلى الله وآله وسلم — لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبى ﷺ قال : « لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى : وأن تقربوا إليه بطاعته »[1] وهكذا روى قتادة : عن الحسن البصرى مثله ، قال ابن كثير : وهذا كأنه تفسير بقول ثان كأنه يقول : إلا المودة فى القربى : أى إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى .

وقوله تعالى : **﴿ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ﴾** : أى ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسنا : أى أجراً وثواباً كقوله تعالى : **﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ﴾**[2] وكقوله تعالى : **﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾**[3] وقوله تعالى : **﴿ إن الله غفور شكور ﴾** : أى يغفر الكثير من السيئات ويكثر **القليل من الحسنات فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر .**

---

(١) انظر مسند أحمد — مسند ابن عباس جـ ١ ص ٢٨٦

(٢) سورة النساء من الآية : ٤٠

(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٦٠

وقوله ـــ عز وجل ـــ : ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك** ﴾ : أى فإن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترىء بالإفتراء عليه ، فإنه لا يفعل مثل هذا إلا من كان فى مثل حالهم قد ختم الله على قلبه وأعمى بصيرته .

وما أجمل هذا التعريض بأنهم مفترون ، وأنهم فى نسبة الإفتراء إليه مفترون أيضاً ، ثم أكد استبعاد الإفتراء منه ، وزاده إيضاحاً فقال : ﴿ **ويمحوا الله الباطل ويحق الحق بكلماته** ﴾ : أى كيف يكون من الافتراء على الله ، وقد جرت سنته تعالى أن يمحو الباطل ويمحقه ، ويثبت الحق وينشره بين الناس ، وها هو إذ يزداد ما أوتيه من وحى كل يوم قوة وانتشاراً ، فلو كان مفترياً كما تدّعون لكشف افتراءه ومحقه ، وقذف بالحق على باطله فدمغه .

وقد يكون المعنى : ـــ إن هذه عدةٌ من الله لرسوله بالنصر ويكون المراد : ـــ يمحو الله باطلهم وما بهتوك به ، ويثبت الحق الذى أنت عليه بقضائه الذى لا مرد له ، فيكون هذا كلاماً معترضاً بين ما قبله وما بعده مؤكداً لما سبق من الكلام من كونهم مبطلين فى نسبة الإفتراء إلى من هو أصدق من الناس حديثاً .

﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ : فيعلم ما تكنّه الضمائر ، وتنطوى عليه السرائر ، وتجرى الأمور بحسب علمه الواسع المحيط بكل شيء .

قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ .

يقول تعالى : ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ، ويستر ويغفر ، ﴿ **ويعفو عن السيئات** ﴾ : أى يقبل التوبة فى المستقبل ويعفو عن السيئات فى الماضى ﴿ **ويعلم ما تفعلون** ﴾ : أى هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ، ومع هذا يتوب على من تاب .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾[3] وقوله تعالى : فى قصة كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[4] .

وتأمل معى قول الغفور الرحيم : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾[5] . وبعد ذلك تأمل وتدبر قوله تعالى : ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً** ﴾[6] .

وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقد تضمن هذا الحديث أن هذه الأسباب الثلاثة يحصل بها المغفرة : **أحدهما** : الدعاء مع الرجاء ، **والسبب الثانى** : للمغفرة الاستغفار ، **والسبب الثالث** : من أسباب المغفرة التوحيد ، وهو السبب الأعظم ، فمن فقده فقد المغفرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة ولقد تاب النبى يونس لربه بهذا الدعاء العظيم (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

---

(١) سورة غافر الآيات : ١ ــ ٣

(٢) سورة النساء الآية : ١١٠

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٥ ، ١٣٦

(٤) سورة التوبة الآيتان : ١١٨ ، ١١٩

(٥) سورة البقرة الآية : ٣٧

(٦) سورة النساء الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

فى أحكام التوبة

التوبة هى الندم على ما مضى ، والعزم على عدم العودة ، والإقلاع عن الذنوب .

وقال عبد الله بن المبارك : « التوبة : الندم على ما مضى من الذنوب والعزم على ألا يعود ، وأن يؤدى التائب كل فرض ضيعه ، ويؤدى إلى كل ذى حق حقه من المظالم ، ويذيب البدن الذى زينه بالسحت والحرام بالهموم والأحزان ، حتى يلصق الجلد بالعظم ، ثم ينشأ بينهما لحم طيب ، ويذيق البدن ألم الطاعة ، كما أذاقه لذة المعصية » .

فهذا التعريف للعالم الربانى عبد الله بن المبارك : جامع لكل خصال التوبة المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، والتى هى التوبة النصوح .

ومن شروط التوبة الصحيحة : أن يهجر التائب الذنوب لأنها معاصى يغضب منها الله ورسوله ، لا لسبب آخر ، فإن أقلع عن الذنب لأنه ضار بصحته أو ماله فليس ذلك بتوبة ، وإنما هو عمل يهوى النفس لا لوجه الله ، قال الله تعالى ﴿ **توبوا إلى الله توبة نصوحاً** ﴾[٢] . ولم يقل : توبوا حفظاً لصحتكم ولا لأموالكم ، فمراعاة الصحة والمال ليس هدفاً رئيسيا للتوبة ، وإنما هو أمر ثانوى لا يجوز أن تتجه إليه نية التوبة .

وعلى كل عضو من أعضاء الانسان توبة ، فتوبة العين : كفها عن النظر إلى المحارم ، وتوبة السمع : كفه عن سماع المحرم ، وتوبة اليد : كفها عن تناول المحرم ، وتوبة القدمين : كفهما عن السعى إلى المحرم ، وتوبة الفرج : كفه عن الزنا ، وهكذا جميع الجوارح ، حتى العقل له توبة ، وهى كفه عن التفكير فى المحرم ، واللسان يتوب فلا يدعو إلى مكروه عند الله ورسوله .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب الدعوات) باب : فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده جـ ٥ صـ ٥٣٨ رقم ٣٥٤٠ .

وقال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) سورة التحريم من الآية : ٨

التوبة والعمل الصالح

كثير من الناس يظنون أن العمل الصالح مع البقاء على الذنوب ينفع الانسان عند الله ويقولون : إن هذا فى جانب السيئات ، وهذا فى جانب الحسنات ، ولعل ميزان الحسنات يرجح على ميزان السيئات فيفلح العبد غداً عند الله .

وقد عنى الحارث المحاسبى بهذه القضية أشد العناية ، وفصل القول فيها فى كتابه المخطوط ، « آداب النفوس » وخلاصة ما قاله :

إن تطهير النفس من السيئات بالتوبة أفضل وأولى بالعبد من عمل النوافل وأعمال البر الأخرى ، وهو يقيم على المعاصى للأسباب الآتية :

١ ـــ أن قبول الله لأعمال البر من عبد مقيم على المعصية غير محقق ، لأن النفس المشغولة بلذة المعاصى قلما تخلص عمل الخير ، فضلا عن أن محل النية وهو القلب ملوث بالشهوات ، فيستحيل أن يخلص العمل الصالح إذا كثر عليه الران من تتابع الذنوب وتشبعه بها .

٢ ـــ إن الإنسان مطالب بترك الشر كله . وليس مطالباً بفعل الخير كله ، وعلى هذا أصبح ترك الشر فى المنزلة الأولى الواجبة على الانسان .

٣ ـــ إن ترك الشر يوقع الإنسان فى الخير من تلقاء نفسه ، فالتائب عن الزنا : يصبح عفيفاً ، والتائب عن الكبر : يصبح متواضعاً ، والتائب عن البخل : يصبح كريماً ، والتائب عن الكذب : يصبح صادقًا وهكذا جميع السيئات ، يتوب منها فاعلها ، فيقع فى أضدادها وهى فضائل صالحة .

٤ ـــ لا خير فى عمل من أعمال البر خالطه الشر فى قلب واحد ، فعمل البر إذا خالطه الشر أصبح شراً ، والشر شر كله .

وعلى هذا فهو يرى أن إقامة العبد على خصلة واحدة من الشر يفرغ نفسه للتوبة منها ، ويتقن هذه التوبة ، ويجاهد لاقتلاع جذورها من القلب ويشغل نفسه بها ليل نهار ، مع القيام بالفرائض وحدها ، خير ألف مرة من عمل البر وهو مقيم على تلك الخصلة من الشر ، فإذا تاب من هذه الخصلة اتجه إلى غيرها ، وهكذا حتى يقتلع جميع الجذور الشريرة من قلبه ، فيصبح قلبه خالصاً صافياً ، تصدر عنه أعمال الخير بنية صالحة مقبولة عند الله ، وهذا هو معنى الآية الكريمة ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾[1] . فقدم الله تعالى التوبة ، وهى اقتلاع جذور

---

(١) سورة الفرقان من الآية : ٧٠

الشر والمعصية من القلب أولاً . ثم أتبعها بالايمان ، وكأن العاصى يحتاج إلى تحقيق أمنه إلى جوار الله بدلا من أمنه فى جوار الشهوات التى أفسدت عقيدته فى الله ، وأتبع ذلك بالعمل الصالح ، وهو آخر ما يجب على التائب ، فالعمل الصالح حينئذ يصدر عن قلب تائب مؤمن ، وحينئذ تحل الصفات المضادة لخصال الشر محل خصال الشر كما قلنا ، وتلك هى الحسنات مكان السيئات كما جاء فى الآية الكريمة .

الإصرار على الذنب ، توبة الكذابين

معنى الإصرار : أن تبقى فى القلب حلاوة المعصية ، وتمنى مقارفتها ما وجد السبيل إليها ، فالشعور بالرغبة النفسية فى المعصية ، وعقد القلب على حبها إصرار عليها ، وعلى هذا فالتوبة منها مع بقاء هذه اللذة فى القلب ، وتمنى ارتكابها إن وجد إليها السبيل ، وحديث النفس الدائم بلذتها ، هذه التوبة تسمى توبة الكذابين ، وهى التى وصف أبو هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ صاحبها بأنه كالمستهزىء بربه . **فهى** توبة غير مقبولة ، فضلاً عن إثم المخادعة لله الذى يرتكبه هذا التائب .

ولكن ، ماذا يصنع الذى انعقد قلبه على حب المعاصى ، فانغمس فيها ؟ لا طريق له إلا طريق الجهاد الشاق للنفس .. ، وعليه قبل ذلك أن يهجر أماكن السوء ، وأصدقاء المعصية ، وأن يحافظ على ورد من القرآن كل يوم ، وأن يقرأ تواريخ الصحابة والتابعين والصالحين ، وأن يدمن الدعاء فى أوقات الاجابة ، ولا سيما فى جوف الليل : أن يرزقه الله التوبة النصوح ، فإن الله تعالى : مجيب من دعاه ويغيث من اضطر إليه ، غافر الذنب ، قابل التوب ﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون** ﴾ .

(من كتاب التوبة للحارث المحاسبى تحقيق الشيخ / عبد القادر أحمد عطا) .

قوله تعالى : ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ .

قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم فهو سبحانه يجيب الذين آمنوا إذا دعوه ، ويزيدهم من فضله على ما طلبوه بالدعاء ، وقال قتادة : عن ابراهيم النخعى فى قوله عز وجل : ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ قال يشفعون فى إخوانهم ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ : قال : يشفعون فى إخوان إخوانهم .

وقوله عز وجل : ﴿ **والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ : لما ذكر سبحانه المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم :

أحكام وعبر

* وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

معاني المفردات

(البسط) : السعة ، (البغى) : الظلم ومجاوزة الحد ، (بقدر) : أى بتقدير (الغيث) : المطر (قنط) : يئس ، (ورحمته) : هى منافع الغيث وآثاره التى تعم الحيوان والنبات والسهل والجبل . (الولى) : هو الذى يتولى عباده بالإحسان ، (الحميد) : أى المستحق للحمد على نعمه ، (بث) : نشر وفرّق ، (والدابة) : كل ماله دبيب وحركة ، (على جمعهم) : أى حين الحشر والحساب . (بمعجزين) : أى بجاعلين الله ــ تعالى ــ عاجزاً بالهرب منه ، (الجوارى) : أى السفن الجارية ، (الأعلام) : واحدها علم : وهو الجبل . (يسكن الريح) : أى يجعلها ساكنة لا تموج ، (رواكد) : أى ثوابت ، (الصبار) : كثير الصبر ، (الشكور) : أى كثير الشكر للنعم ، (يوبقهن) : أى يهلكهن . (محيص) : أى مهرب ومخلص .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه : فيما سلف أن يجيب دعاء المؤمنين إذا هم أنابوا إليه وأخبتوا ، ذكر هنا أنه لا يعطيهم كل ما يطلبون من الأرزاق ، بل ينزلها بقدر بحسب ما يعلم من مصلحتهم ، فإن كثرة الرزق تجعل الناس يتجبرون ويتكبرون ، والله هو الخبير بما يصلح حالهم من فقر وغنى ، ثم أعقب هذا بأنهم إذا احتاجوا إلى الرزق لا يمنعه منهم وهو المتولى أمورهم بإحسانه المحمود على ما يوصل للخالق من صنوف الرحمة ، ثم أقام الأدلة على ألوهيته بخلقه للسموات والأرض وما فيهما من الحيوان ، ثم جمعهم للحساب يوم القيامة ، ثم ذكر أن مايصيب الانسان من نكبات الدنيا من الأمراض والأسقام والفقر والغنى فبكسب الانسان واختياره ، كما دلت على صدق ذلك التجارب ، ثم أعقب ذلك بآية أخرى على ألوهيته وهى جريان السفن فى البحار ، فتارة : يجعل الريح ساكنة فتظل السفن على سطحها ، وأخرى تعصف الرياح فتفرقها ، أو تنجو بحسب تقديره تعالى : —

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير** ﴾ :

أى أنه تعالى خبير بما يصلح عباده من توسيع الرزق وتضييقه ، فيقدر لكل منهم ما يصلحه ، فيبسط ويقبض ، ويعطى ويمنع . ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا . قال قتادة : يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك . وفى الأثر : « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه »[١] ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾[٢] ، وكقوله تعالى : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد** ﴾ : أى وهو الذى ينزل المطر من السماء فيغيثهم به من بعد يأسهم من نزوله حين حاجتهم إليه ، وينشر بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب ، وهو الذى يتولى عباده بإحسانه ويحمد على ما يوصله

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة الشورى) آية : ٢٧ جـ ٧ صـ ١٩٤ .
(٢) سورة الإسراء الآية : ٣٠
(٣) سورة العنكبوت الآية : ٦٢

إليهم من رحمته . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ محَط المطر وقنط الناس يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : مُطِرتم ثم قرأ : ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد** ﴾ .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾ [١] . وكقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ، لنحى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسىَّ كثيراً** ﴾[٢]، وكقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته** ﴾[٦] الآية وكقوله تعالى : ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة ، وسلطانه القاهر ﴿ **خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة** ﴾ : أى ذرأن فيهما أى فى السموات والأرض ﴿ **من دابة** ﴾ : وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم ، وقد فرّقهم فى أرجاء أقطار السموات والأرض ، ﴿ **وهو** ﴾ سبحانه : مع هذا كله ﴿ **على جمعهم إذا يشاء قدير** ﴾ : أى يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق ، ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾[٥] وكقوله تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير** ﴾[٦] وكقوله تعالى : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾[٧]

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٧

(٢) سورة الفرقان الآيتان ٤٨ ، ٤٩

(٣) سورة الروم الآية : ٤٦

(٤) سورة الروم من الآية : ٤٨ ــ ٥١

(٥) سورة الأنعام الآية : ٣٨

(٦) سورة لقمان الآية : ٢٨

(٧) سورة (يس) الآية ٥٣

وكقوله جلت قدرته : ﴿ **إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير** ﴾[١]. وكقوله عز وجل : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ، وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم** ﴾[٢].

وقوله عز وجل : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ : أى مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما من سيئات تقدمت لكم ، ﴿ **ويعفو عن كثير** ﴾ : أى من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة** ﴾[٣] ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة** ﴾[٤] وفى الحديث الصحيح « والذى نفسى بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا وكفَّر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها »[٥] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن على ــ رضى الله عنه ــ قال : « ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله ــ عز وجل ــ وحدثنا به رسول الله ﷺ ؟ قال « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »[٦] وسأفسرها لك يا على . ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أحلم من أن يثنى عليه العقوبة فى الآخرة ، وما عفا الله عنه فى الدنيا ، فالله ــ تعالى ــ أكرم من أن يعود بعد عفوه » ، وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى بردة عن معاوية : هو ابن أبى سفيان ــ رضى الله عنهما ــ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه ، إلا كفر الله ــ تعالى ــ عنه به من سيئاته »[٧] وقال الإمام أحمد أيضاً : عن مجاهد عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها »[٨].

وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال : فى قوله تعالى : ﴿ **وما أصابكُمْ من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ قال : لما نزلت قال رسول الله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر »[٩]

(١) سورة (ق) الآيتان : ٤٣ ، ٤٤

(٢) سورة الحجر الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

(٣) سورة النحل من الآية : ٦١

(٤) سورة فاطر من الآية : ٤٥

(٥) أخرجه البخارى فى (كتاب المرضى) باب : ما جاء فى كفارة المرض جـ ٦ صـ ١٤٨ ، ١٤٩ ، ومسلم فى (كتاب البر) باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض جـ ٨ صـ ١٥

(٦) انظر تفسير سورة الشورى آية ٣٠ جـ ٧ صـ ١٩٥ وقال : رواه ابن أبى حاتم عن على .

(٧) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ــ من رواية أبى سفيان جـ ٤ صـ ٩٨

(٨) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ــ مسند عائشة ــ رضى الله عنها ــ جـ ٦ صـ ١٥٧

(٩) انظر تفسير ابن كثير جـ ٧ صـ ١٩٥ ، ١٩٦ تفسير سورة الشورى وقال : أخرجه ابن أبى حاتم عن لحسن البصرى .

وقال أيضا : بسنده عن الضحاك قال : ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب . ثم قرأ الضحاك : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ ، ثم يقول الضحاك : وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن . وقوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير** ﴾ : أى إن ما قضاه الله عليكم واقع بكم لا محالة ولا مفر منه وما لكم من دون الله ولى يليكم بالدفاع عنكم ، ولا لكم نصير ينصركم إذا هو عاقبكم فينتصر لكم .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ماهم من محيص** ﴾ .

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة ، وسلطانه وتسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام : أى كالجبال ﴿ **إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره** ﴾ : أى التى تسير فى البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجىء ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره : أى على وجه الماء .

﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ : أى (هباء) فى الشدائد ﴿ **شكور** ﴾ : أى فى الرخاء .

قال الإمام ابن القيم فى شكر النعمة والصبر على المحنة : الشكر : مبنى على ثلاثة أركان : الاعتراف بها باطناً ، والتحدث بها ظاهراً ، وتصريفها فى مرضاة وليها ومسديها ومعطيها ، فإذا فعل ذلك فقد شكرها ـــ أى النعمة ـــ مع تقصيره فى شكرها . والصبر : حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية . كاللطم ، وشق الثياب ، ونتف الشعر ونحوه ، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام به العبد كما ينبغى انقلبت المحنة فى حقه منحة ، وتحولت البلية عطية ، وصار المكروه محبوباً ، فإن الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته ، فإن لله ـــ تعالى ـــ على العبد عبودية فى الضراء ، كما له عبودية فى السراء ، وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون ، والشأن فى إعطاء العبودية فى المكاره ، ففيه تفاوت مراتب العباد ، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى .

وقوله عز وجل : ﴿ **أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير** ﴾ : أى لو شاء سبحانه لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم ، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال ،

آبقة لا تسير على طريق ، ولا إلى جهة مقصد ، وأغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها . ﴿ **ويعف عن كثير** ﴾ : أى من ذنوبهم ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر . ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ **ربكم الذى يُزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ، وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ، أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا** ﴾(١) وكقوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور** ﴾(٢) .

وكقوله تعالى : ﴿ **هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص** ﴾ : أى وليعلم الذين ينازعون فى آياتنا على جهة التكذيب لها أنه لا مخلص لهم إذا وقفت السفن ، أو إذا عصفت الريح ، فيصير ذلك سبباً لاعترافهم بأن النافع الضار ليس إلا الله — تعالى — ، ولا محيد لهم عن بأس الله ونقمته ، فإنهم مقهورون بقدرته سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الإسراء الآيات : ٦٦ — ٦٩

(٢) سورة لقمان الآيات : ٣١ ، ٣٢

(٣) سورة يونس من الآية : ٢٣

الزهد والشورى والعفو

قال تعالى :

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

معانى المفردات

(آتاه الشىء) : أعطاه إياه ، (والمتاع) : ما ينتفع ويتمتع به من رياش وأثاث ونحوهما . (يتوكلون) : يفوضون إليه أمورهم ، (كبائر الإثم) : هى كل ما يوجب حداً ، (الفواحش) : هى ما فحش وعظم قبحه كالزنا والقتل ونحوهما ، (استجابوا) : أى أجابوا داعى الله ، فأدوا فرائضه وتركوا نواهيه ، (الشورى) : الشورى والمشاورة : المراجعة فى الآراء ليتبين الصواب منها ، (البغى) : الظلم ، (ينتصرون) : أى ينتقمون ، (السيئة) : مأخوذة من السوء ، وهو القبيح ، (انتصر) : أى سعى فى نصر نفسه بجهده : (من سبيل) : أى من عقاب ولا عقاب ، (لمن عزم الأمور) : أى : لمن الأمور المشكورة والأفعال التى ندب إليها عباده ، ولم يرخص بالتهاون فيها .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل توحيده ، وعظيم قدرته وسلطانه ــ أردف التنفير من الدنيا وزخرفها ، لأن المانع من النظر فى الأدلة إنما هو الرغبة فيها طلبا للرياسة والجاه ، ثم أبان أن ما عند الله خير وأبقى لمن

آمن به ، وتوكل عليه ، واجتنب كبائر الذنوب والفواحش ، وكان منقادا له مطيعا لأوامره تاركا لنواهيه ، وأقام الصلاة وأتى الزكاة ، ولم يبرم أمراً إلا بعد مشورة وانتصر لنفسه ممن ظلمه ، وذكر سبحانه أن ذلك الإنتصار مقيد بالمثل ، لأن النقصان حيف ، والزيادة ظلم ، والتساوى هو العدل ، ثم ندب إلى العفو ، ثم ذكر أنه لا مؤاخذة على من ينتصر لنفسه ، وإنما المؤاخذة على من يظلم الناس ، ويبغى فى الأرض بغير الحق ، وأن العفوِ وغفران السيئة مما حث عليه الدين ، وأجزل ثواب فاعله .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين أمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ .

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى بقوله تعالى ﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا** ﴾ أى مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ﴿ **وما عند الله خير وأبقى** ﴾ أى ثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدى فلا تقدموا الفانى على الباقى ولهذا قال سبحانه ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ أى للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ أى ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات . ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ **وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون** ﴾[1] فالدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له .

وقد قال الإمام النووى فى مقدمة كتابه رياض الصالحين : قال الله تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾[2] وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة ، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له ، والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة ، فإنها دار نفاد لا محل إخلاد ، ومركب عبور لا منزل حُبُور ، ومَشرَعُ انفصام لا موطن دوام ، فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العبَّاد ، وأعقل الناس فيها هم الزهاد ، قال تعالى ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا**

---

(١) سورة القصص آية ٦٠

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ ، ٥٧

ليلاً أونهاراً فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] والآيات فى هذا المعنى كثيرة ولقد أحسن القائل :

إن لله عبـــاداً فطنـــا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنـا
نظـروا فيها فلمـا علمـوا أنها لـيست لحى وطنـــا
جعلوهـــــا لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنـــا

فإذا كان حالها ما وصفته ، وحالنا وما خلقنا له ما قدمته ، فحق على المكلف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار ، ويسلك سلك أولى النهى والأبصار ، ويتأهب لما أشرت إليه ، ويهتم بما نبهت عليه . وأصوب طريق له فى ذلك وأرشد ما يسلكه من المسالك : التأدب بما صح عن نبينا سيد الأولين والآخرين ، وأكرم السابقين واللاحقين ، ــ صلوات الله عليه وعلى سائر النبين ــ أ هـ

فضل الزهد فى الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر

عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال . « إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يُنتج عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »[٢] متفق عليه .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها . فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء »[٣] رواه مسلم .

عن أنس ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »[٤] متفق عليه .

---

(١) سورة يونس آية ٢٤
(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٧٢٨ ، ٧٢٩ كتاب الزكاة باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا رقم ١٢٣ / ١٠٥٢ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٠٩٨ كتاب الذكر والدعاء . باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء . رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ .
(٤) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٥ صـ ٤٢ كتاب فضائل الصحابة باب دعاء النبى ﷺ أصلح الأنصار والمهاجرة الحديث صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٣١ كتاب الجهاد والسير . باب غزوة الأحزاب

وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله : فيرجع اثنان ، ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله »[١] متفق عليه .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ فى النار صبغة ، ثم يقال : ياابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا ، من أهل الجنة ، فيصبغ فى الجنة ، فيقال له : ياابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ ولا رأيت شدة قط فيقول : لا والله يارب : ما مر بى بؤس قط . ولا رأيت شدة قط »[٢] رواه مسلم .

وعن المستورد بن شداد — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ، فينظر بم يرجع ؟ »[٣] رواه مسلم .

وعن جابر — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ مر بالسوق ، والناس كنفتيه ، فمر بجدى أسك ميت ، فتناوله ، فأخذ بأذنه ، ثم قال « أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ » فقالوا : ما نحب أنه لنا بشىء ، وما نصنع به ؟ ثم قال « أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً ، لأنه أسك . فكيف وهو ميت ؟ فقال « فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم »[٤] رواه مسلم . (كنفتيه : جانبيه ، الأسك : الصغير الأذن)

وعن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل »[٥]

وكان ابن عمر — رضى الله عنهما — يقول : إذا أمسيت ، فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك »[٦] رواه البخارى

قالوا فى شرح هذا الحديث معناه : لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ولا تُحدث نفسك بطول البقاء فيها ، ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب فى غير وطنه — ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله . وبالله التوفيق .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرقائق رقم ٢٩٦٠/٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٦٢ . كتاب صفات المنافقين وأحكامهم . باب منبع نعم أهل الدنيا فى النار رقم ٢٨٠٧/٥٥

(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢١٩٣ كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب فناء الدنيا رقم ٥٥ / ٢٨٥٨

(٤) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٧٢ كتاب الزهد والرقائق رقم ٢ /٢٩٥٦

(٥) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ١١٠ كتاب الرقاق باب كن فى الدنيا كأنك غريب الحديث فى كشف الخفاء حـ ٢ ١٩٤ـ رقم ٢٠٢٣ .

(٦) الحديث فى صحيح البخارى . حـ ٨ صـ ١١٠ كتاب الرقاق . باب كن فى الدنيا كأنك غريب .

وعن النعمان بن بشير ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : ذكر عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ ما أصاب الناس من الدنيا ، فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ ، يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدَّقل ما يملأ به بطنه »[1] رواه مسلم

(الدقَل : بفتح الدال المهملة والقاف : ردىء التمر)

وعن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : تُوفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفٍ لى ، فأكلت منه ، حتى طال علىّ ، فكلته ففنى »[2] متفق عليه .

(شطير شعير : أى شىء من شعير ، كذا فسره الترمذى)

وعن سهل بن سعد الساعدى ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافراً منها شربة ماء »[3] رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى وما والاه ، وعالماً ومتعلماً »[4] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن عبد الله بن الشِّخِّير « بكسر الشين والخاء المشددة المعجمتين » ـــ رضى الله عنه ـــ أنه قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ قال : « يقول ابن آدم مالى ، مالى ، وهل لك يابن آدم من مالك ، إلا ماأكلت ، فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ »[5] رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ قال : نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثر فى جنبه ، قلنا : يارسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال « مالى وللدنيا ؟ ماأنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »[6] رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٨٤ كتاب الزهد والرقائق رقم ٣٤ / ٢٩٧٧ ، ٣٦ /٢٩٧٨ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٣ كتاب الزهد والرقائق رقم ٢٧ /٢٩٧٣

(٣) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٣ صـ ٣٨٣ أبواب الزهد . باب ما جاء فى هوان الدنيا على الناس . رقم ٢٤٢٢ وقال : هذا حديث صحيح غريب .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٣ صـ ٣٨٤ أبواب الزهد . باب ما جاء فى هوان الدنيا على الناس . رقم ٢٤٢٤ . وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرقائق رقم ٣ /٢٩٨ .

ـــ انظر سنن الترمذى حـ ٤ أبواب الزهد . رقم ٢٤٤٥ .

(٦) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٤ صـ ١٧ أبواب الزهد . رقم ٢٤٨٣ .

وعن ابن عباس وعوان بن الحصين ـــ رضى الله عنهم ـــ عن النبى ﷺ قال : « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء »(١) متفق عليه .

[النووى : رياض الصالحين]

وقال بعض السلف « الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها »

وذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ فقال على : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها . مهبط وحيِ الله ، ومصلَّى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومَتجُر أوليائه رَبحوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ترغيبا وترهيبا .

قال المأمون : لو سئلت الدنيا عن نفسها ما أحسنت أن تصف نفسها صفة أبى نواس فى هذا البيت :

إذا اختبر الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق .

قوله تعالى ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون** ﴾

أى وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين ويجتنبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن قال السدى (الفواحش) يعنى الزنا . قال الحافظ الذهبى : الكبائر ما نهى الله ورسوله عنه فى الكتاب والسنة والأثر عن السلف الصالحين ، وقد ضمن الله تعالى فى كتابه العزيز لمن اجتنب الكبائر والمحرمات أن يكفر عنه الصغائر من السيئات لقوله تعالى ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريما** ﴾(٢) فقد تكفل الله تعالى بهذا النص لمن اجتنب الكبائر أن يدخله الجنة ، وقال تعالى ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾

وقال تعالى : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة** ﴾(٣) .

وقال رسول الله ﷺ « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٠٩٦ كتاب الذكر والدعاء رقم ٩٤ / ٢٧٣٧

(٢) سورة النساء آية ٣١

(٣) سورة النجم آية ٣٢

مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر ﴾[١] . فتعّين علينا الفحص عن الكبائر ، ما هى ؟ لكى يجتنبها المسلمون ، فوجدنا العلماء رحمهم الله تعالى قد اختلفوا فيها ، فقيل هى سبع واحتجوا بقول النبى ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات ﴾[٢] فذكر منها : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . وقال ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ : (هى إلى السبعين أقرب منها إلى السبع ، وصدقوالله ابن عباس . وأما الحديث فما فيه حصر الكبائر ، والذى يتجه ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب شيئاً من هذه العظائم مما فيه حد فى الدنيا كالقتل والزنا والسرقة ، أو جاء فيه وعيد فى الآخرة من عذاب أو غضب أو تهديد ، أو لُعن فاعله على لسان نبينا محمد ﷺ فإنه كبيرة ولابد من تسليم أن بعض الكبائر أكبر من بعض . ألا ترى أنه ﷺ عدَّ الشرك بالله من الكبائر ، مع أن مرتكبه مخلد فى النار ولا يغفر له أبداً قال الله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[٣] أ هـ

هذا وقد ذكر الامام الذهبى فى كتابه سبعين كبيرة :

(١) الشرك بالله ، (٢) قتل النفس (٣) السحر (٤) ترك الصلاة (٥) منع الزكاة (٦) إفطار يوم من رمضان بلا عذر (٧) ترك الحج مع القدرة عليه (٨) عقوق الوالدين (٩) هجر الأقارب (١٠) الزنى (١١) اللواط (١٢) الربا (١٣) أكل مال اليتيم وظلمه (١٤) الكذب على الله وعلى رسوله (١٥) الفرار من الزحف (١٦) غش الامام الرعية وظلمه لهم (١٧) الكبر (١٨) شهادة الزور (١٩) شرب الخمر (٢٠) القمار (٢١) قذف المحصنات الغافلات المؤمنات (٢٢) الغلول من الغنيمة (٢٣)السرقة (٢٤) قطع الطريق (٢٥) اليمين الغموس (٢٦) الظلم (٢٧) المكاس (٢٨) أكل الحرام (٢٩) الانتحار (٣٠) الكذب فى غالب أقواله (٣١) القاضى بالسوء (٣٢) أخذ الرشوة على الحكم (٣٣) تشبه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء (٣٤) الديوث المستحسن على أهله والقواد الساعى بين الاثنين بالفساد (٣٥) المحِلل والمحلَل له (٣٦) عدم التنزه من البول (٣٧) الرياء (٣٨) التعلم للدنيا وكتمان العلم (٣٩) الخيانة (٤٠) المنَّان (٤١) التكذيب بالقدر (٤٢) التَّسمع على الناس (٤٣) النَّمام (٤٤) اللَّعان (٤٥) الغدر وعدم الوفاء بالعهد (٤٦) تصديق الكاهن والمنجم (٤٧) نشوز المرأة على زوجها (٤٨) التصوير (٤٩) اللطم والنياحة وشق الثوب وحلق الرأس ونتفه والدعاء بالويل والثبور عند المصيبة (٥٠) البغى (٥١) الاستطالة على الضعيف والمملوك والجارية والزوجة والدابة (٥٢) أذى الجار (٥٣) أذى المسلمين وشتمهم (٥٤) أذية عباد الله والتطول عليهم (٥٥) إسبال الإزرار والثوب واللباس والسراويل تعززاً وعجباً وفخراً وخيلاء (٥٦) لبس الحرير والذهب للرجال (٥٧) إباق

---

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ٢ صـ ٤٠٠ مسند أبى هريرة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ١ صـ ٩٢ كتاب الإيمان . باب بيان الكبائر وأكبرها رقم ١٤٥ /٨٩ .

(٣) سورة النساء آية ١١٦

العبد (٥٨) الذبح لغير الله عز وجل — (٥٩) فيمن ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم (٦٠) الجدال والمراء واللدد (٦١) منع فضل الماء (٦٢) نقص المكيال والميزان (٦٣) الأمن من مكر الله (٦٤) الإياس من روح الله (٦٥) تارك الجماعة فيصلى وحده من غير عذر (٦٦) الإصرار على ترك الجمعة والجماعة من غير عذر (٦٧) الإضرار فى الوصية (٦٨) المكر والخديعة (٦٩) من تّجسس على المسلمين ودل على عورتهم (٧٠) سب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم .

قوله تعالى ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ مازال الحديث عن صفات أبناء الآخرة الذين يخشون ربهم ويخافون سوء العذاب ، فمن محاسن أخلاقهم أنهم يشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهل عليهم ، يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ، لقوله تعالى ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[1]

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله[2] .

صور من أخلاق الرسول الكريم

وروى أن النبى ﷺ لما كسرت رباعيته وشُج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقا شديدا وقالوا لو دعوت عليهم فقال « إنى لم أبعث لعاناً ، ولكنى بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[3] قال القاضى أبو الفضل رحمه الله : انظر ما فى هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم ، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال اغفر أو اهد ، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله لقومى ، ثم أعتذر عنهم بجهلهم فقال فإنهم لا يعلمون ، ولما قال له الرجل أعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده فى جوابه أن بيّن له ما جهله ووعظ نفسه وذكّرها بما قال له : [فقال : ويحك ! !

(١) سورة آل عمران آية ١٣٤

(٢) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٤ صـ ٢٣٠ كتاب المناقب باب صفحة النبى ﷺ انظر صحيح مسلم حـ ٤ صـ ١٨١٣ كتاب الفضائل . باب مباعدته ﷺ من الآثام . رقم ٧٧ / ٢٣٢٧ .

— وانظر سنن أبى داود حـ ٥ صـ ١٤٢ كتاب الأدب . باب التجاوز فى الأمر رقم ٤٧٨٥ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٠٠٧ كتاب البر والصلة . باب النهى عن لعن الدواب . رقم ٨٧ / ٢٥٩٩ .

فمن يعدل إن لم أعدل ؟ خبت وخسرت إن لم أعدل][1] . ونهى من أراد من أصحابه قتله ، ولمّا تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ورسول الله ﷺ جالس تحت شجرة وحده قائلاً والناس قائلون فى غزاة فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف مسلول فى يده فقال من يمنعك منى ؟ فقال : [الله ، فسقط السيف من يده ، فأخذه النبى ﷺ وقال من يمنعك منى ؟ قال كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه فجاء إلى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس »[2]

وعن أنس — رضى الله عنه — كنت مع النبى ﷺ وعليه بُرد غليظ الحاشية فجبذه أعرابى بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البُرد فى صفحة عاتقه ثم قال يا محمد أحمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك ، فسكت النبى ﷺ ثم قال : « المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى ، قال ، لا ، قال « لم » ؟ قال لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة فضحك النبى ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر »[3] قالت عائشة — رضى الله عنها — (ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حُرمة من محارم الله وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله وما ضرب خادما ولا امرأة)[4] والحديث عن حلمه ﷺ وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتى عليه وحسبك صبره على قسوة قريش ! وأذى أهل الجاهلية ، فلما نصره الله عليهم وحكّمه فيهم قال : (يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم . وهو أرحم الراحمين)[5]

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا   منها ، وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل   يُغْرَى بهن ويولع الكرماء

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٤ صـ ٢٤٣ كتاب علامات النبوة فى الإسلام بلفظ ويلك ...... الخ
ــ انظر صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٧٤٤ كتاب الزكاه . باب ذكر الخوارج وصفاتهم رقم ١٤٢ ــ ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ بلفظ ويلك ..... الخ .
(٢) الحديث فى الدار المنثور فى تفسير المأثور (تفسير سورة المائدة) حـ ٣ صـ ١١٩ انظر مسند الإمام أحمد حـ ٣ صـ ٣٩٠ مسند جابر
(٣) الحديث فى سنن النسائى حـ ٨ صـ ٣٣ ، ٣٤ كتاب القسامة . باب القود من الجبذة .
ــ انظر صحيح البخارى حـ ٧ صـ ١٨٩ كتاب اللباس . وكذلك حـ ٨ صـ ٢٩ كتاب الأدب
ــ وانظر صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٧٣٠ ، ٧٣١ كتاب الزكاة . باب إعطاء من سأل بفحش . رقم ١٢٨ /١٠٥٧
(٤) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ٦ صـ ٣١ ، ٣٢ مسند عائشة
(٥) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ ٨ صـ ١٨ باب دخول النبى من أعلى مكة وانظر اتحاف السادة المتقين حـ ٨ صـ ٤١ .

قوله تعالى ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

والاستجابة لله معناها إجابة أمره ، وامتثال ماأوجب ، واجتناب مانهى ، فإن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها كما أنه تعالى حد حدودا فلاتعتدوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلاتسألوا عنها . وقد قيل لأعرابى لم آمنت بمحمد ؟ فقال بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين ، لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل ليته ماأمر ولم ينه عن شىء وقال العقل ليته مانهى .

نعم إنه النبى الذى بعث لتوحيد العقائد لا لتفريق القواعد وجاء بشرع كان للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ،

﴿ يا أيها الذين أمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[1]

﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[2]

﴿ يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[3] .

﴿ يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بماكنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وماالله يريد ظلما للعالمين ، ولله مافى السموات ومافى الأرض وإلى الله ترجع الأمور ، كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[4] . ﴿ يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾[5] .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٤

(٢) سورة الأنفال آية ٢٧

(٣) سورة النساء آية ١

(٤) سورة آل عمران الآيات من ١٠٢ — ١١٠

(٥) سورة الأحزاب الآيتان ٧٠ ، ٧١

ما أعظم هذا الدين ، وما أحل قواعده

دين يشيد آية فى آية لبناته السورات والأضواء
الحق فيه هو الأساس وكيف لا والله جل جلاله البنّاء

ما أعظمك يارسول الله عندما تشخص الداء وما أروعك عندما تصف الدواء . لقد كانت المعرفة رأس مالك ، والعقل أصل دينك ، والحب أساسك ، والشوق مركبك ، وذكر الله أنيسك ، والثقة كنزك ، والحزن رفيقك ، والعلم سلاحك ، والصبر رداءك ، والرضا غنيتك ، والفقر إلى الله فخرك ، والزهد حرفتك ، واليقين قوتك ، والصدق شفيعك ، والطاعة حسبك ، والجهاد خلقك وجعلت قرة عينك فى الصلاة .

أشرق النور فى العوالم لما بشرتها بأحمد الأنباء
جاء للناس والسرائر فوضى لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح وشرعه والحق والصواب وراء
تلك آياى الفرقان أرسلها الله يهدى بها من يشاء
ولجبريل جيئة وذهاب وهبوط إلى الثرى وارتقاء
نسخت سنة النبين والرسل كما ينسخ الضياء الضياء

ومن وجوه الاستجابة لله أنهم أقاموا الصلاة ، والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين لو لم تكن رأس العبادات ، لعُدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان وطهارة أردان وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور ، وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يرود به المخلوق التوجه إلى الخالق ، انظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع ، وكيف ساوت العلية بالزمع مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة سواء فى عتبة الله ، خر الجمع للمناخر ، فالصف الأول كالآخر ، لم يرفع المتقدم تقدمُه ، ولم يضع المتأخر تأخُره فالكل عند الله من آدم وآدم من تراب .

كانت أمنا عائشة — رضى الله عنه — تقول : (كان رسول الله ﷺ يكلمنا ونكلمه ويحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه) وكان الحسن — رضى الله عنه — يقول : « من أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن » .

وقيل لحاتم الأصم ــ رضى الله عنه ــ كيف أنت إذ دخلت الصلاة فقال إذا دخلت الصلاة جعلت الكعبة أمامى ، والموت ورائى ، والجنة عن يمينى والنار عن شمالى والصراط تحت قدمى معتقدا أن الله مطلع علىّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردّها علىّ .

وبلغ من أهمية الصلاة وعلو مكانها ومكانتها أن جعلها العلامة ابن القيم من أسباب تفريج الهم والكرب والحزن فقد عقد رحمه الله فصلاً تحت عنوان (فى هدية ﷺ فى علاج الكرب والهم والغم والحزن) قال فيه :

أخرج فى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب :
(لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله رب السموات السبع ورب الأرض رب العرش الكريم »[١]

وفى جامع الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ إذا حز به أمر قال : « ياحى ياقيوم برحمتك استغيث »[٢]

وفى سنن أبى داود عن أبى بكر أن رسول الله ﷺ قال دعوات المكروب ، اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت »[٣]

وفى مسند الإمام أحمد « عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال « ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو انزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً »[٤]

وفى الترمذى عن سعد بن أبى وقاص ، قال : قال رسول الله ﷺ « دعوة ذى النون ، إذ دعا ربه وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجيب له »[٥] .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ٩٣ كتاب الدعوات . باب الدعاء عند الكرب
ــ انظر صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء . باب دعاء الكرب . رقم ٨٣ / ٢٧٣٠ .
(٢) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٥ صـ ٢٠١ أبواب الدعوات رقم ٣٥٩٣ . وقال : هذا حديث غريب .
(٣) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٥ صـ ٣٢٥ ، ٣٢٦ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح . رقم ٥٠٩٠ وقال محققه ، ونسبه المنذرى للنسائى .
(٤) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ١ صـ ٣٩١ مسند عبد الله
(٥) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٥ صـ ١٩١ أبواب الدعوات رقم ٣٥٧٢ .

وفى سنن أبى دواد عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ « من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب »[١] .

وفى المسند أن النبى ﷺ **كان إذا حَزَبَهُ** أمر ، فزع إلى الصلاة وقد قال تعالى ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾[٢] .. ويقول ، : وأما الصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة ودفع مفاسد الدنيا والآخرة ، وهى منهاة عن الإثم ، ودافعة لأدواء القلوب ومطردة للداء عن الجسد ، ومنورة للقلب ومبيضة للوجه ، ومنشطة للجوارح والنفس ، وجالبة للرزق ودافعة للظلم ، وناصرة للمظلوم ، وقامعة لأخلاط الشهوات وحافظة للنعمة ، ودافعة للنقمة ، ومنزلة للرحمة ، وكاشفة للغمة ، ونافعة من كثير من أوجاع البطن .

فإن لم ينشرح صدر زنديق الأطباء بهذا العلاج ، فيخاطب بصناعة الطب ، ويقال له : الصلاة رياضة النفس والبدن جميعا ، إذا كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة من الانتصاب ، والركوع ، والسجود ، والتورك والانتقالات وغيرها من الأوضاع التى يتحرك معها أكثر المفاصل ، وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة كالمعدة ، والأمعاء ، وسائر آلات النفس ، والغذاء ، فما ينكر أن يكون فى هذه الحركات تقوية وتحليل للمواد ، ولا سيما بواسطة قوة النفس وانشراحها فى الصلاة ، فتقوى الطبيعة ، فيندفع الألم ، ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاءت به الرسل ، والتعوض عنه بالإلحاد داء ليس له دواء إلا نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذَّب وتولَّى .

مبحث فى الشورى

وصف الله المؤمنين الصادقين بصفات كريمة ، وشمائل رفيعة ، فهم ينسابون فى أخلاق أرق من النسيم ، وأنضر من صفحة الروض الوسيم ، إنهم الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وهمُ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون . وهم الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ، وهم الذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون .

إنهم تلك الكواكب الدرية ، والنجوم الزاهرة العلوية .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٢ صـ ١٧٨ ، ١٧٩ كتاب الصلاة رقم ١٥١٨ . وقال **محققه أخرجه النسائى** . وابن ماجة فى الأدب . باب الاستغفار رقم ٣٨١٩ . وأحمد فى مسند وإسناده صحيح والحكم بن مصعب ذكره ابن حبان **فى الثقات وترجمه البخارى** فى الكبير ١ ــ ٢ ــ ٣٣٦ فلم يذكر فيه جرحا .

ــ انظر حلية الأولياء حـ ٣ صـ ٢١١ ترجمة على بن عبد الله بن العباس . وقال محققه : **هذا حديث غريب من حديث محمد** بن على عن أبيه عن جده تفرد به عنه الحكم بن مصعب .

(٢) الحديث فى مسند أحمد حـ ٥ صـ ٣٨٨ مسند حذيفة

﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار[1]. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾[2] .

ولما وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين بقوله ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ وجدنا لزاما علينا أن نفصل القول فى الشورى إذ هى مبدأ أصيل وركن ركين وحصن مكين وسياج منيع لحماية الأمة ، وهى أيضا حجر الزاوية ومحور الارتكاز والعنصر الفعال فى نظام الحكم فى الاسلام ، وقد جاء فى كتاب (فى النظام السياسى للدولة الاسلامية للدكتور محمد سليم العّوا) تحت عنوان

فى أهم المبادىء الدستورية الإسلامية

جاء ما نصه :

نناقش فى هذا المبحث أهم المبادىء السياسية (أو الدستورية) الإسلامية وهى — فى نظرنا — الشورى والعدل والحرية والمساواة ومدى جواز مساءلة الحاكم .

أولاً : الشورى

يعد مبدأ الشورى من أهم المبادىء الدستورية الإسلامية ، وتكاد المصادر الإسلامية التى عنيت ببحث المسائل المتعلقة بنظام الحكم فى الدولة الإسلامية أن تجمع على أهمية الشورى وتصدرها مبادىء الاسلام السياسية ، ويتناول بحثنا فى موضوع الشورى أدلة حجيتها ومدى وجوبها ، ونطاقها ، ومدى إلزام الرأى الذى تنتهى إليه الشورى (وهو البحث المعروف بعنوان هل الشورى ملزمة أم معلمة) .

أدلة محجيه الشورى فى القرآن الكريم .

يستدل على حجية الشورى بالقرآن والسنة . أما القرآن الكريم فقد وردت فيه آيتان صريحتان ذكرت فيهما الشورى : كأمر واجب فى إحداهما ، وكوصف يمدح فاعلوه المتصفون به فى الثانية . ففى الآية الأولى

(١) سورة الرعد الآيات من ١٩ — ٢٤

(٢) سورة الرعد آية ٢٨ ، ٢٩

يخاطب القرآن الكريم رسول الله ﷺ فيقول له : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر** ﴾[1] وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد التى خرج إليها الرسول ﷺ وكان رأيه أن يبقوا فى المدينة ويدافعوا عنها من داخلها — وبينت الأحداث التى مرت بالمسلمين فى أثناء هذه الغزوة أن رأى الرسول ﷺ كان هو الأصوب والأصح — ومع ذلك فقد أمر الله نبيه بعد هذه الأحداث بأن يستغفر لأصحابه . وبأن يشاورهم فى كل ما يحتاج إلى مشاورة . والنص بهذه الصورة وفى هذه الظروف ، نص قاطع لا يدع مجالا للشك فى أن الشورى مبدأ أساسى من مبادىء النظام السياسى الإسلامى ، وقيمته غليا يجب على الأمة المسلمة أن تتمسك بها دائما وتحت جميع الظروف .

أما الآية الثانية : فهى قول الله تعالى فى سورة الشورى ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[2] وهذه الآية مكية (نزلت فى مكة) ومن ثم فإن وصف المؤمنين بأن (أمرهم شورى) يفيد أن الشورى من خصائص الإسلام التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون سواء أكانوا يشكلون جماعة لم تقم لها دولة بعد (وذلك كان هو حال المسلمين فى مكة) أو كانوا يشكلون دولة قائمة بالفعل كما كان حال المسلمين فى المدينة .

الشورى فى السنة النبوية :

أما السنة النبوية فإنها زاخرة بالأمثلة العملية لاستشارة الرسول ﷺ لأصحابه حتى قال أبو هريرة — رضى الله عنه — « مارأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ ومن ذلك استشارة الرسول ﷺ لأصحابه فى الخروج يوم بدر ، وفى المنزل الذى ينزله عندها وفى الخروج أو البقاء فى المدينة يوم أحد ، وفى مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة ، وغير ذلك كثير . (انظر سيرة ابن هشام) . ومن هذه السنة العملية لرسول الله ﷺ تستفاد قاعدة عامة مؤداها أن الحاكم أو الأمام يستشير الأمة — أو أولى الرأى فيها — فيما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى تبادل الآراء .

وذلك فى شأن الرسول ﷺ قاصر على الأمور التى لم يكن فيها وحى بفعل أمر معين أو تركه ، فإن ما كان محلا لوحى فلا مجال للمشاورة فيه ، أما بعد عصر الرسالة فإن الشورى قد تمتد حتى تغطى تلك المسائل المنصوص على أحكامها إذا كانت المناقشة خلال الشورى ترمى إلى الوصول إلى اتفاق على فهم ملائم — لظروف الوقائع أو الزمان أو المكان — لتطبيق النصوص بالإضافة إلى شمول الشورى — بطبيعة الحال — لتلك الأمور التى لم يرد فيها نص معين ، أى : الأمور التى تركت للاجتهاد .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) سورة الشورى آية ٣٨

وجوب الشورى :

والرأى الراجح بين الفقهاء هو أنه يجب على الحاكم مشاورة الأمة فى الأمور العامة بحيث اذا تركها الحاكم كان للأمة أن تطالبه بها ، وأن تبدى رأيها — ولو لم يطلب منها فيما قد يكون لها فيه رأى .

وهذا الوجوب مستفاد من الآيتين الكريمتين اللتين قدمنا ذكرهما فى أدلة حجية الشورى ففى الآية الأولى جاء الأمر إلى الرسول ﷺ بأن يشاور أصحابه ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ وإذا كانت المشاورة واجبة على رسول الله ﷺ وهو يحكم دولة الإسلام — فإنها تجب كذلك — من باب أولى — على كل حاكم لدولة إسلامية بعده .

ويبدو ذلك واضحا إذا تذكرنا أن الرسول ﷺ كان فى واقع الأمر — مستغنياً عن المشاورة ، إذ يأتيه الوحى بحل ما قد يبدو مشكلاً من الأمور . بينما لا سبيل أمام من بعده من الحكّام إلا أن يستفيدوا من خبرات وآراء أولى الرأى فى الأمة .

وأما الآية الثانية فقد جعلت الشورى وصفا لازماً للمؤمنين يحفها من يمينها فى النص القرآنى — وصف المؤمنين بالاستجابة لله ، وأقام الصلاة ، ومن يسارها وصفهم بالانفاق مما رزقهم الله تعالى . وذلك كله من فرائض الاسلام وواسطة عقد هذه الآية الكريمة هى الشورى التى مدح بها المؤمنون ، وكأن وصف الإيمان الكامل لا يتحقق بغيرها .

ومع أن القول بالوجوب — فى شأن الشورى — هو الأرجح عند الفقهاء المسلمين ، فقد ذهب البعض إلى أن الأمر الوارد بالشورى إنما هو للندب لا للوجوب . وأن المقصود بهذا « الندب » هو « تطيب قلوب الصحابة» والواقع أن هذا لا يعدو أن يكون فهماً فى معنى الآية الكريمة وسبب نزولها ، وليس ثمة ما يمنع من القول بأن « تطيب القلوب » هو أحد أسباب الأمر بالشورى ولكنه ليس هو السبب الوحيد وليس أدل على ذلك من فعل الرسول ﷺ نفسه فى كثرة مشاورته لأصحابه . وقد فطن الفقهاء المسلمون إلى هذه المعانى كلها ، فقرروا أن الشورى من عزائم الأحكام التى لابد من نفاذها (والعزائم : الواجبات التى لا يجوز تركها) ورتبوا على ذلك أن من ترك الشورى من الحكام فعزله واجب دون خلاف (انظر تفسير القرطبى — والتفسير الكبير للفخر الرازى) .

نطاق الشورى

أما نطاق الشورى ، أى المسائل التى يمكن أن تكون محالها ، فبذلك مالا نجد له فى النصوص المقررة لوجوب الشورى تحديداً قاطعاً . فقد ورد الأمر بالشورى فى القرآن الكريم واصفا إياها بأنها الشورى فى (الأمر) . وفى هذه الكلمة من العموم والإطلاق ما يجعلها تشمل كل شئون الجماعة المسلمة فى كل نواحى

حياتها غير أن مثل هذا الإطلاق ـــ فى الواقع ـــ لا يمكن أن يكون مراداً من النصوص التى تأمر بالشورى . ذلك أنه يوجد قيدان يجب التقيد بهما فى هذا الخصوص .

أولهما أن الشورى لا تكون فى أى مسألة ورد فيهما نص فى القرآن الكريم أو السنة التى تعد تشريعا عاما . فهذه الأمور خارجة بالضرورة عن نطاق الشورى ، ولا يمكن ـــ بعد ورود النص ـــ أن تكون محلاً لها ، اللهم إلا إذا كان موضوع الشورى هو تفسير النص أو تنفيذه ، ولا يكون ذلك ـــ بداهة ـــ إلا فيما بعد عصر الرسالة من عصور إذ يختص الرسول بذلك التفسير والتنفيذ خلال حياته ﷺ .

والقيد الثانى هو أنه حين تعرض مسأله ما على الشورى فإنه لا يجوز أن ينتهى رأى المشيرين ، أو المستشارين ، إلى نتيجة تخالف نصاً من النصوص التشريعية الواردة فى القرآن الكريم أو السنة النبوية ، إن مثل هذه المخالفة تمنع الأخذ بالرأى الذى تنتهى إليه الشورى ، وتجعلها من ثم لا قيمة لها .

أما خارج دائرة هذين القيدين (للذين يمكن اعتبارهما شقين لقيد واحد ، هو التزام النصوص فى الموضوعات التى تعرض للشورى وفى النتيجة التى تنتهى إليها) فإن كل أمر مما لم يرد فيه نص يمكن أن يكون محلا للشورى ما دام يتعلق بمسألة تعد من الشئون العامة للأمة .

المرونة فى تحديد نطاق الشورى

والواقع أن عدم تحديد وتعيين الموضوعات التى تعرض للشورى تحديداً قاطعا هو الأليق بمنهج الإسلام فى التشريع ، من تقرير الكليات والقواعد العامة ، وترك الجزئيات والتفصيلات ليوائم المسلمون بصددها بين النصوص وبين متطلبات الأزمات والأمكنة التى تطبق فيها شريعة الإسلام .

وبديهى أن الأمور التى سوف تعرض للشورى سوف تكون دائما من الأمور ذات الدقة والخطر مما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى روية وإعمال نظر . أما أمور « الإدارة اليومية » التى تشغل الأجهزة التنفيذية والإدارية للدولة فإنها ـــ بطبيعتها وبحكم حاجتها إلى حسم يقترن بالسرعة ـــ لا تتحمل العرض على الشورى اللهم إلا إذا تعلق بعضها ببعض الخطير من الأمور أو المشاكل التى تمس مجموع الأفراد المتعاملين مع هذه الأجهزة .

ويستوى بعد ذلك ـــ فى تقديرنا ـــ أن تكون تلك الأمور ذات الدقة والخطر من الأمور التنفيذية أو من الأمور التشريعية (مما ليس فيه نص قطعى) فقد عرض عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ عدة مسائل تشريعية على أهل شوراه من بينها مسألة عقوبة شارب الخمر ، ومسألة سواد العراق (أى أرضه التى فتحت فى عهده) على أنه إذا كانت المسألة المعروضة للشورى من المسائل التشريعية (أى التى يحتمل أن يصدر بشأنها قرار يكون أثره عاما مجردا) فإنه يتعين أن يكون من بين من تعرض عليهم للشورى من يعدون

من المجتهدين ، إذ أن الرأى فى مثل هذه المسائل لا يكون متكاملا إلا إذا ضمت هيئة الشورى المجتهدين — أو بعضهم — للأسباب المفصلة فى موضعها من كتب أصول الفقه وفلسفة التشريع .

مدى الزام الشورى :

وإذا كانت الشورى مقررة بنصوص القرآن والسنة ، وكان اتباع هذه النصوص واجبا على الحكام ، وكان نطاق الشورى يشمل ما أشرنا إليه فى الفقرات السابقة من مسائل ، فإنه يبقى علينا أن نبحث مدى إلزام الرأى الذى تنتهى إليه الشورى أو ما يعرف بمسألة هل الشورى ملزمة أم معلمة ؟

وفى هذا الخصوص نجد أننا أمام رأيين متعارضين ،

أحدهما : يقول أصحابه أن الشورى ملزمة للحاكم بحيث اذا استقر رأى أهلها — أو غالبيتهم — على شيء وجب عليه اتباعه .

أما الرأى الثانى ، فيرى أصحابه أنه لا يجب على الحاكم أن يفعل ما انتهى إليه أكثرية المشيرين ، وإنما يكفى أن يشاورهم ثم يمضى بعد ذلك فينفذ ما يراه راجحاً عنده خالف ذلك رأى أهل الشورى أو وافقه .

ويستدل أصحاب هذا الرأى الأخير بتفسير بعض المفسرين لقول الله تعالى ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾[1] إذ يذهب هؤلاء إلى أن معنى هذا النص أن للرسول أن يأخذ بما انتهت إليه الشورى أو يدعه .

كما يستدلون ببعض مواقف للرسول ﷺ ولصاحبيه أبى بكر وعمر يرون فيها أن الشورى لم تكن ملزمة فيما انتهت إليه . ومن أهم هذه المواقف موقف الرسول ﷺ فى قضية صلح الحديبية حيث أمضاه ﷺ رغم معارضة بعض أصحابه فى ذلك . وموقف أبى بكر الصديق فى انفاذ جيش أسامة رغم عدم موافقة بقية الصحابة على ذلك . وموقفه من حروب الردة التى خالفه فيها أصحابه ، وكذلك موقف عمر فى تقسيم أرض العراق .

ويذهب أصحاب الرأى الأول من القائلين بأن الشورى ملزمة إلى أن الآية المشار إليها إنما تدل على

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

لزوم نتيجة الشورى ، إذ لا يكون العزم إلا بعد الشورى . ولذلك قال فى تفسيرها القرطبى نقلا عن قتادة : إن العزم هو الأمر المروى المنقح ، وليس ركوب الرأى دون روية عزما .
ولا ينقض ذلك ما يقال من أن معنى (وتوكل على الله) أن لا يتوكل على مشاورتهم ، ذلك أن التوكل هو طلب التأييد والتسديد ، وذلك لا يكون إلا من الله سبحانه وتعالى الذى بيده مقاليد كل شيء . أما دور المشاورة فمحصور فى بيان أقرب الآراء إلى الصواب وأحراها بالاتباع .

ويمكننا تأييد هذا الرأى أيضا بما ذكره الطبرى فى تفسيره من أن العزم والتوكل على الله إنما يكون فى الأمر الذى يصدر فيه الرسول عن وحى الله تعالى إليه ، وأمره إياه بفعل شيء معين . فعند ذلك لا يجوز للرسول ﷺ أن ينظر إلى رأى أهل شوراه ، وعليه أن ينفذ ما أمر به ، وافق ذلك رأيهم أو لم يوافقه . وفى ذلك يقول الطبرى « فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك ، وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك ، فامضى لما أمرناك به على ما أمرناك به وافق ذلك أراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفه » « انظر تفسير الطبرى » .

وواضح من هذا النص أنه ينبغى العزم على كل ما جاء به الوحى دون نظر — فيه — إلى الشورى ونتيجتها ، أما ما لم يكن فيه وحى فلا دلالة لهذا النص عليه ويبقى على الأصل من التزام الشورى فيه .

أدلة القائلين بعدم إلزام الشورى : (ومناقشتها)

أما المواقف التى استند إليها النافون لكون الشورى ملزمة فيبدو أنهم قد جانبهم التوفيق فى تفسيرها وتأويلها . بل وأحيانا فى روايتها أيضا ، وبيان ذلك كما يلى :

صلح الحديبية :

إن موضوعَ صلح الحديبية لم يكن — فى أى مرحلة من مراحله — محلا للشورى . وإنما صدر فيه الرسول ﷺ عن الوحى من أوله إلى آخره . وكل ما حدث أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قد سأل الرسول ﷺ : لم يقبل المسلمون الصلح ؟ فكان جواب الرسول له : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى ، بل إن رسول الله ﷺ قد بين قبل ذلك أى قبل المناقشة مع عمر — أن الأمر مرجعه إلى الوحى — فحين توقفت ناقة رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « حبسها حابس

الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها »[١] ومن ثم فإنه لا علاقة لما حدث فى صلح الحديبيه بموضوع الشورى من قريب أو بعيد ، ولا دليل فيه على لزومها أو عدمه .

وإذا تبين أن صلح الحديبيه كان مرجع عقده بين رسول ﷺ وبين مشركى قريش هو الوحى ، فإنه يتبين أيضا ، بالإضافة إلى ما تقدم من عدم صحة الاستدلال به فى موضوع الزام الشورى ، خطأ استدلال بعض العلماء الرسميين من المعاصرين بموقف النبى ﷺ فى عقده هذا الصلح على صحة عقد المعاهدات مع أعداء الدولة الإسلامية . وخطأ هذا الاستدلال يبدو أكثر وضوحاً إذا استصحبنا الحقائق التالية :

١ ــ أن الله سبحانه وتعالى قد نسب صلح الحديبيه إلى نفسه وسماه فى محكم كتابه فتحا مبينا ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا** ﴾[٢] فأنى لأى حاكم فى أية دولة إسلامية ، بعد الرسول ﷺ أن يضمن أن ما يعقده من معاهدات يؤيده فيه من الله عز وجل نصره وهدايته وتمام نعمته ؟ ومن هنا فإننا لا نرى القياس على صلح الحديبية أصلا . ذلك أن صلح الحديبية لم يكن ليتم لولا وحى الله إلى نبيه بقبول ما قبله فيه . وما كان كذلك لا يعد قاعدة عامة يجوز القياس عليها . بل هو مما صح فيه قول الفقهاء عن الوقائع النبوية التى لا يقاس عليها : « قضية عين لا محموم لها » .

٢ ــ إن صحة المعاهدة وجواز عقدها لا يتوقف على قياس أو استدلال بسابقة لأن الأصل فى عقد المعاهدات هو تحقيق مصلحة الأمة المسلمة والدولة المسلمة . والمرجع فى ذلك هو القواعد المقررة فى أصول الفقه تحت عنوان « المصالح المرسلة » وفى أبواب الضرورة وما إليها .

فما حقق مصلحة الأمة الإسلامية من المعاهدات فإمضاؤه جائز بلا خلاف ، ولا يحتاج إلى فتيا بصحة الإقدام عليه . وما كان مهدرا لمصلحة الأمة أو مضيعا لها فإمضاؤه غير جائز بلا خلاف ــ كذلك ــ وإذا وافق عليه بعض المسلمين فهو لا يلزم غيرهم ممن لم يوافق عليه . لأن أحدا لا يملك إهدار حقوق المسلمين أو التنازل عنها . فإن فعل ففعله مردود عليه ولا يحتج به على غيره .

٣ ــ إن حقن دماء المسلمين ، وحفظ حياة الشباب ، وتجنب الدولة الإسلامية ويلات الحرب ، كل ذلك لا يجوز أن يكون سببا لتبرير عقد دولة إسلامية معاهدة صلح أو سلام مع دولة غير إسلامية .

فالمسلمون لا يعتبرون حياة أبنائهم ودماءهم أغلى من أن تراق فى سبيل الله أو فى سبيل الوطن

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقى حـ ٩ صـ ٢١٨ ، ٢١٩ باب المهادنة على النظر للمسلمين .

(٢) سورة الفتح الآيات ١ ، ٢ ، ٣

الإسلامى . لأن ﴿ **إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقا فى التوارة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[1]

٤ ــ إن الإسلام يجيز أن تعقد الدولة الاسلامية معاهدة صلح أو سلام مع دولة غير إسلامية بشرط أن يجنح الأعداء للسلم ، ومعنى الجنوح للسلم ــ على ما قرر أئمة التفسير ــ هو أن يتخلى أعداء الدولة الإسلامية عن عدوانهم ، وأن يردوا إلى المسلمين ما يكونوا قد اغتصبوه منهم من أموالهم وأرضهم وذلك هو معنى قوله تعالى ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾[2]

وتحقق شروط مثل هذه المعاهدة . أو توافر مبررات عقدها أمر تقديرى متروك تقريره لأولى الأمر فى الدولة الإسلامية . وهو يخضع لظروف وأمور لا يحصرها عد ، ولا يتوفر الإلمام بها على كثرتها وتشعبها للأفراد العاديين ...

ونعود بعد ذلك إلى ما بدأنا بتقريره ، فنكرر أن الاستدلال بقضية صلح الحديبية على عدم إلزام الشورى ، أو على إلزامها ، استدلال غير صحيح . وأن الاستدلال بالقضية ذاتها على جواز عقد المعاهدات بين دولة إسلامية ودولة غير إسلامية ، استدلال فى غير محلة . فلا صلح الحديبية كان محلا للشورى . ولا الحكام بعد النبى ﷺ يجدون مثل ما كان يجد من تأييد الوحى وتسديده . فليس أمام هؤلاء إلا الأمة يستشيرونها وينزلون عنه رأى أولى الرأى فيها . وقد أغنى الله نبيه عن ذلك . فكما أنزل عليه فى حروبه ملائكته ، أيده بروح منه ، وسدد الوحى قوله وفعله .

بعث جيش أسامة

أما موقف أبى بكر من بعث جيش أسامة فالواقع أن أبا بكر إنما كان ينفذ فى ذلك وصية رسول الله ﷺ وقد كان ــ عليه الصلاة والسلام ــ هو الذى جهز جيش أسامة وأشرف على ذلك بنفسه ثم منعه من الخروج مرض رسول الله ﷺ فكل ما فعله أبو بكر فى هذا الشأن إنما هو تنفيذ أمر رسول الله الذى خرج الجيش قبل موته من المدينة فعلا ، ثم رأى قائده أن يقيم ــ حين اشتد مرض رسول الله ﷺ على مقربة منها ليروا ما يكون من أمر هذا المرض . فلما تولى أبو بكر الخلافة أمر أسامة أن يخرج لما كلفه به الرسول ﷺ وقد كان جواب أبى بكر فى ذلك لمعارض خروج الجيش حاسما فى تقرير ما قدمنا ، إذ قال لهم ، « ما كنت لأمنع بعثاً أنفذه رسول الله ﷺ

أو يوافقها وإنما كان أمراً نبوياً ينفذه فحسب .

(١) سورة التوبة آية ١١١

(٢) سورة الأنفال آية ٦١

حروب الردة

ومن المعروف أن أبا بكر ــ رضى الله عنه ــ قد رأى ــ قبل غيره من الصحابه ــ وجوب قتال من ارتد من العرب بعد وفاة الرسول ومن منع الزكاة منهم ــ غير أن هذا الرأى لم يعد فى النهاية رأى أبى بكر وحده . وإنما وافقه عليه المعارضون لذلك من الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقد روى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فى هذا الشأن « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » وليس من شك فى أن للإمام أو الحاكم أن يبدى رأيه فى الشورى ، وأن يقدم الأدلة التى تقنع الناس به وذلك ما فعله أبو بكر إذ استدل بحديث الرسول ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله »[1] وبين وجه الاستدلال بهذا الحديث بقوله : « فإن الزكاة حق المال » ومن ثم فقد وافقه على الدليل والاستدلال به مخالفوه أول الأمر وفى مقدمتهم عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ . وإذا صح ذلك ــ وهو صحيح لا ريب فيه ــ فإن أبا بكر لم يخالف أهل الشورى فيما انتهوا إليه ، وإنما هم الذين وافقوه فيما بدأ به .. ولم يكن ــ كما يقول بعض الباحثين ــ « يخالف الرأى الذى أشار به المسلمون بما يقرب من الإجماع » .

تقسيم أرض العراق

وأما موقف عمر بن الخطاب من تقسيم أرض العراق بعد فتحها ، فإنه أيضا دليل على أخذه بما تنتهى إليه الشورى وليس دليلا على إهداره إياها . ذلك أن المروى بأسانيد صحيحه أن عمر قد استشار فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشار عليه عامتهم بقسمتها كما قسمت خيبر حين فتحها رسول الله ﷺ وأشار عليه على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل بعدم قسمتها حتى تبقى موردا للمسلمين فى أجيالهم المتعاقبة . فاقتنع عمر برأيهما وبدأ يشاور فى المسألة المسلمين حتى أقنعهم برأيه واستجابوا له فلم يقسم أرض العراق .

الصحيح هو التزام الحاكم بتنفيذ ما تنتهى إليه الشورى :

وإذا تبين هذا فإنه يصبح ، بينما أن الحاكم ــ وقد وجبت عليه الشورى ــ يجب عليه أن يلتزم نتيجتها التى ينتهى إليها رأى أكثر المشيرين وأنه لا دليل يصح الاستناد إليه فى تأييد من ذهب إلى أن الشورى معلمة وليست ملزمة .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ١٣٨ باب قول النبى ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء .
وانظر صحيح مسلم حـ ١ صـ ٥١ ، ٥٢ كتاب الإيمان . باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . رقم ٣٢ / ٢٠ / ، ٣٣ / ٢١ .

وإنما الذى تدل عليه الأدلة جميعا ــ من فعل الرسول وصاحبيه ــ أن الشورى متى انتهت إلى رأى وجب على الإمام أو الحاكم تنفيذه . ومن الجدير بالإشارة أن فعل رسول الله ﷺ فى الخروج فى غزوة أحد لقتال المشركين خارج المدينة واضح الدلالة على هذه القاعدة ، وعلى قاعدة التزام رأى الأكثرية ولو خالف رأى الحاكم أو رأى غيره من أولى الرأى .

والواقع أن الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأى الأكثرية ، ووجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضى التزام رأى الأكثرية .. على الأقلية التى لم يؤخذ برأيها أن تكون أول من يسارع إلى تنفيذ رأى الأكثرية وأن تنفذه بإخلاص باعتباره الرأى الذى يجب اتباعه ولا يصح اتباع غيره .. وليس للأقلية أن تناقش من جديد رأيا اجتاز دور المناقشة ، أو تناقش فى رأى وضع موضع التنفيذ . وتلك سنة رسول الله ﷺ التى سنها للناس ، والتى يجب على كل مسلم اتباعها .

وقد بين صحة هذا الرأى فى إيجاز بليغ الأستاذ الإمام محمد عبده بقوله « إن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر . والخطر على الأمة فى تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر .. فكان ﷺ وهو المعصوم عن الخطأ ــ يستشير أصحابه .. ويرجع عن رأيه إلى رأيهم » وقال الأستاذ محمد رشيد رضا « وليس عندى عن الأستاذ فى هذه المسألة غير هذا » .

من ذلك كله يتبين أن الشورى قاعدة من قواعد الإسلام الأساسية فى المجال السياسى ــ أو مجال الشئون الدستورية ــ ثبت حجيتها بدلالة نصوص آيات القرآن الكريم ، وبأحاديث الرسول ﷺ وسنته العملية وأن تشريع الإسلام فى معالجته إياها قد جاء من العموم والمرونة بحيث يسمح للأمة الإسلامية أن تختار للقيام بواجب الشورى الشكل الذى يلائم الأوضاع المختلفة فى الأزمنة والأمكنة المختلفة . وخارج نطاق الأمور الأساسية التى سبق لنا بيانها فإن بقية المسائل بمشورة المختصين فيها ، بحيث يحققون المصالح والغايات التى يجب على هذه الدولة تحقيقها .

ثانيا : العدل

لعل المكانة التى جعلها الإسلام فى تشريعه للعدل لم تجعلها له أيه شريعة سابقة ، ولم يبلغ مثلها مكان العدل فى أى نظام قانونى قديم أو حديث . وليس أدل على ذلك من آيات القرآن الكثيرة التى تحض على العدل وتأمر به : أمراً مجملاً شاملا للشئون كلها ــ فى العديد من الآيات ــ وأمراً مفصلاً خاصاً ببعض الأمور التى يتوقع فيها الحيف والظلم ــ فى بعض الآيات الأخرى ــ فمن آيات القرآن التى جاء فيها الأمر بالعدل على وجه العموم والإطلاق ــ قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى**

وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾[١] وقوله تعالى ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به** ﴾[٢] وقد يبدو للبعض أن هذه الآية الكريمة يقتصر نطاقها على التطبيق فى مجال القضاء ، والحكم فى المنازعات ، وبناء عليها ــ وفق قواعد العدالة . غير أن هذا الفهم لا يتفق وما ذهب إليه جماهير المفسرين لكتاب الله إذ يقررون أن « المراد من الحكم فى هذه الآية هو ما كان عن ولاية عامة أو خاصة » .

وكما فرض القرآن فيما بين المؤمنين بعضهم بعضاً ، فرضه أيضا فيما بينهم وبين أعدائهم ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾[٣] وقد يحمل الحب ــ كما يحمل الكره ــ بعض القلوب على الحيف والجور تحقيقاً لما يظنونه مصلحة لمن يحبون . ولذلك يحذر القرآن من مثل هذا الحيف فيخاطب المؤمنين ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ﴾[٤] والقسط هو العدل .

وليس المفروض بنصوص القرآن الكريم هو العدل فى الحكم والفعل فحسب ، بل كذلك حتى فى القول ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** ﴾[٥] .

وقد نص القرآن الكريم على وجوب فرض العدل على الناس ولو بالقوة . قال تعالى ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب** ﴾[٦] .

وفى فهم هذه الآية الكريمة قال ابن تيمية « فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، أن يقوم الناس بالقسط فى حقوق الله وحقوق خلقه .. فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد » .

تحريم الظلم

وكما أمر القرآن الكريم بالعدل وحض عليه ورغّب فيه ، نهى عن الظلم وكره فيه وحذر منه ، وبين عاقبة الظالمين فيقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم** ﴾[٥] وجعل من وظائف الرسول ، وأسباب نزول القرآن الكريم التحذير من الظلم فقال تعالى : ﴿ **لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** ﴾[٦] ولم يبح القرآن للمسلم أن يجهر بالسوء

---

(١) سورة النحل آية ٩٠
(٢) سورة النساء آية ٥٨
(٣) سورة المائدة آية ٨
(٤) سورة النساء آية ١٣٥
(٥) سورة الأنعام آية ١٥٢
(٦) سورة الحديد آية ٢٥
(٧) سورة الشورى آية ٤٢
(٨) سورة الأحقاف آية ١٢

من القول إلا فى حالة ظلمه قال تعالى ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم** ﴾[١] بل لقد جعل القتال مباحا فى حالة الظلم ﴿ **أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾[٢] وبين سبحانه عاقبة الظلم والظالمين فى آيات عديدة ، منها قوله تعالى ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا** ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾[٤]

وقد عنى الرسول ﷺ فى أحاديث كثيرة بالأمر بالعدل والنهى عن الظلم . وبين عاقبة العدل فى حق الحكام فجعل أول السبعة الذى يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله « الإمام العادل » وحذر ﷺ من الظلم فى أى شأن كان فقال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »[٥] .

ومن مجموع هذه الآيات والأحاديث استخرج الفقهاء قواعد إيجاب العدل وتحريم الظلم حتى قال ابن تيمية إن « الظالم يستحق العقوبة والتعزير وهو أصل متفق عليه .. وقد نص على ذلك الفقهاء .. ولا أعلم فيه خلافا » وقرر تلميذه ابن قيم الجوزية أن العدل هو المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل ، وإن السياسة العادلة جزء من الدين ، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان : فثم شرع الله ودينه ...

ثالثاً : الحرية

السلطة والحرية .

تعد مشكلة الصراع بين السلطة والحرية من أعقد المشكلات التى تواجه الباحثين فى تاريخ وأصول الأنظمة السياسية والدستورية . وعلى الرغم من اتفاق المفكرين من رجال القانون والسياسة ومن علماء الاجتماع فى مختلف لأمم ، وفى كافة العصور على أن الحرية هى الغاية السامية التى تتطلع إليها الأنظمة الحاكمة ، والنظريات السياسية ، والقوانين الموضوعة لتنظيم العلاقات الاجتماعية — على الرغم من ذلك — فإن الحرية كانت ، ولا تزال ، بعيدة عن أن يحدد لها معنى معين يقبله الجميع أو أن يتفق بصدد ممارستها على طريقة معينة . وحتى فى المجال السياسى حيث يبدو أن للحرية معناها الواضح وهو « عدم استبداد الحاكمين بالمحكومين » فإنه يندر أن يبقى هذا المعنى على هذه الدرجة من الوضوح وخاصة حين تتفاوت الأطراف

---

(١) سورة النساء آية ١٤٨

(٢) سورة الحج آية ٣٩

(٣) سورة الكهف آية ٥٩

(٤) سورة الشعراء آية ٢٢٧

(٥) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٣ صـ ١٦٩ بلفظ (الظلم ظلمات يوم القيامة) كتاب المظالم . باب الظلم ظلمات يوم القيامة . وانظر الحديث بلفظه فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ١٩٩٦ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم . رقم ٥٦ / ٢٥٧٨ .

المتصارعة فى تحديد معنى الحرية . ويقسم الباحثون فى الفقه الدستورى الحديث ، الحرية إلى شعب عديدة ، فهناك حرية الرأى ، وحرية العقيدة ، وحرية التعليم ، وحرية الملكية ، والحرية الشخصية .. ولعل حرية الرأى هى الأصل فى هذه الشعب والأقسام جميعا وهى على أى حال ألصق هذه الحريات بالنظام السياسى للدولة . ولذلك فسوف نكتفى هنا ببيان مدى كفالة الإسلام لحرية الرأى ــ بل أمره بها ــ واعتباره إياها حقا أساسياً للإنسان لا يجوز الاخلال به .

كفالة الاسلام لحرية الرأى .

وليس من شك ــ عندى ــ فى أن التشريع الإسلامى يذهب فى اعتباره لهذه الحرية واحتفائه بها إلى مدى ندر أن تصل إليه المذاهب السياسية أو النظم الدستورية الوضعية ومرد ذلك فيما أرى إلى اعتبار الإسلام ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، تتضمن « حقهم فى الاختيار » فى اختيار الرأى ، واختيار الفعل أو الموقف الذى يترتب على هذا الرأى . وليس أوضح فى الدلالة على هذا المعنى مما يقرره القرآن الكريم فى قصة آدم وزوجه . فقد بين القرآن كيف نهاهما الله عن الأكل من إحدى شجرات الجنة . ثم كيف خالفا هذا النهى ﴿ **فأكلا منها** ﴾ ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾[1] **وترتب على هذه المعصية خروجهما من الجنة مع قول الله تعالى لهما** ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾[2]

فتعبير هذه الآيات عن فعل آدم وزوجه بالأكل والمعصية ثم التعبير باتباع الهدى أو الإعراض عنه ، هذه التعبيرات مجتمعة تبين بوضوح دلالة هذه الحادثة من تاريخ البشرية على أن « الحق فى الاختيار » قدرة فطر الإنسان عليها ، ومارسها منذ كان .

وقد مضى الإنسان يمارس حقه فى هذا الاختيار منذ أن وجد على الأرض حتى قال القرآن الكريم ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب** ﴾[3] فمخلوقات الله جميعا تسجد له إلا بنى الإنسان ، فإن منهم الساجدين ومنهم الكافرين أو منهم المطيع ومنهم العاصى . وهذا اختيار محض .

وإذا كان ما قدمنا صحيحا ــ وهو عندى صحيح لا ريب فيه ــ فإنه يكون صحيحا من وجهة نظر إسلامية ، ذلك التصور الذى يقول أنه من حق ا لإنسان أن يمارس دائما حريته أو حقه أو الاختيار وأن الحرية فى هذا التصور قدرة لدى الإنسان ، أو فطرة فطر عليها ، ليس لأحد ــ كائنا من كان ــ أن يمنعه إياها أو يحرمه ممارستها ...

---

(١) سورة طه آية ١٢١

(٢) سورة طه الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤

(٣) سورة الحج الآية ١٨ .

سيرة الرسل جميعا تؤكد حرية الرأى

وحياة رسل الله جميعا ــ يحكيها القرآن ــ كانت كلها بيانات بالحجة ، وجدالا بالبرهان الذى يقبله العقل ، ويخضع له الفكر ، قبل أن يسلم به القلب ، وتستجيب له عاطفة الإيمان . فها هو نوح بعد أن لبث فى قومه ألف سنه إلا خمسين عاما يقول له قومه : ﴿ **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾[1] وها هو هود يقول لقومه ﴿ **أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم واباؤكم** ﴾[2] وليس أدل من هذه المجادلات التى يحكيها القرآن بين رسل الله وأقوامهم على مدى إقرار الإسلام ــ دين الله منذ كان الإنسان ــ بحق الناس فى حرية التفكير وحرية الرأى . فمن البين أن الجدال يقتضى الأخذ والرد ، أى : يقتضى إلقاء الأنبياء بحججهم إلى الناس وسماع ردود الناس على هذه الحجج ، وليس أبعد مدى من تلك الحرية .

القرآن والسنة يقرران حرية الرأى .

ولقد بين القرآن لرسول الله ﷺ كيف تكون دعوته إلى ربه ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[3] بل إن القرآن ليبين لرسول الله أنه لا سبيل إلى الحجر على حرية الناس فى التفكير أو الاعتقاد وأن الأمر فى ذلك إليهم يختار كل منهم لنفسه ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾[4] بل إن القرآن ليقرر فى ذلك تقرير الحقيقة الواقعة ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾[5] وسبيل التعامل مع هؤلاء الذين لا يؤمنون هو ما أمر القرآن به الرسول ﷺ ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾[6].

وليس أعظم كفالة لحرية الرأى ، حتى للمخالفين فيه ، من هذه السبيل ... وإذا كانت هذه هى أحكام القرآن الكريم ــ مصدر تشريع الاسلام الأول ــ فى شأن مسألة العقيدة والإيمان ــ وهى أعظم مسائل الدين على لإطلاق ، فهل يجوز بعد ذلك أن يقال أن تعاليم هذا الدين تحجر على الناس آراءهم فى النواحى الأخرى لحياتهم الاجتماعية أو السياسية ؟ لا شك أن ذلك مما تأباه نصوص القرآن وروحه ومنهم المسلمين وعملهم فى مختلف العصور . ولن يستطيع أحد أن يأتى على مثل هذا القول بدليل من تشريع الإسلام أو

---

(١) سورة هود آية ٣٢
(٢) سورة الأعراف آية ٧١
(٣) سورة النحل آية ١٢٥
(٤) سورة يونس آية ٩٩
(٥) سورة يوسف آية ١٠٣
(٦) سورة الأنبياء آية ٢٤

تاريخ رسوله ، أو تاريخ الراشدين ممن حكموا به . ويكفينا تدليلا على ذلك أن نذكر حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه لأصحابه : « لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت »[١] ... رواه الترمذى .

الجهر بالرأى واجب وليس مجرد حق أو رخصة

ولا يفوتنا هنا أن نذكر ما سبق أن أشرنا إليه من إيجاب شريعة الإسلام على المسلمين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . والواقع أن تقرير واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعتبر سبقا تميزت به شريعة الاسلام فى مجال الحرية . ولم تصل إلى مثله بعد أية شريعة من الشرائع الوضعية ..

العلماء المسلمون وحرية الرأى السياسى .

ولم يكن المسلمون فى ذلك إلا متبعين لسنة رسول الله ﷺ مهتدين بمثل قوله ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ : « الدين النصيحة » قلنا لمن ؟ قال « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[٢] وقوله ﷺ : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر »[٣] . وقد توالت عصور الإسلام وعلماؤه العاملون لا يكتمون حقا ولا ينصرون باطلا ولا يهابون ذا سلطان بل يجهرون بآرائهم فى شئون السياسة والحكم ذاكرين قول جابر ـــ رضى الله عنه ـــ : أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا ـــ يعنى السيف ـــ من عدل عن هذا ـــ يعنى المصحف » (ذكره ابن تيمية فى السياسة الشرعية) ولا يعنى ذلك أن علماء الإسلام فهموا من شريعته أن يخرجوا محاربين لكل حاكم يميل أدنى ميل من أحكام شريعة الله ولو كان متأولا وآخذاً بقول ظاهر الضعف لمصلحة يراها وإنما كانوا فى هذه الحالات يكتفون بالقول والنصح والإرشاد والبيان . وادخروا الأخرى للحالات التى لا يجدى علاجها سواها . عاملين بحديث رسول الله ﷺ فى النهى عن الخروج عن الحاكم المسلم « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان »[٤] (رواه البخارى) .

وفيما دون ذلك اكتفوا كما قلنا بالجهر بالحق والأمر بالمعروف بلا خوف من حاكم أو غيره ، إذ كانت قلوبهم خالصة العبودية لله متحررة من سلطان كل سلطان سواه ، حتى قال قائلهم « الحريةُ حرية القلب ،

(١) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٣ صـ ٢٤٦ أبواب البر . رقم ٢٠٧٥
(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ١ صـ ٧٤ كتاب الإيمان . باب بيان أن الدين النصيحة . رقم ٩٥ / ٥٥
(٣) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٣ صـ ٣١٨ أبواب الفتن . باب أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر رقم ٢٢٦٥ .
ـــ انظر مجمع الزوائد حـ ٣ صـ ٦٧ رقم ٥٥١٤ .
(٤) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ٥٩ كتاب الفتن . باب سترون بعدى أمورا تستنكرونها .
ـــ انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٧٠ كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأفراد فى غير معصية . رقم ٤٢ / ١٧٠٩

والعبودية عبودية القلب » . أى من كان موصول القلب بالله تعالى ، كامل الطاعة له ، مستيقنا من قدرته وقهره ونفاذ إرادته وأمره . هو الحر حقا أما غير هؤلاء ممن تعلقت قلوبهم بالدنيا وأصحابها وطمعوا فيما عند الناس ونسوا ما عند الله فهم غير أحرار ولو كانوا بين الناس من ذوى المكانة والجاه أو كانوا عند ذوى السلطان من المقربين المكرمين .

بمثل هذا الفهم عاش علماء الإسلام حياتهم ، يعلمون الناس دينهم ، ويبنون لهم أحكام شريعتهم ، ويقولون رأيهم فى سلوك حكامهم . رأيهم المعبر عما فهموه من أصول الإسلام وقواعده ، وما استنبطوه من شريعته التى أمرهم مبلغها عن الله ــ عز وجل ــ ألا يخافوا فى الحق لومة لائم ....

ويروى التاريخ من مواقفهم فى ذلك ما لايحيط به الحصر ، فمن ذلك ما يرون مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى ، من أن عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموى ، بعث إلى عامله بالمدينة ليأخذ العهد على الناس بأن يبايعوا من بعده بالخلافة ولديه الوليد وسليمان . فامتنع من ذلك سعيد بن المسيب ــ رضى الله عنه ــ وخوطب كثيرا ليعدل عن امتناعه فلم يقبل وصمم عليه حتى ضرب فى ذلك ستين سوطا وما بايع . ودعى سعيد بن المسيب إلى ثلاثين ألفاً ليأخذها ــ هدية من الوالى ــ فقال « لا حاجة لى فيها ولا فى بنى مروان حتى ألقى الله فيحكم بينى وبينهم » ..

وهذا أبو جعفر المنصور ، ثانى خلفاء بنى العباس ، يدعو سفيان الثورى فيقول له عظنى أبا عبد الله ، فيجيبه سفيان . وما عملت يا أمير المؤمنين فيما علمت حتى أعظك فيما جهلت ؟ فيقول المنصور : ما يمنعك أن تأتينا ؟ فيقول سفيان . قال الله تعالى : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** ﴾[١] . فهو يقول له رأيه فيه بجرأة لا يعرفها إلا من وصل بالله قلبه ، ويعلن له أنه من الذين ظلموا ، ومن الذين لا يعملون بما علموا ، ولذلك يأبى أن يأتى إليه أو يخاطبه . حتى يقول المنصور فيه « ألقينا الحب إلى العلماء فالتقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا مرارا » .

ولقى هارون الرشيد ، فضيل بن عياض ــ وكان من العباد الزاهدين ــ فسلم عليه وقال له ــ يالها من كف ــ ما ألينها إن نجت من عذاب الله ــ عز وجل ــ ووعظه وعظاً شديدا فكان من قوله له « إياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك فإن رسول الله ﷺ قال « من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة »[٢]

ولم يكن ذلك مسلك العلماء المسلمين فى العصور الأولى للإسلام فحسب حين كان العهد قريبا بزمان النبوة ، والاستشراف قويا إلى سيرة الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ بل ظلت تلك سيرة العلماء فى كل

---

(١) سورة هود آية ١١٣

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٦ كتاب الإمارة .

عصور الإسلام على امتدادها الطويل ، فالتاريخ يحكى لنا عن النووى ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وكثيرين غيرهم من المتأخرين مثل هذه المواقف التى قدمناها وأشد مع غلبة الظلم فى عصور هؤلاء وتفشى الجور والبعد عن الحق ، وقد كانوا يلاقون فى سبيل الحق الذى يصدعون به التعذيب والسجن والقتل أحيانا . وهم ثابتون على الحق لا يداهنون ، ولا يشترون رضاء المخلوقين بسخط الخالق ولعل ذلك كله ليس إلا مصداق قول رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى قائمون بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون »[1] .

وبعد . فأين مما قدمنا قول القائلين « لا علاقة بين الاسلام والسياسة » ؟ ولم كانت هذه المواقف من علماء الإسلام إذن ؟ أكانت طلبا للدنيا وسعيا وراء الجاه ؟ .. كلا فالذى لا مراء فيه أن الدنيا كانت تسعى إليهم ويفرون منها ، والمناصب تعرض عليهم فيرفضونها ..

فلم تكن مواقفهم تلك إلا صادرة عن علمهم بهذه الشريعة التى أخلصوا لها وحدة واحدة . وأنه لا يجزى عن العالم فيها علمه ما لم يكن مقرونا بالعمل . وأن خير العمل ما كان نصحا للأمة ، وأمرا بالمعروف وصدعا بالحق . فأين من ذلك كله علماؤنا اليوم ؟

وبقدر ما تعتبر هذه المواقف تطبيقا صحيحا لتعاليم الإسلام ، وتاريخا مجيدا لعلمائه ، فإنها تعتبر شهادة عدل وخير للحكام المسلمين الذين لم تغرهم الدنيا بجاهها ، ولا الحكم بسلطانه كى يقهروا الرأى الحر والنصيحة المخلصة . وإن التاريخ لينبىء بصدق أن الحاكم العادل هو الذى تزدهر الحرية فى عهده . حتى أنه لا يخطىء من يقول أن عدل الحاكم وحرية الرعية يتلازمان دائما . وأن ظلم الحاكم وجوره يقترن أبدا باختفاء الرأى الحر والكلمة الصادقة فى المجتمع الذى يسوده الظلم والقهر .

رابعاً : المساواة

معنى المساواة

يعد مبدأ المساواة من أهم المبادىء الدستورية التى تستند إليها الأنظمة السياسية الحديثة والمعاصرة . وقد بدأ تقرير هذا المبدأ فى العصر الحديث فى « إعلان الحقوق الفرنسى » الصادر فى سنة ١٧٨٩ والذى يعد أكثر إعلانات الحقوق شهرة لأنه أحرز قيمة عالمية بتبنى معظم دساتير العالم لمبادئه وتضمنها نصوصا تدل بوضوح على التأثر به .

والمقصود بمبدأ المساواه هو أن يكون الأفراد المكونين لمجتمع ما متساوين فى الحقوق والحريات والتكاليف

---

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ٤ صـ ١٠١ مسند معاوية بن أبى سفيان .

والواجبات العامة . وألا يكون هناك تمييز فى التمتع فيما بينهم بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو العقيدة .

غير أن هذه المساواة هى مساواة قانونية وليست مساواة فعلية . مساواة قانونية بحيث يخضع الأفراد الذين تتماثل ظروفهم لذات القواعد التى تحدد الحريات والحقوق العامة . وليست مساواة فعلية بحيث تطبق القواعد ذاتها على جميع الأفراد مهما تباينت الظروف التى يخضع لها كل منهم أو دون نظر إلى مدى اختلاف هذه الظروف ، اذ كما تخل التفرقة بين المتماثلين بمبدأ المساواة فإن التسوية بين غير المتماثلين تتضمن إخلالا أكبر وأخطر بهذا المبدأ ، ولذلك يسمى هذا المبدأ بمبدأ المساواة أمام القانون . وقد ترتب على الأخذ بمبدأ المساواة أمام القانون زوال امتيازات النبلاء والأشراف فى فرنسا عقب الثورة الفرنسية . وكذلك ترتب على تقرير هذا المبدأ القضاء على تبعية الإنسان للأرض وخضوعه لأصحابها من الإقطاعيين ، كما كان الحال فى العصور الوسطى . ويعتبر مبدأ المساواة أمام القانون حجر الزاوية فى تنظيم وتقرير الحريات العامة التى لا يقوم تقريرها ويستمر إلا باحترام مبدأ المساواة أمام القانون فإذا أهمل هذا المبدأ انهار تنظيم الحريات العامة ، أو أصبح غير ذى قيمة فى الواقع العملى .

ويعالج فقهاء القانون الدستورى الوضعى ، والباحثون فى النظم السياسية ، عدة مظاهر لتطبيق هذا المبدأ يجعلون لها أهمية خاصة ، من بينها المساواة أمام القضاء ، والمساواة فى تولى الوظائف العامة والمساواة أمام المصالح العامة وغيرها . إلا أنهم مع ذلك يتفقون على أن المساواة أمام القانون تتضمن فى جوهرها كل مظاهر المساواة الأخرى التى تمثل بدورها مضمون هذا المبدأ فى صورته الكاملة . ومن ثم فإنه يكفى تقرير المبدأ ذاته لتقرير هذه المظاهر كلها أى لتقرير مضمونه .

ومع وجود هذا الاتفاق على تقرير مبدأ المساواة أمام القانون ، فإن الباحثين يختلفون حول الأصل الذى يمكن إرجاع هذا المبدأ إليه . فيرى بعضهم ذلك الأصل فى فكرة العقد الاجتماعى التى يفسرون بها أصل فى نشأة الدولة بينما يرى آخرون أن نظرية القانون الطبيعى ــ الذى يعتبرونه اسمى وأولى بالاحترام من القانون الوضعى ــ هى التى يمكن أن يرد إليها هذا المبدأ .

المساواة فى شريعة الإسلام

فإذا انتقلنا إلى الشريعة الإسلامية فإننا نجد فيها لمبدأ المساواة مكانا مرموقاً بين قيمها الأساسية التى تقررها مصادر هذه الشريعة والتى طبقها رسول الله ﷺ وأصحابه . وقد كان تقرير هذا المبدأ فى القرآن الكريم وفى سنة الرسول ﷺ ، عند ظهور الإسلام وانتشاره ، سبقا لشريعته فى زمانها ومكانها يشكل فى واقع العرب انقلابا أساسيا فى مفاهيمهم عن أسس التفاضل بين الناس وأسباب الفخر التى تحوزها بعض القبائل أو البيوت دون بعض ..

وبينما كان العرب تسيطر على حياتهم هذه المفاهيم نزل القرآن الكريم يقرر : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[١] . ووقف فى المسلمين رسول الله ﷺ يقول : « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالأباء مؤمن تقى ، أو فاجر شقى . أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب »[٢] (رواه ابو داود بسند صحيح) .

وخطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فكان مما قال للمسلمين بل للناس أجمعين : « يا أيها الناس : ألا إن ربكم عز وجل واحد . إلا وإن أباكم واحد . ألا لا فضل لعربى على أعجمى ألا لا فضل لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا قد بلغت ؟ قالوا : نعم قال : ليبلغ الشاهد الغائب »[٣] (رواه الأمام أحمد فى مسنده)

لا استثناء على مبدأ المساواة فى الإسلام

وإذا كانت نظرية المساواة أو أحكامها فى التشريعات الوضعية تعرف بعض الاستثناءات التى يتمتع بها بعض الأفراد كالحكام وأعضاء الهيئات التشريعية فإن مبدأ المساواة الذى تقرره الشريعة الإسلامية لا تنطبق فى ظله مثل تلك الاستثناءات . ذلك أن أساس هذا المبدأ(أو علته) هى وحدة الأصل الإنسانى ﴿ **إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ و﴿ **كلكم لآدم وآدم من تراب** ﴾ أما التقوى التى تشير النصوص السابقة إلى تفاضل الناس بها فلا تأثير لها على تطبيق مبدأ المساواة فى حياة الناس . ذلك أن محل التفاضل بالتقوى فى الآخرة لا فى الدنيا ، أمام الله لا بين الناس .. وليس أدل على ذلك من حادثة المرأة التى اتهمت بالسرقة ، فحاول بعض الصحابة أن يشفع لها ، فغضب لذلك رسول الله ﷺ وخطب الناس فقال : « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[٤] وعلى أساس من هذا الفهم كانت أول خطبة خطبها أبو بكر — رضى الله عنه — بعد توليه الخلافة تتضمن إقرارا صريحا بعزمه على تطبيق مبدأ المساواة أمام القانون فقال « والضعيف فيكم قوى عندى حتى أخذ له حقه ، والقوى ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه » .
ومن هذا أيضا ، كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقيدون عامة الناس من أنفسهم .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣

(٢) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٥ صـ ٣٣٩ ، ٣٤٠ كتاب الأدب . باب فى التفاخر بالأحساب . رقم ٥١١٦ .

(٣) الحديث فى مسند الإمام حـ ٥ صـ ٤١١ مسند (حديث رجل من أصحاب النبى — ﷺ —) .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٣١٥ كتاب الحدود . باب قطع السارق الشريف وغيره ، والنهى عن الشفاعة فى الحدود رقم ٨٠ / ١٦٨٨ .

وكما تسوى بينهم فى القضاء الذى يمثلون أمامه . فالقضاء فى الشريعة الإسلامية واحد للناس جميعا . ولا تعرف مبادىء هذه الشريعة ، كما لم يعرف تطبيقها على امتداد القرون ـــ نظام المحاكم الخاصة فى تشكيلها ، أو الخاصة فى إجراءاتها كما تعرفه القوانين الوضعية .. ولذلك كان الخلفاء ورعاياهم من المسلمين أو غير المسلمين يمثلون أمام القاضى الذى يمثل أمامه عامة الناس . ويتبع فى إجراءات التقاضى ما ينطبق على هؤلاء كما ينطبق على غيرهم . وليس من شك أن هذا يعد أحد نتائج الأخذ بمبدأ المساواة الذى قررته النصوص سالفة الذكر .

فإن تقرير هذا المبدأ فى الشريعة الإسلامية كان جزء من أحكام هذه الشريعة ذاتها . ومن ثم فإنه ينبغى أن يفهم ويحكم هذا المبدأ ـــ وغيره من مبادئها ـــ فى إطار التشريع الإسلامى لا فى إطار غيره من التشريعات . وفى المجتمع الاسلامى وليس فى سواه من المجتمعات .

خامساً : جواز مساءلة رئيس الدولة ومدى وجوب الطاعة

تختلف الأحكام الخاصة بجواز مساءلة رئيس الدولة فى أنظمة الحكم الحديثة والمعاصرة من دولة إلى أخرى . فبعض الدول تقرر دساتيرها أن رئيس الدولة ليس محلا للمؤاخذة عن تصرفاته وأعماله . ولو بلغت التصرفات حد خرق القوانين أو الاعتداء عليها . كما كان يقرر دستور سنة ١٩٢٣ م فى مصر (م /٣٣) والذى كان يتضمن نصاً على أن ذات الملك مصونة لا تمس . وتقرر بعض الدساتير جواز مساءلة رئيس الدولة عن بعض الأعمال التى يأتيها فى حالات خاصة ، أو إذا شكلت هذه الأعمال خطورة معينة . وإلى ذلك ذهب الدستور الفرنسى ، والدستور المصرى الصادر سنة ١٩٦٤ (م /١١٢) الذى تضمن النص على جواز مساءلة رئيس الدولة عن الأفعال التى تعد خيانة عظمى ، أو التى تمثل عدم ولاء للنظام الجمهورى . وقد تقرر فى نصوص بعض الدساتير الأخرى جواز مساءلة رئيس الدولة فى نطاق أوسع من هذا النطاق ، حيث يسأل رئيس الدولة عن جرائم الخيانة العظمى والجرائم العادية أيضا . وتشترط هذه الدساتير ـــ عادة ـــ أغلبية برلمانية معينة لإصدار قرار اتهام رئيس الدولة بإحدى هذه الجرائم . وقد أخذ بهذا المذهب الدستور اللبنانى (م / ٦٠) والدستور المصرى الصادر فى سبتمبر ١٩٧١ (م /٨٥) ومما تقدم يتضح أن الإتجاه الذى تسير نحوه الدساتير الحديثة هو توسيع نطاق جواز مساءلة رئيس الدولة بشموله للجرائم العادية (أى المنصوص عليها فى القوانين الجزائية للدولة) بالإضافة إلى جرائم الخيانة العظمى وما فى حكمها . وهذا المبدأ هو المبدأ المقرر أصلا فى الشريعة الاسلامية . فوفقاً لأحكامها ليس ثمة تمييز بين رئيس الدولة وغيره من الأفراد فى خصوص مساءلته عن مخالفة القوانين . فضلا عن تقرير مبادىء الشريعة الإسلامية جواز مساءلة رئيس الدولة عن تصرفاته فى شئون الحكم . فكما قررت الشريعة الإسلامية لرئيس الدولة ـــ متى قام بواجباته ـــ حق الطاعة والنصرة على المحكومين ، واعتبرت الخروج عليه من هذه الحالة « بغيا » يجب أن يكف ـــ ولو بالقوة ـــ فاعله . فإنها جعلت للأمة حق مساءلته حين يقصر فى أداء واجباته أو ينحرف بسلطاته .

حق الأمة فى محاسبة الحاكم

ويستدل على حق الأمة فى مساءلة رئيس الدولة بما يجب على أفرادها من القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبمالها من حق الشورى ، فلولا أن الأمة رقيبة على رئيس الدولة لما لزمه أن يستشيرها ، وقد قدمنا الكلام عن هذين الأصلين من أصول الأحكام الإسلامية المتعلقة بالحياة السياسية . وكذلك يستدل على حق الأمة فى مساءلة الدولة بالنصوص القرآنية التى تصف بأوصاف الذم بعض أفعال بعض الحكام ، ومن هذه النصوص قول الله تعالى ﴿ **فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾[١] ، وقوله تعالى : ﴿ **وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد** ﴾[٢] فمن يأتى من الحكام فعلاً يعتبر إفساداً فى الأرض ، أو اتباعاً للهوى ، يجب على الأمة أن تأمره بالكف عن مثل هذه الأفعال وإلا كانت مقصرة فى واجبها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وإن لم يستجيب وجب عليها أن تحاسبه على ذلك وتسائله عنه .

وكذلك ورد فى السنة النبوية العديد من الأحاديث التى تقرر جواز مساءلة رئيس الدولة عما يأتيه فى مباشرته لعمله من مخالفة لأحكام الشريعة . فقد قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[٣] وقال — عليه الصلاة والسلام — : « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ، إلا حرم الله عليه الجنة »[٤] (مسلم) وكذلك أمر الرسول ﷺ بالطاعة للحاكم فى غير معصية فقال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[٥] (رواه مسلم) . وقال ﷺ . « إنما الطاعة فى المعروف »[٦] (رواه مسلم) . فهذه الأحاديث تقرر قاعدة الطاعة للحكام فى المعروف ، وتدل بذلك على وجوب عدم الطاعة فى غير المعروف أو فى المعصية . وهى تقرر كذلك مبدأ جواز مساءلة الحكام عن أفعالهم ، وبديهى أن المساءلة واردة على نفس الأفعال التى لأبيح فيها — أو فى مثلها من أوامر الحكام — عدم الطاعة باعتبارها معاصى لا يجوز إتيانها .

وبناء على فهم هذه النصوص من القرآن والسنة ، كان مما قاله أبو بكر — رضى الله عنه — فى أول خطبه خطبها بعد توليه الخلافة « إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى . وإن أسأت

---

(١) سورة ص آية ٢٦

(٢) سورة البقرة آية ٢٠٤

فقومونى » وقال عمر بن الخطاب « أنه لم يبلغ حق ذى حق أن يطاع فى معصية الله » وكذلك كان هذا الفهم هو الدافع الذى حدا بعدد غير قليل من الفقهاء فى مختلف المذاهب إلى تقرير جواز عزل رئيس الدولة عن ولايته إذا أتى ما يعتبر إخلالاً بواجباته أو وظيفته . أو إذا ظهر منه ما يعد فسقاً أو جوراً أو مخالفة لكتاب الله وسنة الرسول ﷺ . وليس أدل من مثل هذا الفهم على مدى أخذ شريعة الإسلام وفقهه بقاعدة جواز مساءلة رئيس الدولة بكل ما تستتبعه هذه المساءلة من نتائج ـــ أهـ .

ويقول الدكتور : محمد عزة دروزه فى كتابه (الدستور القرآنى والسنة النبوية فى شئون الحياة) تحت عنوان : **الشورى فى الدولة** :

لقد جاء أولاً فى سورة الشورى المكية هذه الآية : ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[1] حيث تقرر أن الشورى بين المسلمين صفة لازمة من صفاتهم . بحيث أنهم لا يقدمون على أمر ولا يعملون عملا إلا بعد التشاور ، ونتيجة لما يتقرر بينهم به . وهذا التقرير يتضمن تلقينا مطلقا بحيث يتناول المسلمين أفرادا وجماعات . ويدخل ضمن ذلك الأمور العامة المشتركة ولا سيما ما هو متصل بشئون الدولة بطبيعة الحال . بل إن صيغة الآية وروحها تلهمان أن الشئون المشتركة العامة هى المقصودة فيها . ثم نزلت آية آل عمران المدنية هذه :

﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾[2] فكانت حاسمة وتشريعية فى وجوب مشاورة أولى الأمر المسلمين فى الشئون العامة . وليس فى القرآن تحديد لكيفيه المشاورة وظروفها . شأنه فى كثير من الأمور ، ولم يثبت عن النبى ﷺ تحديد تشريعى لذلك أيضا وكل ما أثر أنه كان يستشير خاصة أصحابه أو بعض فئات وزعماء بأعيانهم فى الأمور الملحة والعزائم الهامة . فليس من التجوز أن يقال : أن لرئيس الدولة فى الإسلام وأولى الأمر والحل والعقد والعلم فيها أن يعينوا الكيفية التى يرونها صالحة وكافلة للغرض من الشورى ، وإن من الجائز أن تتعدل هذه الكيفية وتتبدل من حين لآخر وفقا لمقتضيات الظروف والأحوال وتطورها . ولقد قيل : أن المقصود بأولى الأمر فى آيتى النساء ٥٩ /٨٣ اللتين نقلناهما قبل قليل ، وورد فيهما إيجاب طاعتهم ورد الأمور إليهم بالإضافة إلى طاعة الله ورسوله ، وإن أهل الحل والعقد المأمور بمشاورتهم فى آيه آل عمران ـــ هم العلماء . وهذه الكلمة تنصرف منذ ألف سنه ، حينما تطلق إلى علماء الدين .

ومع أنه ليس من محل للجدل فى أن علماء الشريعة ممن يجب أن يكونوا فى عداد أهل الرأى والحل والعقد والمشورة ، فإنهم ليسوا جميع من تجب مشاورتهم ، ولا جميع من يجب اعتبارهم أهل الرأى والحل والعقد والشأن أيضا ، كما أنه من التجوز الكبير أن يصرف تعبير ﴿ **أولى الأمر** ﴾ الوارد فى آيتى النساء إليهم ، لأنه

(١) سورة الشورى آية ٣٨
(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩

لم يكن فى عهد النبى ﷺ وفى ظروف نزول هذه الآيات ، طبقة علماء الشريعة الاسلامية بالمعنى الذى عرف فيما بعد . ولأن من الثابت أن النبى ﷺ كان يولى بعض أصحابه بعض مهام الدولة كالقيادة وأمانه المال والصدقات ورآسة البعوث السياسية والتبشيرية وقد ولى شابا حديث السن ولاية مكة عقب الفتح . فمن الطبيعى أن يصرف هذا التعبير إلى هؤلاء وأفعالهم فى عهد النبى ﷺ وبعده ، أى العلماء والنابهين والزعماء والخبراء فى مختلف الشؤون بصورة عامة ..

ومشاورة ولى أمر المؤمنين للمؤمنين وتشاور المؤمنين فيما بينهم إنما يكون فيما ليس فيه نص صريح محكم لم ينسخ فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أما ما كان فيه نص مثل ذلك فلا تصح المشاورة والتشاور والاجتهاد فيه ..

ويتبادر لنا أن لآية النساء هذه :

﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** ﴾[١] صلة ما بهذا البحث فاتباع غير سبيل المؤمنين جملة عامة مستمرة المدى بل وجملة ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى** ﴾ يمكن أن يكون لها قوة الاستمرار بعد النبى ﷺ بمخالفة كتاب الله وسنة رسوله أو مناوأتهما . ومعنى اتباع غير سبيل المؤمنين ، الشذوذ عما عليه جمهور المسلمين .

وسبيل المؤمنين التى توجب الآية اتباعها وتنذر الذين يشذون عنها إما أن تكون من مقتضيات ما فى كتاب الله وسنة رسوله من نصوص وأحكام صريحة أو ما فيهما من توجيهات وتلقينات ومبادىء وخطوط عامة . والثانية تقرر بتدبر العلماء وأولى الحل والعقد والخبرة من المؤمنين بطريق الشورى وما يتقرر فى ذلك يكون سبيل المؤمنين الواجب اتباعه ويكون الانحراف عن الأولى أو الثانية أو كلتيهما اتباعا لغير سبيل المؤمنين ومحلا لإنذار الله تعالى . وإذا خرج الإنحراف عن نطاق الفكر إلى حيز العمل والإفساد والإرجاف والتأليب فيكون محل عقوبة السلطان أيضا إذا لم يرتدع ويتب لأنه يدخل فى نطاق آيات سورة المائدة هذه : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم** ﴾[٢]

---

(١) سورة النساء آية ١١٥

(٢) سورة المائدة الآيتان ٣٣ ، ٣٤

وآيات سورة الأحزاب هذه

﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورنك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[1]

وهناك أحاديث نبوية عديدة وردت فى الكتب الصحيحة قد تدعم ذلك ، منها حديث رواه أبو داود عن أبى ذر عن النبى ﷺ قال : « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام »[2] وحديث رواه مسلم عن عرفجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان »[3] وعن أسامة بن شريك عن رسول الله ﷺ قال « يد الله ــ عز وجل ــ على الجماعة فإذا شذ الشاذ منهم اختطفه الشيطان كما يختطف الذئب الشاة من الغنم »[4] ومن تحصيل الحاصل أن نقول أن أية جماعة أو مجتمع من المسلمين خرجوا عن أحكام كتاب الله وسنة رسوله نصاً وتوجيهاً لا يكونون على سبيل المؤمنين الحق الذى تنذر الآية من يتبع غيره .. والله تعالى أعلم . أ .هـ

ونرى تتمة للفائدة أن نسجل هذا البحث الذى كتبه الاستاذ / محمد السعدى فى مجلة الفكر الإسلامى . حتى يكون القارىء على بينة من الأمر . كتب تحت عنوان : العنف السياسى فى الحركات الاسلامية المعاصرة . « موضوع العنف السياسى من أدق المواضيع وأكثرها إشكالية وإثارة للجدل فى عالمنا المعاصرر لأنه يمس أهم المؤسسات فى المجتمع وهى مؤسسة الحكم والدولة ويتناول العلاقة بين المجتمع والنظام الحاكم والموقف الذى يجب على المجتمع أن يتخذه تجاه السلطة .

والحق أن سبيل هذه الدراسة شائك وعر لأنها تتصدى لموضوع حساس اختلفت فيه الآراء ، وتشعبت فيه الاجتهادات ، والتبس فيه فهم النصوص القرآنية والحديثية ، المتغيرة . وهذا كله يفرض على الدارس الحيطة والحذر ، والرؤية والاستقصاء وهو يعالج النصوص وأقواال الفقهاء المفسرين ، ويحاول التصحيح والترجيح ، ويطلق الأحكام ويستخلص الأسباب والنتائج .

---

(١) سورة الأحزاب الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢

(٢) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٥ صـ ١١٨ كتاب السنة . باب فى قتل الخوارج . رقم ٤٧٥٨ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٧٩ . كتاب الإمارة . باب حكم من فرق أمر المسلمين . رقم ٥٩ / ١٨٥٢ .

(٤) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى حـ ١ صـ ١٥٣ رقم ٤٨٩ . وقال محققه . وفى سنده ابن أبى المساور . قال فى المجمع (٥ /٢١٨) وهو ضعيف . قلت بل متروك وكذبه ابن معين كما فى التقريب .

وما دام الأمر يتعلق بموقف الدين من مسألة العنف السياسى ، والحركات الإسلامية فعلى الباحث أن يلتزم الصدق ويجتهد فى طلب الحق ويستبعد نوازع العصبية والهوى ما استطاع إلى ذلك سبيلا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[1]

وهذه الدراسة لا تتعرض لموضوع العنف السياسى ضد المستعمرين والمعتدين المحاربين فهذا أمر لا خلاف على جوازه ــ بل وجوبه عند مختلف المذاهب والمدارس الاسلامية ، وإنما تعالج مسألة اللجوء إلى العنف ضد السلطة الحاكمة الظالمة التى تخرج على تعاليم الإسلام .

أولاً : الجذور التاريخية للعنف السياسى .

كان مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٤٧ ق . هـ ــ ٣٥ هـ) ــ رضىَ الله عنه ــ أول حادث عنف سياسى فى تاريخ الدولة الإسلامية بحيث قتله البغاة بحجة ضعفه ولينه فى سياسة الناس ، وإيثاره أقرباءه بالمناصب والمغانم ، ولقد فتح هذا الحادث باب فتنة دموية عانت منها الدولة الإسلامية أشد العناء وما زالت تعانى إلى يومنا هذا ، ومهد الطريق لظهور الأحزاب السياسية والفرق والمذاهب المختلفة وزرع الفرقة والإنقسام فى صفوف الأمة الإسلامية . وكان ذلك الحادث سابقة جعلت الخروج على الدولة والسلطة الحاكمة أمراً شائعاً خلال مختلف العهود الإسلامية .

وما أن تولى الخلافة على بن أبى طالب (٢٣ ق .هـ ــ ٤٠ هـ) ــ رضى الله عنه ــ حتى ثار عليه جند الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان (٢٠ ق . هـ ــ ٦٠ هـ) ورفضوا مبايعته بحجة أنه فرط فى دم عثمان و لم يعاقب قتلته . كما ثارت عليه السيدة عائشة وطلحة الزبير واصطدموا معه فى موقعة الجمل ، للسبب ذاته . وسرعان ما ثار ضده فريق ثالث هم الخوارج الذين خرجوا عن على ــ رضى الله عنه ــ (٣٧ هـ) وحاربوه بسبب قبوله للتحكيم فى النزاع بينه وبين معاوية وكفروه لذلك ، كما كفَّروا الأمويين وحاربوهم قرابة قرن من الزمان بسبب اغتصابهم للحكم ، واستئثارهم بالسلطة ، وأموال الأمة مما أدى إلى انهاك الدولة الأموية والمسارعة فى انهيارها تحت ضربات الثورة العباسية عام (١٣٢ هـ) .

وفى عام (٦١ هـ) ثار الإمام الحسين ــ رضى الله عنه ــ (٤ ــ ٦١ هـ) على الأمويين فى خلافة يزيد بن معاوية بسبب جور بنى أمية واستئثارهم بالحكم وانتهت ثورته بمأساة كربلاء التى راح ضحيتها الحسين وجميع أنصاره .

---

(١) سورة المائدة آية ٨

وفى عام (٦٣ هـ) ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية بسبب ظلمه وانتهت ثورتهم باستباحة الأمويين للمدينة ثلاثة أيام وقتل العديد من صحابة رسول الله ﷺ .
وفى العام ذاته ثار عبد الله ضد الأمويين فى عهد يزيد أخذ البيعة لنفسه فى مكة ولكنه قتل وهزم اتباعه وآلت ثورته إلى الفشل عام (٧٢ هـ) فى عهد عبد الملك بن مروان .
وفى عام (٦٥ هـ) قامت ثورة التوابين الشيعية بقيادة سليمان بن صرد ضد الأمويين انتقاما لمقتل الحسين ، وانتهت الثورة بمقتل سليمان وهزيمة اتباعة .
وشهد عام (٦٦ هـ) ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى على الأمويين ثأراً لآل البيت وفشلت كسابقتها .
وفى عام (٨٣ هـ) ثار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الدولة الأموية وشاركه فى هذه الثورة أكابر التابعين كسعيد بن جبير والشعبى ومجاهد وعطاء وغيرهم بسبب جور الأمويين فى الحكم وتجبرهم فى الدين واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة كما قال سعيد بن جبير رحمه الله . ولم يكتب لتلك الثورة النجاح وانتهت بمقتل ابن الأشعث وسعيد بن جبير .

وشهد عام (١٢٢ هـ) ثورة فاشلة ضد الحكم الأموى بقيادة زيد بن على بن الحسين (٧٩ — ١٢٢ هـ) الذى كان يرى أنه أحق بالخلافة من البيت الأموى . وفى العهد العباسى قامت ثورات كثيرة نذكر منها ثورة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن الذى ثار بالمدينة ضد المنصور سنة ١٤٥ هـ وثورة أخيه إبراهيم فى البصرة فى نفس العام بحجة أحقية آل البيت بالحكم وبسبب فساد الحكم العباسى . وكان الفشل مصيرا للثورتين . وفى عام (٢٤٩ هـ) قاد على بن محمد ثورة الزنج ضد الدولة العباسية وقد قامت تلك الثورة بسبب الظلم الاجتماعى الذى مورس ضد الزنوج وفقراء العرب حيث أساء السادة الأغنياء والإقطاعيون معاملتهم واستغلوهم أبشع استغلال ، وحرموهم أبسط الحقوق الإنسانية . وظلت هذه الثورة تهدد الدولة العباسية قرابة عشرين سنة .

وفى العصر الحديث يمكن أن نشير إلى بعض الثورات والحركات التى لجأت إلى العنف كالحركة الوهابية التى ظهرت عام ١٧٤٥م فى نجد بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ — ١٧٩٢) الذى دعا إلى تطهير الدين مما شابه من البدع والخرافات والشركيات ، ولجأ إلى القوة لتغيير الواقع المخالف للإسلام وقال « من لم يجب بالحجة والبرهان قتلناه بالسيف والسنان » وانطلق من قوله تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾[1] .

وفى عام ١٩١٦ قامت الثورة العربية ضد الأتراك بسبب سياسة التتريك وفساد الحكم العثمانى واستبداده

وفى عام ١٩٤٨م شهدت مصر اغتيال رئيس الوزراء المصرى محمود فهمى النقراشى من قبل جماعة

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٩

الأخوان المسلمين رداً على حظر الجماعة . وفى ٢٦ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٥٤م وقعت محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر فى الاسكندرية من قبل تنظيم الإخوان أيضا الذى تعرض لضربة انتقامية قاصمة من الرئيس جمال عبد الناصر ، لم يستطع الإخوان بعدها أن يستردوا قوتهم ونفوذهم إلى يومنا هذا وفى عام ١٩٦٥م تعرض بقايا الأخوان فى مصر لضربة عنيفة أخرى من قبل عبد الناصر بعد اتهامهم بالإعداد لانقلاب عسكرى ضد ثورة يوليو /تموز . وأعدم سيد قطب الذى كان يرأس جماعة الإخوان آنذاك .

وفى عام ١٩٧٤ قامت جماعة إسلامية يقودها الدكتور الفلسطينى صالح سرية بالهجوم على الكلية الفنية العسكرية فى مصر ضمن خطة لقلب نظام حكم أنور السادات والاستيلاء على السلطة .

وشهد عام ١٩٧٦ حادث قتل الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف المصرى على يد جماعة التكفير والهجرة .

وفى عام ١٩٧٩ قامت الثورة الإسلامية فى إيران وأطاحت بغرش الشاة المستبد رغم الحماية الإستعمارية ورغم الجيش الذى قالوا عنه أنه خامس قوة عسكرية فى العالم . وفى السادس من أكتوبر تشرين الأول ١٩٨١م أنهت رصاصات خالد الإسلامبولى حياة الرئيس أنور السادات بسبب اعترافه بالعدوان الصهيونى وعدم العمل بأحكام الشريعة الإسلامية .

ومن السرد التاريخى الموجز السابق نستخلص أن العنف السياسى ضد السلطة فى العالم الاسلامى قديم يعود إلى القرن الهجرى الأول و لم ينقطع فى عهد من العهود .

والحركات الإسلامية التى استخدمت العنف قادها رجال يتمتعون بمكانة دينية مرموقة فقد كان بينهم صحابة مثل طلحة والزبير ومعاوية والحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، وكان بينهم رجال من كبار التابعين كسعيد بن جبير والشعبى وزيد بن على بن الحسين . وفى العصر الحديث يمكن أن نذكر حسن البنا ، وسيد قطب فى مصر ، ومحمد بن عبد الوهاب فى الحجاز ، ومحمد باقر الصدر فى العراق ، ومصطفى السباعى فى سوريا .

والحركات التى انتهجت العنف والثورة منها ما كان سليم المنطلقات كحركة الحسين وابن الزبير وابن الأشعث ، ومنها ما ضل السبيل كحركة الخوارج والقرامطة وإخوان الصفا وجماعة التكفير والهجرة .

ومن هذه الحركات ما حظى بقاعدة جماهيرية واسعة كمعركة معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الله بن الزبير ، وعلى بن محمد قائد الزنج ، ومنها ما فشل فى استقطاب التأييد الشعبى كالخوارج والقرامطة وجماعة التكفير والهجرة .

ومن هذه الحركات ما تمتع باحترام وعطف جماهير المسلمين كحركتى الحسين وعبد الله بن الزبير ومنها ما نال الاستنكار والإدانة كحركة الزنج والقرامطة والتكفير والهجرة . وهذه الحركات منها ما حارب السلطة بدعوى كفرها كالخوارج والتكفير والهجرة ، ومنها — وهو الغالبية — ما حارب السلطة بدعوى ظلمها وجورها .

ثانيا : أسباب العنف السياسى

لا شك أن السبب الرئيسى للعنف السياسى هو ذلك التناقض بين تعاليم الإسلام وسياسات السلطة السياسية التى تفرضها على جماهير المسلمين بالقهر والإكراه . إنه التناقض بين القول والعمل ، بين النظرية والممارسة بين الأمانى والواقع .

يقول الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) . يجب أن نكون شجعاناً ونعترف بأن كثيرا من تصرفاتنا هى التى دفعت هذا الشباب دفعا إلى ما نسميه التطرف ، فنحن ندعى الإسلام ولا نعمل به ونقرأ القرآن ولا نطبق أحكامه . ونزعم حب الرسول ﷺ ولا نتبع سنته ، ونسجل فى دساتيرنا أن دين الدولة هو الإسلام ولكنا لا نعطيه حقه فى الحكم والتشريع والتوجيه .

ولا ريب أن الاستبداد السياسى ومصادرة الحريات وحرمان المواطن من حرية التعبير والمعارضة والنقد ضمن سلطة القانون يدفع الراغبين بالتغيير والإصلاح إلى العمل السرى واللجوء إلى العنف والقوة للوصول إلى الأهداف المطلوبة حيث لا يبدو أمامهم أى سبيل آخر .

والظلم الاجتماعى ، وعدم تكافؤ الفرص ، والتفاوت الطبقى واستئثار القلة المترفة بثروات المجتمع ، وحالة الفقر والضنك التى تعيشها الغالبية المسحوقة دوافع قوية للعنف .

وهذا ما بدا واضحا من خلال ثورة الزنج فى العصر العباسى ، وانتفاضة ١٨ — ١٩ / كانون الثانى ١٩٧٧م ، وحركة قوى الأمن عام ١٩٨٦م فى مصر وثورة الخبز فى تونس ١٩٨٤م .

والتفريط فى الحقوق القومية ، وموالاة أعداء الدين ، وخيانة الحكام ، من أشد حوافز العنف . فالأمة لا تتسامح مع الخونة والعملاء أبداً ، ولا تغفر لهم مطلقا . وقد يختلف الناس فى مشروعية الثورة على الحاكم المستبد الظالم ولكنهم قلما يختلفون فى مشروعيتها ضد الحاكم الخائن . ومن هنا فقد رأينا العالم الإسلامى كله يتعاطف مع تنظيم الجهاد الذى تولى تصنيعه السادات ويرفع الرجال الذين تولوا هذا العمل إلى مصاف الأبطال . ولا ننس أيضا أن الملك عبد الله قد اغتيل عام ١٩٥١م لنفس السبب .

ولجوء السلطة إلى البطش واستخدام العنف والتعذيب البدنى والنفسى ضد المصلحين والمعارضين يربى الحقد والمرارة فى نفوسهم ، ويدفعهم إلى التطرف الفكرى والنزوع إلى العنف ، والقسوة تولد القسوة والعنف يستدعى العنف وشدة الضغط تؤدى إلى الانفجار . ومن المعروف أن الجماعات المتطرفة كجماعة التكفير والهجرة نبتت أفكارها فى السجون ، ونمت أشواكها وراء القضبان . وشعور الشباب بالإحباط ويأسهم من حصول التغيير عن طريق النصح والارشاد ومسالمة الحكام خاصة بعد دراستهم لتاريخ الحركات الإسلامية مع الحكام ، وحماسهم وتعجلهم ورغبتهم فى التغيير السريع ، كل ذلك يوجههم نحو ميدان العنف .

وهناك نوع من العنف السياسى ينشأ بسبب الجهل بأحكام الدين والتطرف العقيدى كذلك الذى وجدناه عند الخوارج والقرامطة والتكفير والهجرة . ومن الملاحظ أن العنف السياسى يزداد حين يتصاعد البطش والإرهاب والاستبداد ، وتتصاعد الأزمات الاقتصادية والاجتماعية . والذين يظنون أن قسوة الانتقام وجحيم التنكيل والتعذيب كفيل بإنهاء المعارضة وكم الأفواه وشل حركة التغيير واهمون ، فقد تهدأ الحركة حينا ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة .

ومن الملاحظ كذلك أن العنف السياسى يكون محدودا فى المجتمعات المرفهة اجتماعيا واقتصاديا والتى تتمتع بالاستقرار السياسى . كما أن ظاهرة العنف محدودة فى البيئات المتخلفة ثقافيا .

ثالثاً : فلسفة العنف السياسى .

تختلف فلسفة العنف السياسى باختلاف المبادىء والمنطلقات التى تحكم الفرق الإسلامية والحركات التى اتخذت العنف والقوة المسلحة سبيلا لتغيير النظام الحاكم الجائر . وسنعرض هنا مواقف بعض الجماعات والفرق الإسلامية فى هذه المسألة :

١ ـــ موقف فقهاء أهل السنة :

معظم فقهاء أهل السنة يمنعون الثورة المسلحة ضد الحاكم الظالم ولا يجيزونها إلا فى حلة الكفر البواح أى الصريح الواضح الظاهر الذى لا يحتمل التأويل . ويعنى هذا بلغة الفقهاء إنكار معلوم من الدين بالضرورة كإنكار اليوم الآخر أو ربانية القرآن أو فرضية الزكاة أو حرمة الزنا والربا . ويرى هؤلاء الفقهاء أن الأمة يجب أن تصبر على الحكام الجائرين مهما اشتد جورهم ، وتبذل لهم النصيحة ، ولا تطيعهم إن أمروا بمعصية ويحتجون لموقفهم هذا بأحاديث منها :

« من رأى من أميره شيئا فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات مات ميتة جاهلية » (البخارى)[١] .

« من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه » (رواه مسلم)[٢]

« خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم قلنا يارسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال لا . ما أقاموا فيكم الصلاة ، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا محمله ، ولا تنزعوا يداً من طاعة (رواه مسلم)[٣] .

عن عبادة بن الصامت قال : دعانا النبى ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحاً عندكم من الله فيه برهان[٤] (البخارى ومسلم) . « السمع والطاعة على المرء المسلم فى ما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (الشيخان)[٥]

عن حذيفة قال « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى . فقلت يارسول الله ، أنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم قلت وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخنه يارسول الله ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتى ويهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر ، فقلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها . قلت : يارسول الله ، فما ترى إن أدركنى ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[٦] (متفق عليه) . يكون من بعدى

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ٥٩ كتاب الفتن . باب سترون بعدى أمورا تنكرونها .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٨٠ كتاب الإمارة . باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع . رقم ٦٠ / ١٨٥٢ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٨١ كتاب الإمارة باب خيار الأئمة وشرارهم . رقم ٦٥ / ١٨٥٥
(٤) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ٦٩ ، ٦٠ كتاب الفتن باب قول النبى سترون بعدى أمور تنكرونها .
ـ انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٧٠ كتاب الإمارة . باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية . رقم ٤٢ / ١٧٠٩
(٥) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ٧٨ كتاب الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية .
ـ انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٦٩ كتاب الإمارة . باب وجوب طاعة الأمراء إلا فى المعصية . رقم ٣٨ / ١٨٣٩
(٦) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ٦٥ كتاب الفتن باب الأمر إذا لم تكن جماعة .
ـ انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ كتاب الإمارة . باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن . رقم ٥١ / ١٧٤٨ .

أئمة لا يهتدون بهدايتى ، ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس قال قلت يارسول الله كيف أصنع إن أدركت ذلك ؟ قال تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك تسمع وتطيع[1] (مسلم) .

واعتمد هؤلاء الفقهاء فى وجهة نظرهم على المنطق والواقع وعلى قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، وتفويت أدنى المصلحتين ، فقالوا : أن الخروج على الإمام الفاسق الفاجر يؤدى إلى الفتن وسفك الدماء وبث الفساد واضطراب البلاد وتوهين الأمر ، ويؤدى إلى فساد أكبر من فساد الصبر على ظلمه وجوره .

والجدير بالذكر أن الفقهاء يرون أن الإمامة تنعقد بالتغلب والقهر . فمن استولى على السلطة بالقوة وسيطر على البلاد ، وجبت طاعته براً كان أو فاجرا فهو أمير المؤمنين .

يقول الامام أحمد بن حنبل : « ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة سمى أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما عليه براً كان أو فاجرا فهو أمير المؤمنين » .

يقول الأشعرى فى (مقالات الإسلاميين) . إن أهل الحديث اتفقوا على أن السيف باطل ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية ، وإن الإمام قد يكون عادلا ويكون غير عادل وليس لنا إزالته وإن كان فاسقا وأنكروا الخروج على السلطان ولم يروه » .

ويقول ابن تيمية (٦٦١ ــ ٧٢٨ هـ) فى منهاج السنة : إن المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم لأنه فساد فى القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ويكتب ابن القيم (٦٩١ ــ ٧٥١ هـ) فى « إعلام الموقعين » أن الواجب شىء والواقع شىء . والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب ، وينفذ الواجب بحسب استطاعته لا من يلقى العداوة بين الواجب والواقع .

فلكل زمان حكم والناس بزمانهم أشبه منه بآبائهم وإذا عم الفسوق وغلب أهل الأرض فلو منعت إمامة الفساق وشهاداتهم وأحكامهم وفتاويهم وولاياتهم لعطلت الأحكام وفسد نظام الخلق وبطلت أكثر الحقوق . فأمام الضرورة والغلبة بالباطل ليس إلا الاصطبار والقيام بأضعف مراتب الإنكار ويكتب النووى فى شرح مسلم (٢ / ٢٢٩) : وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقه ظالمين . وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته ، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق . وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين . فتكون المفسدة فى عزله أكثر منها فى بقائه » .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٣ صـ ١٤٧٦ كتاب الإمارة . باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ــ رقم ٥٢ / ١٨٤٧ .

ويكتب شارح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٣٠ ما يلى :

« وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم ، بل فى الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور ، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا . والجزاء من جنس العمل ، فعلينا الاجتهاد فى الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل .

وهناك قلة من فقهاء السنة أجازت وأوجبت الخروج على الحاكم الفاسق المتمادى فى الجور والظلم بشرط امتلاك القدرة على ذلك . ومن هؤلاء ابن حزم الذى أفتى بجواز الخروج على الحاكم الظالم لأن الأحاديث المجيزة للخروج على الفاسق الظالم ناسخة فى رأية للأحاديث الآمرة بالصبر التى وردت فى مبدأ الإسلام ، ولقوله تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾[1]

ولأنه يجب على المسلم إزالة المنكر ، ولا طاعة فى معصية . ومن قتل دون ماله أو دينه أو مظلمته فهو شهيد (الفقه الاسلامى وأدلته ، ج٦ ص ٧٠٩) . ومن هؤلاء أيضا الإمام الغزالى الذى يقول فى كتابه (الاقتصاد فى الاعتقاد) والذى نراه ونقطع به أنه يجب خلعه إن قدر على أن يستبدل عنه من هو موصوف بجميع الشروط من غير فتنة ولا تهيج قتال ، وإن لم يكن ذلك إلا بتحريك قتال وجبت طاعته ، وحكم بإمامته ، فإن السلطان الظالم الجاهل متى ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان فى الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له ومن هذا الفريق أيضا إمام الحرمين الجوينى (٢١٩ — ٤٧٨ هـ) صاحب كتاب (غيات الأمم فى النيات الظلم) الذى يطرح رأيا يبدو من أسلم الآراء وأكثرها منطقية وواقعية وانسجاما مع روح الشريعة الإسلامية إذ يقول « إن المتصدى للإمامة إذا عظمت جنايته ، وكثرت عاديته ، وفشى احتكامه واهتضامه ، وبدت فصاحته ، وتتابعت عثراته وخيف بسبب ضياع البيضة وتبدد دعائم الإسلام ، ولم يجد من ينصب للإمامة حتى ينهض لدفعه حسب ما يدفع البغاة فلا يطلق للآحاد فى أطراف البلاد أن يثوروا فإنهم لو فعلوا ذلك لأبيدوا وكان ذلك سببا فى ازدياد المحن وإثارة الفتن ولكن إن اتفق رجل مطاع ذو اتباع وأشياع ويقوم محتسباً آمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر وانتصب بكفاية المسلمين فليمض فى ذلك قدما والله نصيره » ص ٨٨ — ٨٩ .

ومن آراء العلماء المحدثين نثبت هنا رأى الدكتور عبد الكريم زيدان الذى ورد فى كتابه (الفرد والدولة فى الشريعة الإسلامية) ص ٥٠ — ٥٢ حيث يقول : أن المركز القانونى لرئيس الدولة هو مركز الوكيل بالنسبة للأمة فمن البديهى أن يكون من حقها عزله إذا خرج عن حدود وكالته أو لم يقم بمهام الوكالة عجزاً أو تقصيرا ولأن من يملك التعيين يملك العزل . يقول ابن حزم « فهو الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإذا زاغ عن شىء منهما منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق فإن لم يؤمن

---

(١) سورة الحجرات آية ٩

أذاه ألا يخلعه خلع وولى غيره »

وإذا كان للأمة عزل رئيس الدولة فلها أن تباشره بواسطة ممثليها وهم أهل الحل والعقد بأن يسحبوا ثقتهم منه ويقرروا عزله ولكن قد لا يستجيب رئيس الدولة لهذا القرار وفى هذه الحالة يجوز للأمة استعمال القوة لتنحيته من منصبه إذا وجد المبرر الشرعى لذلك مثل خروجه السافر على نهج الإسلام وأحكامه . ولكن اللجوء إلى القوة مشروط بتوافر قواعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن لا يكون العمل على إزالة المنكر مستلزما منكرا أعظم .

٢ ــ موقف المعتزلة

قال المعتزلة بجواز الثورة على الحاكم الظالم والخروج عليه ، واشترطوا لذلك أن يكون الثوار جماعة وأن يكون لهم إمام ، وأن يكون النصر محتملا لهم . واستدلوا لذلك بقوله تعالى ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾[١] وقوله عز وجل : ﴿ **فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾[٢] (الحجرات : ٩) ، وقوله سبحانه ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين** ﴾[٣] يقول القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمزانى فى كتابه (تثبيت دلائل النبوة) : « لا يحل لمسلم أن يخلى أئمة الضلالة وولاة الجور اذا وجد أعوانا وغلب على ظنه أنه يتمكن من منعهم من الجور كما فعل الحسن والحسين وكما فعل القراء حين أعانوا ابن الأشعث فى الخروج على عبد الملك بن مروان وكما فعل أهل المدينة فى وقعة الحرة ، وكما فعل أهل مكة مع ابن الزبير حين مات معاوية ، وكما فعل عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فى ما أنكروه من المنكر » .

٣ ــ موقف الخوارج

يعتقد الخوارج أنهم الفئة المؤمنة الناجية وأن من عداهم كفار خارجون عن الدين ، ويعتقدون كفر مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب . وقال الخوارج ببطلان الأحاديث التى تحصر ولاية أمور المسلمين فى قريش وقرروا أن منصب رئاسة الدولة من حق كل مسلم تتوافر فيه شروط الإمامة بغض النظر عن نسبه وجنسه ولونه . وقالوا إن الإمام يختار بالبيعة لا بالتعيين وأوجب الخوارج الثورة على الإمام الفاسق الجائر ، وسلكوا سبيل الثورة المسلمة لنشر أفكارهم وإسقاط السلطة الحاكمة . ومن هذه المنطلقات جميعا حاربوا الإمام عليا ــ رضى الله عنه ــ لأنه قبل التحكيم وخالف القرآن فى رأيهم ، وهذا ذنب مكفر عندهم ، وحاربوا الأمويين لأنهم بغاة كفرة من جهة ومغتصبون للسلطة من جهة أخرى .

---

(١) سورة المائدة آية ٢

(٢) سورة الحجرات آية ٩

(٣) سورة البقرة آية ١٢٤

٤ ـ موقف الشيعة .

يرى الشيعة الاثنا عشرية أن الإمامة أصل من أصول الدين وهى واجبة وجوبا عقليا لأنها من دواعى العدل الإلهى ورعاية الخالق للمخلوقين . ويعتقدون أن الأئمة معينون من قبل الله وأنهم معصومون لا يخطئون ولذلك فهم يعتبرون الخروج على الإمام كالشرك بالله ، وكذلك الخروج على نائب الإمام الفقيه المجتهد . وما عدا هؤلاء من الحكام فهم بغاة مغتصبون للسلطة ، ولهذا رأينا الشيعة يحاربون الأمويين والعباسيين ويبدو أنهم توقفوا عن استعمال القوة ضد الحكومات المختلفة فى فترة من الزمان بسبب المآسى التى تعرضوا لها والفشل الذريع الى آلت إليه ثوراتهم وانتفاضاتهم . وقصروا ولاية الفقيه على أمور الدين وأوكلوا أمور الجهاد والسياسة إلى الإمام الثانى عشر الغائب محمد بن الحسن المهدى (٢٥٦ هـ) ولكن نظرا لطول غيبته ، وتعرض المسلمون لجور الحكام ، **وعدوان الاستعمار** رأى فقهاء الشيعة أنه لابد أن تكون ولاية الفقيه عامة تشمل أمور السياسة والجهاد من أجل مصلحة المسلمين ، وبدأوا يعلنون ذلك منذ القرن الثانى عشر الهجرى . وقد قامت الثورة الإيرانية نتيجة لهذا التغيير فى فكر الشيعة . كما ظهر نتيجة للفكر الجديد حزب الدعوة الإسلامية الذى أنشأه آية الله محمد باقر الصدر فى العراق، فى أواخر ١٩٥٨ منتهجا السرية فى نشاطاته وتحركاته . وبعد مدة لجأ الحزب إلى العنف والقوة ضد الحكم العراقى فى السبعينات وأصدر فتوى أباح فيها دم رجال السلطة وكل المتعاونين معهم ودعا الشعب العراقى للثورة ، مما حدا بالحكم العراقى إلى إصدار قرار بإعدام الصدر يوم ١٩٨٠/٤/٨ م .

٥ ـ موقف الإخوان المسلمين :

يرى الإخوان المسلمون أن إقامة الدولة الاسلامية التى تحكم طبقا للشريعة الإسلامية واجب على كافة المسلمين ، وهم آثمون إن لم يعملوا على إقامتها وحجتهم فى ذلك أن إقامة الحدود ، وإعلان الجهاد الإسلامى ، وتنفيذ أحكام الإسلام فى شتى مجالات الحياة واجب ، وهذا كله لايتم إلا بوجود الدولة الإسلامية . فإقامتها إذاً واجبة لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب ، ويرى الإخوان كذلك أن إقامة الدولة تستدعى وجود جماعة منظمة ترسم الطريق وتنظم الجهود وتحدد المراحل والوسائل ويرون كذلك أن إقامة الدولة تكون بإيجاد المجتمع المسلم وتأمين القاعدة الجماهيرية الواسعة ولا يعتبر الإخوان أنفسهم جماعة المسلمين الوحيدة بل يعدون أنفسهم فصيلا من فصائل الحركة الإسلامية الشاملة .

ويرى حسن البنا (١٩٠٦ ــ ١٩٤٩) مؤسس الجماعة أن دولة الإسلام لا تقوم بالوعظ والإرشاد فقط بل بالسيطرة على السلطة التنفيذية حيث يقول فى رسالة المؤتمر الخامس ، ص ٣٩ : « قد يكون مفهوما **أن يقنع المصلحون الاسلاميون** برتبة الواعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذا لأحكامه .. وأما والحال كما نرى : التشريع الإسلامى فى واد والتشريع الفعلى والتنفيذى فى واد آخر فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض بأحكام الإسلام الحنيف

وعلى هذا فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم . فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج إسلامى قرآنى فهم جنوده وأنصاره وأعوانه ، وإن لم يجدوا فالحكم من مناهجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدى كل حكومة لا تنفذ أمر الله » .

ولكن الإخوان يرون أن استلام الحكم يجب أن يسبقه نشر الوعى والفكر الإسلامى بين الناس . يقول حسن البنا : « وعلى هذا فالإخوان أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم . ونفوس الأمة على هذا الحال فلابد من فترة تنتشر فيها مبادىء الإخوان وتسود ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة (رسالة المؤتمر الخامس ، ص ٤٠) والأخوان يرون أن استعمال القوة فى سبيل إسقاط النظام لا يكون إلا بعد استنفاذ جميع الوسائل السلمية ، يقول البنا فى رسالة المؤتمر الخامس ص ٣٨ « إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة .

وقد عبر فقيه الإخوان الدكتور يوسف القرضاوى عن موقفهم من استخدام القوة فقال فى كتابه « الحل الإسلامى فريضة وضرورة » ص ١٥٩ :

« اتفق فقهاء المسلمين على أن إزالة المنكر باليد تشريع لمن يملك القدرة على التغيير ، ويشرط ألا يترتب على إزالة المنكر منكر أكبر منه ، فالواجب هو التغيير باللسان والقلب حسب الاستطاعة حين تحين الفرصة » .

وبناء على ما سبق فإن التيار التقليدى المحافظ فى جماعة الإخوان المسلمين يعارض عمليات الإغتيال والأعمال الفردية المشهورة ، ويعتبرها توريطا للجماعة ، ومبررا لمحاربتها والقضاء عليها من قبل الحكام المعادين لحكم الشريعة الإسلامية وينكر الإخوان صلتهم بأعمال الإغتيال والإرهاب التى نسبت إليهم ويدعون أن كل ما نسب إليهم من هذا القبيل دبرته السلطة للقضاء عليهم .

والتيار التقليدى الذى تمثله قيادات الإخوان التاريخية لا يكفر الحكام ولا الناس إلا فى حالة الكفر البواح . أى : إنكار المعلوم من الدين بالضرورة . ومن هنا فإن هذا التيار لا ينطلق فى محاربة الحكام ، واستعمال العنف ضد الأنظمة التى لا تطبق الشريعة من منطلق الاعتقاد بكفرها ، بل من منطلق الاعتقاد بظلمها وجورها !

يرى سيد قطب أن الحكام الذين لا يضعون أحكام الشريعة موضع التطبيق كفار خارجون عن الإسلام وأن كل من يطيعهم ويعترف بحقهم فى التشريع والحكم بغير ما أنزل الله كافر أيضا .

يقول سيد قطب فى كتابه (فى ظلال القرآن) (المجلد الرابع ، ص ١٩٩١) : « إن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله حكما معلوما من الدين بالضرورة ، لأنها تخرجه من عبادة الله وحده . وهذا هو الشرك الذى يخرج من دين الله قطعا وكذلك الذين يقرون المنازع على إدعائه ، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله ، فكلهم سواء فى ميزان الله » .

ويقول فى نفس المجلد ص ١٩٩٠ وهو يفسر قوله تعالى ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[١] « أن الحكم من خصائص الألوهية .. من ادعى الحق فيها فقد نازع الله أولى خصائص ألوهيته .. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرا بواحا يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى بحكم هذا النص وحده . وإدعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هى التى تخرج المدعى من دائرة الدين القيم . . فليس من الضرورى أن يقول : ما علمت لكم من إله غيرى ، أو يقول أنا ربكم الأعلى كما قالها فرعون جهرة ، ولكنه يدعى هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحى شريعة الله عن الحاكمية ، ويستمد القوانين من مصدر آخر » .

وكلام سيد قطب هنا يعنى بكل وضوح كفر كل الحكام الذين لا يحكمون بشريعة الإسلام سواء أنكروا وجوب الحكم بها أو لم ينكروا . وهو بذلك يرفض بحزم الفكر التقليدى الذى يفرق بين الكفر العملى والكفر العقيدى ، ويزداد الأمر وضوحا فيما نطالع تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[٢] حيث يقول « وإنه إما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله كاملة ، فهم فى نطاق الإيمان ، وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله ، فهم الكافرون الظالمون الفاسقون » (فى ظلال القرآن ، جـ ٢ ، ص ٨٨٨) .

ويطلق سيد قطب على المجتمعات الإسلامية اسم المجتمعات الجاهلية لأنها لا تدين بحاكمية الله ولا تلتزم بأحكام الدين ، ويبين أنه لا تفاهم ولا مصالحة ولا تعايش مع المجتمع الجاهلى بل لابد من الحسم والمفاصلة ولابد من الثورة على النظام الجاهلى واستبداله بالنظام الإسلامى يقول فى كتابه (معالم فى الطريق) لا إله إلا الله ثورة على سلطان الأرض الذى يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التى تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ، وخروج على السلطات التى تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله » ص ٢٦ . ويقول فى نفس الكتاب « مهمتنا هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه ، هذا الواقع الذى يصطدم اصطداما أساسيا بالمنهج الإسلامى والتصور الإسلامى ، والذى يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهى أن نعيش » (ص ٢٢) .

٦ ــ موقف جماعة الجهاد :

إن فكر جماعة الجهاد قريب جدا من فكر الإخوان المسلمين ، ومن فكر سيد قطب على وجه الخصوص . وتبدو هذه الجماعة وكأنها فصيل متحمس مستعجل متوثب من فصائل الإخوان المسلمين . فالجماعة ترى أن إقامة الدولة فرض دينى لأن الأحكام والفرائض لا تتم إلا بإقامتها ، وهذه الدولة تكون

---

(١) سورة يوسف آية ٤٠

(٢) سورة المائدة آية ٤٤

نواة للخلافة الإسلامية ، ولا سبيل إلى إقامة هذه الدولة إلا قتال الحكام الظالمين والطواغيت المستبدين . والحكام — فى رأى الجهاد — كفار مرتدون بدأت ردتهم منذ سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م وسبب ردتهم أنهم لا يحكمون بما أنزل الله . وهؤلاء الحكام لا يمكن التخلص منهم إلا بالسيف . وليس لهم حق السمع والطاعة لأنهم عطلوا أحكام الإسلام . وقتال الطواغيت الكفرة فرض كالصوم والصلاة » ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم** ﴾[1]

ولا تكفر هذه الجماعة جماهير المسلمين بل الحكام فقط . ولكنها توجب على المسلمين أن يغيروا الواقع المخالف لتعاليم الإسلام بالجهاد ، وترى أن ترك الجهاد هو السبب فى ما يعيش فيه المسلمون اليوم من ذل ومهانة . وترفض جماعة الجهاد فكرة العمل وفق الشريعة التى حددها الحكام الكفرة بتكوين حزب إسلامى علنى يشارك فى البرلمان لأنها غير مجدية ولا تؤدى إلى إقامة الدولة المنشودة . فالنظام الحاكم لا يمكن أن يسمح للحزب الإسلامى أن يتجاوز حدوده ويستولى على السلطة . وترى الجماعة أن إقامة حزب إسلامى وفقا للقوانين السائدة أو المشاركة فى البرلمان نوع من المساهمة فى بناء دولة الكفر ، ونوع من الإعتراف بشرعية هذه الدولة . وهذا هو رأى سيد قطب الذى يرى أن الجماعة المسلمة يجب أن تهدم النظام الجاهلى لا أن تقويه وتدعمه بالمشاركة فى مؤسساته ، وتعارض الجماعة أيضا فكرة جماعة التكفير والهجرة التى ترى اعتزال المجتمع والهجرة منه على أمل تحصيل القوة ثم العودة لتدمير النظام الكافر ، وتقول أن هؤلاء يجب عليهم توفير الجهد على أنفسهم وإقامة دولة الإسلام ببلدهم ، ثم الإنطلاق إلى الخارج .

وتعارض الجماعة أيضا الفصائل الإسلامية الأخرى التى تقعد عن الجهاد خوفا من الفشل لأنها لا تنفذ أمر الله بإقامة الدولة ولا تدرك أن الإسلام حين يحكم سيجد الترحاب حتى ممن لا يعرف الإسلام . ومن جهه أخرى فالجماعة ليست مسؤولة عن النتائج وهم بهذا يقصدون التيار التقليدى فى جماعة الإخوان المسلمين .

وترفض جماعة الجهاد وجهة النظر القائلة : أين الطاقات والجهود ؟ يجب أن تتوجه لتحرير المقدسات والأراضى المحتلة من الصهيونية والإستعمار وترى أن الطريق السليم هو تحرير البلاد من الحكم الكافر ، لأن الحكام الكفرة هم أساس وجود الإستعمار فى بلاد الإسلام ثم بعد ذلك يتم الإنطلاق تحت قيادة إسلامية لتحرير المقدسات وهم بهذا يتفقون مع وجهة نظر حزب التحرير الإسلامى .

والخلاصة أن جماعة الجهاد تبدأ من حيث ينتهى الإخوان المسلمون . فإذا كان الإخوان يقولون : إن آخر الدواء الكى ، فإن جماعة الجهاد تقول ليس هناك إلا دواء واحد أولاً وأخيرا ألا وهو الكى — ويبدو أيضا أن جماعة الجهاد لا تؤمن بهذا النفس الطويل فى التربية والإعداد الذى يعتمده الإخوان المسلمون لأنها

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦

رأت من خلال التجارب والمحن التى تعرضت لها الحركة الإسلامية أن هذا الطريق كان ينتهى بالفشل والإخفاق المرير حيث كانت الحركات الإسلامية تقمع بعنف كلما اقتربت من قطف ثمار الصبر والإعداد .

ويظهر واضحا أن هذه الجماعة كانت متأثرة جدا بالتجارب التاريخية للحركات الإسلامية .

ولقد وضعت هذه الحركة فكرها موضع التطبيق حين قامت باغتيال السادات عام ١٩٨١م بعد أن أهدرت دمه وكفرته خاصة بعد أن أعلن أنه لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين . وخططت لإشعال ثورة شعبية تغير النظام ، كانت تأمل الحركة قيامها ونجاحها ، ولكن نجح الجزء الأول من الخطة وهو الإغتيال لتوفر الإمكانات والظروف ودقة التخطيط وجرأة المنفذين . وفشل الجزء الآخر لأن الحركة لم تكن تتمتع بالقاعدة الجماهيرية الواسعة .

٧ ــ موقف جماعة التكفير والهجرة :

تعتبر هذه الجماعة أكثر الجماعات الإسلامية تطرفا وانغلاقا فى العصر الحاضر . فهى تعتقد أن كل المسلمين كفرة مرتدون منذ القرن الرابع الهجرى لأنهم عصاة . وتعتقد أن كل عاص كافر . **وهى تنحو نحو الخوارج** فى هذا الاعتقاد . وتعتبر جميع الحكام كفرة مرتدين . وتعتبر كل من لا ينضم إليها كافرا . وكل من ينشق عنها بعد الإنضمام كافرا مرتدا يستحق القتل ولا تعتد هذه الجماعة بالتاريخ الإسلامى لأنها تعتقد أن وقائعه غير ثابته ، وترفض هذه الجماعة أقوال الأئمة والإجماع والقياس ، وتركز على الإحتجاج بالقرآن فقط . ويستطيع المرء أن يقول أن هذه الجماعة هى فئة قليلة من الناس تعيش فى محيط بشرى متلاطم يعج بالكفر والردة .

وفكر هذه الجماعة كان إفرازا للمعاناة الجسدية والنفسية التى تعرض لها قياديوها فى سجون مصر فى الستينيات ! فقد كان شكرى أحمد مصطفى زعيم ومؤسس الحركة أحد عناصر الإخوان المسلمين وقد تعرض للسجن والتعذيب . لقد نبت فكر الجماعة وراء القضبان وشب وترعرع تحت لسع السياط .

ويبين لنا عبد الرحمن أبو الخير أحد قياديى الجماعة فى كتابة : (ذكرياتى مع الإخوان المسلمين) أن نظام السادات استطاع اختراق هذه الحركة ودفعها إلى ممارسة العنف ضد فصائل إسلامية أخرى ، لم تقبل التعاون مع أجهزة النظام كى يحقق هدفه فى ضرب فصائل الحركة الإسلامية بعضها ببعض . وهذا ما أسموه فى حركة التكفير والهجرة : « العمل من خلال خطة العدو » الذى يقوم على تكتيك يتم من خلال التعاون بينهم وبين السلطة لتحقيق أهداف مشتركة .

يقول عبد الرحمن أبو الخير ، ص ٢٠ : « إنه بقولنا إن الأخ شكرى هو صائغ أكبر مأساة فى تاريخ الحركة الإسلامية ، لا نعنى سوى أنه قد بنى حركته على مبدأ حركى فاسد ، هو العمل من خلال خطة

العدو وهو مبدأ أساسى قد وظف الجماعة المسلمة لمصلحة الطاغوت حيث لا يدرى إمامها ولا أفرادها فلقى الجميع الضربة القاصمة » .

ويبين عبد الرحمن أبو الخير أيضا أن الحركة كانت مبنية على الطاعة العمياء والفردية المطلقة ، وكان الأفراد ينفذون الأوامر دون نقاش . وكان شكرى أحمد مصطفى ينفذ بعد مشاورة أفراد قليلين ما يريده هو . كما يبين أن عنف التعامل والشدة والغلظة كانت ميزة من ميزات تلك الجماعة .

لقد أقدمت الجماعة على ارتكاب خطأ قاتل حين قام بعض أفرادها بالاعتداء على بعض زملائهم المنشقين ، وحين قاموا باختطاف واغتيال الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف المصرية عام ١٩٧٦م بسبب إدانته لأفكارهم ، مما أدى إلى تصفية الجماعة وإعدام مؤسسها شكرى أحمد مصطفى عام ١٩٧٧م .

قوله تعالى ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ومن صفات المؤمنين الكريمة أنهم ينفقون مما آتاهم ربهم فى سبل الخير ، والبذل فيما فيه منفعة للفرد والمجتمع ، ورفعة الأمة وعلو شأنها وعزها .

وهناك أحاديث نبوية عديدة فيها حث على الإنفاق فى سبيل الله .

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى ياابن آدم أنفق انفق عليك »[١] (رواه الشيخان)

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال ، قلت يارسول الله أى الصدقة أفضل : قال : « جهد المقل وابدأ بمن تعول »[٢] (رواه أبو داود والحاكم وصححه)

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « إن الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع الميتة السوء »[٣] (رواه الترمذى)

وعن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « أيما مسلم كسا مسلما ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة . وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله عز وجل من رحيق الجنة »[٤] (رواه أبو داود) .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « سبق درهم مائة ألف درهم قالوا يارسول الله وكيف ؟ قال رجل له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به ورجل له مال كثير فأخذ من عرض ماله مائة ألف فتصدق بها »[٥] (رواه النسائى) .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٦٩٠ ز ٦٩١ كتاب الزكاة . باب الحث على الصدقة وتبشير المنفق بالخلف . رقم ٣٦ / ٩٩٣ .

(٢) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٢ صـ ٣١٢ كتاب الزكاة رقم ١٦٧٧

ــ انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ١ صـ ٤١٤ كتاب الزكاة . باب أفضل الصدقة جهد المقل .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٢ صـ ٨٦ أبواب الزكاة . رقم ٦٥٨ .

(٤) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٢ صـ ٣١٤ كتاب الزكاة . باب فى فضل سقى الماء . رقم ١٦٨٢ .

(٥) الحديث فى سنن النسائى حـ ٥ صـ ٥٩

ــ انظر كنز العمال حـ ٦ صـ ٥٨٢ رقم ١٧٠١١

ــ كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ١ صـ ٤١٦

(*) تم حذف خمس صفحات بناءاً على تعليمات الأزهر وسوف يتم نشرهم عندما تسمح الظروف بذلك .

وكان صلى الله عليه وسلم كثير النفقات والصدقات ، لا يدخر مالا ولامتاعا ، وكثير ما يستدين لينفق على بعض ذوى الحاجات وهو يعطى عطاء من لا يخشى الفقر أبدا ، وقد توفى ﷺ وليس عنده درهم ولا دينار ، وقد أوقف كل أرض كانت قد صارت إليه من الغنائم ، وفى ذلك يقول الحديث المشهور الذى خفى على بعض الطوائف روعته ، ودلالته على صدق نبوته وإخلاصه فى رسالته « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه »[1] .

جاءه مرة مال كثير فأنفقه ، إلا بضع دريهمات استبقاها ، إذ لم يجد لها طالبا ، فما عرف تلك الليلة النوم ، قلقا مما بقى عنده ، وما كاد يصبح الصباح حتى سارع إلى انفاقها . وهكذا صح فيه قول صحابته الكرام « كان أجود من الرياح المرسلة » .

فالرسول ﷺ كان أسخى من السحاب المثقل بالمطر ، وأجرى بالخير من الريح المرسلة . ما سئل عن شيء فقال لا ، ولا أعرض عن طالب . وقد قال له ورقة بن نوفل : إنك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم .

وصدق القائل :

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لاتفعل الأنــواء .
والبر عندك ذمة وفــريضة	لامنــة ممنونــة وجبــاء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله .	حتى التقى الكرماء والبخلاء
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل فى حق الحياة سواء .

قوله تعالى ﴿ **والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون** ﴾ أى فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف ــ عليه الصلاة والسلام ــ لأخوته ﴿ **لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم** ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول الله ــ ﷺ ــ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً .

قوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ .

(١) انظر شرح السنة للإمام البغوى حـ ٨ صـ ٢٨٣ كتاب الزكاة . باب جهد المقل .

قال ابن كثير : قوله تبارك وتعالى ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ كقوله تعالى ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾[١] وكقوله تعالى ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾[٢] الآية فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله تعالى ﴿ **والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له** ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ أى لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك فى الحديث ، وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزا وقوله تعالى ﴿ **إنه لا يحب الظالمين** ﴾ أى المعتدين وهو المبتدىء بالسيئة .

وقوله تعالى ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** ﴾ أى ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم . ومن أخذ حقه ممن وجب له عليه ولم يتعد ــ لم يظلم ــ فلا سبيل لأحد عليه .

ولما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل فقال : ﴿ **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق** ﴾ أى : إنما الحرج والإثم على الذين يبدءون الناس بالظلم ، أو يزيدون فى الانتقام ويتجاوزون ماحُد لهم ، أو يتكبرون فى الأرض تجبرا وفسادا . ﴿ **أولئك لهم عذاب أليم** ﴾ أى هؤلاء لهم عذاب مؤلم بسبب بغيهم وظلمهم ثم رغب سبحانه فى الصبر والعفو فقال تعالى : ﴿ **ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ . أى : صبر على الأذى وستر السيئة ﴿ **فإن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ . قال سعيد بن جبير يعنى لمن حق الأمور التى أمر الله تعالى بها أى لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الصمد بن يزيد خادم الفضيل بن عياض قال سمعت الفضيل بن عياض يقول إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلا فقل ياأخى اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال لا يحتمل قلبى العفو ، ولكن انتصر كما أمرنى الله عز وجل ، فقل له إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو فإنه باب واسع فإن من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال إن رجلا شتم أبابكر ـ رضى الله عنه ـ والنبى ﷺ جالس فجعل النبى ﷺ يعجب ويبتسم فلما أكثر رد عليه بعض قوله فغضب النبى ﷺ وقام فلحقه أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ فقال يارسول الله إنه كان يشتمنى وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان ـ ثم قال ـ ياأبابكر ثلاث كلهن حق ، مامن عبد ظُلم بمظلمة فيقضى عنها لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، ومافتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده بها كثرة ، ومافتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة[٣] . قال ابن كثير هذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى وهو مناسب للصديق ـ رضى الله عنه ـ .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤

(٢) سورة النحل الآية ١٢٦

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ٢ صـ ٤٣٦ مسند أبى هريرة .

« من مشاهد القيامة »

قال تعالى :

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

تفسير المفردات

(خاشعين) : خاضعين متضائلين ، (ينظرون من طرف خفى) : يُسارقون النظر من شدة الخوف . (نكير) : إنكار لذنوبكم أو منكر لعذابكم . (فرح بها) : بطر لأجلها . (رحمة) أى : نعمة من صحة وغنى ، (سيئة) أى : بلاء من فقر ومرض وخوف . (كفور) : نسَّاء للنعمة ذكَّار للبلية . (يزوجهم) . أى : يجعلهم جامعين بين البنين والبنات . (عقيما) أى : لا يولد له .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق لهم عذاب أليم على ماجترحوا من البغى والعدوان بغير الحق ــ أردف ذلك بيان أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن الكافرين حين يرون العذاب يوم القيامة يطلبون الرجوع إلى الدنيا ، وأنهم يعرضون على النار وهم خاشعون ، أذلاء ، ينظرون من طرف خفى ، وأن الذين آمنوا يقولون ، إن الكافرين لفى خسران فقد أضاعوا النفس والأهل ، ولا يجدون لهم ناصرا يخلصهم مما هم فيه من العذاب فلا ملجأ يقيهم من عذاب الله ولا ينكرون ما اقترفوه ، لأنه مكتوب فى صحائف أعمالهم ، ثم أرشد رسوله إلى أنهم إن أعرضوا عن دعوتك ، فلا تأبه بهم ، ولا تهتم بشأنهم ، ثم أعقب هذا بذكر طبيعة الإنسان ، وإنه يفرح حين النعمة ، ويجحد نعم ربه حين الشدة ، ثم قسم هبته لعباده فى النسل أربعة أقسام ، فمنهم من وهب الإناث ، ومنهم من وهب الذكران ، ومنهم من أعطى الصنفين ، ومنهم العقيم الذى لا نسل له . ولا معقب لحكمه فهو **مالك الملك** . يفعل ما يشاء ولا يكون إلا ما يريد .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **ومن يضلل الله فماله من ولى من بعده ، وترى الظالمين لمارأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل** ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة إنه ما شاء كان ولا راد له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له كما قال تعالى ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ ثم قال عز وجل مخبرا عن الظالمين وهم المشركون بالله . ﴿ **وترى الظالمين لما رأوا العذاب** ﴾ أى يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ **يقولون هل إلى مرد من سبيل ؟** ﴾ كما قال جل وعلا ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنانرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا هم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾

وكقوله تعالى ﴿ **وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ــ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام** ﴾[1]

---

(١) سورة إبراهيم من الآية ٤٤ ــ ٤٧

وقوله تعالى ﴿ **وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم** ﴾ أى وتراهم أيضا فى ذلك اليوم يعرضون على النار وهم خاشعون أذلاء ــ لأنهم عرفوا ذنوبهم وتكشفت لهم عظمة من عصوه يسارقون النظر إليها خوفا منها ، وحذرا من الوقوع فيها ، كما ينظر من قدم للقتل إلى السيف ، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه ، وإنما ينظر ببعضها . ولما وصف حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال ﴿ **وقال الذين أمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ أى ويقول المؤمنون يوم القيامة : إن المغبونين غبنا لاغبن بعده ــ هم الذين خسروا أنفسهم ، فدخلوا فى النار ، وحرموا نعيم الأبد ، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وذوى قراباتهم . ثم صدقهم ربهم فيما قالوا فقال :

﴿ **ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم** ﴾ أى ألا إن الكافرين لفى عذاب سرمدى لا مهرب لهم منه ولا خلاص ، ثم أيأسهم من الفكاك منه بأى سبيل فقال سبحانه :

﴿ **وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله** ﴾ أى ولا يجدون لهم أعوانا وأنصارا ينقذونهم مما حل بهم من العذاب ، فأصنامهم التى كانوا يعبدونها**لاتشفع**لهم لا تستطيع أن تتقدم إليهم بشفاعة ﴿ **ومن يضلل الله فماله من سبيل** ﴾ أى ومن يضلله الله لما علم من استعداده للشر والفساد وارتكاب الشرور والآثام فلا سبيل له إلى الوصول إلى الحق فى الدنيا ولا إلى الجنة فى الآخرة .

قولهتعالى ﴿ **استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ، فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلا البلاغ ، وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور** ﴾ .

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له فقال جل فى علاه ﴿ **استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله** ﴾ أى أجبوا داعى الله وهو رسوله ــ ﷺ ــ وآمنوا به ، واتبعوه فيما جاءكم به من عند الله ، من قبل أن يأتى يوم لا يستطيع أحد أن يرده إذا جاء به الله . ﴿ **مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم نكير** ﴾ أى ليس لكم حصن تتحصنون فيه ، ولا تستطيعون إنكار ما اجترحتموه من السيئات ، لأنه قد كتب فى صحفكم وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم . ونحو الآية قولة تعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله**

يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾[١] وكقوله تعالى ﴿ **يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾**[٢]

وقوله تعالى ﴿ **فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ ﴾** كقوله تعالى ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر ﴾**[٣] وكقوله تعالى ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾**[٤] وكقوله تعالى ﴿ **فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾**[٥] أى فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أتيتهم به من الحق ، ولم يستجيبوا لك فدعهم وشأنهم ، فإنا لم نرسلك رقيباً عليهم تحفظ أعمالهم وتحصيها ، فما عليك إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم ، فإذا أنت بلغته فقد أديت ما كلفت به .

وبعد ذكر طبيعة الإنسان وغريزته فى هذه الحياة فقال سبحانه :

﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾

أى : وإنا إذا أغنينا ابن آدم فأعطيناه من لدنا سعة فى الرزق أو فى الصحة أو فى الأمن سُر بما آتيناه ، وإن أصابته فاقة أو مرض بما أسلف من معصية ربه جحد نعمتنا وأيس من الخير ، والإنسان من طبعه الجحد والكفران بالنعم حين الشدة .

فهذه طبيعته إن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن ابتلى بمحنة يئس وقنط كقوله تعالى ﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ﴾**[٦] ﴿ **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كريم ﴾**[٧] إلا المؤمن **الشاكر الصابر** كما قال صلى الله عليه وسلم « إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »[٨]

قوله تعالى ﴿ **لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لما يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾** .

---

(١) سورة الروم الآيتان ٤٣ ، ٤٤

(٢) سورة القيامة الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة الغاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢

(٤) سورة البقرة آية ٢٧٢

(٥) سورة الرعد آية ٤٠

(٦) سورة هود آية ٩ ، ١٠

(٧) سورة هود آية ١١

(٨) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرقائق . باب المؤمن أمره كله خير . ٦٤ / ٢٩٩٩

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكها والمتصرف فيها ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطى من يشاء و يمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ، ﴿ **يهب لمن يشاء إناثا** ﴾ أى يرزقه البنات فقط قال البغوى ومنهم لوط ـــ عليه السلام ـــ ، ﴿ **ويهب لمن يشاء الذكور** ﴾ أى يرزقه البنين فقط قال البغوى كإبراهيم الخليل ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ لم يولد له أنثى ، ﴿ **أو يزوجهم ذكرانا وإناثا** ﴾ أى ويعطى لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أى من هذا وهذا ، قال البغوى كمحمد ﷺ . ﴿ **ويجعل من يشاء عقيما** ﴾ أى لا يولد له قال البغوى كيحيى وعيسى ـــ عليهما السلام ـــ فجعل سبحانه الناس أربعة أقسام منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد له . ﴿ **إنه عليم قدير** ﴾ أى إنه عليم بمن يستحق كل نوع من هذه الأنواع ، قدير على ما يريد أن يخلق ، فيفعل ما يفعل بحكمة وعلم .

قال العلامة ابن كثير وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾[1] أى دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام فآدم ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء ـــ عليها السلام ـــ مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى ـــ عليه السلام ـــ من ذكر وأنثى ، وعيسى ـــ عليه السلام ـــ من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم ـــ عليهما الصلاة والسلام . ولهذا قال تعالى ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ فهذا المقام فى الآباء والمقام الأول فى الأبناء وكل منهما أربعة أقسام فسبحان العليم القدير .

من صور الوحى

قال تعالى

* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

(١) سورة مريم آية ٢١ .

معـانى المفـردات

(روحا) : قرآنا ، (الإيمان) : الشرائع التفصيلية التى لا تعلم إلا بالوحى ، (صراط مستقيم) : دين قويم (دين الإسلام) .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه تقسيم النعم الجسمانية التى يهبها لعباده ـــ أردفها تقسيم النعم الروحية ، وأبان أن الناس محجوبون عن ربهم ، لأنهم فى عالم المادة وهو منزه عنها ولكن من رق حجابه ، وخلصت نفسه ، وأصبح فى مقدوره أن يتصل بالملأ الأعلى يستطيع أن يكلم ربه على أحد أوجه ثلاثة :

(١) أن يحس بمعان تلقى فى قلبه ، أو يرى رؤيا منامية كرؤيا الخليل إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ ذبح ولده .

(٢) أن يسمع كلاما من وراء الحجاب كما سمع موسى ـــ عليه السلام ـــ من غير أن يبصر من يكلمه ، فهو قد سمع كلاما ولم ير المتكلم .

(٣) أن يرسل إليه ملك فيوحى ذلك الملك مايشاء إلى النبى ﷺ ثم ذكر أنه كما أوحى إلى الأنبياء قبله أوحى إليه القرآن ، وما كان قبله يعلم ما فى القرآن وما الشرائع التى بها هداية البشر وصلاحهم فى الدارين .

التفسير

قوله تعالى **﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾**

هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جنب الله عز وجل . وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف فى روع النبى ﷺ شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل كما جاء فى صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »[1]

---

(١) الحديث فى حلبه الأولياء حـ ١٠ صـ ٢٧

ـــ انظر كشف الخفاء حـ ١ صـ ٢٦٨ . وقال محققه . رواه أبو نعيم والطبرانى وصححه الحاكم عن ابن مسعود وكذا فى فتح البارى حـ ١ / ٢٧

وقوله تعالى ﴿ **أو من وراء حجاب** ﴾ كما كلم موسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ فإنه سأل الرؤية بعد التكلم فحجب عنها .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ « ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحا »[1] أى مواجهة ، وكان قد قتل يوم أحد ولكن هذا فى عالم البرزخ . والآية إنما هى فى الدار الدنيا .

وقوله عز وجل ﴿ **أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء** ﴾ كما ينزل أمين الوحى جبريل ــ عليه الصلاة والسلام ــ على الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ﴿ **إنه على حكيم** ﴾ فهو على عليم ، خبير حكيم .

وقوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾

قوله تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا** ﴾ أى وكما أوحينا إلى سائر رسلنا أوحينا إليك هذا القرآن رحمة من عندنا .

ثم بين حال نبيه قبل نزول الوحى بقوله تعالى

﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ أى ما كنت قبل الأربعين وأنت بين ظهرانى قومك تعرف ما القرآن ولا تفاصيل الشرائع ومعالمها على النهج الذى أوحينا به إليك . كقوله تعالى ﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك** ﴾[2]

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة حـ ١ صـ ٦٨ رقم ١٩٠ . وقال السندى : هذا الحديث ليس من أفراد ابن ماجة ، لامتنا ولا سندا وأخرجه الترمذى فى التفسير .

ــ انظر سنن الترمذى حـ ٤ صـ ٢٩٨ كتاب التفسير (سورة آل عمران) رقم ٤٠٩٧ . وقال . هذا حديث حسن غريب .

ــ انظر تفسير ابن كثير حـ ٢ صـ ١٤١ . تفسير سورة آل عمران (طبعة الشعب)

(٢) سورة القصص آية ٨٦

وقوله تعالى ﴿ **ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ أى : ولكن جعلنا هذا القرآن نورا عظيما نهدى به من نشاء هدايته من عبادنا ، ونرشده إلى الدين الحق . فهذا القرآن العظيم سماه روحاً لما يحصل به من الحياة ، وجعله نورا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة ، وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الإضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل قال تعالى ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[1] فأن ا لقرآن نور للمؤمن فى الدنيا ، ونور له فى قبره ، ونور له فى معاده يسعى بين يديه على الصراط فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى .

وقوله تعالى ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ أى وإنك لتهدى بذلك النور من نشاء هدايته إلى الحق القويم . ثم فسر هذا الصراط بقوله تعالى .

﴿ **صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ والمتصرف فيها ، والحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ أى ألا أن أمور الخلائق يوم القيامة تصير إلى الله لا إلى غيره ، فيضع كلا منهم فى موضعه الذى يستحقه من نعيم أو جحيم . وفى هذا وعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم ، ووعيد للظالمين .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٢

القرآن والوحى

يقول الشيخ محمد رشيد رضا فى كتابه الوحى المحمدى ما نصه : (ملخصاً)

تعريف الوحى لغة وشرعاً :

قال فى الأساس : أوحى إليه وأومن إليه بمعنى ، ووحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره . وأوحى الله إلى أنبيائه ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾[١] .

وقال الراغب : أصل الوحى الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل « أمروحى » وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة ، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا ﴿ **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ الخ . أى أشار إليهم و لم يتكلم . والوحىّ بتشديد الياء السريع .. فالقول الجامع فى معنى الوحى اللغوى أنه الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره ومنه الإلهام الغريزى كالوحى إلى النحل ، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله فى روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحى إلى أم موسى ، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان قال تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾[٣] .

ووحى الله تعالى إلى أنبيائه قد روعى فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة . فهذا معنى المصدر ، ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به الوحى اسم المفعول ، وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم ، ومنهم من أعطاه كتاباً أى تشريعاً يكتب ومنهم من لم يعطه . والله تعالى يوحى إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا** ﴾[٤] ويوحى إلى ملك الوحى ما يوحيه الملك إلى الرسول كقوله : ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾[٥] أى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ .

---

(١) الآية ٦٨ من سورة النحل
(٢) الآية ١٢١ من سورة الأنعام
(٣) الآية ١١٢ من سورة الأنعام
(٤) الآية ١٢ من سورة الأنفال
(٥) الآية ١٠ من سورة النجم

وقال شيخنا الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد بعد تعريف الوحى لغة « وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى . وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » .

هذا التعريف يشمل أنواع الوحى الثلاثة الواردة فى قول الله — عز وجل — ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم** ﴾[1] .

فالوحى هنا إلقاء المعنى فى القلب ، وقد يعبر عنه بالنفث فى الرُّوع — وهو بالضم ، القلب والخلَد والخاطر — والكلام من وراء الحجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحى المرسل من الله إلى رسول الله فيراه متمثلاً بصورة رجل أو غير متمثل ويسمعه منه أو يعيه بقلبه .

وتعبيره يشمل (قبل التفرقة بينه وبين الإلهام) ما يسميه بعضهم بالوحى النفسى وهو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية ، وقد أثبته بعض علماء الأفرنج لنبينا ﷺ ، فقالوا إن محمداً يستحيل أن يكون كاذباً فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع العادل والأدب السامى ، وصوره من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم أو باتصال عالم الشهادة به ، بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية ، على مخيلته السامية ، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً له ، وعلى سمعه فوعى ما حدثه الملك به .

فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء فى كون الوحى الشرعى من خارج نفس النبى نازلاً عليها من السماء كما نعتقد ، لا من داخلها فائضاً منها كما تظنون ، وفى وجود ملك روحانى مستقل نزل من عند الله عليه ﷺ كما قال سبحانه ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** ﴾[2] وفى تخيل الملك بزعمهم ؛ وسنشرح هذا الزعم ونبسط شبهاته ونبطلها ، ونثبت أن هذا القرآن وحى من الله تعالى نزل من فوق السموات العلى ، لا يمكن أن يكون فائضاً فى هذه الأرض من نفس محمد ﷺ وهو موضوع كتابنا .

---

(١) الآية ٥١ من سورة الشورى

(٢) الآيات من ١٩٢ : ١٩٥ من سورة الشعراء

فى إقامة الحجة على مثبتى الوحى المطلق
فى إثبات نبوة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ)

إن من اطلع على الكتب المقدسة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى المعبر عنها بكتب العهدين القديم والجديد ، وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية ، من أحرار الفكر ومستقلى العقل ــ علم علماً عقلياً وجدانياً أنه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك الكُتُب وحى من الله ، وإن الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحى من الله ، وأن محمداً نبى معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبى حنيفة والشافعى ، ولا نحوى أن يجحد نحو سيبويه وابن جنى ، ولا شاعر أن ينفى شاعرية الرخى والبحترى وقل مثل ذلك فى الطبيب والفيلسوف والرياضى والفلكى ــ كل منهم مع أئمة علمه ، وفى كل انسان صحيح الحواس فى المدركات الحسية ، فالبصير لا يستطيع أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السراج على نور النهار ، ولله در البوصيرى حيث قال :

الله أكبر إن ديــن محمــد وكتابه أقـوى وأقـوم قيـلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفىء القنديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الإفرنج الذين نشأوا فى النصرانية ، وأحاطوا بها علماً وخبراً ، ثم عرفوا الإسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة ، كتب الأستاذ إدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية فى مدرسة جنيف الجامعة فى مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية :

« كان محمد نبياً صادقاً كما كان أنبياء بنى اسرائيل فى القديم ، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الألوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين فى أولئك الأنبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم ذلك الإلهام النفسى ، وهذا التضاعف فى الشخصية ، اللذين يحدثان فى العقل البشرى المرئ والتجليات والوحى والأحوال الروحية التى من بابها « أهـ » فهذا العالم الأوربى المستقل الفكر يقول : إن كل ما كان به أنبياء بنى إسرائيل أنبياء كان ثابتاً لمحمد . ونحن نقول : إن جميع خصائص النبوة التى كانت فيه هى أكمل شكلاً وموضوعاً وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه ، وأما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذى يعلل به الماديون الوحى المطلق وسنتكلم عليه فى الفصل الثالث .

ولخص هذا العالم خصائص نزول الوحى على محمد ﷺ من كتب إسلامية مذعنا لصحة روايتها . وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسى إميل درمنغام فى كتابه (حياة محمد) مذعنا لصحة الرواية

ولموضوعها . شارحاً لتأثير نبوته فى إصلاح البشر متمنياً الاتفاق بين المسلمين والنصارى ، آسفاً للشقاق بينهم ...

آية نبوة محمد العقلية العلمية وسائر آياته الكونية

إن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة والمرسلة أخرى من الآيات الكونية التى أكرم الله تعالى بها رسوله محمد ﷺ هى أكثر من كل ما رواه الإنجيليون وأبعد عن التأويل ، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس ، ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل فى ثبوتها وفى موضوعها ، لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها فى سن الرشد والاستقلال النوعى الذى لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف فى سنن الكون ، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم العقلى مع هذا الخضوع ، بل هو من موانعه ، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته ، وهو كتابه المعجز بهدايته وبعلومه وبإعجازه اللفظى والمعنوى وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآتية فيه ليربى البشر على الترقى من هذا الاستقلال ، إلى ما هم مستعدون له من الكمال .

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية ، والنبوة العامة الباقية قد عبر عنه النبى ﷺ بقوله : « ما من الأنبياء من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] متفق عليه ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقص الله تعالى علينا فى كتابه إن المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله ، فاحتج عليهم بالقرآن فى جملته وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التى لم يكن يعلمها هو ولا قومه ، وبهدايته وبعلومه وبإعجازه ، وعدم استطاعة أحد ولا جماعة ولا العالم كله على الإتيان بمثله . ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾[2] وسيأتى تفصيله .

وأما ما أكرمه الله به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه فى الشدائد ، كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عددا

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ــ كتاب الاعتصام بالكتب والسنة جـ ٩ صـ ١١٣ ط الشعب .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

وعددا واستعدادا بالسلاح والطعام ، وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها ، ثم بغزوة الأحزاب إذ تألب المشركون واليهود على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال .

من تلك الآيات شفاء المرضى ، وإبصار الأعمى ، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة الأحزاب وفى غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنها تسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التى كانت تسيخ فى الرمل ببدر ، ولم يصب المشركين من غيثها شىء . ومثل ذلك فى غزوة تبوك إذ نفد ماء الجيش فى الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم ، على قلة الرواجل معهم ، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شرباً ، فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله عودك فى الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فدعا فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم ما ملأوا ما معهم من الرّوايا ولم تتجاوز عسكرهم .

ثبوت نبوة محمد بنفسها وإثباتها لغيرها

وجملة القول أن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أى بالبرهان العلمى والعقلى الذى لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية ، وأن هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس فى كل زمان ، وأنه لا يمكن اثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ وهذا القرآن الذى جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها فى هذا الطور العلمى الاستقلالى من أطوار النوع البشرى هو شهادته لها . فإن الكتب التى نقلها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عزيت إليهم إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التى كتبوها بها لا تواترا ولا آحاداً ، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه ، وتناقضه ، وتعارضه ، ولا إثبات صحة التراجم التى نقلت بها ، كما قلنا آنفا وبيناه بالتفصيل مراراً .

إن الكتاب الإلهى الوحيد الذى نقل بنصه الحرفى تواتراً عمن جاء به بطريقتى الحفظ والكتابة معاً هو القرآن الكريم وإن النبى الوحيد الذى نقل تاريخه بالروايات المتصلة الأسانيد حفظاً وكتابة هو محمد ﷺ . فالدين الوحيد الذى يمكن أن يعقله العلماء المستقلون فى الفهم والرأى وبينوا عليه حكمهم هو الإسلام . وأما خلاصة ما يمكن الإعتراف به من الأديان السابقة لثبوت قضاياه الإجمالية بالتواتر المعنوى فهو إنه وجد فى جميع أمم الحضارة القديمة دعاة إلى عبادة الله تعالى وحده ، وإلى العمل الصالح ، وإلى ترك الشرور والرذائل منهم أنبياء مبلغون عن الله تعالى مبشرين ومنذرين ، كما أنه وجد فيهم حكماء يبنون إرشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة — ووجد فى جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس ، وأمور خاصة بأقوالهم وبزمانهم ، وخرافات ينكرها العقل وينقصها العلم .

بسط ما يصورون به الوحى النفسى لمحمد صلى الله عليه وسلم

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحى قد نبع من نفس محمد وأفكاره ، بتأثير ذلك كله فى وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله فى تقريبه إلى العقل ، ثم أقضى عليه بما ينقضه من أساسه بأدلة العقل والنقل والتاريخ والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول :

يقولون (**أولاً**) إن عقل محمد الهيولانى ــ أو ما يسمونه فى عصرنا بالعقل الباطن ــ قد أدرك بنوره الذاتى بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام ، كما أدرك ذلك أفراد آخرون من الأقوام ، ونقول آمنا وصدقنا .

(**ثانياً**) إن فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الأموال بالربا والقمار ، ونقول : آمنا وصدقنا .

(**ثالثاً**) إن فقره وفقر عمه (أبى طالب) الذى كفله صغيرا قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات من السكر والتسرى وعزف القيان ، ونقول : الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه .

(**رابعاً**) إنه طال تفكره فى انقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات . ونقول : لا مانع من ذلك .

(**خامساً**) إنه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفى مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله من بنى إسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور . نقول : إن هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا .

(**سادساً**) إن تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة فى عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيه من البدع . ونقول : هذا مبنى على ما قبله فهو معقول غير منقول .

(**سابعاً**) إنه قد سمع أن الله سيبعث نبيا مثل أولئك الأنبياء من العرب فى الحجاز قد بشر به عيسى

المسيح وغيره من الأنبياء ، وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذلك النبى الذى آن أوانه ونقول : إن هذا استنباط لهم مما قبله غير صحيح وسيأتى ما فيه .

(**ثامناً**) وهو نتيجة ما تقدم : إنه توسل إلى ذلك بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه فى خلوته بغار حراء فقوى هنالك إيمانه ، وسما وجدانه ، فاتسع محيط تفكره وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البينات فى ملكوت السموات والأرض على وحدانية مبدع الوجود ، وسر النظام السارى فى كل موجود ، بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومازال يفكر ويتأمل ، وينفعل ويتململ ويتقلب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن أنه هو النبى المنتظر الذى يبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد فى الرؤى المناسبة ثم قوى حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحى فى اليقظة .

وأما المعلومات التى جاءته فى هذا الوحى فهى مستمدة الأصل من تلك الينابيع التى ذكرناها ، ومما هداه إليه عقله وتفكره فى التميز بين ما يصح منها وما لا يصح ، ولكنها لا تتجلى له نازلة من السماء ، وإنها خطاب الخالق — عز وجل — بوساطة الناموس الأكبر ملك الوحى جبريل روح القدس عليه السلام الذى كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام .

وقال أحد ملاحدة المصريين : إن سولون الحكيم اليونانى وضع قانوناً وشريعة لقومه فليس بدعاً من العقل أن يضع محمد شريعة أيضاً وسأبين فساد هذا الرأى أيضاً .

تفنيد تصويرهم للوحى النفسى
(وإبطاله من وجوه)

(**الوجه الأول**) أن أكثر المقدمات التى أخذوا منها هذه النتيجة هى آراء متخيلة ، أو دعاوى باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتيجة لها . مثال ذلك زعمه أن محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم — ليوهموا الناس أن ما جاء فى أول سورة الروم من الإنباء بالمسألة وبأن الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل . فأما التاريخ فإنه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان فى سنة ٦١٠ م وذلك بعد رحلة محمد الأخيرة إلى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحى بسنة ثم إن التاريخ أنبأنا أن دولة الروم كانت مختلة معتلة فى ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلب على الفرس حتى إن أهل مكة أنفسهم هزءوا بالخبر وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبى ﷺ فربح الرهان .

وأما العقل فإنه يحكم بأن مثل محمد فى سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بأن الغلب سيعود للروم على الفرس فى مدة بضع سنين — لا من قبل الرأى ولا من الوحى النفسى المستمد من الأخبار غير الموثوق بها . وقد صح أن انتصار الروم وقع فى سنة ٦٢٢ م وكان وحى التبليغ للنبى ﷺ سنة ٦١٤ م فإذا فرضنا أن سورة الروم نزلت فى هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين ، وإن كان فى السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد فى التفسير . والبضع يطلق ما بين الثلاث إلى التسع .

والحكمة فى التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى : ﴿ **غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾[1] ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً وهى إفادة أن الغلب يكون فى الحرب الممتدة فى هذه المدة . وأنباء الوحى والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ الذى يحدد الوقائع بالسنين ، وليس فى وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة فى بابها .

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ فى رحلته إلى الشام بأرض مدين وحديثه مع أهلها ، الذى أرادوا به أن يجعلوه أصلاً لما جاء فى القرآن من أخبارها ، والخبر باطل كما أشرنا إليه عند نقلنا إياه فى المقدمات ، ولو صح لما كان من المعقول أن يعتمد محمد على ما سمعه فى الطريق من أناس مجهولين لا يوثق بمعرفتهم ولا يصدقهم فيجعله أصلاً للوحى الذى جاءه فى قصة موسى وفى قصة شعيب عليهما السلام .

(الوجه الثانى)

لو كان النبى ﷺ تلقى عن علماء النصارى فى الشام شيئا أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً علم عنه أو قيل فيه ولو لم يثبت إلا ودونوه ووكلوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناده وما علم من سيرة رواته .

(الوجه الثالث)

لو وقع ما ذكر لاتخذ أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحى قد تعلمه فى الشام من النصارى ، فإنهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة ، وهو أنه

---

(١) الآيات ٢ : ٧ من سورة الروم

كان فى مكة مَين (حداد) رومى يصنع السيوف وغيرها فكان النبى ﷺ يقف عنده أحياناً يشاهد صنعته فاتهموه بأنه تعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾[١] .

(الوجه الرابع)

نصوص القرآن صريحة فى أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحى ، وهم متفقون على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد فضلا عن الكذب على الله — عز وجل — كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل ، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله — عز وجل — ويقينه بكل ما أوحاه إليه .

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى فى مدين وما بعدها من سورة القصص ﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين** ﴾[٢] وقوله تعالى عقب قصة نوح من سورة هود ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾[٣] ونحوه فى أواخر سورة يوسف بعد قصته ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾[٤] .

ومن الشواهد التى لم يكن يعرفها أحد من أهل الكتاب قوله تعالى بعد قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها ، فيتوهم أنه مأخوذ عنهم ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾[٥] .
الأقلام جمع قلم تطلق على الأزلام والأقداح التى كانوا يلقونها لضرب القرعة لإزالة الخلاف فيما يتنازعون فيه ، وعلى أقلام الكتابة ، وتكون القرعة بأقلام تخط بها كما هو المعهود فى عصرنا والمعنى أنهم اختصموا وتنازعوا فى كفالة مريم وتربيتها عناية بأمرها فأصابت القرعة زكريا عليه السلام ، كما قال تعالى فى أول قصتهما فى سورة آل عمران الآية ٣٧ .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة النحل
(٢) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القصص
(٣) الآية ٤٩ من سورة هود
(٤) الآية ١٢٠ من سورة يوسف
(٥) الآية ٤٤ من سورة آل عمران

(الوجه الخامس)

إنه لم يرد فى الأخبار الصحيحة والمرفوعة أن محمداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبى المنتظر الذى كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روى عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون ، لأنهم ما تركوا شيئا بلغهم عنه ﷺ إلا ودونوه ، كما رووا مثله عن أمية بن أبى الصلت ، بل صرح القرآن المجيد بأنه لم يكن يرجو هذا ولا يؤمله قال تعالى : ﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك** ﴾[1] أى لكن ألقى إليك رحمة من ربك بك وبالناس كلهم ، لا كسب لك فيه بعلم ولا عمل ، ولا رجاء ولا أمل فهذا تأكيد وتكميل للشاهد الأول من الوجه الرابع .

(الوجه السادس)

إن حديث بدء الوحى الذى أثبته الشيخان فى الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح فى أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هى عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى .

(الوجه السابع)

لو كان النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده فى الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعداده ، تجلى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوى عليه نفسه الوثابة ، وفكرته الوقادة ، فى سورة أو سور من أبلغ سور القرآن ، فى بيان أصول الإيمان ، وتوحيد الديان ، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة الأوثان وتشريع الأحبار والرهبان ، واتخاذ الولد للرحمن ، وإنذار رءوس الكفر والطغيان ، ما سيلقون فى الدنيا من الخزى والنكال وفى الآخرةمن عذاب النار ، كسور المفصل ولاسيما (ق والقرآن المجيد) والذاريات والطور والنجم والقمر ثم الحاقة والنبأ ، أو فى سورة أو أكثر من السور الوسطى التى تقرعهم بالجحيم ، وتأخذهم بالعبر ، وتضرب لهم المثل بسنن الله فى الرسل ، كسور الأنبياء والحج والمؤمنون .

---

(١) الآية ٨٦ من سورة القصص

ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ، ولم يدعهم إلى شيء ولا تحدث إلى أهل بيته ولا أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الدينى الذى توجهت إليه بزعمهم نفسه ، ولا من ذم خرافات الشرك الذى ضاق به ذرعه ، إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه ، وناهيك بألصق الناس به : خديجة وعلى وزيد ابن حارثة فى بيته ، وأبى بكر الصديق الذى عاشره طول عمره . فهذا السكوت وحده فى فترة الوحى برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحى الذاتى الذى زعموه ، واستمداده لعلومه من التلقى الذى اختلقوه ، والاختبار الذى توهموه .

(الوجه الثامن)

إن ما نقل من ترتيب نزول الوحى بعد هذه الفترة الطويلة جاء موافقاً لما كان يتجدد من الوقائع والحوادث الطارئة دون ما زعموا من الأمور السابقة ، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر رداً على قول الوليد بن المغيرة المخزومى الذى قاله فى القرآن .. قال هذا سحر يؤثر بأثره على غيره فنزلت الآيات ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا** ﴾ إلى الآية ٣٠ رواه الحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخارى .

وقد نزلت سورة اقرأ فسورة ن والقلم فسورة المزمل قبل سورة المدثر ، ونزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة من قصار المفصل وأوساطه ليس فيها شيء مما زعموا أنه تبقاه أو شاهده فى الأسفار ، ولا مما وصفوا من أفكاره فى الغار ، فليراجع ترتيب نزول السور فى كتاب الاتقان من شاء .

(الوجه التاسع)

إن هذه المعلومات المحمدية التى تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحى قليلة المواد ، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحى القرآن .

وإن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها ، دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبى ﷺ بالطريق إلى الشام أو حضرهم .

وإن القرآن نزل مصدقاً لكتب أهل الكتاب من حيث كونها فى الأصل من وحى الله إلى موسى وعيسى وداوود وسليمان وغيرهم ـــ ونزل أيضا مهيمنا عليه ، أى رقيبا وحاكما كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (الخامسة) ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى أنهم ﴿ **أوتوا نصيباً من**

الكتاب ﴾[1] أى لا كله ، « ونسوا حظاً مما ذكروا به »[2] وأنهم حرفوا كلمه عن مواضعه[3] وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والأحكام والأخبار ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان ، أفاضوها على محمد فى رحلته التجارية إلى الشام سواء أكان عند بعضهم بقية من التوحيد الموسوى والعيسوى الذى كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا ؟ وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الأناجيل التى حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (أبوكريف) كانجيل طفولة المسيح وانجيل برنابا أم لا ؟ فمحمد لم يعقد فى الشام ولا فى مكة مجمعا مسيحيا كمجامع الكنيسة للترجيح بين الأناجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض .

إن وقوع مثل هذا منه فى تلك الرحلة مما يعلم واضعوا هذه الأخبار ببداهة العقل مع عدم النقل أنه محال عادة ، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الأناجيل وتلك المذاهب برأيه فى تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن حكمه الخطأ ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه فى شأن أهل الكتاب « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم »[4] يعنى فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا أو يكون ما صدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا .

(الوجه العاشر)

إن فى القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به ، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون ، وفى القرآن أنها امرأته وفيما فيه من عزو صنع العجل الذى عبده بنو اسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامرى وإثباته لانكارها هارون عليهم فيه ، وغير ذلك .

بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما فى الكتب الالهية ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه .

رويدكم أيها المفتاتون الذين يقولون ما لا يعلمون ، إن وحى القرآن أعلى مما تزعمون ، وأكبر مما تتصورون وتصورون ، وإن محمداً أقل علماً كسبيا مما تدعون وأكمل استعداداً لتلقى كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون .

---

(١) الآية ٤٤ ،٥١ من سورة النساء
(٢) الآية ١٣ من سورة المائدة
(٣) ارجع إلى الآية ٧٥ من سورة البقرة ، ٤٦ من سورة النساء ، ١٣ ، ١٤ من سورة المائدة
(٤) الحديث فى صحيح البخارى ــ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة جـ ٩ صـ ١٣٦ ط الشعب

وإذا كان وحى القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله ، لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليونانى الذى شبه محمداً به أحد ملاحدة عصرنا من مصرنا ، مع بعد الشبه بين أمى نشأ بين الأميين ، وفيلسوف نشأ فى أمة حكمة وتشريع ودولة وسياسة ، ودخل فى كل لأمور الأمة والدولة كسولون هذا .

الأمثال النورانية
لفطرة محمد ﷺ وروحه ووحيه ، وكتاب الله ودينه

لقد كان محمد ﷺ فى فطرته السليمة ، وروحه الشريفة ، وما نزل عليها من المعارف العالية وما أشرق فيها من نور الله ــ عز وجل ــ الذى تلوته عليك آنفا من آخر سورة الشورى هو مضرب المثل فى قوله تعالى من سورة النور ﴿ **الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم** ﴾ .

فمصباح الروح المحمدية ، فى زجاجة فطرته الزكية ، المتلألئة كالكواكب الدرية ، يوقد من شجرة مباركة قدوسية زيتونة لا شرقية ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية ، بل هى إلهية علوية ، أشبه بما عرف الناس فى عصرنا بالكهربائية ، يكاد زيت كمالها الفطرى يضىء بذاته ولو لم تمسسه نار ، فمسه نور الله بما أوحاه إليه فاشتعل بما عم العالم من الأنوار ، ولا غرو فقد جعل الله محمداً نوراً ، وجعل كتابه الذى أنزل عليه نوراً ، وجعل دينه نوراً .

قال تعالى : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا** ﴾[4] . وقال فى خطاب المؤمنين بالله ورسله السابقين لمحمد ﷺ من أهل الكتاب ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾[5] وقال فيمن استجاب لهذه الدعوة ﴿ **فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾[6] .

---

(١) الآية ١٥ من سورة المائدة
(٢) الآية ١٧٤ من سورة النساء
(٣) الآية ٢٢ من سورة الزمر
(٤) الآية ٨ من سورة التغابن
(٥) الآية ٢٨ من سورة الحديد
(٦) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف

ومما كان يدعو به محمد ﷺ بعد نبوته استمداداً للنور من ربه « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى لسانى نوراً ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، ومن فوق نورا ومن تحتى نورا ، ومن أمامى نورا ، ومن خلفى نورا ، واجعل لى فى نفسى نورا ، وأعظم لى نورا »[١] رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس .

فيا مسيو درمنغام ! إنك قد أبصرت قبساً من هذا النور الوهاج ، فلا تحسبن أن محمداً اقتبسه من أعراب مدين ويهود يثرب ونصارى الشام ، استخلصه من تفكره فى أمور الكون والناس ، فالأمر أعظم من ذلك ، فنور الكهرباء أعظم من أن يكون مقتبساً من نار حطب البادية ، وقناديل الكنائس اليهودية والنصرانية ، أو من نور ما بقى عندهم من كتب أنبيائهم الأصلية إنما هو فائض من نور الله الأعظم على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ ، هو كما قال البوصيرى :

الله أكبر إن دين محمد	أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده	طلع الصباح فأطفىء القنديلا

وكما قال فى أول همزيته :

كيف ترقى رقيك الأنبياء	يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا	ل سنًى منك دونهم وسناء
إنما مثَّلوا صفاتك للنا	س كما مثَّل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصد	ـدر إلا عن ضوئك الأضواء

أفرأيت من أنزل الله عليه تلك الآيات ، التى أشرقت بنورها الأرض والسموات ، وألهمه هذا الدعاء الفياض بنور الله ، أيعقل أن يستمد النور ممن كانوا يعيشون فى ظلمة الوثنية الهالكة ، وفى ظلمات التقاليد الكهنوتية الحالكة الذين ضرب لهم الله المثل بعد مثل النور الذى اقتبسناه من سورة النور بقوله : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعه يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾[٢]

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ــ كتاب صلاة المسافرين ــ جـ ١ صـ ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠
وفى مسند أحمد جـ ١ صـ ٣٤٣ ، ٣٥٢ ، ٣٧٣
وفى صحيح البخارى ــ كتاب الدعوات ــ جـ ٨ صـ ٨٦ ط الشعب

(٢) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة النور

فارجع أيها الناظر المنصف إلى وجدانك ، وتأمل هذه الأمثال الإلهية ، وما تراه فى سائر هذا الكتاب ، لعل الله يتم نور إنصافك ، فتكتب كتاباً آخر تثبت به الوحى الإلهى المعصوم ، لمحمد خاتم النبيين ، ببلاغتك الفرنسية وتدعو قومك إلى الإهتداء بكتابه القويم ، ومعالجة مفاسد إلحادهم وخياناتهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم باتباع صراطه المستقيم .

فى مقاصد القرآن ، فى تربية نوع الإنسان وحكمة ما فيه من التكرار فى الهداية وإعجازه بالبيان

إن مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم ، وإدخالهم فى طور الرشد ، وتحقيق أخوتهم الإنسانية ووحدتهم ، وترقية عقولهم ، وتزكية أنفسهم ، منها ما يكفى بيانه لهم فى الكتاب مرة أو مرتين أو مراراً قليلة ، ومنها ما لا تحصل الغاية منه إلا بتكراره مراراً كثيرة ، لأجل أن يجتث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويغرس فى مكانها أضدادها ، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتى أكله ، ويبدو صلاحه ، ويينع ثمره ، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة ، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج ، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا فى المستقبل ، فيوضع له بعض القواعد العامة ومنها ما يكفى فيه الفحوى والكناية .

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط ، فلا يكفى أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود فى متون الفنون وكتب القوانين وقد بين الله تعالى ذلك بقوله فى موضوع البعثة المحمدية ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ، هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾[1] فآياته المتلوة هى سور القرآن ، المرشدة إلى سننه فى الأكوان ، والتزكية هى التربية بالعمل وحسن الأسوة ، والكتاب هو الكتابة التى تخرج العرب من أميتهم ، والحكمة هى العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة ، وما يسمى فى عرف شعوب الحضارة بالفلسفة ، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة .

وإننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ما جاء به محمد ﷺ أعلى وأكمل مما جاء به من قبله من جميع الأنبياء والحكماء والحكام . فهو برهان علمى على أنه من عند الله تعالى ، لا من فيض

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الجمعة

استعداده الشخصى ، وإننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع ، ونبين حكمة القرآن وما امتاز به فى كل نوع منهما بالإجمال ، لأن التفصيل لا يتم إلا إذا يسر الله لنا انجاز ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها فى أبواب فبين فى كل باب منها وجه حاجة البشر إلى ذلك المقصد ، وكون القرآن وفىَّ بهذه الحاجة بما نأتى من جمله آياته فيه ، وإنما هذا الفصل نموذج منه .

المقصد الأول من مقاصد القرآن الكريم
فى بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة
التى دعا إليها الرسل وضل فيها أتباعهم

إن أركان الدين الأساسية التى بعث الله تعالى بها جميع رسله ، وناط بها سعادة البشر هى الثلاثة المبينة بقوله ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عندربهم ولا خوف عليه ولا هم يحزنون** ﴾[1] وهاك الكلام على كل واحد منها بالإيجاز ، لأن المراد هنا أن ما جاء به القرآن منها هو أتم وأكمل من المعروف فى سائر الأديان ، وفيه صلاح لما أفسد أهل الملل من دين الأنبياء ، بما طرأ على كتبهم من الضياع والتحريف ، وما ابتدعوا فيه من الأهواء والتقاليد ، وليس المراد بيانها فى ذاتها بالتفصيل الذى يتوقف عليه العمل ، حتى إذا ثبت ما نقصده من نبوة محمد ﷺ وكون هذا القرآن كلام الله — عز وجل — أوحاه إليه ، علم منه أنه يجب على المؤمن به أن يتعلم جميع ما فرضه عليه .

وهذه الأركان الثلاثة تدل عليها آثار الملل القديمة البائدة كالمصريين والكلدانيين ، وبقايا كتب أممها الباقية كالهنود والمجوس والصينيين ، وغرضنا من هذا الكتاب أن نبين لجميع الشعوب المتدينة أن ما هم عليه من الدين ليس هو عين ما أوحاه الله إلى رسله الذين ظهروا فى أسلافهم ، ولا هو بالمصلح لهم فى أنفسهم وأعمالهم وأن الإسلام هو الدين الحق الثابت عقلا ونقلا ، المبين لكل ما يحتاجون إليه من الهداية . وبهذا الاعتبار جعلناها مقصداً واحداً لا ثلاثة ، وجعلنا المقصد التالى له فى موضوع الرسل والرسالة .

الركن الأول للدين
الإيمان بالله تعالى

إن الركن الأول والأعظم من هذه الأركان — وهو الإيمان بالله تعالى — قد ضل فيه جميع الأقوام والأمم حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل ، فاليهود على حفظهم لأصل عقيدة التوحيد ، قد غلب عليهم التشبيه

(١) الآية ٦٢ من سورة البقرة

وغاب عنهم أن يجمعوا بين النصوص المتشابهة فى صفات الله وبين عقيدة التنزيه . فقد جعلوا الله كالإنسان يتعب ويندم على ما فعل كخلقه الإنسان ، لأنه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله أو مثل الآلهة وزعموا أنه كان يظهر على شكل الإنسان حتى إنه صارع اسرائيل و لم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه وعبدوا بعلا وغيره من الأصنام .

والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، واتخذوا المسيح ربا وإلهاً وعبدوا القديسين وصورهم ، حتى صارت كنائس النصارى كهياكل الوثنية الأولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء التى جعلوها أساس الدين ، بل الدين كله — هى عقيدة الهنود فى كرشنه وثالوثة فى جملتها وتفصيلها ، وهى مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة ، وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقياصرة ، وتبذل فى سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويربَّى عليه الأحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهاناً ، فغمر الشرك بالله هذه الأرض بطوفانه ، وطغت الوثنية على أهلها .

هدم القرآن معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة فى الأفكار والقلوب ، وما كان ليتم هذا بإقامة برهان عقلى أو عدة براهين على توحيد الله — عز وجل — ، بل لابد فيه من دحض الشبهات ، وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والمواعظ الخطابية بالعبارات المختلفة وضرب الأمثال ، لذلك كان أكثر المسائل تكراراً فى القرآن مسألة توحيد الله — عز وجل — فى ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ما سواه من الموجودات سواء فى كونهم ملكا وعبيدا له ، لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضراً لأحد ولا لأنفسهم إلا فيما سخره من الأسباب المشتركة بين الخلق .

وأما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الدنيى ، فليس لاقناع المعطلين والمشركين بربوبيته تعالى فقط ، بل أكثره لإقامة الحجة به على بطلان الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده ، فشر الشرك وأوغله فى افساد عقائد المؤمنين بالله من ضعفاء العقول ، وحملهم على التدين بالأوهام والخرافات المخالفة لما أثبتته التجارب من سنن الله فى المخلوقات إنما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة إليه من كشف ضر وجلب نفع من غير طريق الأسباب ، فقد ذكر الدعاء فى القرآن أكثر من سبعين مرة بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لأنه روح العبادة ومخها ، بل هو العبادة التى هى دين الفطرة كله ...

وثم أنواع أخرى من آيات الإيمان بالله تعالى تغذى التوحيد وتصعد بأهله درجات متفاوتة فى السمو بمعرفته تعالى والتأله والتولية فى حبه ، من التنزيه والتقديس والتسبيح له ، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والإرث والأموال ، وبحِكَمِه فى الخلق والتدبير لأمور العالم ، وسننه فى طباع البشر وفى شئونهم الاجتماعية ووضع كل اسم منها فى الموضع المناسب له من علم

وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة ورحمة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن الأمر بالتوكل عليه والخوف منه لإجلاله أو لعدله ، والرجاء من رحمته وفضله وناهيك بما سرد منها سرداً لجذب الأرواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها فى شهوده عن شهودها ، بَلَه أهواءها وشَهواتها ، كما تراه فى فاتحة سورة الحديد .

﴿ **سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير. له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور** ﴾(١) وفى آخر سورة الحشر ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾(٢) .

فهذه الأسماء الإلهية هى ينابيع الحياة الروحية فى القلوب ومشرق أنوار المعارف الإلهية على العقول ، ومنها استمر الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الحكم السامية ، والكتب العالية فى معرفته تعالى وأسرار خلقه ، والأدعية والقصائد فى حبه ومناجاته ، بعد أن تربوا بكثرة ذكره وتلاوة كتابه .

وهذا هو الغرض الأول من أمر القرآن المؤمنين بذكر الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ، ليكون الله تعالى غالباً على أمرهم ، كما قال فى وصف يوسف عليه السلام ﴿ **والله غالب على أمره** ﴾(٣) فيمقتون الباطل والشر ، ويكون كل حظهم من الحياة الحب والخير ، لما يثمره الذكر لهم من صلاة الله عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا ، هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾(٤) .

بهذا التكرار الذى جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول ، طهر الله عقول العرب وقلوبهم من كل رجس الشرك وخرافات الوثنية ، وزكاها بالأخلاق العالية والفضائل السامية ، وكذا غير العرب ممن

---

(١) الآيات من ١ : ٦ من سورة الحديد

(٢) الآيات ٢٢ : ٢٤ من سورة الحشر

(٣) الآية ٢١ من سورة يوسف .

(٤) الآيات ٤١ : ٤٣ من سورة الأحزاب

آمن بالله وأتقن لغة كتابه ، وصار يرتله فى عبادته ويتدبر آياته ، حتى إذا دب فى الشعوب الإسلامية دبيب الجهل بلغة القرآن ، وقل تدبره فرضه الله عليهم ، واعتمد المسلمون فى فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ، وفى أعمال عبادتهم على كتب الفقه الجافة ، وفى تزكية أنفسهم على الأوراد البشرية المؤلفة ، ضعف التوحيد فى قلوب الكثيرين ، وشابته شوائب الشرك الأصغر ثم الأكبر ، واتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، اعتقادا وعملا ، وتأولاً وجدلاً . فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة فى التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم وتقاليدهم المبتدعة وهجروا القرآن هجراً غير جميل ، وعاقبهم الله بما أوعدهم كما هو شاهد ومعلوم ..

قد كان توحيد المسلمين الأولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذى أزكى أنفسهم ، وأعلى هممهم ، وكملهم بعزة النفس ، وشدة البأس، وإقامة الحق والعدل ، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم وإعتاقها من رق الكهنة والأحبار والرهبان والبوذات والموباذانات الروحى والعقلى وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، وإقامة دعائم الحضارة وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمم الأرض ،حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعى الشهير فى كتابه (تطور الأمم) « إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا فى ثلاثة أجيال : **أولها** : جيل التقليد ، **وثانيها** : جيل الخضرمة ، **وثالثها** : جيل الاستقلال والاختصاص . قال :إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون فى الجيل الأول الذى بدءوا فيه بمزاولتها .

وأقول : إن سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد الأصم الأعمى ، وتوطين أنفسهم على اقامة البشر وقيادتها فى أمور الدين والدنيا معاً ، وقد خفى كل هذا على سلائلهم بعد ذهاب الخلافة الإسلامية وزوال النهضة العربية ، وتحول السلطان إلى الأعاجم الذين لم يكن لهم من الإسلام إلا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن .

الركن الثانى للدين
عقيدة البعث والجزاء

الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال هو الركن الثانى للدين الذى بعث الله به الرسل عليهم السلام ، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى ويكون باعثاً على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغى والعدوان ، وكان جل مشركى العرب ينكرونه أشد الإنكار ، وأما أهل الكتاب وغيرهم من الملل ـــ التى كان لها كتب وتشريع دينى ومدنى ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليها الوثنية ـــ فكلهم يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء يختلفون فى صفتهما لا فى أصلهما ، ولكن إيمانهم هذا قد

شابه الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجل فائدته فى إصلاح الناس ، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين ، وخلائف النصارى المتبعين لدين القيصر قسطنطين ، هو وجود المخلص الفادى الذى يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الأقنوم الثانى من الثالوث الإلهى الذى هو عين الأول والثالث ، وكل واحد منهما عين الآخر ، وكل ما تقوله النصارى فى فداء المسيح للبشر وغير ذلك من ولادته إلى رفعه فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود فى كرشنه وبوذا فى اللفظ والفحوى كما تقدم ، قلما يختلفان إلا فى الاسمين كرشنه ويسوع .

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب إسرائيل ،وادعاء محاباه الله تعالى لهم على سائر الشعوب فى الدنيا والأخرة ، ويسمونه إله إسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين ، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية ، فكان فساد الإيمان بهذا الركن من أركان الدين تابعا لفساد الركن الأول وهو الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحتاجا إلى الإصلاح مثله .

جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح فقد أعاد دين النبيين فى الجزاء إلى أصله المعتدل وهو ما كرم الله تعالى به الإنسان من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله ، اللذين هما من كسبه وسعيه ، لا من إيمان غيره وعمله ، وإن الجزاء على الكفر والظلم والفساد فى الارض ، يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب ، والجزاء على الإيمان والأعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة .

وقد نص القرآن على أن ما جاء به من هذا الاصلاح هو ما أوحاه إلى إبراهيم أبى الأنبياء الذين كانوا من بعده على شرعه فقال ﴿ **أعنده علم الغيب فهو يرى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾[1] أى أن أصل دين الله لجميع رسله أنه لا تحمل نفس وازرة أى خاطئة خطيئة نفس أخرى بفداء ولا غيره ، وأنه ليس للإنسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره ، وقد يدخل فى عموم عمله ما يكون سببا له كالذى يعمله ولده أو تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه ، وما يسنه من سنة حسنة أو سيئة فله مثل جزاء من يعمل بهما من بعد .

فإذا علمت ما كان من إنكار مشركى العرب للبعث والجزاء ، ومن فساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل فى هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكملة للإيمان بالله تعالى ، وأن تذكرها هو الذى يقوى الوازع النفسى

(١) الآيات ٣٥ : ٤١ من سورة النجم

الذى يصد الإنسان عن الباطل والشر والظلم والبغى ويرغبه فى التزام الحق والخير وعمل البر ــ علمت أن إصلاحها ما فعل فعله العاجل فى شعب كبير إلا بتكرار التذكير بها فى القرآن بالأساليب العجيبة التى فيه من حسن البيان ، وتقريب البعيد من الاذهان تارة بالحجة والبرهان ، وتارة بضرب الأمثال ، وقد تكرر فى آيات بينات لعلها تبلغ المئات ، ومن إعجازه أنها لاتمل وتسأم ، بل لا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها ، وإن تقارب جنسها ونوعها وترادفت سورها . فتأمل ذلك فى سور المفصل ترى تكرار الكلام على البعث والنشور والجزاء بما لا يخطر على بال بشر من اختلاف الأسلوب فى النظم والفواصل ولا سيما المتناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ ، والنازعات مع عبس ، والتكوير مع الانفطار ، والمطففين مع الانشقاق وغيرهن .

قلنا الإيمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثانى فى جميع الأديان ، من لوازم الركن الأول وهو الإيمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العبث فى أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله تعالى بعد ذكر البعث وجزاء الكافرين فى آخر سورة المؤمنون ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾[1] . وقوله تعالى فى آخر سورة القيامة ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟** ﴾ فكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله فى خلقه ، وكفره بنعمته بخلقه فى أحسن تقويم ...

الركن الثالث للدين العمل الصالح

الركن الثالث من مقاصد الرسل ــ هو العمل الصالح ــ أثر لازم للإيمان بالله والحساب والجزاء فى الآخرة وثمرة له ، وهو يمده ويستمد منه ، فكل من الإيمان والعمل يغذى الآخر ويقويه ، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر ، فمن فسد إيمانه فسد عمله وكان رياء ونفاقاً وتقليداً صورياً ، فلا يكون العمل صالحا مصلحا لعامله إلا بجعله على الوجه الذى شرعه الله لأجله وهذا مكرر فى القرآن فى سور كثيرة لإصلاح ما أفسده البشر فيه بجعله تقليديا غير مزك للنفس ولا مصلح لشئون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذى هو الأصل الذى يتبعه غيره ، على أنه يقرنه به ولولا الحاجة إلى هذا التكرار فى التذكير والتأثير لكانت سورة العصر وحدها كافية فى الإصلاح العلمى العملى على قصرها ، كسورة الإخلاص فى الركن الأول الاعتقادى ، وكل منهما تكتب فى سطر واحد فهما من معجزات إيجاز القرآن وهدايته ، وكسورة الزلزلة فى الركن الثانى وهى تكتب فى ثلاثة أسطر .

---

(١) الآيتان ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون

(٢) الآية ٣٦ من سورة القيامة

إنما كان العمل الصالح من لوازم الإيمان بالله فى الدرجة الأولى ، لأن من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال فى الدرجة الثانية خوفاً من العقاب ورجاء فى الثواب فالأركان الثلاثة يمد بعضها بعضا بمقتضى هداية الأنبياء الموافقة للفطرة الإنسانية دون تقليد الوثنية التى لا شأن فيها لعلم الانسان ولا عمله فى سعادته ، لأن مدارها على إيمانه بوجود الفادى الشفيع ، أو على إقراره به وإن كان لا يعقله ، بل ينكره عقله وتأباه فطرته ، وقد أبطل القرآن عقيدة النداء والشفاعة الوثنية فى آيات عديدة .

ويدخل فى الأعمال الصالحة العبادات المفروضة التى يتقرب بها إلى الله تعالى وسائر أعمال البر التى ترضيه بما لها من التأثير فى صلاح البشر كبر الوالدين ، وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين .. وتأمل آيات الوصايا فى سورة الأنعام ، وآية البر فى سورة البقرة وغير ذلك من آيات الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصى ...

المقصد الثانى من مقاصد القرآن
بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل

كانت العرب تنكر الوحى والرسالة إلا أفراداً من بقايا الحنفاء فى الحجاز وغيره ، ومن دخل فى اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها ، وكانت شبهة مشركى العرب وغيرهم على الوحى استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون فى الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص الله — تعالى — بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة فى شعب إسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الأنبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته ، وارتكاب كبائر المعاصى كما تقدم ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح وغيرهم من البابوات والعباد ، وعبدوهم أيضا ، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكارهم إياه فى وقت الشدة ، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه وأنه لعن أكبرهم وسماه شيطانا ، وأنه قال لهم : « كلكم تشكون فىّ فى هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقساوسهم أربابا من دون الله تعالى بأن نحلوهم حق التشريع الدينى من وضع العبادات والتحليل والتحريم ، وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله وعموم رحمته وفضله ، ومن مفسدات نوع الانسان ، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه ، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ﷺ .

(١) بعثة الرسل فى جميع الأمم ووظائفهم

قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة** ﴾[1] وقال : ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾[2] وكرم الله الإنسان بجعل التشريع الدينى من حقوقه وحده ، وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الأقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته ، فقد أبطل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع ، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحى والعقلى الذى منيت به الأمم المتدينة ولا سيما البوذيين والنصارى ، ولضلال جميع أهل الملل والنحل فى ذلك كرر هذا الموضوع فى كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى إليهم ، وأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم . قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم فى خاتمة سورة الكهف ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ إنما إلٰهكم إله واحد** ﴾[3]. وقال فى جملتهم من وسطها ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين** ﴾[4] ومثلهما فى سورة الأنعام (٦ : ٤٨) وفى معناهما آيات أخر .

بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل ، لا متصرفين فى الكون بالنفع والضر بأنفسهم ولا بتأثيرهم فى إرادته تعالى .

(٢) أطوار النصارى وما انتهوا إليه فى الدين

ومن عجيب أمر النصارى أن وثنيى أوربا غلبوهم على دينهم لضعفهم وتفرقهم بعدم وجود نظام يجمع أمرهم بقوة حاكمة فتصدى لجمعهم الملك قسطنطين فانتزعهم من دين التوحيد الذى كان عليه إبراهيم وموسى وعيسى وسائر النبيين ، وأسس لهم كنائس كهياكل قومه الوثنيين ، ورياسة دينية رومانية تناوىء اليهود أو الساميين ، إلا فلسفة بولس عدو المسيح والمسيحيين ، ثم وضع لهم الأحبار والأساقفة من اليونان والروم عقائد وعبادات وشرائع وشعائر كثيرة ، لم يبن شىء منها على أساس التوراة التى هى ناموس موسى عليه السلام ونقلوا عن المسيح أنه قال وقوله الحق أنه ما جاء لينقض الناموس وإنما جاء ليتممه ، ولكن هؤلاء الأوربيين نقضوه ووضعوا لأنفسهم نواميس أخرى مخالفة له ولما تممه به المسيح من الزهد وترك عبادة المال والشهوات والرياء وحب الرياسة والبغى والعدوان وعادوا أتباعه اليهود فى كل شىء .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل

(٢) الآية ٢٤ من سورة فاطر

(٣) الآية ١١٠ من سورة الكهف

(٤) الآية ٥٦ من سورة الكهف

ولما بعث خاتم النبيين الذى بشر به موسى وعيسى والنبيون عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وبين للفريقين ــ اليهود والنصارى ــ ما اختلفوا فيه من أمر الدين ، ورأوا اليهود والنصارى يتبعونه لعلمهم بأنه جدد لهم دين أنبيائهم عادوه وحاربوه كما تقدم ، ولكنهم استفادوا من نوره ﷺ ما حملهم على إصلاح كبير فى دينهم قاتل عليه بعضهم بعضا حتى صارت أوربا فريقين متكافئين فى القوة ، وكل ذلك معروف بالتفصيل فى العالم كله .

ثم حدث بعد ذلك أن حزب دين الإصلاح (البروتستنت) مازال يتدرج فيما خالف فيه دين الكاثوليك والأرثوذكس وهو حرية البحث فى الدين حتى صار الملايين من أتباعه لا يؤمنون بعصمة كتب العهد القديم ولا العهد الجديد ، ثم عقدوا مجامع ومناظرات قرروا فيها بطلان القول بألوهية المسيح .

ثم حدث فى هذا العام أن جاهر الجمهور الأعظم فى الممالك الجرمانية بوجوب بناء دين الأمة على قواعد جنسها الآرى وهدم قواعد الجنس السامى الدينية وأنبيائه من بنى اسرائيل ، فبرز البابا يناهضهم ويصرح بأنهم يعودون إلى الوثنية القديمة ، فعلم من هذا الحدث الجديد أن الديانة النصرانية التى هدمها الشيوعيون فى شرق أوربا وآسيا (الروسية) وطفقوا يبثون الدعوة بهدمها هى وسائر الأديان ، والتى تلاهم الفاشيون من الجرمان بهدمها فى قلب أوربا ليست بالديانة التى تثبت فى عواصف هذه الفتن الجديدة ، وإنما الذى يقوى على ذلك دين الإسلام وحده ، فلا سبيل إلى إنقاذ أوربا وسائر العالم من فوضى كفر التعطيل والإباحة إلا به .

(٣) مسألة الشفاعة

وأما مسألة الشفاعة التى كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم فى الدنيا ، وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم فى الدنيا والآخرة ، فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعا وإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** ﴾[1] .. وقد قرر هذه المسألة فى بضع وعشرين آية من السور المكية والمدنية فأنت ترى أن القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التى ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء أهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على أقوامهم ؟ أم هو نابع من نفسه وهو يقتضى أن ما ينبع منها أعلى من وحى الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟ كلا إنما هى من وحى الله تعالى له .

---

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأنبياء

(٤) الإيمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

ومما بينه القرآن فى مسألة الأنبياء والرسل أنه يجب الإيمان بجميع رسل الله — تعالى — وعدم التفرقة بينهم فى الإيمان ، وأن الإيمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم ، لأن إضافتهم إلى الله تعالى واحدة ، ووظيفتهم فى إرشاد المكلفين وتبليغ رسالته وشرعه واحدة . قال تعالى فى خواتيم سورة البقرة : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ .

وبين فى سورة النساء أن التفرقة بينهم فى الإيمان هو الكفر حق الكفر ، وأن الإيمان بالجميع بغير تفرقة هو الإيمان حق الإيمان .. ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما** ﴾[1] .

وهذا مبنى على الإيمان بأن دين الله تعالى الذى أرسل به جميع رسله واحد فى أصوله ومقاصده من هداية البشر وإصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة ، وإنما كانت تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الأقوام ، ومقتضيات الزمان والمكان ، حتى بعث الرسول العام بالأصول الموافقة لكل زمان ومكان ، مع الإذن بالاجتهاد فى المصالح التى تختلف باختلاف الأطوار والأحوال ، فالإيمان ببعضهم دون بعض فى رسالتهم الإلهية ، اتباع للهوى فى الإيمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به ، لأنه عين الكفر ..

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام بجعل الإسلام دين الفطرة السليم ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة والبرهان ، والحجة ، والضمير ، والحرية ، والاستقلال

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كُلف البشر مقاومة فطرتهم بها ، وتعذيب أنفسهم ومكابرة عقولهم وبصائرهم خضوعا للرؤساء الذين يلقنونهم إياها فإن انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين ، وإن خالفوهم سرا أو جهرا كانوا من الهالكين ، والحق الواقع أنهم كانوا بهذا الخضوع والخنوع من الخاسرين ، ولكن عجز عقلاؤهم وحكماؤهم عن إنتشالهم

(١) الآيات ١٥٠ : ١٥٢ من سورة النساء

من مهاوى التهلكة ، وإخراجهم من ظلمات الشرك والظلم والاستبداد ، إلى نور التوحيد والحرية والعدل والاستقلال . حتى إذا بعث الله رسوله محمداً خاتم النبيين ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين — كان هو الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبين لهم أن دين الله الإسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر والعلم والحكمة والبرهان والحجة والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال . وأن لا سيطرة على روح الإنسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله ، وإنما رسل الله هداة مرشدون مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه فى المقصد الذى قبل هذا . ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

(١) الإسلام دين الفطرة

قال الله تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة وعن الضلالة إلى الهدى ، وعن الباطل إلى الحق ، ويقابله الزيغ وهو الميل عن الحق إلى الباطل إلخ ، وفطرة الله التى فطر الناس عليها هى الجبلة الإنسانية الجامعة بين الحياتين : الجسمانية الحيوانية ، والروحانية الملكية ، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما وما أروع فيها (أى الجبلة) من غريزة الدين المطلق الذى هو الشعور الوجدانى بسلطان غيبى فوق قوى الكون والسنن والأسباب التى قام بها نظام كل شىء فى العالم . فرب هذا السلطان هو فاطر السموات والأرض وما فيهما ، والمصدر الذاتى للنفع والضر المحركين لشعور العبادة الفطرى الوجدانى ، إلى هذا الرب الغيبى ، فى كل ما يعجز الإنسان عنه من نفع يحتاج إليه ويعجز عنه بكسبه ، ودفع ضر يمسه أو يخافه ويرى أنه يعجز عن دفعه بحوله وقوته ، وفى كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته ، والوصول إليه مما لا نهاية له ، وأعنى بالإنسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فإنه يعده من مقدوره ، ويعد مساعدة غيره له عليه من جنس كسبه ، فطلبه للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر : فتعظيم الفقير للغنى بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوى لاستنجاده واستعدائه على أعدائه لا يسمى شىء من ذلك عبادة فى عرف أمة من الأمم ولا ملة من الملل وإنما روح العبادة الفطرية ومخها هو دعاء ذى السلطان العلوى والقدرة الغيبية التى هى فوق ما يعرفه الإنسان ويعقله فى عالم الأسباب ولا سيما

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم

الدعاء عند العجز وفى الشدائد قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة »[1] وكل تعظيم وتقرب قولى أو عملى لصاحب هذه القدرة والسلطان الغيبى فهو عبادة له ..

(٢) الإسلام دين العقل والفكر

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) ولا ما فى معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التى فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحى كاللب والنُهى ، لا لأن هذه المادة لم تذكر فى كتب العهدين مطلقا ، بل لأنها لم ترد فيها أساسا لفهم الدين ودلائله والاعتبار به ، ولا أن الخطاب بالدين موجه إليه ، وقائم به وعليه ، وكذلك أسماء التفكير والتدبر والنظر فى العالم التى هى أعظم وظائف العقل ، أما ذكر العقل باسمه وأفعاله فى القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة . وأما ذكر أولى الألباب أى العقول ففى بضع عشرة مرة ، وأما كلمة النهى (جمع نُهيه بالضم كغُرفة) أى العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه .

أكثر ما ذكر فعل العقل فى القرآن قد جاء فى الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم **العقلاء** ويراد بهذه الآيات فى الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته ورحمته ، كقوله تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾[2] .

ويلى ذلك فى الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله فى تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الأنعام ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾[3] وكرر قوله ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أكثر من عشر مرات كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون** ﴾[4] وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله فى أهل النار من سورة الملك

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد وابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب وأبى داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى شعب الإيمان عن النعمان بن بشير (الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ صـ ٤١٢)
وفى الترمذى — كتاب الدعوات جـ ٥ صـ١٢٥

(٢) الآية ١٦٤ من سورة البقرة

(٣) الآية ١٥١ من سورة الأنعام

(٤) الآية ١٦ من سورة يونس

﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾[١] وفى معناه قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[٢].

وقوله فى سورة الحج : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾[٣].

كذلك آيات النظر العقلى والتفكر كثيرة فى الكتاب العزيز ، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر وأن الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا حظَّ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التى لا تزكى الأنفس ولا تثقف العقول ، ولا تصعد بها فى معارج الكمال بعرفان ذى الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** ﴾[٤] وقوله : ﴿ **أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى** ﴾[٥] . وقوله فى صفات العقلاء أولى الألباب ﴿ **ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾[٦] وقوله بعد نفى علم الغيب والتصرف فى خزائن الأرض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته فى اتباع الوحى ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون** ﴾[٧] .

وقد صرح بعض حكماء الغرب بما لا يختلف فيه عاقلان فى الأرض من أن التفكير هو مبدأ ارتقاء البشر ، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكير واستقلال العقل على البشر ، حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر ، وأعتقهم من هذا الرق ، وقد تعلم هذه الحرية أمم الغرب من المسلمين ، ثم نكس هؤلاء المسلمين على رءوسهم فحرموها على أنفسهم إلا قليلا منهم ، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم وقد اعترف علماء الغرب لعلماء سلفنا بسبقهم وإمامتهم لهم فيها وفى ثمراتها ، ونقل شيخنا الأستاذ الإمام طائفة من أقوالهم فى كتاب الإسلام والنصرانية .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الملك
(٢) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف
(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج
(٤) الآية ٤٦ من سورة سبأ
(٥) الآية ٨ من سورة الروم
(٦) الآية ١٩١ من سورة آل عمران
(٧) الآية ٥٠ من سورة الأنعام

(٣) الإسلام دين العلم والحكمة والفقه

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة فى عشرات من آيات القرآن الحكيم يناهز المئة ، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك ، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها ، فمن العلم المطلق قوله تعالى فى وصايا سورة الإسراء ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[١] .

أى لا تتبع ما ليس لك به علم يثبت عندك بالرؤية البصرية أو بالروايات السمعية أو بالبراهين القطعية ، فإن الله يسألك عما أعطاك من آلات هذا العلم الثلاث . قال الراغب فى تفسير « لا تقف » أى لا تحكم بالقيافة والظن . وقال البيضاوى ما ملخصه : ولا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليدا أو رجماً بالغيب ومنه قوله تعالى فى العلم المأثور فى التاريخ ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا أو آثارة من علم إن كنتم صادقين** ﴾[٢] ومنه قوله تعالى فى علوم البشر المادية ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾[٣] وقوله تعالى فى العلم الروحى ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[٤]

وهاتان الآيتان فى بيان ضعف علم البشر وقلته حتى الدنيوى منه لايزال يعترف العلماء أيهم أوسع علما بمضمونهما ، وأن علمهم لا يتجاوز الظواهر ، وقد صرح بعض فحول الغرب بأنهم كلما ازدادوا علما علموا من حاجتهم إلى تحقيق ما سبق والزيادة عليه ما لم يكونوا يعلمون . كما قال الإمام الشافعى :

كلما أدبنى الدهـ ـر أرانى نقص عقلى
وإذا ما ازددت علما زادنى علماً بجهلى

وقوله تعالى فى العلم العقلى ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾[٥] الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظرى بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين والوحى . وقوله فى العلم الطبيعى ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾[٦] بكسر اللام أى علماء الكون .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الإسراء
(٢) الآية ٤ من سورة الأحقاف
(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الروم
(٤) الآية ٨٥ من سورة الإسراء
(٥) الآية ٨ من سورة الحج
(٦) الآية ٢٢ من سورة الروم

ومثله قوله بعد ذكر إخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق فى الجبال وألوان الناس والدواب ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[١] الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأطواره وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها هو يشمل أكثر العلوم والفنون أو جميعها ، وفى معناها آيات فى سور أخرى .

عظم القرآن شأن العلم تعظيما لا تعلوه عظمة أخرى بقوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[٢] .

فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته ، وجعل أولى العلم فى المرتبة الثالثة ، ويدخل فيها الأنبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات فى قوله ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[٣] وأمر أكبر رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾[٤].

ويؤيد الآيات المنزلة فى مدح العلم والحث عليه ما ورد فى ذم اتباع الظن كقوله تعالى : ﴿ **وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً** ﴾[٥] وقوله فى قول النصارى بصلب المسيح ﴿ **ما هم به من علم إلا اتباع الظن** ﴾[٦].

الحكمة الفقه

وأما الحكمة فقد قال تعالى فى تعظيم شأنها المطلق ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾[٧] . وقال تعالى فى بيان مراده من بعثه محمد خاتم النبيين ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾[٨] .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة فاطر
(٢) الآية ١٨ من سورة آل عمران
(٣) الآية ١١ من سورة المجادلة
(٤) الآية ١١٤ من سورة طه
(٥) الآية ٣٦ من سورة يونس
(٦) الآية ١٥٧ من سورة النساء
(٧) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة
(٨) الآية ٢ من سورة الجمعة

وقال لرسوله ممتنا عليه : ﴿ **وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾[١] .

وقال له : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن** ﴾[٢] . وقال له فى خاتمة الوصايا بأمهات الفضائل والنهى عن كبار الرذائل ، مع بيان عللها وما لها من العواقب ﴿ **ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾[٣] وقال لنساء النبى رضى الله عنهن ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾[٤] .. فالحكمة أخص من العلم ، هى العلم بالشيء على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل ، فهى بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والأخلاق وأسرار الخلق وسنن الاجتماع ، ويدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الإسراء التى نقلناها آنفا ﴿ **ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾[٥] .

ويكثر فى القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق للحقائق الذى يكون به العالم حكيما عاملا مثقفا ، فراجع منها فى سورة الأنعام ٦ : ٢٥ ، ٦٥ ، ٩٨ وفى سورة الأعراف ٧ : ١٧٨ وفى سورة الأنفال ٨ : ٦٥ وفى سورة التوبة ٩ : ٨٢ ، ٨٨ : ١٢٣ ، وحسبك ما فى هذه السور الأربع تعريفا بالفقه وإنه هوالحكمة لا علم ظواهر الأحكام من الطهارة والبيع والإعارة الخ . فإن تسمية هذا بالفقه اصطلاحية لا قرآنية ، ومنه ما هو ضد فقه القرآن كالحيل التى تعلم الناس التقصى من حكمة القرآن .

(٤) الإسلام دين الحجة والبرهان :

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا** ﴾[٦] وقال : ﴿ **ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون** ﴾[٧] قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتج به مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيماً لشأن البرهان ، وذلك أنه تعالى يبعث الأمم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال تعالى : ﴿ **ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾[٨] .

وأقام البرهان العقلى على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والأرض من سورة الأنبياء ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾[٩] ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال تعالى : ﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم** ﴾[١٠] الآية ..

(١) الآية ١١٣ من سورة النساء
(٢) الآية ١٢٥ من سورة النحل
(٣) الآية ٣٩ من سورة الإسراء
(٤) الآية ٣٤ من سورة الأحزاب
(٥) الآية ٣٩ من سورة الإسراء
(٦) الآية ١٧٤ من سورة النساء
(٧) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون
(٨) الآية ٧٥ من سورة القصص
(٩) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء
(١٠) الآية ٢٤ من سورة الأنبياء

وقال فى سياق محاجة إبراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان شركهم ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾[١] ثم قال فى آخره : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم** ﴾[٢] فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلى فى العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم فى الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه ..

٥ — الإسلام دين القلب والوجدان والضمير :

قال الفيومى فى المصباح : ضمير الإنسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر . وقال والقلب من الفؤاد معروف — يعنى أنه ضميره ووجدانه الباطن (قال) ويطلق على العقل أ هـ .

وقد ذكر القلب فى القرآن الكريم فى مائة آية وبضع عشرة آية . منها قوله تعالى فى سورة ق ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[٣] وقوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾[٤] . ومنها مدحه لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾[٥] وقوله حكاية عنه ﴿ **ولكن ليطمئن قلبى** ﴾[٦] . وقوله فى صفة المؤمنين ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[٧] .

ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والإخبات لله وتمحيصها من الشوائب وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيغ ، وعبر عن فقدها للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها . أى إنها كالمختوم عليها فلا يدخله شيء جديد أو كالمعدن أحاط به وغلب عليه الرين وهو الصدأ أو الدنس فلا تقبل الصدأ والجلاء .

(٦) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والأجداد .

كل ما نزل من الآيات فى مدح العلم وفضله واليقين فيه واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان ، والمطالبة بالبرهان ، وذم اتباع الظن والحرص فيما يطلب فيه الإيمان والعلم — يدل على ذم التقليد ، وقد

(١) الآية ٨١ من سورة الأنعام
(٢) الآية ٨٣ من سورة الأنعام
(٣) الآية ٣٧ من سورة ق
(٤) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء
(٥) الآية ٨٤ من سورة الصافات
(٦) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة
(٧) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

ورد فى ذمه والنعى على أهله آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾[١] . وقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** ﴾[٢] . ذمهم من ناحيتين (**إحداهما**) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقى فى العلم والعمل ، وليس هذا من شأن الإنسان الحى العاقل ، فإن الحياة تقتضى النمو والتوليد ، (**والثانية**) أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر فى التمييز بين الحق والباطل والخير والشر ، والحسن والقبيح ، بطريق العقل والعلم وطريق الاهتداء فى العمل ويؤيده قوله تعالى : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾[٣] وقال تعالى فى عبادة العرب للملائكة ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[٤] وتراجع الشهود على هذا فى قصة إبراهيم مع قومه فى سور الأنبياء والشعراء والصافات .

فالقرآن قد جاء يهدى جميع متبعى الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول إلى العلم والهدى والاطمئنان فى الدين ، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك ، فإن هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر والقلب التى امتاز بها البشر ، وبهذا العلم والهدى امتاز الإسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الأمم أفواجا ، ثم نكس المسلمون على رءوسهم إلا قليلاً منهم ، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم فى التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمروهم به ، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم التى وكل دعوتها إليهم وصاروا حجة على دينهم ، فكيف يدعون إليها وحجته القرآن وهم يحرمون الإهتداء به . حتى أن أدعياء العلم الرسمى فيهم ينكرون أشد الإنكار على من يدعونهم إلى اتباع كتاب الله وهدى رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله ، ونحن معهم فى بلاء وعناء ، نقاسى منهم ما شاء الجهل والجمود من استهزاء وطعن وبذاء وتهكم .. ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الإسلام فى صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون فى العقل والعلم فيه أفواجا حتى يعم الدنيا ، لأن التعليم العصرى فى جميع مدارس الأرض يجرى على طريقة الاستقلال فى الفهم واتباع الدليل فى جميع بلاد الأفرنج والبلاد المقلدة لهم ، ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الأديان تقليدية ، ويعتدونها نظما أدبية واجتماعية للأمم ، فلهذا يرون الأولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدى ،

---

(١) الآية ١٧٠ من سورة البقرة

(٢) الآية ١٠٤ من سورة المائدة

(٣) الآية ٢٨ من سورة الأعراف

(٤) الآيات ٢٠ : ٢٣ من سورة الزخرف

وبهذا يعسر علينا أم نقنعهم بامتياز الإسلام على دينهم ، لأنه يقل فينا من يقدر على إظهار الإسلام فى صورته التى خصه بها القرآن ، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

٧ ـ الحرية الشخصية فى الدين بمنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه المزية من مزايا الإسلام هى نتيجة المزايا التى بينها بها كونه دين الفطرة . فأما منع الإكراه فيه وعليه فالأصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾[1] .

علم الله رسوله بهذه الآيات أن من سننه فى البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم فى فهم الدين ، وتتفاوت أنظارهم فى الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى فى اختلاف استعداد الناس للإيمان ، وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم فى آيات الله فى خلقه والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر . ثم قال تعالى له عندما أراد أصحابه أخذ من كان عند بنى النضير من أولادهم عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[2] الآية . فأمرهم ﷺ أن يخيروهم فمن اختار اليهودية أجلى مع اليهود ولا يكره على الإسلام ، ومن اختار الإسلام بقى مع المسلمين .

وأما منع الفتنة وهى اضطهاد الناس لأجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الأول لشريعة القتال فى الإسلام وسيأتى بيانه فى المقصد الثامن من هذا الكتاب .

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهودة عند النصارى ففيها آيات مبينة فى القرآن ، وأحاديث صريحة فى السنة وهى معلومة بالضرورة من سيرة النبى ﷺ وخلفائه الراشدين وحسبك منها قوله تعالى : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** ﴾[3] .

---

(١) الآيات ٩٩ : ١٠١ من سورة يونس
(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة
(٣) الآية ٢١ من سورة الغاشية

المقصد الرابع من مقاصد القرآن
الإصلاح الإنسانى الاجتماعى السياسى الوطنى بالوحدات الثمان

وحدة الأمة ــ وحدة الجنس البشرى ــ وحدة الدين ــ وحدة التشريع بالمساواة فى العدل ــ وحدة الأخوة الروحية والمساواة فى التعبد ــ وحدة الجنسية السياسية الدولية ــ وحدة القضاء ــ وحدة اللغة .

جاء الإسلام والبشر أجناس متفرقون ، يتعادون فى الأنساب والألوان ، واللغات والأوطان والأديان ، والمذاهب والمشارب والشعوب والقبائل ، والحكومات والسياسات ، يقاتل كل فريق منهم مخالفه فى شىء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه فى البعض الآخر . فصاح الإسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الإنسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم ، ونهاهم عن التفرقة والتعادى وحرمه عليهم ، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية ، وبيان أصول الكتاب الإلهى وسنة خاتم النبيين فى الجامعة الانسانية لا يمكن بسطهما إلا بمصنف كبير ، فنكتفى فى هذا المقصد من إثبات الوحى المحمدى بسرد الأصول الجامعة فى هذا الإصلاح الانسانى الداعى إلى جعل الناس على ملة واحدة ، ودين واحد ، وشرع واحد ، وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما أن جنسهم واحد ، وربهم واحد .

الأصل الأول للجامعة الإسلامية الانسانية وحدة الأمة

قال الله تعالى فى سورة الأنبياء مخاطباً أمة الإسلام بعد ذكر خلاصة قصصهم ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾[1] .

ثم بين لها فى سورة « المؤمنون » أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للأمة فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾[2].

ولكن كان لكل نبى أمة من الناس هم قومه . وأما خاتم النبيين فأمته جميع الناس وقد فرض الله عليهم الإيمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم فالإيمان بخاتمهم كالإيمان بأولهم .. قال تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾[3] .

---

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء

(٢) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة المؤمنون

(٣) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف

الأصل الثانى

الوحدة الانسانية بالمساواة بين أجناس البشر ، وشاهده قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[٣] .

وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف وإلى ترك التعادى بالتحالف .

الأصل الثالث

وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطرى الذى جاء به غيره من الرسل ، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر وشاهده الأعم قوله تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾ الآية .

ولما كان الإسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[٣] .

الأصل الرابع

وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام فى الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر والملك ، والغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، وسنذكر بعض شواهده فى إصلاح التشريع من المقصد السادس .

الأصل الخامس

الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين فى أخوته الروحية وعباداته وفى الاجتماع للاجتماع منها كالصلاة (والصيام) ومناسك الحج فملوك المسلمين وأمراؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام فى صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفة ، وسائر مواطن الحج ، ولا تجد شعوب الإفرنج المنتسبين إلى النصرانية ولا رجال الدين من غيرهم يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الإسلام بالضرورة

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات

(٤) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف

(٥) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة

للعمل بها من أول الإسلام إلى اليوم ، قال تعالى : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون اخوة** ﴾[٢] .

الأصل السادس

وحدة الجنسية السياسية الدولية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية فى الحقوق العامة كحماية أهلها والدفاع عنهم إلا حق الإقامة فى الجزيرة العربية ولاسيما الحجاز خاص بالمسلمين ، لأن للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد ، وحكم الإسلام فى معابد الملل الداخلة فى ذمته أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها ، لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم ، المسلمون وغيرهم فى هذا سواء .

الأصل السابع

وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة ، إلا أنه يستثنى منه الأحكام الشخصية الدينية ، فإن الإسلام يراعى فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه فى ذلك . فهو يسمح لغير المسلمين فى أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى رؤساء ملتهم ، وهذا ضرب من المساواة ليس له فى غير الإسلام ضريب ، لأنه إشراك فى الحكم والتشريع وأما إذا تحاكموا إلينا فإننا نحكم بينهم بالعدل بشريعتنا الناسخة لشرائعهم ، والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ **فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** ﴾[٣] وقوله بعد آيات ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك** ﴾[٤] الآية .

الأصل الثامن

وحدة اللغة ، ووجهها أنه لا يمكن أن يتم الاتحاد والإخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة ومازال الحكماء الباحثون فى مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة مشتركة ، يتعاونون بها على التعارف والتآلف ، ومناهج التعليم والآداب ، والاشتراك فى العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية . وهذه الأمنية قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما

---

(١) الآية ١١ من سورة التوبة

(٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات

(٣) الآية ٤٢ من سورة المائدة

(٤) الآية ٤٩ من سورة المائدة

والتعبد بهما ، والاتحاد بإخوانهم فيهما ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، ولذلك كرر فى القرآن الكريم بيان كونه كتاباً عربياً ، وحكماً عربياً ، وكرر الأمر بتدبيره والتفقه فيه والاتعاظ والتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذى يخضعون لحكمه ، والحكومة التى يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هى عادة البشر فى ذلك وكذلك كان الأمر فى الفتوحات الإسلامية العربية كلها .

وقد فصلت فى المنار والتفسير مسألة وجوب تعليم اللغة العربية فى دين الإسلام وكونه مجمعاً عليه بين المسلمين كما قرره الإمام الشافعى فى رسالته ، وهو الذى جرى عليه العمل فى عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، ثم خلفاء الأمويين والعباسيين ، إلى أن كثر الأعاجم ، وقل العلم ، وغلب الجهل ، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه الله فى العبادات من القرآن والأذكار .

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

« تقرير مزايا الإسلام العامة فى التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات »

(ونلخص أهمها بالإجمال فى عشر جمل أو قواعد)

(الأولى)

كونه وسطاً جامعاً لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة . وهو نص قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾[1] إن المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود ، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس والنصارى ، وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم .

(الثانية)

كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالإيمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال ، ولا بالشفاعات وخوارق العادات .

(١) الآية ١٤٣ من سورة البقرة

(الثالثة)

كون الغرض منه التعارف والتآلف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف كما يزعم أعداء الأديان وتقدمت شواهده فى كونه عاماً مكملاً ومتمماً لدين الله على ألسنة رسله فى الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ .

(الرابعة)

كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا ارهاق ولا اعنات ، قال الله عز وجل ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾[1] وقال جلت حكمته ﴿ **ولو شاء الله لأعنتكم** ﴾[2] وقال عظمت رأفته ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[3] وقال جلت منته ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾[4] وقال عمت رحمته ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** ﴾[5] .

(الخامسة)

منع الغلو فى الدين وإبطال جعله تعذيباً للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون اسراف ولا كبرياء قال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم** ﴾[6] وهو فى (١٥ : ١٧) و (٦ : ٧٧) وفى هذا النهى اعتبار للمسلمين ، لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر والأحاديث الصحيحة فى نهى المسلمين عن الغلو فى العبادة وعن ترك الطيبات وعن الرهبانية والخصاء ، مبينة لهذه الآيات وهى مصداق تسمية النبى ﷺ لملته بالحنيفية السمحة .

(السادسة)

قلة تكاليف وسهولة فهمها ، وقد كان الأعرابى يجىء النبى ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه فى مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول « أفلح الأعرابى إن صدق »[7] وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له .

---

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة
(٢) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة
(٣) الآية ١٧٥ من سورة البقرة
(٤) الآية ٧٨ من سورة المؤمنون
(٥) الآية ٦ من سورة المائدة
(٦) الآية ١٧١ من سورة النساء
(٧) الحديث فى صحيح البخارى ـــ كتاب الصوم جـ ٣ صـ ٣١ ط الشعب

ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسرا ، والعمل بها كلها متعذراً ، ولا يعترض على هذه المزية بالصلوات الخمس فى كل يوم وليلة فإن أقل ما تجزىء به كل صلاة منها يمكن أن يؤدى فى خمس دقائق ،ومنها صلاة عقب القيام من النوم فى الصباح وصلاة قبل النوم فى فى الليل ، فهل يشق على المرء أن يؤدى فى سائر يومه ثلاث صلوات متفرقة فى ربع ساعة منه ؟ ..

(السابعة)

انقسام التكاليف إلى عزائم ورخص ، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص ، وابن عمر يرجح العزائم ، والناس درجات فى التقصير والتشمير والاعتدال ، فهو يوافق البدوى الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات قال الله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير**﴾[1].

(الثامنة)

نصوص الكتاب وهدى السنة مراعى فيهما درجات تفاوت البشر فى العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها ، فالقطعى منها هو العام ، وغير القطعى تتفاوت فيه الأفهام ، فيأخذ كل أحد منه بما أداه إليه اجتهاده ، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعلت عندما نزلت آية البقرة فى الخمر والميسر الدالة على تحريمهما دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض ، وأقر كلا على اجتهاده إلى أ نزلت آية المائدة بالتحريم القطعى . قال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[2] . وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه ، والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعى يفهمه كل أحد ، والأول مذهب الحنفية ، وأما الثانى وهو التحرير فهو مذهب جمهور السلف أيضا ، وأما الآيات الظنية الدلالة وأحاديث الآحاد الظنية الرواية أو الدلالة ، فهى موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده فى العبادات والأعمال الشخصية ، وإلى اجتهاد أولى الأمر فى الأحكام القضائية والأمور السياسية ..

(التاسعة)

معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله ــ تعالى ــ فليس لأحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا لخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً على ما يعتقد أو يضمر فى قلبه ، وأنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم ..

---

(١) الآية ٣٢ من سورة فاطر

(٢) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت

(العاشرة)

مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبى ﷺ فى الظاهر فليس لأحد فيها رأى شخصى ولا رياسة ، ومدارها فى الباطن على الإخلاص لله — تعالى — وصحة النية والآيات والأحاديث فى الأمرين كثيرة .

المقصد السادس من مقاصد القرآن

بيان حكم الإسلام السياسى الدولى

نوعه وأساسه وأصوله العامة

الإسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحُكم ، لأن ما جاء به من إصلاح البشر فى جميع شئونهم الدينية ، ومصالحهم الاجتماعية والقضائية ، يتوقف على السيادة والقوة ، والحكم بالعدل ، وإقامة الحق ، والاستعداد لحماية الدين والدولة ، وفيه أصول وقواعد .

القاعدة الأساسية الأولى للحكم الإسلامى

الحكم فى الإسلام للأمة ، وشكله شورى ، ورئيسه الإمام أو (الخليفة) منفذ لشرعه ، والأمة هى التى تملك نصبه وعزله ، فإن الله تعالى فى المؤمنين قال : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[١] وقال لرسوله ﷺ ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾[٢] وكان ﷺ يشاور أصحابه فى المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه من كتاب الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾[٣] .

وأولو الأمر أهل الحل والعقد والرأى الحصيف فى مصالحها الذين تثق بهم الأمة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من السورة نفسها ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾[٤] .

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الشورى

(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٥٩ من سورة النساء

(٤) الآية ٨٣ من سورة النساء

فأولو الأمر الذين كانوا مع رسول الله ﷺ وكان الأمر يرد إليه وإليهم فى الأمور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به من علاقة عامة ويعمل برأى الأكثر وإن خالف رأيه ، كاستشارتهم فى غزوة أحد ، وفى أسرى بدر ... وقد بينت فى تفسير الآية الأولى (٥ : ٥٨) ما تدل عليه من قواعد الحكم الإسلامى وكونه أفضل من الحكم النيابى الذى عليه دول هذا العصر . ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائى والسياسى هو حق الأمة المعبر عنها فى الحديث بالجماعة إن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين فى هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة فى سائر الأحكام العامة كقوله : ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾[1] الآية . وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ، وما فى معناها من سور الأنفال والبقرة وآل عمران ..

وقد صرح كبار النظار من علماء الأصول بأن السلطة فى الإسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم .

فهذه القاعدة الأساسية لدولة الإسلام أعظم إصلاح سياسى للبشر قررها القرآن فى عصر كانت فيه جميع الأمم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها فى أمور دينها ودنياها ، وكان أول منقذ لها رسول الله ﷺ فلم يكن يقطع أمراً من أمور السياسة والإدارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأى والمكانة فى الأمة ، ليكون قدوة لمن بعده .. وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الإسلام أدنى من حكم ملكة سبأ فقد كانت مقيدة بالشورى ، ووجد ذلك فى أمم أخرى ، وامتاز الإسلام بجعله ديناً ثابتاً بقول الله وسنة رسوله العملية وسيرة الخلفاء الراشدين وإجماع الأمة ، وإن جهل ذلك من جهله من الفقهاء فجعلوها فضيلة مندوبة لا واجبة لإرضاء الملوك والأمراء .

ذلك بأن ملوك المسلمين زاغوا عن الصراط المستقيم إلا قليلاً منهم وشايعهم علماء الرسوم المنافقون وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الأساسية لحكومة دينهم وكان من حسن حظ الإفرنج فى حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذى نصره الله عليهم يقتفى فى حكمه أثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز بقدر علمه ــ وهو صلاح الدين الأيوبى ــ رحمه الله ــ الذى قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه « ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته فالحق يقضى

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة التوبة

لك أو عليك » ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذاً لحكم الشرع ــ كالشحنة وهو صاحب الشرطة ــ وأن القضاة مستقلون بالحكم ، لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوى بين الناس . وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه ، ثم درسوا تاريخ الإسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين ، حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الأمة التى جاء بها الإسلام ، وصاروا يدعونها لأنفسهم ويعيبون الحكومات الإسلامية باستبدادها ، ثم يجعل الإسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصى وصار المسلمون الجاهلون المتأخرون بدينهم يصدقونهم ، ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم أنه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم ، فكان هذا من أسباب ضياع أعظم مزايا الإسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه ..

المقصد السابع من مقاصد القرآن
« الإرشاد إلى الإصلاح المالى »

بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه فى إصلاح البشر من طريق التدين والإيمان والعمل والإذعان ، ومن طريق العقل والبرهان ، والفكر والوجدان ، ومن طريق الحكم العادل والسلطان ، ومن طريق إكمال نوع الإنسان ما يتعلق منه بالأفراد وما يتعلق منه بوحدة الجماعات والأجناس ، وبقى ما يتعلق بفقهه فى إصلاح المفاسد الاجتماعية الكبرى التى يتوقف عليها كماله على ما تقدم كله وهى :

١ ــ طغيان الثروة ودولتها ٢ ــ عدوان الحرب وقسوتها ٣ ــ ظلم المرأة واستباحتها

٤ ــ ظلم الضعفة والأسرى وسلب حريتهما ، وهو الرق المطلق ــ ذلك بأن جميع حظوظ الدنيا منوطة بذلك ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل ، والعلم والحكمة والحكم ، وإننا نتكلم عليها بالإجمال ، مبتدئين بإشادة فى مسألة المال ، والآيات فيها تدور على سبعة أقطاب ، وهاك البيان .

القطب الأول
القاعدة العامة فى المال كونه فتنة واختبار فى الخير والشر

القاعدة الأساسية للقرآن فى المال أنه فتنة ؛ أى: اختبار وامتحان للبشر فى حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح ، إذ هو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد ، والخير والشر ، وهو مثار التنازع والتنافر فى كسبه وانفاقه ، وكنزه واحتقاره ، وجعله دُلة بين الأغنياء وتداوله فى المصالح والمنافع بين الناس .

وقد كان ومازال مثيرا للعداوات بين الأفراد والجماعات من الأقوام والدول ، وحلَّال المشكلات وشفاء المعضلات فيها ، حتى ذهب بعض علماء الاجتماع إلى جعله هو السبب لجميع الانقلابات السياسية والاجتماعية ، وكذا الدينية حتى الإسلامية ...

وقد قصر علماء الفقه والأدب والتربية من أمتنا فى إعطاء المال حقه من المباحث المختلفة المناحى والمقاصد التى دونت فى هذا العصر فى عدة علوم ، ولكن هذه العلوم ما زادت البشر إلا فساداً ولا يجدون علاجاً لهذا الفساد إلا فى القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم** ﴾[١] .

وقال تعالى حكاية عن نبيه سليمان حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده ﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾[٢] الآية .

وقال تعالى : ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا** ﴾[٣] الآية .

وقال تعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾[٥] الآية وقال تعالى : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾[٦] ومثلها فى سورة التغابن (٦٤ : ١٥) ويليها الترغيب فى الانفاق وقصر الفلاح على الوقاية من شح النفس .

وقال تعالى : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ﴾[٧] انظر هذا مع قوله تعالى فى أول السورة وهى الكهف ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾[٨] ، والمراد من العمل ما يتعلق بما على الأرض من العمران ، وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه له بشكره ، ثم ما ضربه فيها من المثل بصاحبى الجنتين ، والمثل للحياة الدنيا بنبات الأرض ..

وقال تعالى فى تقسيمه للفىء بين مستحقيه ﴿ **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾[٩] والدُولة بضم الدال ، المال المتداول أى لئلا يكون المال محصورا فى الأغنياء متداولا بينهم وحدهم (وهذا ما يسمونه اليوم بالرأسمالية) .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة آل عمران
(٢) الآية ٤٠ من سورة النمل
(٣) الآية ٣٧ من سورة سبأ
(٤) الآية ٣٩ من سورة الروم
(٥) الآية ١٤ من سورة آل عمران
(٦) الآية ٢٨ من سورة الأنفال
(٧) الآية ٤٦ من سورة الكهف
(٨) الآية ٧ من سورة الكهف
(٩) الآية ٧ من سورة الحشر

والشواهد فى فتنة المال فى القرآن كثيرة ...

فمن الآيات فى ارتباط السعادة والفلاح بإنفاق المال ، والشقاوة بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب فى قوله : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾[(١)] الآية . أى أن منع انفاق المال فى سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال فى الترغيب ﴿ **وأحسنوا إنّ الله يحب المحسنين** ﴾[(٢)] وكذا قوله تعالى من سورة الليل ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى** ﴾[(١)] .

هذا كله تفصيل لقوله تعالى قبله ﴿ **إن سعيكم لشتى** ﴾ ومعناه بالإجمال والإيجاز أن سعيكم فى الكسب والانفاق مختلف مبدأ وصفة وغاية وثمرة ﴿ **فأما من أعطى** ﴾ ما عليه من الحقوق الشخصية والقومية والمصالح الواجبة والمندوبة ﴿ **واتقى** ﴾ سوء عاقبة منعها وضرره فى الأفراد فى الأمة ﴿ **وصدق بالحسنى** ﴾ وهى ما وعد الله من جزاء على الإحسان بما هو أحسن منه من مضاعفة الثواب وهو شامل لجزاء الدنيا والآخرة ﴿ **فسنيسره** ﴾ بمقتضى سنتنا فى تأثير صفات النفس فى الأعمال ، وتأثير الأعمال فى الأحوال الخاصة والعامة ﴿ **لليسرى** ﴾ أى : الطريقة الفضلى فى اليسر والسهولة والمنفعة له وللناس فيحبه الله ويحبه الناس . ﴿ **وأما من بخل** ﴾ بما عليه من هذه الحقوق ، ﴿ **واستغنى** ﴾ بما له عن حب الناس وحمدهم ، وعن حب الله ومثوبته ﴿ **وكذب بالحسنى** ﴾ التى بيناها آنفا بعدم طلبها وتحريها بالإعطاء والإنفاق وإن اعترف بها باللسان ﴿ **فسنيسره** ﴾ بمقتضى سنتنا المبينة آنفا ﴿ **للعسرى** ﴾ فيكون سببا لعسر البشر وعدوا لهم ولربهم ، ويكون له شر الجزاء منهم ومنه عز وجل فى الدارين .

ويؤيد ذلك شواهد القطب الثانى من آيات المال وهى :

القطب الثانى

ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير

قال تعالى فى سورة العلق ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى** ﴾[(٤)] أى : حقاً إن الإنسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنيا بالمال مستغنيا بعينه وكنزه أو قصره

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة
(٢) الآية ١٩٥ من سورة البقرة
(٣) الآيات ٥ : ١١ من سورة الليل
(٤) الآيات ٦ : ٨ من سورة العلق

على شهواته عما فى إنفاقه من نفع الناس ومرضاة الله تعالى وثوابه فى الآخرة ، وقد نزلت هذه الآية وما بعدها فى أبى جهل أشد أعداء النبى ﷺ والإسلام من أول ظهوره وهى أول ما أنزل فى ذلك . ومثلها فى سورة المسد ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾[1] الآيات .. ومثلها فى سورة الهمزة ﴿ **ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده** ﴾[2] نزلت فى الوليد وأمية بن خلف وكذا قوله تعالى : ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا** ﴾[3] الآيات . وقد نزلت فى الوليد بن المغيرة ... وكذا آيات سورة (ن ٦٨) من قوله : ﴿ **ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾[4] .

وكان هؤلاء أغنى زعماء قريش الذين عادوا النبى ﷺ واستكبروا عن اتباعه بغناهم من أول عهده بتبليغ الدعوة ثم قال الله تعالى فيهم إذ كان يجمع المال منهم أبو سفيان لقتاله يوم بدر ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾[5].

ومن الآيات العامة فى غريزة البشر قوله تعالى : ﴿ **وأحضرت الأنفس الشح** ﴾[6] وقوله من سورة المعارج ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا** ﴾[7] الخير : المال الكثير وأكثر الأغنياء مناعون للمال إلا من استثنى الله بعد هذه الآيات بقوله تعالى : ﴿ **إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم** ﴾[8] الآيات .

بمثل هذه الآيات ينفر الوعاظ الناس ويزهدونهم فى المال والدنيا فيبالغون وإنما المذموم الغرور والطغيان والبطر والاستكبار عن الحق افتتانا بالمال ، ولذلك قرنه فى بعض الآيات بالأولاد ، وكذا البخل به والشح وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت ، وشواهده فى آيات القطب الثالث وهى :

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة المسد
(٢) الآيات ١ : ٣ من سورة الهمزة
(٣) الآيات ١١ : ١٧ من سورة المدثر
(٤) الآيات ١٠ : ١٥ من سورة ن
(٥) الآية ٣٦ من سورة الأنفال
(٦) الآية ١٢٨ من سورة النساء
(٧) الآيات ١٩ : ٢١ من سورة المعارج
(٨) الآيات ٢٢ : ٢٤ من سورة المعارج

القطب الثالث
ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء فى انفاقه

قال تعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾[١] وقال فى سياق الترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله من طيبات الكسب والاخلاص فيه والنهى عن الرياء والمن والأذى فيه ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء** ﴾[٢] الآية وفسروا بالبخل أى الشيطان يصدكم عن الإنفاق فى سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذى فحش شره وحذره ، وقال بعد الأمر بالإحسان بالوالدين وبذى القربى واليتامى والمساكين والجيران ﴿ **إنَّ الله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[٤] .

القطب الرابع
مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل الصالح

قال تعالى فى سورة نوح عليه السلام حكاية عنه ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾[٥] .

وفى معناه ما حكاه عن هود عليه السلام فى سورة هود (١١ : ٥٢) بل قال تعالى فى بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين فى آخر قصته من سورة طه ﴿ **قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾[٦] الآيات .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران
(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة
(٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة النساء
(٤) الآية ٣٨ من سورة محمد
(٥) الآيات ١٠ : ١٢ من سورة نوح
(٦) الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ من سورة طه

فجزاء اتباع هداية الدين الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها ، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها .

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التى غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفا على الأمر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء** ﴾[1] أى : وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون فى موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالإسلام وفتوحاته وغنائمه . وكذا قوله تعالى للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر ﴿ **إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم** ﴾[2] وكذلك كان ، فقد أغنى الله العرب الفقراء بالإسلام فجعلهم أغنى الأمم والأقوام ..

والمؤمنون والكافرون يشتركون فى أسباب سعة الرزق وكسب المال من زراعة وصناعة وتجارة ، لأن هذه الأسباب دنيوية لا تختلف باختلاف الأديان كما قال تعالى ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا** ﴾[3] أى ما كان ممنوعا عمن يريد به لذات العاجلة ، ولا عمن يريد به سعادة الآخرة ، وإنما يفضل بعضهم بعضا فى استعمال المال ، فاستعماله فى الفسق والشر والظلم والسرف والخيلاء كفر للنعمة وسبب لمحق بركتها ، واستعماله فى البر والخير سبب للمزيد فيها . ومنه قوله تعالى فى الزينة والطيبات من الرزق ﴿ **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾[4] أى : هى لهم فى الدنيا بالاستحقاق ، ويشاركهم فيها غيرهم بمقتضى الأسباب ، ولكنها تكون فى الآخرة خالصة لهم ، لأنهم يتوسلون بالشكر لله عليها إلى سعادتها الكاملة الدائمة ، ولولا ذلك لجعل زينة الدنيا خاصة بالكافرين كما قال تعالى : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾[5] . أى ولولا كراهة أن يكون الناس كلهم كفارا بجعل نعيم الدنيا وزينتها للكافرين وحدهم لجعلنا لبيوتهم سقفا وأبوابا من فضة وسلالم من فضة يصعدون عليه إلى غرفات قصورهم ، وجعلنا لهم فيها سررا كذلك وزخرفا أى : ذهبا ، وما كل ذلك إلا متاع الدنيا وهو قليل زائل ، بالنسبة إلى نعيم الآخرة الدائم . ولكن الإنسان يفتتن بالحاضر المشاهد ، ولذلك جعل الله سعة الدنيا وزينتها بالأسباب الكسبية المشتركة ، وجعل المؤمنين أحق بها وأكثر انتفاعا لشكره تعالى عليها بالاعتدال والقصد فى أنفسهم ، والتوسعة على غيرهم .. ويؤيده ما فى القطب الخامس من إرشاد القرآن إلى حفظ المال والاقتصاد فيه .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة التوبة

(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنفال

(٣) الآية ٢٠ من سورة الإسراء

(٤) الآية ٣٢ من سورة الأعراف

(٥) الآيات ٣٣ : ٣٥ من سورة الزخرف

القطب الخامس
ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع بالإسراف والاقتصاد فيه

قال تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما** ﴾[١] قيام الشيء وقوامه (بالكسر والفتح) ما يستقيم به ويحفظ ويثبت أى جعل قوام معايشكم ومصالحكم ، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم . ﴿ **وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم** ﴾[٢] الآية : الابتلاء التجربة والاختبار ، أمر باختبارهم وألا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد ظهور الرشد فى أعمالهم ، وهو الصلاح والاستقامة فى معاملاتهم ، لئلا يضيعوا الأموال فيما يضر أو فيما لا ينفع .

وقال تعالى فى صفات المؤمنين ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾[٣] الإسراف التبذير ، والاقتار ، الإقلال والتضييق فى النفقة ، وقال تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله** ﴾[٤] وهذا نزل على النفقة فى المرأة المطلقة فى العدة ، وهو إرشاد عام والقاعدة فى الأصول أن العبرة بدلالة العموم ، لا يقيد بخصوص سبب النزول ، وقال فى النفقات العامة ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[٥] و « من » للتبغيض فكل من الغنى ذى السعة والفقير ذى العسرة ، مأمور بأن ينفق مما آتاه الله لا كل ما آتاه الله ، وهذا أعظم أصول الاقتصاد . فمن أنفق بعض ما يكتسب قلما يفتقر .

وفى وصايا سورة الإسراء الحكيمة . ذكر آيات النهى عن التبذير والمبالغة فى بسط اليد والمبالغة فى قبضها ، وما لكل منهما من سوء العاقبة ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا** ﴾[٦] .

ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها لما سميت حكمة ، ألا ترى أنه عقب النهى عن التبذير ﴿ **إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين** ﴾[٧] لأنهم يفسدون نظام المعيشة بإسرافهم ، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها فى مواضعها بالاعتدال ، ولذلك قال عَقِبه ﴿ **وكان الشيطان لربه كفورا** ﴾[٨] ثم قال تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما**

---

(١) الآية ٥ من سورة النساء
(٢) الآية ٦ من سورة النساء
(٣) الآية ٦٧ من سورة الفرقان
(٤) الآية ٧ من سورة الطلاق
(٥) الآية ٣ من سورة البقرة
(٦) الآية ٢٦ من سورة الإسراء
(٧) الآية ٢٧ من سورة الإسراء
(٨) الآية ٢٧ من سورة الإسراء

محسورا ﴾[1] فعلل الإسراف فى الإنفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوما من الناس ، ومحسوراً فى نفسه ، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى ، ويطلق على من انحسرت قوته ، وانكشف عن عجزه ، والمحسور المغموم أيضا ، وكل هذه المعانى تصح فى وصف المسرف فى النفقة ، ولو أن المسلمون تدبروا هذه الآيات الحكيمة فى الاقتصاد واهتدوا بها لاستغنوا بارشادها عن جميع الكتب والوصايا فى حفظ ثروتهم ، ولندر أن يوجد فيهم فقير .

القطب السادس
انفاق المال فى سبيل الله آية الايمان
والوسيلة لحياة الأمة وعزة الدولة وسعادة الانسان

هذا هو القطب التهذيبى الأعظم من أقطاب الآيات المنزلة فى المال وأكثرها فيه ، وما ذكر قبله فهو وسائل ، وما يذكر بعده فهو بيان للعمل به ، وأظهر الشواهد فيه أن الله تعالى جعله هو الفصل بين الإسلام الصحيح المقترن بالإذعان ، المبنى على أساس الإيمان وجعل دعوى الايمان بدون شهادته باطلة ، وإن كانت دعوى الإسلام تقبل مطلقا ، لأن أحكامه العملية تبنى على الظواهر .

والأصل فى هذه المسألة قوله تعالى ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾[2] ، فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس فى تحقيق صحة الإيمان وصدق مدعيه ..

وتجد الذروة العليا من تفضيل حب الله ورسوله على المال وغيره من متاع الدنيا قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾[3] .

(١) الآية ٢٩ من سورة الإسراء
(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجرات
(٣) الآية ٢٤ من سورة التوبة

ومن الآيات فى تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما** ﴾[١]..

ومن الآيات البليغة فى الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه وبيان آدابه : عشرون آية من أواخر سورة البقرة هى من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١ — ٢٨١ .. ومن البلاء المبين أن نرى الشعوب الإسلامية فى هذه القرون الأخيرة قد قصرت عن جميع الشعوب القوية فى بذل المال للجهاد فى سبيل الله الذى يحفظ استقلالهم ، ويعتز به ملكهم ، وتعلو به كلمة الله تعالى فيهم ، ثم فى غيرهم ، وفى طرق البر التى ترتقى بها أمتهم وتكون حجة على سائر الأمم فى تفضيل دينهم على سائر الأديان وحاجة الأمم إليه لإنقاذ الحضارة من جشع عباد المال واستذلالهم للملايين من البشر به ، وما أفضى إليه من فوضى الشيوعية الدينية والأدبية المشار إليها فيما يلى :

المقصد السابع
فى الحقوق المفروضة والمندوبة فى المال والإصلاح المالى فى الإسلام

قد عقد لتفسير قوله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾[٢] فصلاً فى فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والإصلاح المالى للبشر وامتياز الإسلام بذلك على جميع الأديان . بينت فيه مكانة المال من حياة الناس ، وما له من التأثيرات فى الثروات والحروب والسياسة والعمران ، وغلو بعض الجماعات فى جمعه وادخاره وأنظمته واستغلاله ، واستعباد الألوف وألوف الألوف من البشر به ، ويدعون فى عرف هذا العصر بالرأسماليين ، وقيام جماعات أخرى بالدعوة إلى إبطال النظام الدولى العام فى المال ، ووضع نظام آخر لاشتراك جميع الناس فيه ويلقبون بالبلشفيين والشيوعيين وما بين هذين الفريقين من الجماعات من التعادى والخصام .

ثم بينت أن هذه الفتن وما تنذر العالم به من الخراب والدمار لا علاج لها إلا اتباع هداية الإسلام فى الإصلاح المالى ، ولخصت هذا الإصلاح فى أربعة عشر أصلاً هى :

(١) إقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل .

(٢) تحريم الربا والقمار .

---

(١) الآيتان ٩٥ ، ٩٦ من سورة النساء

(٢) الآية ١٠٣ من سورة التوبة

(٣) منع جعل المال دولة بين الأغنياء .
(٤) الحجر على السفهاء فى أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم .
(٥) فرض الزكاة فى أول الإسلام وجعلها اشتراكية مطلقة باعثها الوجدان لا إكراه الحكام ، وإنما تكون كذلك حيث لا حكومة ولا دولة للإسلام .
(٦) نسخها بعد وجود الدولة والحكومة بالزكاة المحدودة بربع العشر فى النقدين والتجارة فى كل عام ما دام النصاب تاماً ، وبالعشر ونصف العشر فى غلات الزراعة التى عليها مدار الأقوات أو مطلقاً . وزكاة الأنعام المعروفة ، وفاتنى هنالك — أى فى تفسير المنار — ذكر الخمس فى الركاز وهو ما ينبش من المال المكنوز القديم والمعدن .
(٧) فرض نفقة الزوجين والقرابة .
(٨) إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين وضيافة الغرباء .
(٩) بذل المال فى كفارات بعض الذنوب .
(١٠) ندب صدقات التطوع للمحتاجين .
(١١) ذم الإسراف والتبذير والبخل والتقتير .
(١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرطهما لتوقف ترقى الصناعة والحضارة عليها .
(١٣) مدح القصد والاعتدال بل إيجابه .
(١٤) تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر ا هـ . باختصار ، وكنت قد شرحت قبله مصارف الزكاة فى تفسير آيتها ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾[1] .

ثم عقدت فصلاً آخر فى خلاصة السورة ، وهى سورة التوبة ، والمشتملة على هذه الآيات فى أحكام الأموال فى الإسلام يدخل فى ثلاثة أقسام :
(١) المسائل الدينية والاجتماعية فى الأموال .
(٢) أنواع الأموال ومصارفها .
(٣) فوائد إصلاح الإسلام المالى للبشر فالرجوع إلى هذه المباحث فى ذلك الجزء من التفسير يغنينا عن إعادتها هنا .

وخلاصة القول فى هذه القواعد العلمية فى إصلاح ثروة البشر وجعلها خيراً عامًا كما سماها الله تعالى فى كتابه ، واتقاء شرور التنازع عليها . بالوازع الدينى ، والتشريع الدولى ، إنما هى التى يصلح بها أمر البشر

(١) الآية ٦٠ من سورة التوبة

على اختلاف أحوالهم واستعدادهم ، فيكونون سعداء فى دنياهم وفى دينهم ، ولن تجد مثلها فى دين من الأديان ، ولا شىء من كتب القوانين والحكمة البشرية ، وإن البشر لعلى خطر عظيم مما سقطوا فيه من التعادى على المال حتى أعيتهم الحيل ، وسبيل النجاة ممهدة معبَّدة أمامهم وهم لا يبصرونها وهى الإسلام وهداية القرآن ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾[1].

المقصد الثامن من مقاصد القرآن

إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر

أهم قواعد الحرب والسلام فى دين الإسلام ، وشواهد من القرآن

(القاعدة الأولى)

فى الحرب المفروضة على الأعيان

ورد الأمر بقتال المعتدين لكفّ عدوانهم ، ولما سيأتى من درء المفاسد وتوطيد المصالح مقترنا بالنهى عن قتال الاعتداء والبغى والظلم ، والشاهد عليه قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾[2]. وتعليل النهى عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقاً ..

•

وقد اُشتبه على الغافلين الأمر بما كان فى بعض الغزوات والسرايا من بدء المسلمين بها ذاهلين عن حالة الحرب بينهم وبين المشركين باعتداء المشركين الأول واستمراره ، فالدفاع لا يشترط أن يكون فى كل معركة وكل حركة .

وهذا الذى كان فى آخر أحكام القتال معهم يؤيد ما نزل فى أول الإذن للمسلمين بالقتال وهو قوله تعالى فى سورة الحج ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾[3].

ولما نقضوا العهد الذى عقده النبى ﷺ معهم فى الحديبية فى أواخر سنة ست للهجرة وعزم على

(١) الآية ٢٥١ من سورة البقرة

(٢) الآية ١٩٠ من سورة البقرة

(٣) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج

فتح مكة سنة ثمان نزلت سورة الممتحنة (٦٠) فى النهى عن ولاية المشركين ، وفيها التصريح بأن النهى خاص بالذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من وطنهم لأجل دينهم ، فهو نهى عن موالاتهم ومودتهم دون البر والعدل إلى كل مشرك . فتأمل الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ منها .

(القاعدة الثانية)

فى الغرض من الحرب ونتيجتها .

هى أن تكون الغاية الإيجابية من القتال ــ بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن ــ حماية الأديان كلها من الاضطهاد فيها أو الإكراه عليها ، وعبادة المسلمين لله وحده وإعلاءهم كلمته ، وتأمين دعوته ، وتنفيذ شريعته ، وهى فى مصلحة البشر كلهم ، وإسداء الخير إليهم ، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم . والشاهد الأول قوله تعالى بعد ذلك الإذن لهم بالقتال الذى تلوناه آنفا ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[1] ذكر ــ تعالى ــ إذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور (**أولها**) كونهم مظلومين معتدى عليهم فى أنفسهم ، ومخرجين نفيا من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم وهذا سبب خاص بهم .

وقد جعلنا هذه الغاية للقتال قاعدة مستقلة من قواعد سورة الأنفال معبرين عنها « بحرية الدين ومنع فتون أحد واضطهاده لإرجاعه عن دينه » واستدللنا عليها بقوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** ﴾[2] .

وقد كان المشركون يضطهدون المسلمين بكل ما قدروا عليه من الإيذاء والتعذيب لأجل ردهم عن دينهم ، وأما المسلمون فلم يفعلوا ذلك فى الصدر الأول ومن عساه شذ عن ذلك قليلا بعده فقد خالف حكم الإسلام الذى حرم الفتنة والاضطهاد والإكراه فى الدين وشرع فيه الاختيار بل جعله شرطا لصحته .

(**ثانيها**) إنه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التى يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الأنبياء وكصوامع العباد وبيع النصارى ومساجد المسلمين ــ بظلم عباد الأصنام ، ومنكرى البعث والجزاء وهذا سبب دينى عام صريح فى حرية الأديان فى الإسلام وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها وكذلك كان .

---

(١) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة الحج

(٢) الآية ٣٩ من سورة الأنفال

(**ثالثها**) أن يكون غرضهم من التمكن فى الأرض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للأنفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى ، والمربية للأنفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته ـــ وإيتاء الزكاة المصلحة للأمور الاجتماعية والاقتصادية والأمر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع الناس ـــ والنهى عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه أو غيره من الناس .

(القاعدة الثالثة)

إيثار السلم على الحرب

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها إذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد ، وأن السلم هى الأصل التى يجب أن يكون عليها الناس ، فلهذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب إذا جنح العدو لها ، ورضى بها ، والشاهد عليه قوله تعالى ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾[1] .

(القاعدة الرابعة)

الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها

إن الذى يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الأمة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ... وذلك قوله عز وجل ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾[2] .

(القاعدة الخامسة)

الرحمة فى الحرب

إذا كان الغلب والرجحان فى القتال للمسلمين المعبر عنه بالإثخان فى الأعداء ، وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم ، فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل ويكتفوا بالأسر ، ثم يخيرهم فى الأسارى إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم وذلك نص قوله تعالى فى سورة محمد ﷺ ﴿ **فإذا**

---

(١) الاية ٦١ من سورة الأنفال

(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال

لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾[١] الآية .

(القاعدة السادسة)

وجوب الوفاء بالعهود فى الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سرّاً أو جهراً ، كتحريم الخيانة فى كل أمانة مادية أو معنوية منها قوله تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾[٢] الآية . جمع بين الأمر بالإيفاء بها والنهى عن نقضها ثم أكد ذلك بالمثل البليغ فى قوله : ﴿ **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة** ﴾[٣] والمعنى أن تكونوا فى نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التى تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث « وهو جمع نِكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى » حال كونكم تتخذون عهودكم دخلا بينكم والدخل (بالتحريك) الفساد والغش الخفى الذى يدخل فى الشيء وما هو منه ، لأجل أن تكون أمةُ أربى وأزيد رجالاً ، وأكثر ربحاً ومالاً ، وأقوى أسنة ونصالاً ، من أمة أخرى .

والمراد أن معاهدات الصلح والاتفاق بين الأمم يجب أن يقصد بها الإصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الإخلاص دون الدخل الذى يقصد به أن تكون أمة هى أربى نفعاً وأكثر عدداً وجمعاً من الأمة الأخرى وهو ما عليه الدول فى جميع معاهداتها ...

(القاعدة السابعة)

الجزية وكونها غاية للقتال لا علة

قلت فى تفسير قوله تعالى فى قتال أهل الكتاب من آية الجزية ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾[٤] ما نصه : هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهى بها إذا كان الغلب لنا ، أى : قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضى وجوب القتال ، كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم وحرية دعوتكم ، كما فعل الروم فكان سببا لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية فى الحالتين اللتين قيدت بهما . فالقيد الأول لهم وهو أن تكون صادرة عن يد أى : قدرة

---

(١) الآية ٤ من سورة محمد

(٢) الآية ٩١ من سورة النحل

(٣) الآية ٩٢ من سورة النحل

(٤) الآية ٢٩ من سورة التوبة

وسعة فلا يظلمون ولا يرهقون ، والثانى لكم وهو الصغار والمراد به خضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم ، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التى يرونكم بها أقرب إلى هداية أنبيائهم منهم ..

حكمة الجزية وسببها وما تسقط بها

هذا وإن الجزية فى الإسلام لم تكن كالضرائب التى يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلا عن المغارم التى يرهقونهم بها ، وإنما هى جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الإسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذى يمنعهم ، أى : يحميهم ممن يعتدى عليهم .

والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها فى تفسير الآية بعد ما تقدم آنفا .

« منها » ما كتبه خالد بن الوليد ــ رضى الله عنه ــ لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وهو « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا ، وكُتب سنة اثنى عشرة فى صفر » اهـ . وهو صريح فى أن الجزية جزاء على المنعة والحماية تدوم بدوامها وتمتنع بزوالها .

ويؤيده بالعمل ما ذكره البلاذرى فى فتوح البلدان والأزدى فى فتوح الشام ، من رد الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك بأمر أبى عبيدة رضى الله عنه ، وقد صرحوا لهم أنهم قد أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة ، فعجب أهل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم ودعوا لهم بالنصر على الروم .

فظهر بما ذكرنا أن الإسلام حرم حرب الاعتداء والظلم ، وقصر حرب الدفاع على دفع المفاسد وتقرير المصالح العامة للبشر فجعلها ضرورة تقدر بقدرها ، وأن السلام الصحيح الشريف لا يمكن تمتع العالم به إلا بهداية الإسلام ، ووضع قوانين الحرب على قواعده .

المقصد التاسع من مقاصد القرآن
إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية

١ ــ كان بعض البشر من الإفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين لا من نوع الإنسان وبعضهم يشك فى ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم أمثال قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم**

من ذكر وأنثى ﴾[١] الآية : وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** ﴾[٢] .

٢ ــ كان بعض البشر فى أوربا وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسميا فجاء الإسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معا بلقب المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات والآيات معروفة ..

٣ ــ كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين فى جنة النعيم فى الآخرة ــ وهذا الزعم أصل لعدم تدينها ــ فنزل القرآن يقول : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾[٣] ويقول : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾[٤] الآية .

٤ ــ كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلا للاشتراك مع الرجال فى المعابد الدينية ، والمحافل الأدبية ، ولا فى غيرهما من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية ، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[٥] ..

٥ ــ كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره ، وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الإسلام هذا الظلم ، وأثبتت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن فى دائرة الشرع ، قال الله تعالى : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً** ﴾[٦].

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الأمريكية لم تمنح النساء حق التمليك والتصرف إلا من عهد قريب فى عصرنا هذا ، وأن المرأة الفرنسية لاتزال مقيدة بإرادة زوجها فى التصرفات المالية والعقود القضائية ، وقد مُنحت المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن .

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات
(٢) الآية ١ من سورة النساء
(٣) الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٤) الآية ١٩٥ آل عمران .
(٥) الآية ٧١ من سورة التوبة
(٦) الآية ٧ من سورة النساء

٦ ـــ كان الزواج فى قبائل البدو وشعوب الحضارة ضربا من استرقاق الرجال للنساء فجعله الإسلام عقدا دينيا مدنيا لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسى بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والألفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الإنسانية وانتشارها من الوالدين إلى الأولاد ، على ما أرشد إليه قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾(١)

٧ ـــ القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل ، لأنه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل فى الزوجات ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة** ﴾(٢) وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾(٣) فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والأولاد ، لا تكلف الزوجة منه شيئا ولو كانت أغنى منه ، وزادها المهر ، فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلاً مفروضا عليه بمقتضى العقد حتى إذا لم يذكر فيه لزمه مهر مثلها فى الهيئة الاجتماعية ، ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضى على حين نرى بقية الأمم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل .

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره أو يعضلونها بالمنع منه مطلقا وإن كان زوجها وطلقها . فحرم الإسلام ذلك ، والنصوص فى هذا معروفة فى كلام الله وكلام رسوله وسنته .

٨ ـــ كان الرجال من العرب وبنى إسرائيل وغيرهم من الأمم يتخذون من الأزواج ما شاءوا غير مقيدين بعدد ، ولا مشترط عليهم فيه العدل ، فقيدهم الإسلام بأن لا يزيدوا على أربع ، وأن من خاف على نفسه ألا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة . وإنما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والإحصان ، لأنها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع فى أحوال .

٩ ـــ الطلاق قد يكون ضرورة من ضرورات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الإحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف وكان مشروعا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الإسلام فيه بالإصلاح الذى لم يسبقه إليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون وكان الإفرنج يحرمونه ويعيبون الإسلام به ، ثم اضطروا إلى إباحته ، فأسرفوا فيه إسرافا منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الأسرة والعشيرة ومما نقلته الصحف

(١) الآية ٢١ من سورة الروم

(٢) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة

(٣) الآية ٣٤ من سورة النساء

من أسباب حكم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة ووجه الرجل فى إرساله أو قصه أو حلقه ، وشكوى المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعته للكتب أو الصحف فى الدار ، وشكواها من نتن رائحته لعدم استحمامه ، وشكوى الرجل من كثرة كلام المرأة حتى بالمسرة (التليفون) ومثله كثير .

جعل الإسلام عقدة النكاح بين الرجال ويتبعه حق الطلاق ، لأنهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات فى عقدها وحلها وكونهم أثبت من النساء جأشاً وأشد صبراً على ما يكرهون ، وقد أوصاهم الله تعالى فوق هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا** ﴾[1] وأعطت الشريعة المرأة حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضى إذا وجد سببه من العيوب الخلقية أو المرضية كالرجل ، وكذا إذا عجز الزوج عن النفقة ، وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التى لا يحل لها فيها الزواج ، وذم النبى ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه — إلى غير ذلك من الأحكام التى بيناها فى تفسير الآيات المنزلة فيها وفى كتابنا الجديد فى حقوق النساء فى الإسلام .

١٠ — بالغ الإسلام فى الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى ، وأكد النبى ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الأب ثم بالغ فى الوصية بتربية البنات وكفالة الأخوات ، بأخص مما وصى به من صلة الأرحام ، بل جعل لكل امرأة قيما شرعيا يتولى كفايتها والعناية بها ، ومن ليس لها ولى من أقاربها وجب على أولى الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها .

وجملة القول أنه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون فى أمة من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة ، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحى الله العليم الحكيم الرحيم ، إلى محمد النبى الأمى المبعوث فى الأميين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين والحمد لله رب العالمين .

المقصد العاشر من مقاصد القرآن الكريم
(تحرير الرقبة)

إن استرقاق الأقوياء للضعفاء قديم فى شعوب البشر ، بل هو معهود فى الحشرات التى تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضا كالنمل ، فإذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فإنها تأسر ما سلم من القتال وتستعبده فى خدمة الظافر من البناء وجمع المئونة وخزنها فى مخازنها وغير ذلك .

---

(١) الآية ١٩ من سورة النساء

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه فى أشق الأعمال ، وتعاملة بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرق مشروعاً عند الإفرنج إلى آن حررت الولايات المتحدة الأمريكية رقيقها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصا لمصلحة البشر العامة ، فإن لهم فيها مصالح خاصة ، ولا جنوحاً للمساواة بينهم ، فإن الأولى لا تزال تفضل الجنس الأبيض الأوربى المتغلب على الجنس الأحمر الوطنى الأصل .. ، كما أن انكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم ، ولكن النهضة الهندية فى هذا العهد قد خفضت من غلوائهم ... فلما ظهر الإسلام ، وأشرق نوره الماحى لكل ظلام ، كان مما أصلحه من فساد الأمم إبطال ظلمهم الرقيق وإرهاقه ، ووضع الأحكام الممهدة لزوال الرق بالتدريج الممكن بغير ضرر ولا ضرار ، ولا بغى ولا استكبار ، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذرا فى نظام الاجتماع البشرى من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء المستعبدين .

فإن الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب فى الأرض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجد مايحسنه أو يقدر عليه فيرجع إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان . فهذا برهان حى شاهد على أن إبطال الرق ــ الذى كان عاماً فى البشر ــ بتشريع دين يتعبد الله تعالى به من أول يوم لم يكن من الحكمة ولا من مصلحة البشر الممكن تنفيذها ، والإسلام تشريع عملى لا هوادة فيه فما شرعه فى الرقيق كان أعلى مراتب الحكمة ، الجامع بين المصلحة العامة والرحمة . وقد شرع الله تعالى لإبطال الرق بطريقتين :

١ ــ تحديد تجديد الاسترقاق فى المستقبل أو تقييده .

٢ ــ وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذى لا ضرر ولا ضرار فيه ..

أضف إلى ما تقدم كله وصايا الله ورسوله بالمماليك ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك فى العقوبات نصف حد الحر ، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ، ونهى النبى ﷺ عن قول السيد « عبدى وأمتى » وأمره أن يقول « فتاى وفتاتى وغلامى » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون ، ويعينوهم على خدمتهم إن كلفوهم ما يغلبهم كما فى حديث أبى ذر فى الصحيحين وغيرهما قال ﷺ : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »[1] ..

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى سننه عن أبى ذر (الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ صـ ٢٨) وفى صحيح البخارى ــ كتاب الإيمان ــ جـ ١ صـ ١٥ ط الشعب .

ولهذا كان المسلمون فى الصدر الأول يبالغون فى تكريم الرقيق ومعاملتهم حتى صاروا يقصرون فى الخدمة ونعمر الحق إن العبد المملوك فى حكم الإسلام الأول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الأحرار الذين ابتلوا فى هذه العصور بحكم دول الإفرنج من غيرهم أو نفوذهم .

خلاصة البحث

فى تحرير الدلالة على إثبات الوحى ، وحجة الله به على جميع الخلق

راجع ما تقدم من الكلام على الوحى والنبوة وآيات الأنبياء عندنا وعند النصارى ومن الكلام فى تفنيد شبهة الوحى النفسى ، والكلام فى إعجاز القرآن اللغوى والعلمى ، وما أحدثه من الثورة العالمية والانقلاب الإنسانى من كل وجه ، ثم أضف إليها تلك العشرة الأنواع من مقاصد القرآن .. مع العلم القطعى من تاريخ محمد ﷺ أنه كان أميا يؤثر بطبعه عيشة العزلة ، فلم يتفق له الاطلاع على كتب الأنبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين ، وأنه لم يعرف عنه أنه كان يبحث فى شىء من العلوم ، ولا أنه نطق بشىء من مسائلهم ، ولا أنه عرف بالبلاغة والفصاحة ، أو عنى بالشعر أو الرجز أو الخطابة ، والعلم القطعى بأنه إنما جاء بها فى هذا القرآن بعد استكمال سن الأربعين وهى سن لم يعرف فى استعداد نفس البشر ومدركات عقولهم ولا فى تاريخهم أن صاحبها يأتنف مثلها ائتنافا لم يسبق له البدء بشىء منه فى أنف عمره ، وآنفة شبابه وشرخه .

راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطرا إلى الجزم بأن هذا فى جملته وتفصيله فوق استعداد بشر أمى أو متعلم ، وأنه لا يعقل إلا أن يكون وحيا من الله تعالى اختصه به ..

« رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيّا ورسولاً »

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأنه خاتم النبيين ، ورحمته العامة للعالمين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » . اهـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الزخرف

قال صاحب البصائر :

السورة مكية إجماعا . عدد آياتها تسع وثمانون .

وكلماتها : ثمانمائة وثلاث وثلاثون .

وحروفها : ثلاثة آلاف وأربعمائة .

مقصود السورة

بيان إثبات القرآن فى اللوح المحفوظ ، وإثبات الحجة والبرهان على وجود الصانع ، والرد على عباد الأصنام الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، والمنة على الخليل ﷺ بإبقاء كلمة التوحيد فى عقبه ، وبيان قسمة الأرزاق ، والإخبار عن حسرة الكفار وندامتهم يوم القيامة ، ومناظرة فرعون وموسى ، ومجادلة المؤمنين مع ابن الزِّبعْرى بحديث عيسى ، وبيان شرف الموحدين فى القيامة ، وعجز الكفار فى جهنم ، وإثبات إلٰهية الحق فى السماء والأرض ، وأمر الرسول بالإعراض عن مكافأة الكفار فى قوله : ﴿ **فاصفح عنهم وقل سلام** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون** ﴾ وفى الجاثية : ﴿ **إن هم إلا يظنون** ﴾[1] لأنه فى هذه السورة متصل بقوله ﴿ **وجعلوا الملائكة** ﴾ الآية . والمعنى : أنهم قالوا : الملائكة بنات الله ، وإن الله قد شاء منا عبادتنا إياهم ، وهذا جهل منهم وكذب . فقال ــ سبحانه ــ : ﴿ **مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون** ﴾ أى : يكذبون . وفى الجاثية خلطوا الصدق بالكذب فإن قولهم : ﴿ **نموت ونحيا** ﴾[1] صدق ، فإن المعنى ، يموت السلف ويحيا الخلف ، وهو كذلك إلى أن تقوم الساعة ، وكذبوا فى إنكارهم البعث ، وقولهم : ﴿ **ما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ ولهذا قال : ﴿ **إن هم إلا يظنون** ﴾ أى : هم شاكون فيما يقولون .

---

(١) من الآية : ٢٤ من سورة الجاثية

قوله تعالى : ﴿ **وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ وبعده : (مقتدون) خص الأول بالاهتداء ، لأنه كلام العرب فى محاجتهم رسول الله ﷺ وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين ، فنحن مهتدون ولهذا قال عقيبه : ﴿ **قل أو لو جئتكم بأهدى** ﴾ . والثانى حكاية عمَّن كان قبلهم من الكفار . وأدعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء فاقتضت كل آية ما ختمت به .

قوله : ﴿ **وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ وفى الشعراء : ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾(١) لأن ما فى هذه السورة عام لمن ركب سفينة أو دابة وقيل معناه : ﴿ **إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ على مركب آخر ، وهو الجنازة ، فحسن إدخال اللام على الخبر للعموم . وما فى الشعراء كلام السحرة حين آمنوا و لم يكن فيه عموم .

ووجه مناسبتها لما قبلها أن مفتتح هذه السورة يشاكل مختتم تلك السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا

(١) من الآية : ٥٠ من سورة الشعراء

يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

معانى المفردات

﴿ **الكتاب** ﴾ : هو القرآن . ﴿ **المبين** ﴾ : أى الموضح لطريق الهدى ، المبعد من الضلالات . ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ : أى لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه . ﴿ **أم الكتاب** ﴾ : هو علم الله الأزلى . ﴿ **حكيم** ﴾ أى : ذو حكمة بالغة . ﴿ **أفنضرب عنكم** ﴾ يقال : ضربت عنه ، وأضربت عنه ، أى : تركته . ﴿ **الذكر** ﴾ أى : القرآن . ﴿ **صفحا** ﴾ أى : إعراضا . ﴿ **مسرفين** ﴾ أى : منهمكين فى كفركم وتوليكم عن الحق . ﴿ **بطشاً** ﴾ أى : قوة وجلداً ﴿ **مضى** ﴾ أى : سلف . و ﴿ **المثل** ﴾ : الصفة ، ﴿ **مهداً** ﴾ أى : فراشاً ، وأصله : موضع فراش الصبى . ﴿ **سبلاً** ﴾ واحدها سبيل ، وهى الطريق ﴿ **بقدر** ﴾ أى : بمقدار تقتضيه الحكمة والمصلحة . ﴿ **فأنشرنا** ﴾ أى : أحيينا . ﴿ **ميتاً** ﴾ أى : خالية من النبات . ﴿ **الأزواج** ﴾ : أصناف المخلوقات . ﴿ **لتستووا على ظهوره** ﴾ أى : لتستقروا عليها . ﴿ **سخر** ﴾ : ذلّل . ﴿ **مقرنين** ﴾ أى : مطيقين . ﴿ **جزءاً** ﴾ أى : ولداً ، إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، وعبر عن الولد بالجزء ، لأنه بضعة ممن ولد منه . ﴿ **مبين** ﴾ أى : ظاهر الكفر . ﴿ **أصفاكم** ﴾ أى : اختار لكم ﴿ **ضرب** ﴾ أى : جعل . ﴿ **مثلا** ﴾ أى : شبها ، أى : متشابها بنسبة البنات إليه ، لأن الولد يشبه الوالد . ﴿ **كظيم** ﴾ أى : ممتلىء غيظاً وغمّاً . ﴿ **ينشأ** ﴾ أى : يربى . ﴿ **فى الحلية** ﴾ أى : فى الزينة . ﴿ **الخصام** ﴾ أى : الجدل . ﴿ **غير مبين** ﴾ أى : غير مظهر حجته لعجزه عن الجدل . ﴿ **يخرصون** ﴾

أى : يكذبون. ﴿ **مستمسكون** ﴾ أى : متمسكون ومعولون . ﴿ **على أمة** ﴾ أى : على طريقة خاصة .
﴿ **مترفوها** ﴾ أى : أهل الترف والنعمة فيها الذين أبطرتهم الشهوات ، فلا ينظرون إلى ما يوصلهم إلى الحق ..
﴿ **مقتدون** ﴾ أى : سالكون طريقهم .

المناسبة وإجمال المعنى

أقسم ــ سبحانه ــ بكتابه المبين لطريق الهدى إنه جعل هذا القرآن بلغة العرب ، لغة قومك ليفقهوا معناه ،ويحيطوا به خبرا ، وإنه محفوظ فى علمه ــ تعالى ــ فليس هو من عند محمد كما تدعون ، وإننا لن نترك تذكيركم به لأجل إعراضكم عنه ، وانهماككم فى الكفر به ، رحمة منا ولطفا بكم ، ثم حذرهم وأنذرهم بأن كثيرا من الأمم قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة كذبوا رسلهم فكان عاقبتهم ما رأيتم وحل بهم ما تشاهدون آثاره ، وبعد أن ذكر ــ سبحانه ــ ذلك أبان أن أفعالهم تخالف أقوالهم ، فإن سألتهم عن الخالق لهذا الكون من سمائه وأرضه ليقولن : الله ، وهم مع اعترافهم به يعبدون الأوثان والأصنام ، ثم ذكر ــ سبحانه ــ جليل أوصافه ، فأرشد إلى أنه هو الذى جعل الأرض فراشا ، وجعل فيها طرقا ، لتهتدوا بها فى سيركم ، ونزل من السماء ماء بقدر الحاجة يكفى زرع النبات وسقى الحيوان ، وخلق أصناف المخلوقات جميعا من حيوان ونبات ، وسخر لكم السفن والدواب لتركبوها ، وتشكروا الله على ما آتاكم ، وتقولوا : لولا لطف الله بنا ماكنا لذلك بمطيقين ، وإنا يوم القيامة إلى ربنا راجعون ، فيجازى كل نفس بما كسبت ، ثم ذكر ــ سبحانه ــ أكاذيبهم ، إذ جعلوا الملائكة بنات له ، ولا غرو ، فالإنسان من طبعه الكفران وجحود الحق ، ومن عجيب أمرهم أنهم أعطوه أخسَّ صنفى الأولاد عندهم ، وما لو بشر أحدهم به اسود وجهاً وامتلأ غيظا ، ومن يتربى فى الزينة وهو لا يكاد يبين حين الجدل ،واختاروا لأنفسهم الذكران ، ثم أعقبه بالنعى عليهم فى جعلهم الملائكة إناثا ، وزاد فى الإنكار عليهم ببيان أن مثل هذا الحكم لا يكون إلا عن مشاهدة ، فهل هم شهدوا ذلك ؟ ثم توعدهم على هذه المقالة ، وإنه يوم القيامة يجازيهم بها . ثم حكى عنهم شُبَهًا أخرى ، قالوا : لو شاء الله ألا نعبد الملائكة ما عبدناها ، لكنه شاء عبادتها لأنها هى المتحققة فعلا فتكون حسنة ، ويمتنع النهى عنها ، ثم رد مقالهم بأنهم كاذبون ، لأنه ــ سبحانه ــ لا يرضى لعبادة الكفر ، وبعد أن أبطل استدلالهم العقلى نفى أن يكون لهم دليل نقلى على صحة ما يدعون ، ثم أبان أن ما فعلوه إنماهو بمحض التقليد عن الآباء دون حجة ولا برهان وهم ككثير من الأمم قبلهم قالوا مثل مقالهم ، فكان عاقبة أمرهم أن حل بهم العذاب كما يشاهدون ويرون من آثارهم .

التفســير

قوله تعالى : ﴿ **حمٓ . والكتاب المبين** ﴾ أى : البين والواضح والجلى المعانى والألفاظ لأنه نزل بلغة العرب التى هى أنصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال ــ تعالى ــ : ﴿ **إنا جعلناه** ﴾ أى : أنزلناه ﴿ **قرآنا عربيا** ﴾ أى : بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ أى : تفهمونه وتتدبرونه ، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين** ﴾[١] .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** ﴾ يعنى القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ **لدينا** ﴾ عندنا ﴿ **لعلى حكيم** ﴾ أى : رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ، كقوله ــ تعالى ــ ﴿ **إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون** ﴾[٢] وكقوله ــ سبحانه ــ ﴿ **بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ** ﴾[٣] فبين ــ سبحانه ــ شرف القرآن فى الملأ الأعلى . ليشرفه ويعظمه أهل الأرض .

قوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين** ﴾ معنى ﴿ **صفحا** ﴾ : إعراضا ، وقد ضربت عنه صفحا : إذا أُعرضت عنه وتركته . **وللمفسرين** فى معنى هذه الآية أقاويل ، قال ابن عباس : المعنى : أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به ؟ وعنه أيضا أن المعنى : أتكذبون بالقرآن ولا نعاقبكم ؟ . وقال السدى : المعنى : أفنترككم سدى فلا نأمركم ولا ننهاكم ؟ وقال قتادة : والله لو كان هذاالقرآن رُفع حين ردّدته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته .

قال العلامة ابن كثير : وقول قتادة لطيف المعنى جدّاً ، وحاصله : أنه يقول فى معناه إنه ــ تعالى ــ من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير ليهتدى من قدر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب عليه شقاوته .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وكم أرسلنا من نبى فى الأولين . وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين** ﴾ . أى : وكثيرا ما أرسلنا فى الأمم الغابرة رسلا قبلك كما أرسلناك إلى قومك من قريش ، وكلما أتى نبى أمته يدعوهم إلى الهدى استهزأوا به وسخروا منه ، فأهلكنا المكذبين بالرسل و لم يقدروا على رفع بأسنا إذ أتاهم ، ومضت سنتنا فى المكذبين لرسلهم من قبلكم ، ورأيتم ما حل

---

(١) الآيات : ١٩٢ ــ ١٩٥ من سورة الشعراء

(٢) الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ من سورة الواقعة .

(٣) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة البروج .

بهم ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم . ونحو الآيات قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون * قل سيروا فى الأرض ثمَّ انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[1] وكقوله ـــ جلت عظمته ـــ : ﴿ **سنة الله التى قد خلت فى عباده** ﴾[2] .

قوله ـــ تعالى ـــ ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ .

يقول ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ يعنى المشركين ﴿ **من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾ العزيز فى سلطانه ، العليم بهن وما فيهن ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . فأقروا له بالخلق والإيجاد ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم ، كما حكى الله عنهم بقوله ـــ تعالى ـــ ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار** ﴾[3] .

ثم دل على نفسه ـــ سبحانه ـــ بذكر مصنوعاته وآلائه قال ـــ تعالى ـــ : ﴿ **والذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون** ﴾ أى : والعزيز العليم هو الذى مهد لكم الأرض وجعلها لكم وطئة تطئونها بأقدامكم ، وتمشون عليها بأرجلكم ، وجعل لكم فيها طرقاً تنتقلون من بلد إلى آخر ، لمعاشكم ومتاجركم وابتغاء رزقكم .

﴿ **والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون** ﴾ أى : وهو الذى ينزل من السماء ماء بقدر الحاجة فلا يجعله كثيرا ، حتى لا يكون عذابا كالطوفان الذى أنزل على قوم نوح ، ولا قليلا لا يكفى النبات والزرع ، لئلا تهلكوا جوعا ، فتحيا به الأقاليم التى كانت خالية من النبات والشجر ، وكما أحيينا الأرض بعد موتها بالماء نحييكم ونخرجكم من قبوركم أحياء ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة**

---

(١) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية : ٨٥ من سورة غافر .
(٣) من الآية : ٣ من سورة الزمر .

فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾[(١)] .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **والذى خلق الأزواج كلها** ﴾ أى : وهو الذى خلق سائر الأصناف مما تنبت الأرض من نبات وأشجار وأزاهير ، ومن الحيوان ، على اختلاف الأزواج كلها ﴿ **مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾[(٢)] .

وكقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾[(٣)] أى : لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ، حىّ قيوم قائم بنفسه ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ **وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون** ﴾أى : وهو الذى جعل لكم من السفن ما تركبون فى البحار إلى حيث تقصدون لمعايشكم ومتاجركم ، ومن الأنعام ما تركبونه فى البر كالخيل والبغال والحمير ، ومما سيجد من وسائل المواصلات وطرق النُّقلة برّا وبحراً ، كما جاء فى سورة النحل من قوله ـ تعالى ـ ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون** ﴾[(٤)] .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ .

أى : لكى تستووا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ثم تذكروا نعمة ربكم الذى أنعم به عليكم ، فتعظمونه وتمجدونه ، وتقولوا ـ تنزيها له عما يصفه المشركون ـ : سبحان الذى سخر لنا هذا الذى ركبناه ، وما كنا ـ لولا تسخيره وتذليله ـ بمطيقين ذلك ، فالأنعام مع قوتها ذللها للإنسان ينتفع بها حيث شاء وكيفما أراد ، ولولا ذلك ما استطاع الانتفاع بها .

واعلم أنه ـ سبحانه ـ عيّن ذكراً خاصا حين ركوب السفينة ، وهو قوله : ﴿ **بسم الله مجريها ومرساها** ﴾[(٥)] وذكراً آخر حين ركوب الأنعام وهو قوله : ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ وذكراً ثالثا حين دخول المنازل وهو قوله : ﴿ **رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين** ﴾[(٦)] .

---

(١) الآية : ٣٩ من سورة فصلت
(٢) الآية : ٣٦ من سورة يٓس
(٣) الآية : ٤٩ من سورة الذاريات .
(٤) الآية : ٨ من سورة النحل
(٥) من الآية : ٤١ من سورة هود
(٦) من الآية : ٢٩ من سورة المؤمنون

قال القرطبي : علّمنا ـ سبحانه وتعالى ـ ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرفنا فى آية أخرى على لسان نوح ـ عليه السلام ـ ما نقول إذا ركبنا السفن ، فكم من راكب دابة عثرت به ، أو شمست ، أو تقحّمت ، أو طاح عن ظهرها فهلك ، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق . فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور ، واتصالا بسبب من أسباب التلف أمر أن لا ينسى عند اتصاله به موته وأنه هالك لا محالة ، فمنقلب إلى الله ـ عز وجل ـ غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدًا للقاء الله ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه . ا هـ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ أى : لصائرون إليه بعد مماتنا ، وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سيرة الآخرة .

هديه ﷺ فى ركوب الدابة والذكر عنده

قال الإمام أحمد : عن على بن ربيعة قال : رأيت عليا ـ رضى الله عنه ـ أتى بدابة فلما وضع رجله فى الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى عليها قال : الحمد لله ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين۞وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ ثم حمد الله ثلاثاً ، وكبّر ثلاثاً ، ثم قال : سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسى فاغفر لى ، ثم ضحك ، فقلت : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ فقال ـ رضى الله عنه ـ : رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك ، فقلت : مِمَّ ضحكت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « يعجب الرب ـ تبارك وتعالى ـ من عبده إذا قال : رب اغفر لى ، ويقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى » . وهكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى[1] .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثاً ثم قال : ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ،واطو عنا بعده ، أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى المال والأهل » وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون »[2] .

وفى وجه آخر : وكان رسول الله ﷺ وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ إذا علوا الثنايا كبروا ، وإذا هبطوا سبحوا .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد (مسند على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ) جـ ١ صـ ٩٧
والترمذى (أبواب الدعوات) باب : ما يقول إذا ركب دابة جـ ٥ صـ ١٦٤ ، ١٦٥ رقم ٣٥١١
وانظر سنن أبى داود (كتاب الجهاد) باب : ما يقول الرجل إذا ركب جـ ١ ص ٧٧ رقم ٢٦٠٢
(٢) انظر صحيح مسلم (كتاب الحج) باب : ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره جـ ٢ صـ ٩٧٨ رقم ١٣٤٢/٤٢٥

فى الذكر على الدابة إذا استصعبت

قال يونس بن عبيد : ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقول فى أذنها : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** ﴾[١] إلا وقفت بإذن الله تعالى . قال الإمام ابن القيم . قال شيخنا ابن تيمية ـــ قدس الله روحه ـــ : وقد فعلنا ذلك فكان كذلك .
(من كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب) .

قوله ـــ تعالى ـــ ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ۝ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ۝ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم ۝ أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ۝ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون ۝ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون** ﴾ .

بعد ما ذكر ـــ سبحانه وتعالى ـــ الآيات الدالة على توحيده ورحمته بعباده ولطفه بهم، ذكر ـــ جل فى علاه ـــ أنهم قابلوا الإحسان بالإساءة وجعلوا له شريكا أو ولدا ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين** ﴾ ومعنى ﴿ **من عباده جزءاً** ﴾ أن قالوا : الملائكة بنات الله ، فجعلوهم جزءًا له وبعضاً ، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءاً له ﴿ **إن الإنسان** ﴾ أى : الكافر ﴿ **لكفور مبين** ﴾ قال الحسن : يعد المصائب وينسى النعم ﴿ **مبين** ﴾ مظهر الكفر .

وهذه الآية كقوله ـــ تعالى ـــ فى سورة الأنعام بعد أن تحدث ـــ سبحانه ـــ عن الآيات الدالة على توحيده قال بعد ذلك : ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ۝ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ۝ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ۝ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾[٢]

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين** ﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار ، كقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً** ﴾[٣] ثم زاد فى التوبيخ والإنكار بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم** ﴾[٤] أى : وإذا بشر أحد هؤلاء بما نسبوه لله من البنات أنف وتملكته الكآبة والحزن من سوء ما بشر به وتوارى من القوم خجلا .

---

(١) الآية : ٨٣ من سورة آل عمران .
(٢) الآيات : ١٠٠ ـــ ١٠٣ من سورة الأنعام
(٣) الآية : ٤٠ من سورة الإسراء .
(٤) الآية : ١٧ من سورة الزخرف .

ثم كرر الإنكار وأكده بقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين** ﴾ أى : أو قد جعلوا لله الأنثى التى تتزيى فى الزينة ، وإذا خوصمت لا تقدر على إقامة حجة ولا تقرير دعوى . لنقصان عقلها وضعف رأيها ؟ وما كان ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا** ﴾ أى : سموهم وحكموا لهم بذلك ، وفى هذا كفر من وجوه ثلاثة : أنهم نسبوا إلى الله الولد ، أنهم أعطوه أخس النصيبين ، أنهم استخفوا بالملائكة بجعلهم إناثا ، وقد رد الله عليهم مقالهم فقال ــ سبحانه ــ : ﴿ **أشهدوا خلقهم** ﴾ أى : أحضروا خلق الله لهم ، فشاهدوهم بنات حتى يحكموا بأنوثتهم ؟ ونحو الآية قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون*ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون** ﴾[(١)] .

ثم توعدهم ــ سبحانه ــ على مقالهم فقال :

﴿ **سنكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ أى : ستكتب هذه الشهادة التى شهدوا بها فى الدنيا فى ديوان أعمالهم ، ويسألون عنها يوم القيامة ؛ ليأتوا ببرهان على صحتها ، ولن يجدوا لذلك سبيلا .

ثم حكى عنهم فنًّا آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء والسخرية فقال : ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم** ﴾ أى : وقالوا : لو شاء الله لحال بيننا وبين عبادة الأصنام التى هى على صورة الملائكة ، فإنه ــ تعالى ــ عالم بذلك ، وهو قد أقرنا عليه ، فرد عليهم مقالهم بقوله ــ سبحانه ــ : ﴿ **ماهم بذلك من علم** ﴾ أى : مالهم على ما قالوا دليل ولا برهان يستندون إليه فى تأييد دعواهم ﴿ **إن هم إلا يخرصون** ﴾ أى : ماهم إلا كاذبون فيما قالوا ، متقوّلون على الله ما لم يقله ، فإن الله ــ سبحانه ــ أمر العباد بتوحيده ، ونهاهم عن عبادة سواه ، كما قال ــ سبحانه ــ : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[(٢)] .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون*بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ .

---

(١) الآيات : ١٥٠ ــ ١٥٤ من سورة الصافات .

(٢) الآية : ٣٦ من سورة النحل .

بعد أن بين ــ سبحانه ــ بطلان قولهم بالفعل أتبعه ببطلانه بالنقل فقال ــ سبحانه ــ : ﴿ **أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون** ﴾ وهذا معادل لقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **أشهدوا خلقهم** ﴾ والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتاباً من قبله ، أى : من قبل القرآن بما ادعوه ، فهم به مستمسكون يعملون بما فيه .

والجواب : إنه لا كتاب لهم بذلك .

ولما بين ــ سبحانه ــ أنه لا حجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل ــ ذكر أن الحامل لهم على ما صاروا إليه إنما هو التقليد فقال ــ سبحانه ــ : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ أى : ليس لهم مستند على ماهم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد ، وقد قالوا : إنهم أرجح منا أحلاماً وأصح أفهاما ، ونحن سائرون على طريقتهم وسالكون منهجهم ، ولم نأت بشىء من عند أنفسنا ، ولم نغلط فى الاتباع واقتفاء الآثار .

ثم بين ــ سبحانه ــ : أن مقال هؤلاء قد سبقهم إلى مثله أشباههم نظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل فقال : ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ أى : ومثل هذا المقال المتناهى فى الشناعة قالت الأمم الماضية لإخوانك الأنبياء ، فلم نرسل قبلك فى قرية رسولا إلا قال رؤساؤها وكبراؤها : إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين ، وإنا على منهاجهم سائرون ، نفعل مثل ما فعلوا ، ونعبد ما كانوا يعبدون : وفى هذا دليل على إبطال التقليد ، لذمه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ . أى : قل ــ يا محمد لقومك ــ : أوليس قد جئتكم من عند الله ﴿ **بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ يعنى بكل ما أرسل به الرسل . فالخطاب للنبى ﷺ ولفظه لفظ الجمع ، لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه .

وحينئذ لم يبق لهم عذر ، ومن ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ **فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ أى : فانتقمنا من هؤلاء المكذبين لرسلهم ، الجاحدين بربهم ، فانظر ــ أيها الرسول ــ كيف كان عاقبة أمرهم حين كذبوا بآياتنا ؟ ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لغيرهم ؟! ونحو الآيات قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون * ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين * ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾[1] .

---

(١) الآيات : ٦٩ ــ ٧٣ من سورة الصافات

إبراهيم والوحدانية

قال ـــ تعالى ـــ :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

معانى المفردات

﴿ لأبيه ﴾ أى آزر . ﴿ براء ﴾ : قال علماء اللغة : هذه الكلمة لاتثنى ولا تجمع تقول : أنا منك براء ، ونحن منك براء فإن قلت : برىء ثنيت وجمعت ﴿ فطرنى ﴾ : خلقنى ، ﴿ كلمة ﴾ : هى كلمة التوحيد ، ﴿ فى عقبه ﴾ أى : فى ذريته . ﴿ مبين ﴾ أى : ظاهر الرسالة بماله من المعجزات الباهرة ، ﴿ من القريتين ﴾ أى : من إحدى القريتين : مكة والطائف ، والرجل الذى من مكة : هو الوليد بن المغيرة المخزومى وكان يسمى ريحانة قريش ، والذى من الطائف هو عروة بن مسعود الثقفى . ﴿ رحمة ربك ﴾ أى : هى النبوة . ﴿ السخرى ﴾ : هو الذى يقهر على العمل ، ﴿ والسُقُف ﴾ بضمتين : واحدها سقف . ﴿ والمعارج ﴾ : واحدها مِعرَج . ﴿ يظهرون ﴾ أى : يرتقون . ﴿ زخرفا ﴾ : ذهبا ﴿ يعش عن ذكر الرحمن ﴾: يتعامى عن ذكر الله . ﴿ نقيض له ﴾ أى : نهىء له ونضم إليه . ﴿ قريناً ﴾ القرين : الرفيق الذى لا يفارق ﴿ المشرقين ﴾ أى : المشرق والمغرب ، وكثيرا ما تسمى العرب الشيئين المتقابلين باسم أحدهما .

قال الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكُمُ لنا قمراها والنجوم الطوالع

يريد بقوله : **قمراها** : الشمس والقمر . ﴿ بعد المشرقين ﴾ أى :بعد أحدهما من الآخر . ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ أى : فإن قبضناك وأمتناك . ﴿ لذكر ﴾ أى : لشرف عظيم . ﴿ تسألون ﴾ أى : عن قيامكم بما أوجبه القرآن عليكم من التكاليف من أمر ونهى .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر ـــ سبحانه ـــ : فى الآية السالفة أن الذى دعا الكفار إلى اعتناق العقائد الزائفة هو تقليد الآباء والأجداد وبين أنه طريق باطل ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى بالتقليد ـــ أردف هذا أن ذكر لهم أن أشرف آبائهم وهو إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ ترك دين الآباء وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعتهم ، فيجب عليكم إتباعه ، وحين عدل عن طريق آبائه جعل الله دينه باقيا فى عقبه إلى يوم القيامة .

ثم ذكر أن قريشا وآباءهم مدَّ لهم فى العمر والنعمة فاغتروا بذلك وأعرضوا عن توحيد الله وشكره على آلائه ، حتى جاءهم الرسول مذكراً بالنظر إلى من فطرهم وفطر السموات والأرض ، فكذبوه وقالوا : ساحر كذاب ثم حكى عنهم أنهم قالوا : هلا نُزل هذا القرآن على رجل عظيم الجاه كثير المال من إحدى القريتين مكة والطائف ، فرد عليهم مقالهم بأنه قسم الحظوظ الدنيوية بين عباده فجعل منهم الفقير والغنى ، السيد

والمسود ، الأقوياء والضعفاء ، ولم يغير أحد ما حكم به أحوال دنياهم على حقارتها ، فكيف يعترضون على حكمه فيما هو أرفع درجة ، وأشرف غاية ، وأعظم مرتبة وهو منصب النبوة ؟ ثم ذكر ــ سبحانه ــ أن متاع الدنيا قليل زائل والآخرة هى الباقية ، وهى لمن يتقى الله ، ويجتنب الكفر والمعاصى . ثم ذكر ــ سبحانه ــ أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله ، وصار من جلساء الشياطين الضالين المضلين الذين يصدون عن السبيل القويم ، ويظن أنه مهتد ، ثم ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة تبرأ الكافر من الشيطان قرينه وقال له : يا ليت بينى وبينك بعد ما بين المشرقين .

ثم ذكر لرسوله أن دعوته لا تؤثر فى قلوبهم ، وقلما تجديهم المواعظ ، فإذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصم ، وإذا أريتهم معجزاتك كانوا كالعمى ، وإنما كانوا كذلك لضلالهم المبين ، ثم سلى رسوله وبين له أنه لابد أن ينتقم منهم إما حال حياته أو بعد موته ، ثم أمره أن يستمسك بما أمره الله به ، فيعمل بموجبه ، فإنه الصراط المستقيم ، النافع فى الدين والدنيا ، وفيه الشرف العظيم له ولقومه ، ولسوف يسألون عما قاموا به من التكاليف التى أمرهم بها ، ثم أرشد إلى أن بغض الأصنام وبغض عبادتها جاء على لسان كل نبى فمحمد ﷺ ليس بدعا من بينهم فى الإنكار عليها حتى يعارض ويبغض .

التفسير

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون** ﴾ أى : واذكر لقومك المكبين على التقليد : كيف تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه حين رآهم عاكفين على عبادة الأصنام ؟ قال لهم : إنى براء مما تعبدون إلا من عبادة الله الذى خلقنى وخلق الناس جميعا ، وإنه سيهدينى إلى سبيل الرشاد ، ويوفقنى إلى اتباع الحق ، وقد جزم بذلك لثقته بربه ولقوة يقينه .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وجعلها كلمة باقية فى عقبه** ﴾ قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسُّدى وغيرهم فى قوله ــ عز وجل ــ ﴿ **وجعلها كلمة باقية فى عقبه** ﴾ يعنى لا إله إلا الله ، لا يزال فى ذريته من يقولها . وقال قتاده : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال ابن العربى : إنما كانت لإبراهيم فى الأعقاب ، موصولة بالأحقاب . بدعوتيه المجابتين : إحداهما قوله ﴿ **إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين** ﴾[1] فقد قال إلا من ظلم منهم فلا عهد له . ثانيتهما قوله : ﴿ **واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام** ﴾[2] .

---

(١) من الآية : ١٢٤ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ٣٥ من سورة إبراهيم .

فهذه الكلمة : وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وترك ما سواه من الأوثان وهى لا إله إلا الله جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله ــ تعالى ــ : من ذرية إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ أى : إليها

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين * ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون** ﴾ . أى : ولكنى متعت هؤلاء المشركين وآباءهم من قبل ، ومددت أعمارهم وأكثرت نعمهم فشغلتهم النعم والترف والشهوات ، فأطاعوا الشيطان ونسوا كلمة التوحيد ، فجريت على سنتى أن أجعل فى بنى إبراهيم من يوحد الله ويدعو من كفر منهم إلى الإيمان ، فاخترت محمداً وأنزلت معه الكتاب ليدعو هؤلاء إلى ما فيه صلاحهم فى دنياهم ودينهم ، ثم وبخهم على إعراضهم عما جاء به من الحق وعدم النظر فيه فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون** ﴾ أى : ولما جاءهم القرآن والرسول الصادق بما معه من المعجزات قالوا : إن ما جاءنا به سحر وليس بوحى من عند الله ، وإنا به جاحدون ، فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ يخبر ــ تعالى ــ : عن المشركين أنهم قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أى : هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف وقد ذكر غير واحد من المفسرين منهم قتاده أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة من مكة . وعروة بن مسعود الثقفى ــ من الطائف ــ قال ابن كثير : والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان ، قال ــ تعالى ــ رادا عليهم فى هذا الاعتراض : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك ؟** ﴾ أى : ليس الأمر مردودا إليهم بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإن لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا ، وأشرفهم بيتا وأطهرهم أصلا .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** ﴾ : بين ــ سبحانه ــ أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والأفهام ، فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوض أمر النبوة إليهم ؟!

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** ﴾ أى : إننا فى هذه الحياة فضلنا بعض العباد على بعض فى الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، لأنه لو سوّينا بينهم فيها لم يخدم بعضهم بعضا ، ولم يسخّر أحد غيره ، وذلك ممايفضى إلى خراب العالم وفساد الدنيا .

وإذا كانوا قد عجزوا عن ذلك فى أحوال الدنيا فكيف يعترضون علينا فى منصب الرسالة ؟

وقصارى القول : إنا قسمنا بينهم أرزاقهم ، أفلا يقنعون بقسمتنا فى أمر النبوة وتفويضها إلى من نشاء من خلقنا ؟

ثم علل ما سلف بقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ أى : ورحمة ربك وفضله بالنبوة وما يتبعها من وحى وكتاب ينزل ، خير مما يجمعون من حطام الدنيا ، فالدنيا على شفا جرف هار ، ومظاهرها فانية لا قيمة لها . قال ــ تعالى ــ : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾[1] .

ثم يبين ــ سبحانه ــ : حقارة الدنيا وخستها بقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسررا عليهايتكئون وزخرفاً** ﴾

قال الحسن : المعنى : لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم فى الدنيا ما وصفناه ، لهوان الدنيا عند الله ــ عز وجل ــ وعلى هذا أكثر المفسرين : ابن عباس والسدى وغيرهم . ومعنى ﴿ **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج** ﴾ : لجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة ، وسلالم ودرجاً من فضة ﴿ **عليها يظهرون** ﴾ أى : يصعدون ﴿ **ولبيوتهم أبواباً** ﴾ أى : أغلاقاً على أبوابهم ﴿ **وسررا عليها يتكئون** ﴾ أى : جميع ذلك يكون فضة ﴿ **وزخرفا** ﴾ أى : وذهباً . قاله ابن عباس قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها ، ومافعل ذلك ، فكيف لو فعل ؟!

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ أى : وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل ، والآخرة بما فيها من ضروب النعيم التى لا يحيط بها عدّ ولا إحصاء ، أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصى ، وعمل بطاعته ، وآثر الآخرة على الدنيا ، آثر النفيس الآجل على الخسيس العاجل .

ونحو الآية قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة**

---

(١) الآيتان : ٥٧ ــ ٥٨ من سورة يونس .

الدنيا فى الآخر إلا متاع ﴾[١]وقوله ــ تعالى ــ : **﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾**[٢] وقوله ــ تعالى ــ : **﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾**[٣] .

وفى مسلم وصحيح الترمذى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[٤] وعن سهيل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء »[٥] رواه الترمذى وقال : حديق حسن الصحيح .

وعن أبى هريرة أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا أن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله ــ تعالى ــ وما والاه ، وعالماً ومتعلماً »[٦] رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ قال : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل »[٧] ــ متفق عليه ــ

قال الشاعر :

تمتع من الأيام إن كنت حازما ... فإنك فيها بين ناه وآمر

إذا **أبقت** الدنيا على المرء دينه ... فما فاته فيها فليس بضائر

فلا تزن الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن رَقَّ من جناح لطائر

فلم يرضى بالدنيا ثواباً لمحسن ... ولا رضى الدنيا عقابا لكافر

وقال آخر :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن ... إذاً لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة ... وقد شبعت فيها بطونُ البهائم

---

(١) الآية : ٢٦ من سورة الرعد .

(٢) من الآية : ٧٧ من سورة النساء .

(٣) الآية : ٨٣ من سورة القصص .

(٤) صحيح مسلم (كتاب الزهد والرقائق) ج ٤ ص ٢٢٧٢ رقم ٢٩٥٦/١

وانظر سنن الترمذى (كتاب الزهد) باب : الدنيا سجن المؤمن .. الخ ج ٣ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ رقم ٢٤٢٦ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) انظر سنن الترمذى (كتاب الزهد) باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله ج ٣ ص ٣٨٣ رقم ٢٤٢٢

(٦) الترمذى (كتاب الزهد) باب : هوان الدنيا على الله ج ٣ ص ٣٨٤ رقم ٢٤٢٤ نلفظ : « إن الدنيا ملعونة .. » .

(٧) انظر صحيح البخارى (كتاب الرقاق) ج ٨ ص ١٢٧ باب : الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك .

وانظر صحيح مسلم (كتاب الشعر) ج ٤ رقم ٢٢٥٦/٢ ص ١٧٦٨ وانظر أرقام ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم إنكم فى العذاب مشتركون** ﴾ .

أخبر ــ سبحانه وتعالى ــ : أن من عشا عن ذكره ، أى : تعامى عن ذكره ، وهو كتابه الذى أنزله على رسوله ، فأعرض عنه ، وعَمِى عنه ، وعشت بصريته عن فهمه وتدبره ومعرفته مراد الله منه ، قيض الله له شيطانا ، عقوبة له بإعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه فى الإقامة ولا فى المسير ، ومولاه وعشيره الذى هو بئس المولى وبئس العشير ، يمنعه من الحلال ، ويبعثه على الحرام ، وينهاه عن الطاعة ، ويأمره بالمعصية .

﴿ **وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ .

ثم أخبر ــ سبحانه ــ أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى . كما قال ــ تعالى ــ : ﴿**وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون**﴾[1] وكما قال ــ سبحانه ــ : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً** ﴾[2] .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾. أى : حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين كنت لى فى الدنيا ، أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق وأغويتنى ، حتى هلكت ، وبئس القرين إنت لى اليوم ، قال ــ تعالى ــ : ﴿**ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا** ﴾[3] .

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره فى مصيبته حصل له بالتأسى نوع تخفيف وتسلية ، أخبر الله ــ سبحانه ــ أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشركين فى العذاب وإن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه . وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مَسْلاة فمنع الله ــ سبحانه ــ

---

(١) الآية : ٣٠ من سورة الأعراف .
(٢) الآيات : ١٠٣ ــ ١٠٦ من سورة الكهف .
(٣) الآيات : ٢٧ ــ ٢٩ من سورة الفرقان .

هذا القدر من الراحة على أهل النار ، فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون** ﴾ . فلا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شىء من العذاب ، إذ كل منهم الحظ الأوفر منه .ه

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين . فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ .

وقد وصفهم الله ــ سبحانه ــ فيما سلف بالعَشَا ووصفهم بالعمى والصمم فقال ــ تعالى ــ : مسليا رسوله ﷺ : ﴿ **أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين** ﴾ أى : ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا ، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون** ﴾ أى : فإن نذهب بك ــ أيها الرسول ــ بين أظهر المشركين بموت أو غيره فإنا منهم منتقمون ، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذبة لرسلها ، أو نرينك الذى وعدناك من الظفر بهم وإعلائك عليهم فإنا عليهم مقتدرون ، فنظهرك عليهم ونخزيهم بيديك وأيدى المؤمنين .

قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ، وهو قول أكثر المفسرين وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ أى : خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه الحق ، وما يهدى إليه هو الحق المفض إلى صراط مستقيم ، والموصل إلى جنات النعيم ، والخير الدائم المقيم ، قال ــ تعالى ــ : ﴿ **والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾[1] وقال ﷺ فى حجة الوداع : « تركت فيكم ما إن تمكستم به لن تضلوا بعده أبدا : كتاب الله وسنتى »[2] .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين : فإنه أى : القرآن لشرف لك ولقومك وقيل : معناه ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ أى : لتذكير لك ولقومك وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾[3] .

---

(١) الآية : ١٧٠ من سورة الأعراف .
(٢) انظر المستدرك للحاكم (كتاب العلم) باب خطبته ﷺ وآله وسلم ح ١ ص ٩٣
(٣) الآية : ١٠ من سورة الأنبياء .

قال القرطبى : والصحيح أنه شرف لمن يحمل به كان من قريش أو من غيرهم وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وسوف تسألون** ﴾ أى : عن الشكر عليه ، قاله مقاتل وقال ابن جريج : أى : تسألون أنت ومن معك على ما آتاك وتسألون عما عملتم فيه .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ . أى : واسأل أمم من أرسلنا من قبلك من الرسل : هل حكمنا بعبادة غير الله ؟ وهل جاء ذلك فى ملة من الملل ؟ والمراد بهذا الاستشهاد بيان إجماع المرسلين على التوحيد ، والتنبيه إلى أن **محمداً** ﷺ ليس ببدع من بين الرسل فى الأمر به ، حتى يُكذبَّ ويعادى له ، قال ــ تعالى ــ : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[1] .

طرف من قصة موسى عليه السلام

قال ــ تعالى ــ :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

معـانى المفـردات

﴿ الآيات ﴾ : هى المعجزات ، ﴿ وملئه ﴾ أى : أشراف قومه ، ﴿ أخذناهم ﴾ أى : أخذ قهر بالعذاب ، فأرسلنا عليهم الجراد والقمَّل والضفادع ، ﴿ الساحر ﴾ أى : العالم الماهر ، ﴿ بما عهد عندك ﴾ أى : بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب الذى أنزل بنا .. ﴿ ينكثون ﴾ أى : ينقضون العهد . ﴿ من تحتى ﴾ أى : من تحت قصرى وبين يدى فى جناتى . ﴿ مهين ﴾ أى : ضعيف حقير . ﴿ يبين ﴾ أى : يفصح عن كلامه . ﴿ والاسورة ﴾ واحدها : سوار ، كأخمرة وخمار . قال مجاهد : كانوا إذا سودوا رجلاً سّوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة سيادته . ﴿ مقترنين ﴾ أى : مقرونين به يعينونه على من خالفه . ﴿ فاستخف قومه ﴾ أى : استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلال فاستجابوا له . ﴿ آسفونا ﴾ : أغضبونا . ﴿ سلفا ﴾ أى : قدوة لمن بعدهم من الكفار . ﴿ مثلاً ﴾ أى : حديثا عجيب الشأن يسير سير المثل ، فيقول الناس : مثلكم مثل قوم فرعون .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الكفار طعنوا فى نبوة محمد ﷺ لكونه فقيرا عديم المال والجاه ــ بين هنا أن موسى بعد أن أورد المعجزات الباهرة أورد فرعون هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال : إنى غنى كثير المال ، عظيم الجاه ، فلى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، وموسى فقير مهين وليس له بيان ولا لسان ، وهذا شبيه بما قاله كفار قريش .

وأيضاً فإنه لما قال : واسأل من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ذكر هنا قصةُ موسى وعيسى ــ عليهما السلام ــ وهما أكثر الأنبياء أتباعاً وقد جاءا بالتوحيد ولم يكن فيما جاءا به إباحة اتخاذ آلهة من دون الله .

ثم ذكر ــ سبحانه ــ أن فرعون قال : هلا ألقى إلى موسى مقاليد الملك فطوق بسوار من ذهب إن كان صادقاً ؟ زعماً منه أن الرياسة من لوازم الرسالة ، أو جاء معه جمع من الملائكة يعينونه على من خالفه ، وأعقب هذا بأن ذكر أنه حين دعا قومه إلى تكذيب موسى فى دعواه الرسالة أطاعوه لضلالهم وغوايتهم ، ولما لم تُجد فيه المواعظ غضبنا وانتقمنا منهم ، وجعلناهم قدوة للكافرين وضربنا به الأمثال للناس ليكونوا عبرة لهم ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[1] .

التفسير

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين** ﴾ أى : ولقد بعثنا موسى ومعه حججه الدالة على صدقه إلى فرعون وأشراف قومه ، كما أرسلناك إلى هؤلاء المشركين من قومك ، فقال لهم : إنى رسول من قِبَلِ الله إليكم .

فطالبوه بإحضار البينة على صدق دعواه كما يدل على ذلك قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون** ﴾ أى : فلما جاءهم بالأدلة على صدق قوله فيما يدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الآلهة ، إذا فرعون وقومه يضحكون من تلك المعجزات استهزاء وسخرية ، يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل وأنهم قادرون عليها .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها** ﴾ أى : وما أرينا فرعون وملأه حجة من حججنا الدالة على صدق رسولنا فى دعواه الرسالة إلا كانت أعظم من سابقتها فى الحجية عليهم .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وأخذناهم بالعذاب** ﴾ أى : على تكذيبهم بتلك الآيات ، وهو كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين** ﴾[٢] .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ أى : لكى يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان بالله وطاعته ، والتوبة مم هم عليه مقيمون من المعاصى . ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر .

﴿ **وقالوا يا أيها الساحر** ﴾ أى : وقالوا : يا أيها العالم الماهر ، وكانوا يسمون العلماء سحرة ، ويوقرونهم ويعظمونهم ، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم . وقد **يكونوا** نادوه بذلك فى تلك الحال لشدة شكيتهم ، وفرط حماقتهم .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ادع لنا ربك بما عهد عندك** ﴾ أى : ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب بما

---

(٢) الآيات : ١٣٠ ــ ١٣٣ من سورة الأعراف .

أخبرتنا من عهده إليك إن آمنا به كشفه عنا . ﴿ **إننا لمهتدون** ﴾ أى : أنا لمؤمنون بما جئت به إن حدث ذلك كما جاء فى سورة الأعراف من قولهم : ﴿ **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك** ﴾[1] .

ثم يبين ــ سبحانه ــ ما حدث منهم بعد دعوة موسى وكشف العذاب فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون** ﴾ أى : ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا .

ثم أخبر ــ سبحانه ــ عن تمرد فرعون وعتوه وعناده فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين . ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين** ﴾ .

قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إلى موسى فجمع قومه فقال : ﴿ **يا قوم أليس لى ملك مصر** ﴾ أى : لا ينازعنى فيه أحد ، ﴿ **وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾ يعنى أنهار النيل ، قال قتادة : كانت جناناً وأنهاراً تجرى من تح قصورة .

﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ عظمتى وقوتى وضعف موسى عن مقاومتى لما فيه من فقر وعِىٍّ وحصر ؟ .

﴿ **أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾ أى : بل أنا ــ ولا شك ــ خير بمالى من السعة فى المال والجاه والملك العريض من هذا المهين الحقير الذى لا يكاد يفصح عما يريد ، إذ كان فى لسانه حُبسة فى صغره ، فعابه بها ، وهو لا يعلم أن الله استجاب سؤله حين قال : ﴿ **وأحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى** ﴾[1] فحل عقدة لسانه كما جاء فى قوله ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[2] .

والأشياء الخِلْقية لا يعاب المرء بها ولا يذم ، لكنه أراد الترويج على رعيته وصدهم عن الإيمان به .

ونحو الآية قوله : ﴿ **فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾[3] .

---

(١) من الآية : ١٣٤ من سورة الأعراف .
(٢) الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ من سورة طه .
(٣) من الآية : ٣٦ من سورة طه .
الآيات : ٢٣ ــ ٢٦ من سورة النازعات .

ثم ذكر شبهة مانعة له من الرياسة ، وهى أنه لا يلبس لبس الملوك فلا يكون رئيسا ولا رسولا لتلازمهما - فى زعمه - فقال : **﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أى :** هلا ألقى عليه أسورة من ذهب ، وأنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزى أهل الشرف . قال مجاهد : كانوا إذا سوَّروا رجلاً سوروه بسوارين وطوقوه بطوق ذهب علامة لسيادته . فقال فرعون : هلا ألقى رب موسى عليه أساوره من ذهب إذ كان صادقاً **﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾** يعنى : فيمشون معه : قاله مجاهد ، وقال ابن عباس : يعاونونه على من خالفه ، والمعنى : هلا ضم إليه الملائكة التى يزعم أنها عند ربهُ حتى يتكثر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه ، فيكون ذلك أهيب فى القلوب . فأوهم قومه أن رسل الله ينبغى أن يكونوا كرسل الملوك فى الشاهد ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية ، وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى ـــ مع تفرده ووحدته ـــ من فرعون ـــ مع كثرة أتباعه ـــ وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعواناً .

قوله ـــ تعالى ـــ : **﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** .

قال ابن الأعرابى : المعنى : فاستجهل قومه ﴿ فأطاعوه ﴾ لخفة أحلامهم وقلة عقولهم . وقيل : استخف قومه ، أى : وجدهم خفاف العقول . قال القرطبى : وهذا لا يدل على أنهم يجب أن يطيعوه ، فلابد من إضمار بعيد تقديره : وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . **﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾** أى : خارجين عن طاعة الله ، ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق الغوىّ .

ثم ذكر جزاءهم على ما اجترحوا من تكذيب رسوله على وضوح الدليل وظهور الحق ، فقال ـــ تعالى ـــ : **﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾** أى : فلما أغضبونا بعنادهم وعظيم استكبارهم وبغيهم فى الأرض انتقمنا منهم بعاجل عذابنا ، فأغرقناهم جميعاً .

وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعززوا به ـــ وهو الماء ـــ فى قوله : **﴿ وهذه الأنهار تجرى من تحتى ﴾** وفى هذا إشارة إلى أن من تعزز بشىء دون الله أهلكه الله به .

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب وابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له »[1] وقرأ : **﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾** .

وقال عمر بن درّ : يا أهل المعاصى : لا تغتروا بطول حلم الله عنكم واحذروا أسفه ، فإنه قال : **﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾** .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/١٤٥ حديث عقبة بن عامر .

وقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **فجعلناهم سلفا ومثلاً للآخرين** ﴾ قال مجاهد : ﴿ **سلفاً** ﴾ : إخباراً لأمة محمد ﷺ ﴿ **ومثلاً** ﴾ أى : عبرة لهم . وقال قتادة : ﴿ **سلفاً** ﴾ إلى النار ، ﴿ **ومثلاً** ﴾ عظة لمن يأتى بعدهم . أى : فجعلناهم قدوة لم يعمل عملهم من أهل الضلال ككفار قومك ﴿ **ومثلاً للآخرين** ﴾ أى : وعبرة وموعظة لمن يأتى بعدهم من الكافرين ، كما قال ـــ تعالى ـــ بعد إهلاك فرعون فى سورة النازعات : ﴿ **إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾[1] .

طرف من قصة المسيح عليه السلام

۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

معانى المفردات

﴿ **مثلاً** ﴾ أى : حجة وبرهاناً . ﴿ **يَصِدُّون** ﴾ ـــ بكسر الصاد ـــ أى : يصيحون ويرتفع لهم ضجيج وفرح ﴿ **جدلاً** ﴾ أى : خصومة بالباطل . ﴿ **خصمون** ﴾ أى : شديدوا الخصومة مجبولون على اللجاج وسوء الخلق . ﴿ **مثلاً** ﴾ أى : أمراً عجيباً ﴿ **منكم** ﴾ أى : من بعضكم . ﴿ **يخلفون** ﴾ أى : يخلفونكم فى الأرض . ﴿ **علم** ﴾ أى **علامة وشرط من أشراطها** . ﴿ **فلا تمترن** ﴾ أى : فلا تشكنّ . ﴿ **البينات** ﴾ : المعجزات ، ﴿ **الحكمة** ﴾ : الشرائع المحكمة التى لا يستطاع نقضها ولا إبطالها .

---

(١) الآية : ٢٦ من سورة النازعات .

المناسبة وإجمال المعنى

روى محمد بن إسحاق فى السيرة « أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فى المسجد مع الوليد بن المغيرة ، فجاء النضر بن الحارث وجلس معهم — وفى المسجد غير واحد من رجالات قريش — فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾[1] الآيات ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزِّبَعرى التيمى وجلس ، فقال له الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال ابن الزبعرى : أما — والله — لو وجدته لخصمته ، سلوا محمداك : أَكُلُّ ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن **الزبعرى** ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك **لرسول الله** ﷺ فقال : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته ، وأنزل الله — عز وجل — ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾[2] أى : عيسى وعزير ومن عبد معهما ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلال أربابا من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى — عليه السلام — وأنه يعبد من دون الله ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلاً** ﴾ الآية ..

التفسير

قوله — تعالى — : ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه تصدون . وقالوا آآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾ . ورد فى سبب نزول هذه الآيات أقاويل للمفسرين : قال قتادة : لما قال الله — تعالى — ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلٰها كما **اتخذ** النصارى عيسى بن مريم إلٰها . **وقال مجاهد : إن قريشا قالت : إن محمدا يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى - عيسى - ، فأنزل الله هذه الآية .**

وقال ابن عباس : أراد به مفاخرة عبدالله بن الزّبعرى مع النبى ﷺ فى شأن عيسى ، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد اللهبن الزبعرى السَّهمى حالة كفره لما قالت له قريش : إن محمداً يتلو ﴿ **إنكم وما تعبدون**

---

(١) الآية : ٩٨ وما بعدها من سورة الأنبياء .
(٢) الآية : ١٠١ من سورة الأنبياء .

من دون الله حصب جهنم ﴾ الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليه ، قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عزيراً أَفَهُمَا من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم ، وذلك معنى قوله : ﴿ **يصدون** ﴾ فأنزل الله ــ تعالى ــ : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾ .

قال القرطبي : لو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ، لأنه قال : ﴿ **وما تعبدون** ﴾ ولم يقل : ومن تعبدون ، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين ..

وروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش : « يامعشر قريش لا خير فى أحد يعبد من دون الله » قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبداً نبياً وعبداً صالحاً ، فإن كان كما تزعم فقد كان يعبد من دون الله ! فأنزل الله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون** ﴾ أى : يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . قال الجوهرى : صدَّ يصدُّ صديداً ، أى : ضجَّ . فارتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وسروراً ، كما يرتفع لغط القوم وجلبهم إذا أعيوا فى حجة ، ثم فتحت عليهم . ﴿ **وقالوا أآلهتنا خير أم هو** ﴾ أى : إن آلهتنا ليست خيراً من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب جهنم ، كان أمر آلهتنا أهون .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾ أى : ما ضربوا لك المثل إلا لأجل الجدل والغلبة فى القول ، لا لإظهار الحق ، فإن قوله : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله** ﴾ إنما ينطلق على الأصنام والأوثان ، ولا يتناول عيسى والملائكة ، ولكنهم قوم ذوو لَدَد فى الخصومة .

وفى سنن الترمذى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »[1] ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾ .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

بين ــ سبحانه ــ أن عيسى بن مريم عبد من عبيده الذى أنعم عليهم بالنبوة والرسالة فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى اسرائيل** ﴾ أى : ما عيسى بن مريم إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة وروادفها ، فهو رفيع المنزلة ، علىُّ القدر ، وقد جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب ، وشرفناه بالنبوة ، وصيرناه عبرة صائرة ، تفتح للناس باب التذكر والفهم ، وليست مخالفة العادة بموجبة لعبادته ــ كما يزعم النصارى ــ بل مذكرة بعبادة الخالق الحكيم .

---

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب التفسير) تفسير سورة الزخرف جـ ٥ صـ ٥٥ رقم ٣٣٠٦ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون** ﴾ قال السدى : ﴿ **ولو نشاء لجعلنا منكم** ﴾ **أى : بدلا منكم ﴿ ملائكة ﴾ يكونون خلفا عنكم . وقال مجاهد : « ملائكة يعمرون** الأرض بدلاً منكم . قال القرطبي : والمعنى : لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة ، وليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدون ، أو يقال لهم بنات الله ، ومعنى ﴿ **يخلفون** ﴾ : يخلف بعضهم بعضا ، قاله ابن عباس .

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم** ﴾ .

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة : إنه خروج عيسى ـــ عليه السلام ـــ وذلك من أعلام الساعة ، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك « وإنه لَعَلَمٌ للساعة » (بفتح العين واللام) أى : أمارة .

وفى صحيح مسلم « فبينما هو ـــ يعنى المسيخ الدجال ـــ إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين (أى حُلتين) واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جُما كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِه إلا مات ونَفَسُه حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدَّ (قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين) فيقتله »[١] . الحديث وروى خالد عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « الأنبياء إخوة لعِلّات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، إنه ليس بينى وبينه نبى ، وإنه أول نازل فيكسر الصليب ، وليقتلن الخنزير ، ويقاتل الناس على الإسلام »[٢] .

وثبت فى صحيح مسلم : « لينزلنّ عيسى بن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتُتركنّ القِلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحْناء والتباغض والتحاسد ، ولَيَدْعُوَن إلى المال فلا يقبله أحد »[٣] **وعنه قال : رسول الله ﷺ** : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم »[٤] والأحاديث فى ذلك كثيرة متواترة .

وقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **فلا تمترن بها** ﴾ أى : فلا تشكون فيها ، يعنى فى الساعة وقال السدى :

---

(١) انظر صحيح مسلم (كتاب الفتن) باب ذكر الدجال وصفته وما معه جـ ٤ صـ ٢٢٥٣ رقم ٢١٣٧/١١٠ وهو جزء حديث طويل .
(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ٤٠٦ فقد رواه عن أبى هريرة ، وهو جزء حديث .
(٣) صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ جـ ١ صـ ١٣٦ رقم ١٥٥/٢٤٣ من رواية أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ
(٤) صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب نزول عيسى بن مريم ... الخ جـ ١ صـ ١٣٦ رقم ١٥٥/٢٤٤ من رواية أبى هريرة أيضا .

فلا تكذبون بها ، ولا تجادلون فيها ، فإنه كائنة لا محالة . وقوله : ﴿ **واتبعون** ﴾ أى : فى التوحيد وفيما أبلغكم عن الله .

وقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أى : طريق قويم إلى الله ـــ تعالى ـــ أى : إلى جنته .

وقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ أى : لا تغتروا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين ، فإن شرائع الأنبياء لم تختلف فى التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة ونار . ﴿ **إنه لكم عدو مبين** ﴾ أى : إنه مظهر لعدوانه لكم .

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدون هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم** ﴾ .

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات** ﴾ قال ابن عباس : ويريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخلق الطير بإذن الله والمائدة وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البينات هنا الإنجيل . ﴿ **قال قد جئتكم بالحكمة** ﴾ أى : النبوة . قاله السدى . وقيل : الإنجيل . ﴿ **ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه** ﴾ قال مجاهد : من تبديل التوراة وقيل : بين لهم بعض الذى اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه .

قال القرطبى : وقيل : إن بنى اسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء عن أمر دينهم ، وأشياء من أمر دنياهم ، فبين لهم أمر دينهم . قال مقاتل : وهو كقوله : ﴿ **ولأحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم** ﴾[1] يعنى ما أحل فى الإنجيل مما كان محرما فى التوراة : كلحم الإبل والشحم من كل حيوان ، وصيد السمك يوم السبت .

وقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ أى : اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده ، وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلٰهاً أو ابن إلٰه ؟ قال ـــ تعالى ـــ ﴿ **وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾[2] .

وقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وأطيعون** ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره . ﴿ **إن الله هو ربى وربكم**

---

(١) من الآية : ٥٠ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٧٢ من سورة المائدة .

فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أى : عبادة الله وحده صراط مستقيم ، وما سواه معوج لا يؤدى بسالكه إلى الحق .

قوله — تعالى — : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم** ﴾ .

قال الكلبى ومقاتل فى هذه الآية ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾ فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا فى عيسى ، فقالت النسطورية : هو ابن الله ، وقالت اليعاقبة : هو الله ، وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله .

ولقد ذكر الله سبحانه هذه الفرق ورد على افترائهم فقال — تعالى — : ﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون** ﴾[1] .

وقال — تعالى — : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾[2] .

وقال — تعالى — : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾[3] . وقال هٰهنا — جل شأنه — : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم** ﴾ أى : فويل للذين كفروا وأشركوا من عذاب يوم القيامة كما قال — تعالى — فى سورة مريم ﴿ **فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ، أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون . إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون** ﴾[4] .

---

(١) الآيات : ٦٨ — ٧٠ من سورة يونس .
(٢) الآية : ١٧ من سورة المائدة .
(٣) الآية : ٧٣ من سورة المائدة .
(٤) الآيات : ٣٧ : ٤٠ من سورة مريم .

مبحث فى علامات الساعة

قال فضيلة الشيخ محمد أنور شاه الكَشميرى الهندى فى كتابه « التصريح بما تواتر فى نزول المسيح » تحقيق فضيلة الشيخ : عبد الفتاح أبو غدة ما ملخصه : أربع آيات من كتاب الله فى نزول عيسى — عليه السلام —

الآية الأولى :

﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلاًومن الصالحين ﴾ من سورة آل عمران ٤٥ — ٤٦

الآية الثانية :

﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعْمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلاً ﴾ من سورة المائدة : ١١٠

أخرج ابن جرير بسنده عن ابن زيد فى قوله — تعالى — : **﴿ يكلم الناس فى المهد وكهلاًومن الصالحين ﴾** قال : قد كلمهم عيسى — عليه السلام — فى المهد ، وسيكلمهم إذا قتل الدجالَ وهو يومئذ كهل .

الآية الثالثة :

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ من سورة النساء : ١٥٧ : ١٥٩ .

ومعنى الآية كما أورد المفسّرون : ما من أهل الكتاب أحد من الموجودين منهم عند نزول عيسى — عليه السلام — إلا ليؤمنن عند **نزوله** بأنه عبد الله ورسوله ، قبل موته — عليه السلام — .

الآية الرابعة :

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى اسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك والسدى فى قوله — تعالى — : **﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها**

واتبعون ﴾ : إنه خروج عيسى ابن مريم ، وذلك من أعلام الساعة ، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وأبو العالية وأبو مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : ﴿ **وإنه لَعَلَمٌ للساعة** ﴾ ـــ بفتح اللام والعين ـــ أى : إن سيدنا عيسى ـــ عليه السلام ـــ (والمراد نزوله) أمارة وعلامة على قرب وقوع الساعة .

وأما الأحاديث النبوية الشريفة التى أوردها المؤلف للدلالة على هذه العلامات الكبرى من علامات الساعة فهى :

الحديث ١ ـــ عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً ، فيكسرُ الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويقبض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها »[1] ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾ رواه البخارى ومسلم .

شرح مفردات الحديث

(ليوشكن) أى : ليقربنّ ، وتوكيد الفعل بالنون يؤكد حتمية نزوله ـــ عليه السلام ـــ .

(حكماً عادلاً) أى : حاكماً عادلاً . قال الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » ٦ : ٣٥٦ : « والمعنى : أنه ـــ عليه السلام ـــ ينزل حكماً بهذه الشريعة فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ ، بل يكون عيسى ـــ عليه السلام ـــ حاكماً من حكام هذه الأمة .

(فيكسر الصليب ويقتل الخنزير) قال الحافظ ابن حجر : أى : يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة ، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه . ويأمر بإعدام الخنزير ، مبالغة فى تحريم أكله . وفيه توبيخ عظيم للنصارى الذين يدّعون أنهم على طريقة عيسى ـــ عليه السلام ـــ ثم يستحلون أكل الخنزير ، ويبالغون فى محبته » .

(ويضع الحرب) قال الحافظ ابن حجر : أى : لشيوع الإسلام وانقراض الكفر ، وفى رواية : (ويضع الجزية) أى : عن أهل الكتاب ، ويحملهم على الإسلام ، ولا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل ، فيصير الدين واحداً ، فلا يبقى أحد من أهل الذمة ليؤدى الجزية . قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده أن عند

---

(١) انظر صحيح مسلم (كتاب الايمان) باب نزول عيسى بن مريم .. الخ جـ ١ صـ ١٣٥ رقم ١٥٥/٢٤٢ فقد رواه عن أبى هريرة إلى قوله : « حتى لا يقبله أحد » فقط .
ورواه البخارى فى (كتاب الأنبياء) من صحيحه جـ ٤ صـ ٢٠٥ واللفظ له .

الإمام أحمد من وجه آخر عن أبى هريرة « وتكون الدَّعوى ــ أى : الملة ــ واحدة » . (فتح البارى ٦ : ٣٥٦) .

(ويفيض المال) أى : يكثر المال جداً ، وسبب كثرته : نزول البركات ، وتوالى الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم ، وحينئذ تخرج الأرض كنوزها ، وتقل الرغبات فى اقتناء المال لعلم الناس بقرب الساعة .

(حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها) وذلك أنهم حينئذ لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة ، لا بالتصدق بالمال لعدم الانتفاع به إذ لا أحد يقبله . قال العلامة فضلُ الله التُّوربشِتِي ــ رحمه الله تعالى ــ : لم تزل السجدة الواحدة فى الحقيقة كذلك ، أى : خيراً من الدنيا وما فيها ، وإنما أراد بذلك أن الناس يرغبون فى أمر الله ، ويزهدون فى الدنيا ، حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها .

قال الحافظ ابن حجر : قال ابن الجوزى : إنما تلا أبو هريرة هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله ﷺ : « حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس وشدة ايمانهم ، وإقبالهم على الخير ، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا ، والسجدة تطلق ويراد بها الركعة .

قال العلماء : والحكمة فى نزول عيسى دون غيره من الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ من وجوه :

الأول : الرد على اليهود فى زعمهم أنهم قتلوه ، فبين الله ــ تعالى ــ كذبهم ، وأنه هو الذى يقتلهم .

الثانى : نزوله ــ عليه السلام ــ لدنو أجله ، ليدفن فى الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت فى غير التراب .

الثالث : أنه ــ عليه السلام ــ دعا الله ــ تعالى ــ لما رأى صفة محمد ﷺ وأمته : أن يجعله منهم ، فاستجاب الله دعاءه ، وأبقاه حين ينزل فى آخر الزمان ، ويجدد أمر الإسلام ، فيوافق نزوله خروج الدجال فيقتله ــ عليه السلام ــ .

الرابع : تكذيبه النصارى وإظهار زيفهم فى دعواهم الأباطيل ، وقتله ــ عليه السلام ــ لهم .

الخامس : أن خصوصيته بالأمور المذكورة إنما كانت لقول النبى ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى

ابن مريم ، ليس بيني وبينه نبي »[١] ورسول الله أخص الناس به ، وأقربهم إليه لأن عيسى ــ عليه السلام ــ بشر بأن رسول الله ﷺ يأتى من بعده ، ودعا الخلق إلى تصديقه والاتباع له .

الحديث ٢ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم »[٢] رواه البخارى ومسلم .

وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٦ : ٣٥٨ : « وعند أحمد من حديث جابر فى قصة الدجال ونزول عيسى : « وإذا همْ بعيسى ، فيقال : تقدَّم يا روح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصل بكم »[٣] ولابن ماجه : فى حديث أبى أمامة : « وكلهم ــ أى : المسلمون ــ ببيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح ، قد تقدم ليصلى بهم ، إذ نزل عيسى ، فرجع الإمام ينكص ليتقدم عيسى ، فيقف عيسى بين كتفيه ثم يقول : تقدم فإنها لك أقيمت »[٤] .

وقيل فى معنى : (وإمامكم منكم) : وهو منكم ، أى : عيسى ، فوضع الاسم المظهر موضع الاسم المضمر ، تعظيماً له ، وتربية للمهابة فى النفوس .

الحديث ٣ ــ عن جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ــ قال ــ : فينزل عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ فيقول أميرهم : تعال فصلّ ، فيقول : لا ، إنَّ بعضكم على بعض أمراء ، تَكرِمَةَ الله هذه الأمة »[٥] رواه مسلم وأحمد فى مسنده .

الحديث ٤ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده : ليهلَّن ابن مريم بفجّ **الروجاء** حاجاً أو معتمراً ، أو ليثْنِيَنَّهما »

وأخرجه أحمد فى « مسنده » ولفظه : « ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الخنزير ويمحو الصليب ، وتُجمَعُ له الصلاة ، ويعطى المال حتى لا يتبل ويضع الخراج ، وينزل الروَّحاء ، فيحج منها أو يعتمر أو

---

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب الأنبياء) باب : واذكر فى الكتاب مريم جـ ٤ صـ ٢٠٣ مع اختلاف يسير فى اللفظ .
وانظر صحيح مسلم (كتاب الفضائل) باب فضائل عيسى ــ عليه السلام ــ فقد أورده من رواية أبى هريرة بثلاث روايات جـ ٤ صـ ١٨٣٧ أرقام ٢٣٦٥/١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

(٢) انظر صحيح مسلم (كتاب الايمان) باب نزول عيسى بن مريم ... الخ جـ ١ صـ ١٣٦ رقم ١٥٥/٢٤٤ وانظر صحيح البخارى (كتاب الأنبياء) جـ ٤ صـ ٢٠٥

(٣) انظر مسند الإمام أحمد (مسند جابر) جـ ٣ صـ ٣٦٨

(٤) انظر حديث أبى أمامة فى سنن ابن ماجة فى (كتاب الفتن) جـ ٢ صـ ١٣٦١ رقم ٤٠٧٧

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى (كتب الايمان) باب : نزول عيسى بن مريم ... الخ جـ ٢ صـ ١٩٣ ، ١٩٤
وانظر مسند الإمام أحمد (مسند جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ) جـ ٣ صـ ٣٨٤

يجمعهما »[1] وتلا أبو هريرة — رضى الله عنه — : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾ .

شرح مفردات الحديث

معنى (ليهُلنَّ) : ليرفعن صوته بالتلبية قائلاً : لبيك اللهم لبيك ، محرما بحج أو بعمرة ومعنى (ليثْنِينَّهما) : أو ليجمعنَّ بين الحج والعمرة (وفج الروحاء) : مكان فى طريق النبى ﷺ من المدينة إلى بدر . قيل : يبعد عن المدينة ستة أميال .

الحديث ٥ — عن النواس بن سمعان — رضي الله عنه — قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداةٍ فخفَّض فيه ورفَّع ، حتى ظننّاه فى طائفة النخل ، فانصرفنا من عند رسول الله ﷺ ثم رحنا إليه ، فعرف ذلك فينا ، فقال : « ما شأنكم ؟ » فقلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة **فخفضت** فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل ، فقال : « غير الدجال أخوفنى عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم . إنه شاب قطط ، عينه طائفة كأنى أُشبهه بعبد العُزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، وإنه خارج خَلَّة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا » .

قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه فى الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ، يوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » .

قلنا : يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره .

قلنا : يا رسول الله ، وما إسراعه فى الأرض ؟ قال : «كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى ، وأسبغه ضروعاً ، وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحِلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسب النخل ، ثم يدعو رجلاً شابا ممتلئا شبابا ، فيضربه فيقطعه جزلتيْن رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقىَّ

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى فى (كتاب الايمان) باب إهلال النبى ﷺ وهلاله جـ ٢ صـ ٩١٥ رقم ١٢٥٢/٢١٦ وانظر مسند أحمد (مسند أبى هريرة — رضى الله عنه —) جـ ٢ صـ ٢٤٠ ، صـ ٢٧٢ ، صـ ٥٤٠ ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه فى (كتاب الفتن) باب فتنة الدجال جـ ١٥ صـ ١٤٤ رقم ١٩٣٤٢

دمشق ، بين مهرودتين ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحلّ لكافر يجد ريح نَفسِه إلا مات ، ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ فيقتله ، ثم يأتى عيسى قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويُحدّثهم بدرجاتهم فى الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى ــ عليه السلام ــ أنّى قد أخرجت عباداً لى لا يدَانِ لأحدٍ بقتالهم ، فحرّز عبادى إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أولهم على بحيرة طبريَّة فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويُحصَرُ نبىُ الله عيسى ــ عليه السلام ــ وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبى الله عيسى ــ عليه السلام ــ وأصحابه إلى الله ــ تعالى ــ فيرسل الله عليهم النَّغف فى رقابهم ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبى الله عيسى ــ عليه السلام ــ وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبى الله عيسى ــ عليه السلام ــ وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

ثم يرسل الله مطراً لا يكُنُّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلفة .

ثم يقال للأرض أنبتى ثمرتك ، وردّى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك فى الرِّسْلِ حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس ، واللِقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة » . أ هـ[1] .

« رواه مسلم ــ واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، وأحمد فى سنده ، والحاكم فى المستدرك » .

شرح مفردات الحديث

قوله ﷺ : « فخفض فيه ورفّع » قال النووى فى شرح « مسلم » : فى معناه قولان :

الأول : أن معنى (خفّض منه) : حقّره ، ومعنى (رفّع) فيه عظّمه وفخّمه ، فمن تحقيره قوله ﷺ : إنه أعور العين ، وإنه أهون على الله من ذلك ، وإنه لا يقدر على قتل أحد إلا ذلك الرجل ثم يعجز عنه ، وإنه يضمحل أمره ويُقتل بعد ذلك .

---

(١) انظر حديث مسلم بشرح النووى (كتاب الفتن) باب : ذكر الدجال جـ ١٨ صـ ٦٣ ــ ٧٠ ورواه أبو داود فى سننه باختصار ، انظر كتب الفتن والملاحم جـ ٤ صـ ١١٧ رقم ٤٣٢١ ورواه الترمذى فى (أبواب الفتن) من سننه ، باب : ما جاء فى فتنة الدجال جـ ٤ صـ ٥١٠ ــ ٥١٤ رقم ٢٢٤٠ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : فتنة الدجال ... الخ جـ ٢ صـ ١٣٥٦ ــ ١٣٥٩ رقم ٤٠٧٥ .

ومن تفخيمه وتعظيم فتنته قوله ﷺ : ليس بين يدى الساعة خلق أعظم من الدجال ، وما من نبى إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذَّاب ، وتلك الأمور الخارقة للعادة التى تقع له .

والقول الثانى : فى معنى (خفّض فيه ورفّع) : أنه خفّض من صوته لكثرة ما تكلم من شأن الدجال ، فخفّض بعد طول الكلام والتعب ليستريح ثم رفّع ليبلغ صوته كل أحد .

ومعنى (حتى ظنناه فى طائفة النخل) أى : فى ناحية بساتين النخل بقرب المدينة كأنه حضر الآن .

ومعنى (غير الدجال أخوفنى عليكم) قال ذلك ﷺ حين شاهد استعظام الصحابة لأمر الدجال ، وشدة خوفهم من الافتتان به ، وقد بين ﷺ فى حديث آخر من هذا الذى يخاف علينا منه أكثر من الدجال ، فقال فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده بسند جيد عن أبى ذر — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « غير الدجال أخوف على أمتى من الدجال : الأئمة المُضلُّون »[1] أى : الدعاة إلى الضلالات ! وما أكثرها وأكثرهم ، وأكثر من يتبعهم فى هذه الأيام وما بعدها نسأل الله السلامة والعون .

وقوله ﷺ فى وصف الدجال : (وإنه شاب قطط ، عينه طافئة) أى : شديد جُعودة الشعر مكروهة ، وعينه طافئة ، أى : ذهب نورها وهى العين اليمنى الممسوحة ، ويروى طافية — بالياء — أى : مرتفعة ناتئة فتكون العين اليسرى كما حققه النووى فى شرح مسلم .

(عبد العزيز بن قطن) : رجل من خزاعة ، هلك فى الجاهلية .

« فمن يدركه منكم فليقرأ فواتح سورة الكهف » قال العلامة الطيبى : المعنى : أن قراءة المؤمن لأحد هذين العشرين من أول السورة أو آخرها — كما ورد فى رواية أخرى — أمان من فتنة الدجال ، كما أمنت تلك الفِتْية من فتنة دقيانوس الجبار .

ومعنى « خَلَةً بين الشام والعراق » : طريق بين الشام والعراق .

(فعاث يمينا وعاث شمالا) أى : أفسد عن يمينه وأفسد عن شماله مسرعاً فى إفساده أيما إسراع .

وقوله ﷺ : « يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم .. » قال المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة : إنه — أى : الدجال — يأخذ بأسماع الناس وأبصارهم ، حتى يخيل إليهم أن الزمان قد استمر على حالة واحدة ، إسفار بلا ظلام ، وصباح بلا مساء ، يحسبون أن الليل لا يمد عليهم رواقه ، وأن الشمس لا تطوى عنهم ضياءها فيبقون فى حيرة والتباس من امتداد الزمان ، ويدخل عليهم دواخل باختفاء الآيات الظاهرة فى اختلاف الليل والنهار ، فأمرهم ﷺ أن يجتهدوا عند مصادمة تلك الأحوال ،

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد (حديث أبى ذر — رضى الله عنه —) جـ ٥ صـ ١٤٥ .

ويقدروا لكل صلاة قدرها ، إلى أن يكشف الله عنهم تلك الغمة ، هذا الذى اهتدينا إليه من التأويل ، والله الموفق لإصابة الحق وهو حسبنا ونعم الوكيل » انتهى .

وقوله : (فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً ، وأمره خواصر) أى : ترجع عليهم آخر النهار ماشيتهم التى تذهب بالغدوة أوائل النهار إلى مراعيها أعلى ما كانت سناماً وهذا كناية عن كثرة السمن فى السارحة والماشية التى عندهم .

وقوله : « فيصبحون ممحلين » قد أصابهم المحل ، وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ والعشب .

وقوله : «كيعاسب النحل ، مفردها : يعسوب ، وهو أمير النحل متى صار تبعته جماعته ، والمراد تتبع كنوز تلك الأرض الدجال كما تتبع النحل يعاسيبها طاعة ومتابعة .

وقوله : « فيقطعه جزلتين رمية الغرض » : جزلتين ، أى : قطعتين ، والغرض : الهدف . ومعنى رمية الغرض : أنه حينما يقطع الدجال بالسيف ذلك الشاب قطعتين تتباعد القطعتان عن بعضهما كبعد رمية السهم عن القوس . « ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك » أى : يقبل ذلك الشاب على الدجال يتلألأ وجهه يضىء ، ضاحكاً ساخراً من الدجال ، يقول : كيف يصلح هذا إلٰهاً ؟ » .

وقوله : « بين مهروزتين .. » معناه : ينزل عيسى — عليه السلام — فى حُلّتين لابسهما ، وفيهما صفرة خفيفة . فيكون على جمال فى الملبس إلى جماله — عليه السلام — فى الخِلقةَ والذات .

وقوله : « فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات » أى : لا يمكن ولا يقع الكافر يجد ريح نَفَس عيسى — عليه السلام — إلا مات . قال علامة القرطبى : يعنى أن الله — سبحانه — قوّى نَفَس عيسى — عليه السلام — حتى يصل إلى إدراك بصره ، ومعناه أن الكفار لا يقربونه ، وإنما يهلكون عند رؤيته ووصول نفسه إليهم ، حفظ من الله — سبحانه — وإظهار لكرامته .

وقوله : « ونفسه حيث ينتهى طرفه » أى : حيث ينتهى امتداد بصره الشريف . « باب لدّ » : بلدة معروفة الآن فى فلسطين قريبة من بيت المقدس . « بحيرة طبرية » : عند جبل الطور .

وقوله : « فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم » أى : فيستجيب الله لهم ويرسل عليهم النغف فى رقابهم ، وهو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم .

وقوله : « فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة » : يعنى أن القهر الإلٰهى الغالب على كل شىء يفرسهم دفعة واحدة فيصبحون موتى .

وقوله : « كأعناق البخت » : نوع من الجمال طوال الأعناق ، أى : يرسل الله طيراً كبيرة طويلة الأعناق .

وقوله : « فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلفة » أى : كالمرآة فى صفائها ونظافتها . « العصابة » أى : الجماعة « بقحفها » أى : بقشرها لشدة كبرها . « الرِّسْل » أى : اللبن الحليب . « الفئام » : الجماعة الكثيرة . « الفخذ » : الجماعة أقل من القبيلة . « تهارج الحمر » أى : يتسافدون فى الأرض تسافد الحمير ، أى : يجامع الرجال علانية النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير . (الهْرج) : الجماع وهذا نموذج لشيوع الفساد والفواحش حينذاك .

الحديث ٦ ــ عن حذيفة بن أسيد الغفارى ــ رضى الله عنه ــ قال : اطّلع النبى ﷺ علينا ، ونحن نتذاكر فقال : « ما تذاكرون ؟ » قالوا : نذكر الساعة ، قال : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »[١] .

« أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه » .

شرح مفردات الحديث

« عشر آيات » أى : عشر علامات . وقد جاءت العلامات العشر هنا معطوفة بالواو ، والواو لمطلق الجمع ، فلا تفيد أنها ستقع بالترتيب المذكور هنا ، وهذه الآيات كما قال الطيبى ــ رحمه الله تعالى ــ ونقله عنه الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » ٣٣/١١ : أمارات وعلامات للساعة إمّا على قربها ، وإمّا على حصولها وقيامها ، فمن أمارات قربها : الدجال : ونزول عيسى ــ عليه السلام ــ ويأجوج ومأجوج ، والخسف . ومن أمارات قيامها : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار تحشر الناس .

قوله ﷺ فى علامة : (الدُّخان)

قال الصحابى الجليل عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنه ــ : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، ويدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد . أى : كالرأس المشوى على الجمر .

رواه ابن جرير فى تفسيره ، وقد جاء تفسير (الدخان) بهذا المعنى عن عدد من أجلاء الصحابة ، رفعه بعضهم إلى النبى ﷺ كأبى سعيد الخدرى وأبى مالك الأشعرى ــ رض الله عنهما ــ .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الفتنة وأشراط الساعة) جـ ١٨ صـ ٢٧ ، ٢٨ وانظر سنن أبى داود (كتاب الملاحم) باب أمارات الساعة جـ ٤ صـ ١١٤ ، ١١٥ رقم ٤٣١١

ورواه الترمذى فى سننه ف (كتاب الفتن) باب ما جاء فى الخسف جـ ٤ صـ ٤٤٧ رقم ٢١٨٣ وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) بابالآيات جـ ٢ صـ ١٣٤٧ رقم ٤٠٥٥ .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره ١٣٩/٤ بعد أن ذكر تفسيره مسنداً إلى ابن عباس : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين ــ رضى الله عنهم أجمعين ــ مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن ــ قال الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾[1] أى : بين واضح يراه كل أحد ﴿ **يغشى الناس** ﴾ أى : فيغشاهم ويعمهم ﴿ **هذا عذاب أليم** ﴾ أى : يقال ذلك لهم تقريعاً وتوبيخاً ، أو يقول ذلك بعضهم لبعض . ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ أى : يقول الكافرون ذلك عندما إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله ــ جلت عظمته ــ ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين** ﴾[2] . انتهى .

معنى قوله ﷺ : (الدَّجَّال)

ذكر الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) ٨٦/١٣ ، ٨٩ ــ ٩٠ مما رواه ــ خاصة ــ الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى عنه قال : إن النبى ﷺ قال : « إنه يهودى ، وإنه لا يولد له ولد ، وإنه لا يدخل المدينة ولا مكة »[3] رواه مسلم . وإن عينه اليمنى عوراء ، جاحظة ، لا تخفى ، كأنها نُخاعة ــ أى : نُخامة ــ فى حائط مجصَّص ، وعينه اليسرى كأنه كوكب درى ــ يعنى من شدَّة اتقادها ــ معه من كل لسان ومعه صورة الجنة خضراء يجرى فيها الماء ، وصورة النار سوداء » . رواه أحمد فى مسنده ٧٩/٣ . « وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى كلما خرجا من قرية دخل أوائله » رواه أبو يعلى والبزَّار .

وذكر الحافظ موطن خروجه فقال : وسيكون خروجه من قبل المشرق جزماً ، ثم جاء فى رواية أنه يخرج من خُراسان ، أخرج ذلك أحمد والحاكم ، وفى رواية : أنه يخرج من أصبهان ، أخرجها مسلم .

« ويخرج أولاً فيدعى الإيمان والصلاح ، ثم يدّعى النبوة ، ثم يدّعى الألوهية » .

ثم قال الحافظ ــ رحمه الله ــ : قال الخطابى : فإن قيل : كيف يجوز أن يجرى الله الآية على يد الكافر فإن إحياء الموتى آية عظيمة من آيات الأنبياء ، فكيف ينالها الدجال ، وهو كذاب مفتر يدعى الربوبية ؟ فالجواب : أنه على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق فى دعواه ، وهو أنه أعور ، مكتوب على جبهته : كافر ، يقرؤه كل مسلم . فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر ، إذ لو كان إلٰهاً لأزال ذلك عن وجهه ، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة ، فلا يشتبهان » .

---

(١) الآية : ١٠ من سورة الدخان .
(٢) الآية : ٢٧ من سورة الأنعام .
(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الفتن وأشراط الساعة) باب : ذكر ابن صياد جـ ١٨ صـ ٥٠ ــ ٥١ .

ثم قال الحافظ ابن حجر بعد كلام الخطابى هذا : « وفى الدجال دلالة بينة ــ لمن عقل ــ على كذبه ، لأنه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر ، مع ظهور الآفة به من عور عينيه ــ أى : عيبهما ــ فإذا دعا الناس إلى آية ربهم فأسوأ حال من يراه من ذوى العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوى خلق غيره ويعدِّله ويحسِّنه ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض ، صور نفسك وعدِّلها ، وأزل عنها العاهة ، فإن زعمت أن الرب لا يحدث فى نفسه شيئا فأزل ما هو مكتوب بين عينيك ! » .

ثم قال الحافظ ــ رحمه الله ــ : « وقال القاضى عِيَاض : فى هذه الأحاديث حُجة لأهل السنة فى صحة وجود الدجال ، وأنه شخص معين ، يبتلى الله به العباد ، ويقدره على أشياء كإحياء الميت الذى يقتله ، وظهور الخصب ، والأنهار والجنة والنار واتباع كنوز الأرض له فتنبت ، وكل ذلك بمشيئة الله ــ تعالى ــ ثم يعجزه الله فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ثم يبطل أمره ، ويقتله عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ .

وقال الشيخ أبو بكر ابن العربى : الذى يظهر على يد الدجال من الآيات : من إنزال المطر والخصب على من يصدقه ، والجدْب على من يكذبه ، واتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ، ومياه تجرى ، كل ذلك محنة من الله واختبار ، ليهلك المرتاب ، وينجو المتقين ، وذلك كله أمر مخوف ، ولهذا قال ﷺ : « لا فتنة أعظم من فتنة الدجال »[1] . وكان ﷺ يستعيذ منها فى صلاته تشريعاً لأمته ﷺ : انتهى .

وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفى : قلتُ للشافعى : كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . فقال الشافعى : قصَّر الليث ــ رحمه الله ــ بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ، ويطير فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة » انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : وقد أخبر الله ــ تبارك وتعالى ــ فى كتابه ، ورسوله ﷺ فى السنة المتواترة عنه : أنه لا نبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذَّاب أفاك ، دجّال ضال مضل ، ولو تخرّق ــ أى : أتى بالخوارق الظاهرة ــ وشعبذ ــ أى : عمل عملاً فيه خداع للعين والفكر ــ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجات ــ الحيل ــ فكلها محال وضلال عند أولى الألباب . كما أجرى الله ــ سبحانه وتعالى ــ على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة ، والأقوال

---

(١) هذا جزءحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الفتن) باب فتنة الدجال ... الخ جـ ٢ صـ ١٣٥٩ رقم ٤٠٧٧ وهو حديث أبى أمامة الطويل .

الباردة ، ما علم كل ذى لب وفهم وحِجًى : أنهما كاذبان ضالّان ــ لعنهما الله تعالى ــ وكذلك كل مدّع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيخ الدجال .

فكل واحد من هؤلاء الكذّابين يخلق الله ــ تعالى ــ معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون يكذب من جاء بها . وهذا من تمام لطف الله ــ تعالى بخلقه ، فإنهم ــ أى : أولئك المدّعين الكذّابين ــ بضرورة الواقع : لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل ارتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون هؤلاء فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم ، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم** ﴾[1] وهذا بخلاف حال الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ، ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يؤيَّدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ــ فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً مادامت الأرض والسموات ــ .

معنى قوله : (والدّابة)

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٧٤ : « هذه الدابة تخرج من آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يُخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك . قال ــ تعالى ــ فى سورة النمل : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾[2] . قال الآروسى فى « روح المعانى » ٦/٣١٤ : «أى : تكلمهم بأنهم لا يتيقنون بآيات الله ــ تعالى ــ الناطقة بمجىء الساعة ومباديها ، أو بجميع آياته التى من جملها تلك الآيات . وقصارى ــ أى : غاية ــ ما أقول فى هذه الدابة أنها دابة عيمة ذات قوائم ، ليست من نوع الإنسان أصلاً ، يخرجها الله ــ تعالى ــ آخر الزمان من الأرض وتخرجُ وفى الناس مؤمن وكافر .

قوله : (وطلوع الشمس من مغربها) .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذاك حين ﴿ **لا ينفع نفساً**

---

(١) الآيتان : ٢٢١ ، ٢٢٢ من سورة الشعراء .
(٢) الآية : ٨٢ من سورة النمل .

إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ﴾[١] ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتابعانه ولا يطويانه ! ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقحته ــ أى : ناقته ــ فلا يطعمه ! ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه ــ أى : يطينه ويصلحه ــ فلا يسقى فيه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه ــ أى : إلى فمه ــ فلا يطعَمُها[١] » انتهى . وصدق سيدنا رسول الله ﷺ فإن الله ــ تعالى ــ يقول : ﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾[٢] .

أما قوله : ﴿ **ونزول عيسى ابن مريم** ﴾ أى : ينزله الله من السماء حاكماً بالإسلام كما سبق ذكره .

قال شيخنا الكوثرى ــ رحمه الله تعالى ــ فى كتابه « نظرة عابرة فى مزاعم من ينكر نزول عيسى قبل الآخرة » ص ٤٤ : « والتواتر فى حديث نزول عيسى ــ عليه السلام ــ تواتر معنوى حيث تشاركت أحاديث كثيرة جداً ــ بينها الصحاح والحسان بكثرة ــ فى التصريح بنزول عيسى مع اشتمال كل حديث منها على معانى أخرى ، وهذا مالا يستطيع إنكاره أحد ممن شم رائحة علم الحديث .

وقال العلامة الآلوسى فى تفسيره بعد هذا : « ثم إن عيسى ــ عليه السلام ــ حين ينزل باقٍ على نبوته السابقة لم يعزل عنها بحال ، لكنه لا يتعبد بها لنسخها فى حقه وحق غيره ، وتكليفه بأحكام هذه الشريعة أصلاً وفرعاً ، فلا يكون إليه ــ عليه السلام ــ وحى ولا نصب أحكام ، بل يكون خليفة لرسول الله ﷺ وحاكماً من حكام ملته بين أمته بما علمه فى السماء قبل نزوله من شريعته ــ عليه الصلاة والسلام ــ كما فى بعض الآثار » .

وقوله : ﷺ : (ويأجوج ومأجوج)

كل واحد من هذين اللفظين : اسم لقبيل وأمة من الناس ، مسكنهم فى أقصى الشرق ، وما يقال فى خلقتهم وصفاتهم مما يخيل إلى سامعه أنهم ليسوا من طبيعة البشر ولا على خلقة الناس فكذب لا أصل له . قال الحافظ ابن كثير فى « تفسيره » سورة الكهف : « هم من سلالة آدم ــ عليه السلام ــ كما ثبت فى « الصحيحين » : أن الله ــ تعالى ــ يقول : ــ أى : يوم القيامة ــ يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ ــ أى : وما مقدارهم ؟ ــ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها !

---

(١) من الآية : ١٥٨ من سورة الأنعام .

والحديث رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب التفسير) تفسير سورة الأنعام جـ ٣ صـ ٨٥ من صحيح البخارى بحاشية السندى . وانظر (كتاب الفتن) من نفس المصدر جـ ٤ صـ ١٥٦ .

(٢) من الآية : ١٨٧ من سورة الأعراف .

فقال : ـــ أى : رسول الله ﷺ ـــ : إن فيكم أمتيْن ما كانتا فى شىء إلا كثَّرتاه : يأجوج ومأجوج »[١] . انتهى .

وقد اتفقت كلمة القرآن الكريم والحديث الشريف على كثرة يأجوج ومأجوج وشدة إفسادهم .

وقوله ﷺ : « وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » .

أى : تسوقهم إلى مكان حشرهم وهو أرض بلاد الشام . وقد ثبت ذلك فى عدة أحاديث أوردها الحافظ ابن حجر فى فتح البارى منها : عن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « أول أشراط الساعة : نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب »[٢] رواه البخارى وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « تُبعَثُ نار على أهل المشرق فتحشرهم إلى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ـــ من القيلولة »[٣] .

والمراد أن النار تلازمهم فتكون معهم حيث كانوا فى الليل والنهار ـــ ويكون لها ما سقط منهم وتخلّف ، وتسوقهم سوق الجمل الكسير ، أى : تسوقهم ببطء . قال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ١٢/٨ رواه الطبرانى ورجاله ثقات ، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى مستدرك الحاكم ٥٤٨/٤ .

ثم قال الحافظ ابن حجر : « ووجه الجمع بين هذه الأخبار أن كون النار تخرج من قعر عدن ، لا ينافى حشرها من المشرق إلى المغرب ، وذلك أن ابتداء خروجها من قعر عدن ، فإذا خرجت انتشرت فى الأرض كلها . والمقصود بقوله ﷺ : « تحشر الناس من المشرق إلى المغرب » إرادة تعميم الحشر لا خصُوص المشرق والمغرب ، وأما جعل الغاية إلى المغرب فلأن الشام بالنسبة إلى المشرق : مغرب » انتهى بزيادة وتصرف .

وقد تضمنت هذه الأحاديث بيان مكان خروج النار ، وبيان وقت خروجها وكيفية سوقها للناس ، ومنتهاها بهم . وجاء فى حديث آخر بيان هال الناس حين يساقون إلى المحشر فى الشام .

روى البخارى فى صحيحه ومسلم فى صحيحه أيضاً عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن النبى ﷺ قال : « يحشر الناس ـــ أى : إلى الشام ـــ قبل قيام الساعة ، وهم أحياء على ثلاث طرائق ـــ أى : على ثلاث أحوال ـــ راغبين راهبين ، واثنان على بعير ، هذا معطوف على محذوف تقديره : واحد على بعير ،

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب : قوله لآدم : أخرج .. الخ جـ ١ صـ ٥٥ رقم ١٣٣ من رواية أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ .

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (كتاب الفتن) باب : خروج النار جـ ٤ صـ ١٥٦

(٣) انظر مجمع الزوائد (باب خزوج النار) جـ ٨ صـ ١٢ .

واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، أى : أنهم يتعاقبون على ركوب البعير الواحد فيركب بعضهم ويمشى بعضهم ، وتحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسى معهم حيث أمسوا ، أى : تلازمهم كل الملازمة إلى أن يصلوا إلى مكان الحشر ، نسأل الله السلامة والعون » .

الحديث ٧ ـــ عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن النبى ﷺ قال : « ليس بينى وبينه نبى ـــ يعنى عيسى بن مريم ـــ وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، بين ممصَّرتين ، كأنّ رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيخ الدجال ، فيمكث فى الأرض أربعين سنة ، ثم يتوُفى ، فيصلى عليه المسلمون »[1] . رواه أبو داود واللفظ له ، وابن أبى شيبة ، وأحمد فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن جرير كما فى « الدر المنثور » وصححه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى من نزول عيسى ـــ عليه السلام ـــ ٣٥٧/٦ .

الحديث ٨ ـــ عن مجمَّع بن جارية الأنصارى ـــ رضى الله عنه ـــ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يقتل ابن مريم الدجال بباب لُدّ »[2] رواه الترمذى ، وقال : هذا حديث صحيح ، ورواه أحمد فى مسنده بأربعة طرق ، وفى بعض طرقه « إلى جانب باب لُدّ » .

الحديث ٩ ـــ عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم حكماً مقسطاً وإماماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »[3] رواه ابن ماجه واللفظ له ، وأحمد فى « مسنده » .

الحديث ١٠ ـــ عن عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى قال : فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لا علم لى بها ،

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتب الملاحم) باب خروج الدجال جـ ٤ صـ ١١٧ ، ١١٨ رقم ٤٣٢٤ ورواه ابن أبى شيبة بأطول من هذا فى مصنفه فى (كتاب الفتن) باب : ما ذكر فى فتنة الدجال جـ ١٥ صـ ١٥٨ ، ١٥٩ .

وانظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (ذكر البيان بأن عيسى بن مريم إذا نزل يقاتل الناس على الإسلام جـ ٨ صـ ٢٨٩ ، ٢٩٠ رقم ٦٧٨٢

مسند أحمد (مسند أبى هريرة) جـ ٢ صـ ٤٠٦

(٢) سنن الترمذى (كتاب الفتن) باب : ما جاء فى قتل عيسى بن مريم الدجال جـ ٤ صـ ٥١٥ رقم ٢٢٤٤ وانظر مسند أحمد ١٣ ـــ ٤٢ ، ٢٢٦/٤ .

(٣) سنن ابن ماجه (كتب الفتن) باب : فتنة الدجال ... الخ جـ ٢ صـ ١٣٦٣ رقم ٤٠٧٨ وانظر صحيح البخارى (كتاب المظالم والغضب ... الخ) جـ ٣ صـ ١٧٨ با (كسر الصليب وقتل الخنزير) .

وانظر مصنف ابن أبى شيبة (كتب الفتن) باب : ما ذكر فى فتنة الدجال جـ ٥ صـ ١٤٤ رقم ١٩٣٤١ .

فردوا الأمر إلى موسى ، فقال : لا علم لى بها ، فردوا الأمر إلى عيسى فقال : أمَّا وجبتها (أى : ساعة قيامها) فلا يعلمها أحد إلا الله ــ تعالى ــ ذلك وفيما عهد إلىّ ربى ــ عز وجل ــ أن الدجّال خارج ، قال : ومعي قضيبان (أى : سيفان لطيفان دقيقان) فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله ، حتى أن الحجر والشجر ليقول : يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله . قال : فيهلكهم الله ــ تعالى ــ ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطأون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، ثم يرجع الناس إلىَّ فيشكونهم ، فأدعو الله عليهم فيهلكهم الله ــ تعالى ــ ويميتهم ، حتى تجوى الأرض ، (أى : تُنتن) من نتن ريحهم ، قال : فيُنزل الله ــ عز وجل ــ المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر .

قال عبد الله بن أحمد : قال أبى : ذهب علىَّ هاهنا شيء لم أفهمه ، كأديم . وقال يزيد ــ يعنى ابن هارون ــ : « يُنسَفُ الجبال وتمد الأرض من الأديم » . ثم رجع إلى حديث هُشَيْم قال : « ففيما عهد إلىّ ربى ــ عز وجل ــ أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المُتِمّ التى لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً »[1] .

رواه أحمد فى « مسنده » واللفظ له ، والحاكم فى المستدرك وقال : صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ، ووافقه الذهبى على ذلك ، وأقره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى من نزول عيسى ــ عليه السلام ــ وأخرجه ابن ماجه ، وابن أبى شيبة وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه والبيهقى كما فى الدر المنثور .

قال الحافظ ابن كثير « فى تفسيره » ٢/٢٧٣ : « إنما ردوا الأمر إلى عيسى ــ عليه السلام ــ فتكلم على أشراطها ، لأنه ينزل فى آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ ، ويقتل المسيخ الدجال ، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه ، فأخبر ــ عليه السلام ــ بما أعلمه الله ــ تعالى ــ به » .

الحديث ١١ ــ عن سمرة بن جُندب ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ فى حديث طويل سرده سمرة فى خطبة خطبها ، قال : ثم سلم ــ يعنى ﷺ بعد فراغه من صلاة كسوف كان للشمس ــ فحمد الله وأثنى عليه ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وشهد أنه عبده ورسوله ، ثم قال :

---

(١) سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : فتنة الدجال وخروج عيسى ... الخ جـ ٢ صـ ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ رقم ٤٠٨١ .
قال فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات ، ورواه الحاكم وقال : هذا صحيح الإسناد .
ورواه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبدالله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ) جـ ١ صـ ٣٧٥ .
وانظر المستدرك للحاكم (كتاب التفسير) تفسير سورة الأنبياء جـ ٢ صـ ٣٨٤ ، ٣٨٥ وصححه الحاكم والذهبى .
وأخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه فى (كتاب الفتن) باب فتنة المسيخ الدجال جـ ١٥ صـ ١٥٨ رقم ١٩٣٧١ .
وانظر مجمع الزائد (كتاب الفتن) باب : ما جاء فى الدجال جـ ٧ صـ ٣٤١ .

« يا أيها الناس إنما أنا بشر ورسول الله ، فأذكّركُم الله ــ تعالى ــ إن كنتم تعلمون أنى قصَّرت عن شىء من تبليغ رسالات ربى لما أخبرتمونى حتى أبلغ رسالات ربى كما ينبغى لها أن تبلغ ، وإن كنتم تعلمون أنى قد بلغت رسالات ربى لما أخبرتمونى » فقام الناس ، فقالوا : نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك ، ونصحت لأمتك ، وقضيت الذى عليك ، ثم سكتوا .

فقال رسول الله ﷺ : أما بعد : فإن رجالاً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض ، وإنّهم كذَبوا ، ولكن آيات من آيات الله يفتن بها عباده لينظر من يحدث من توبة ، والله لقد رأيت منذ قمت أصلى ما أنتم لاقون فى دنياكم وآخرتكم .

وإنه ــ والله ــ لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً آخرهم الأعور الدجال ، ممسوح العين اليسرى ، كأنه عين أبى يحيى ــ لشيخ من الأنصار ــ وإنه متى خرج فإنه يزعم أنه الله ، فمن آمن به وصدقه واتبعه فليس ينفعه صالح من عمل سلف ، ومن كفر به وكذّبه فليس يعاقب بشىء من عمل سلف .

وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس ، وإنه يحصر المؤمنين فى بيت المقدس ، فيتزلزلون زلزالاً شديداً فيصبح فيهم عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ فيهزمه الله وجنوده ، حتى إنَّ جذِمَ الحائط (أى : أصل الحائط) وأصل الشجرة لينادى : يا مؤمن هذا كافر يستتر بى فتعال فاقتله . ولن يكون ذلك حتى تروا أموراً يتفاقم شأنها فى أنفسكم تساءلون بينكم هل كان بينكم ذكر لكم منها ذكراً ؟ وحتى تزول جبال عن مراسيها ، ثم على أثر ذلك القبض (يعنى الموت وقيام الساعة) وأشار بيده » قال : أى : راوى الحديث عن سمرة : ثم شهدت خطبة أخرى . فذكر هذا الحديث ما قدمها ولا أخرها : (أى : شهدت خطبة أخرى لسمرة فذكر هذا الحديث أيضاً كما سمعته منه أول مرة ما قدم فيه كلمة ولا أخّرها)(١) .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ووافقه الذهبى على تصحيحه . وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، وأخرجه الطبرانى بلفظ المسند ، وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والطحاوى فى « معانى الآثار » والبيهقى فى « السنن الكبرى » وابن جرير فى « تهذيب السنن والآثار » وسعيد ابن منصور فى « سننه » وأبو يعلى فى «مسنده» وأخرجه أبو داود والنَسَائى والترمذى وابن ماجه فى سننهم ،

---

(١) انظر المستدرك للحاكم (كتاب الكسوف) باب : صلاة الكسوف ركعتان .. الخ . جـ ١ صـ ٣٣٠ فقد أورده الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فى التلخيص .

وانظر مسند أحمد (حديث سمرة بن جندب) جـ ٥ صـ ١٦ ورواه ابن خزيمة فى صحيحه فى (كتاب الصلاة) باب : استحباب استحداث التوبة عند كسوف الشمس .. الخ جـ ٢ صـ ٣٢٥ ــ ٣٢٧ .

ورواه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) باب : ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن الكسوف يكون لموت العظماء من أهل الأرض جـ ٤ صـ ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

وانظر تفسير الطبرى جـ ٣ صـ ٢٠٣ وكنزل العمال ٣٨٨٥٨ .

والبزّار فى مسنده ، والبخارى فى « خلق أفعال العباد » مختصراً ، وبعض ألفاظه يتحد مع ما عند مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة .

الحديث ١٢ ـــ عن عبد الله بن عمر ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف تهلك أمة أنا أولهَا وعيسى ابن مريم آخرُها ؟ » رواه الحاكم كما فى « كنز العمال » وصححه السيوطى فى « الدر المنثور » وقال المناوى فى « التيسير » : رواه النسائى وغيره .

الحديث ١٣ ـــ عن عبد الرحمن بن جبير بن نُفير الحضرمى ، عن أبيه التابعى الجليل جبير بن نُفير قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يُجزِىَ الله أمة أنا فى أولها ، وعيسى فى آخرها »[١] أخرجه ابن أبى شيبة والحكيم الترمذى والحاكم ـــ وصحح ـــ وحسَّنه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى .

الحديث ١٤ ـــ عن حذيفة بن أسيد ـــ رضى الله عنه ـــ قال أبو الطفيل الليثى : كنت بالكوفة ، فقيل : قد خرج الدجال ! فأتينا حذيفة بن أسيد ، فقلت : هذا الدجال قد خرج ! فقال : اجلس ، فجلست ، فنودى : إنها كذبةُ صبَّاغ (أى : كذبة كذَّاب) فقال حذيفة : إن الدجال لو خرج فى زمانكم لرمته الصبيان بالحذَف (صغار الحصى) ولكنه يخرج فى نقص من الناس ، وخفة من الدين ، وسوء ذات بين ، فيرد كلّ منهل ، وتطوى له الأرض طىَّ فروة الكبش حتى يأتى المدينة فيغلب على خارجها ، ويمنع داخلها ، ثم جبل إيلياء (مدينة بيت المقدس) فيحاصر عصابة من المسلمين .

فيقول لهم الذى عليهم : ما تنظرون بهذه الطاغية أن تقاتلوه حتى تلحقوا بالله أو يفتح لكم ؟ فيأتمرون أن يقاتلوه إذا أصبحوا فيصبحون ومعهم عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، ويهزم أصحابه . حتى إن الشجر والحجر والمدر يقول : يا مؤمن هذا يهودى عندى فاقتله .

قال : وفيه ثلاث علامات : هو أعور ، وربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه : (كافر) يقرؤه كل مؤمن أمى وكاتب . ولا يُسخَّر له من المطايا إلا الحمار ، فهو رجس على رجس ، ثم قال : أنا لغيرَ الدجال أخوف علىّ وعليكم ! فقلنا : ما هو ؟ قال : فتن كأنها قطع الليل المظلم . قال : فقلنا : أى الناسِ فيها شر ؟ قال : كل خطيب مِصقع (أى : بليغ اللسان يخدع ببلاغته العقول والألباب ، فيريها الباطل حقّاً والحق باطلاً) . وكل راكب مُوضع (أى : مسرع ، ويريد من يسرع للفتنة) قال : فقلنا : أى الناس

---

(١) الحديث أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول فى (الأصل الثانى والعشرين والمائة فى أن خير هذه الأمة أولها وآخرها) صـ ١٥٦ .

فيها خير ؟ قال : كل غنى خفىّ (أى : غنى النفس معتزل عن الناس) قال : فقلت : ما أنا بالغنى ولا بالخفىّ ، قال : فكن كابن اللَّبون : لا ظهر فيُركب ، ولا ضرع فيُحلب »[1] .

أخرجه الحاكم وصححه ــ كما فى الدر المنثور ــ وأقره الذهبى فى « تلخيص المستدرك » واللبون : الناقة ذات اللبن ترضعه ولدها . وابن اللبون ولدها الصغير ، فهو لصغره لا يمكن أن يركب عليه لقتال ونحوه . ولا أن يكون فيه لبن ليحلب فيتغذى بلبنه . فيبقى بعيداً عن أن يستعان به فى أمر من أمور الفتنة . والحديث موقوف لفظاً على حذيفة بن أسيد ــ رضى الله عنه ــ لم يسند إلى النبى ﷺ ولكنه مرفوع حكماً ، إذ لا يَعلَمُ ما فيه إلا من جانب وحى النبوة .

الحديث ١٥ ــ عن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أدرك منكم عيسى ابن مريم فليقرئه منى السلام »[2] أخرجه الحاكم وصححه كما فى « الدر المنثور » .

الحديث ١٦ ــ عن واثلة بن الأسقع ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تقوم الساعة حتى تكون عشر آيات : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، والدجال ، والدخان ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تحشر الذَّرَّ والنّمل »[3] (هذا كناية عن حشرها الناس جميعا ضعيفهم وقويهم) .

والحديث رواه الطبرانى والحاكم وصححه ووافقه الذهبى فى تلخيص المستدرك ، ورواه ابن مردويه كما فى « كنز العمال » .

الحديث ١٧ ــ عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « لن تهلك أمة أنا فى أولها ، وعيسى ابن مريم فى آخرها ، والمهدى فى وسطها »[4] .

رواه النسائى ، وأبو نعيم فى « أخبار المهدى » والحاكم وابن عساكر فى تاريخيهما وهو حديث حسن كما فى « السراج المنير » للعزيزى .

والمراد بالوسط : ما قبل الآخر ، لأن نزول عيسى ــ عليه السلام ــ لقتل الدجال يكون فى زمن المهدى ، ويصلى سيدنا عيسى ــ عليه السلام ــ خلفه كما جاءت به الأخبار .

---

(١) انظر فتح البارى جـ ١٣ صـ ٩٢ (كتاب الفتن) .

(٢) المستدرك للحاكم (كتاب الفتن والملاحم) جـ ٤ صـ ٥٤٥

(٢) المستدرك للحاكم (كتاب الفتن والملاحم) جـ ٤ صـ ٤٢٨ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح **الإسناد** ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(٤) انظر كنز العمال جـ ١٤ صـ ٢٦٦ رقم ٣٨٦٧١ .

الحديث ١٨ — عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى خفة من الدين ، وإدبار من العلم ، وله أربعون يوماً ، يسيحها فى الأرض ، اليوم منها كالسنة ، واليوم منها كالشهر ، واليوم منها كالجمعة ثم سائر أيامه كأيامكم هذه .

وله حمار يركبه ، عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً ، فيقول للناس : أنا ربكم ، وهو أعور . وإن ربكم ليس بأعور . مكتوب بين عينيه : (كافر) ك ا ف ر — مهجّاة — يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب .

يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة حرمهما الله — تعالى — عليه وقامت الملائكة بأبوابها . ومعه جبال من خبز والناس فى جهد إلا من تبعه . ومعه نهران أنا أعلم بهما منه ، نهر يقول : الجنة ، ونهر يقول : النار ، فمن أُدخل الذى يسميه الجنة فهو النار ، ومن أدخل الذى يسميه النار فهو الجنة ، ويبعث الله معه **شياطين تكلم الناس ، ومعه فتنة عظيمة : يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس ، ويقتل نفسا ثم يحييها فيما يرى الناس ولايسلط على غيرها من الناس ويقول : يأيها الناس : هل يفعل هذا إلا الرب - عز وجل - ؟ فيفر المسلمون الى جبل الدخان بالشام ، فيأتيهم فيحاصرهم ، فيشتد حصارهم ويجهدهم جهدا شديدا .**

ثم ينزل عيسى ابن مريم من السَّحَر ، فيقول : يأيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث ؟ فيقولون : هذا رجل جنّى فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم — عليه السلام — فتقام الصلاة فيُقال : تقدم ياروح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصل بكم ، فإذا صلى صلاة الصبح خرجوا إليه فحين يراه الكذاب ينماث كما ينماث الملح فى الماء (أى يختفى ويتوارى كما يذوب الملح فى الماء) فيمشى إليه فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادى : ياروح الله هذا اليهودى ، فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله[1] . رواه أحمد فى مسنده وصححه الحاكم فى المستدرك وقال الذهبى فى « تلخيص المستدرك » : هو على شرط مسلم ورجاله ثقات .

الحديث ١٩ — عن عمران بن حُصين — رضى الله عنه — أن رسولَ الله ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ، ظاهرين على من ناوأهم [أى : عاداهم] حتى يأتى أمر الله — تبارك وتعالى — **وينزل عيسى عليه السلام رواه أحمد فى مسنده ورجاله ثقات[2] .**

الحديث ٢٠ — عن حذيفة بن اليمان — رضى الله عنه — قال : إن أصحاب النبى ﷺ كانوا يسألون عن الخير ، وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أدركه ، وإنى بينما أنا مع رسول الله ﷺ ذات

---

(١) انظر مسند أحمد جـ ٣ صـ ٣٦٧ وانظر المستدرك للحاكم (كتاب الفتن والملاحم) جـ ٤ صـ ٥٣٠ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فى التلخيص فقال : على شرط مسلم .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد (مسند عمران بن حصين) حـ ٤ صـ ٤٢٩
وانظر المستدرك للحاكم (الفتن والملاحم) جـ ٤ صـ ٤٥٠

يوم قلت : يارسول الله أرأيت هذا الخير الذى أعطانا الله ، هل بعده من شر كما كان قبل شر ؟ قال : نعم . قلت : فما العصمة منه ؟ قال : السيف . قلت : وهل للسيف من بقية ؟ قال : هدنة على دخن . قلت : يارسول الله ما بعد الهدنة ؟ قال : دعاة للضلالة . فإن لقيت لله يومئذ خليفة فى الأرض فالزمه وإن أخذ مالك وضرب ظهرك ، فإن لم يكن خليفة فاهربن فى الأرض حدَّ هربك حتى يدركك الموت وأنت عاضٌّ على أصل شجرة ، قلت : يارسول الله فما بعد دعاة الضلالة ؟ قال : خروج الدجال : قلت : يارسول الله وما يجىء الدجال ؟ قال : يجىء بنار ونهر ، فمن وقع فى ناره وجب أجره ، وحُط وزره ، ومن وقع فى نهره وجب وزره وحط أجره .

قلت يارسول الله فما بعد الدجال ؟ قال عيسى ابن مريم قلت : فما بعد عيسى ابن مريم ؟ قال : لو أن رجلاً أنتج فرساً لم يركب مهرها حتى تقوم الساعة[1] رواه ابن أبى شيبة وابن عساكر كما فى « كنز العمال » وبعض ألفاظه يتحد مع ما عند البخارى ؛ فهو قوى إن شاء الله ــ تعالى ــ واستشهد الحافظ ابن حجر فى فتح البارى بجمل من حديث ابن أبى شيبة ، فهو حديث صحيح أو حسن عنده .

شرح مفردات الحديث

قوله : ﴿ **وهل للسيف من بقية ؟** ﴾ أى : هل يبقى استعمال السيف بقية من الناس ؟

وقوله :﴿ **وهدنة على دخن** ﴾ أى : يبقى الناس على فساد فى قلوبهم وعلى اجتماع فى ظاهرهم ، ولكن لأهواء مختلفة وعيوب مؤتلفة ، وعلى هدنة على دخن ، أى : صُلح على فساد ونفاق فى القلوب وحقد فى النفوس .

وقوله : ﴿ **دعاة للضلالة** ﴾ وفى رواية البخارى : « دعاة على أبواب جهنم » أى : يدعون الناس إلى الكفر الذى يؤول بهم وبمن تبعهم إلى جهنم .

وقوله : ﴿ **فاهربن فى الأرض حد هربك** ﴾ حد هربك ، أى : منتهى هربك ، وأقصى ما تستطيع من البعد عن الفتنة وأهلها .

وقوله : ﴿ **وأنت عاض على أصل شجرة** ﴾ أى : حتى تموت وأنت على انقطاعك عن الناس وبعدك منهم صابراً على شدة الزمان ومكابدة المشقة التى تنالك فى ذلك .

(١) انظر مصنف ابن أبى شيبة (كتاب الفتن) باب من كره الخروج فى الفتنة وتعوذ عنها جـ ١٥ صـ ٩٨ رقم ١٨٩٦٠ وانظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر حـ ٥ صـ ١٦٥ فى ترجمة الخضر بن زكريا بن إسماعيل

وقوله : ﴿ ومن وقع فى نهره وجب وزره وحُطَّ أجره ﴾ يعنى : من خالف أمر الدجال و لم يطعه فى دعوته وأوزاره فألقاه فى ناره وجب أجره ، وعفى له من ذنوبه السالفة . ومن وافقه فى دعوته وأطاع أمره ثبت عقابه وبطل ثوابه .

وقوله : ﴿ لو أن رجلاً أنتج فرساً لم يركب مهرها حتى تقوم الساعة ﴾ أى : لو أن رجلاً ولَّد فرساً عنده ولداً ، فما يحين ركوب ذلك المهُر الذى ولدته الفرس إلا وتقوم الساعة ، وهذا كناية عن شدة قرب قيامها . انتهى .

من مشاهد القيامة

قال — تعالى —

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

معانى المفردات

(الأخلاء) واحدهم : خليل ، وهو الصديق الحميم . (مسلمين) أى : مخلصين منقادين لربهم . (تحبرون) أى : تسرون سروراً يظهر حَباره (بفتح الحاء) أى : أثره من النضرة والحسن على وجوهكم . (والصحاف) واحدها : صحفة وهى كالقصعة ، قال الكسائى : أكبر أوانى الأكل : الجفنة ، ثم القصعة ، ثم الصحفة ، ثم المكلة (والأكواب) واحدها : كوب ، وهو كوز لا أذن له (المجرمين) المراد بالمجرمين هنا : الراسخون فى الإجرام ، وهم الكفار . (لا يفتر) أى : لا يخفف . (مبلسون) : من الإبلاس : وهو الحزن المعترض من شدة اليأس . (مالك) خازن جهنم . (ليقض علينا ربك) أى : يمتنا . (وأبرم الأمر) : أحكم تدبيره ، (أمراً) : هو التحيل فى تكذيب الحق (والسر) : هو ما يحدث به المرء نفسه أو غيره فى مكان خال . (والنجوى) : التناجى فيما بينهم . (سبحان رب السموات) أى : تنزيهاً له عن كل نقص (يصفون) أى : يقولون كذبا بأن له ولداً . (فذرهم) أى : فاتركهم (يخوضوا) أى : يسلكوا فى باطلهم مسلك الخائضين فى الماء . (ويلعبوا) أى : يفعلوا فى أمورهم الدنيوية فعل اللاعب الغافل عن عاقبة ما يعمل (يومهم) هو يوم القيامة . (إله) أى : معبود بحق لا شريك له ، (يدعون) أى : يعبدون (من شهد بالحق) أى : نطق بكلمة التوحيد . (يؤفكون) أى : يصرفون . (وقيله) أى : قوله . قال أبو عبيدة : يقال : قلت قولا وقالا وقيلا . (فاصفح عنهم) أى : اعف عنهم عفو المعرض ، ولا تقف عن التبليغ . (سلام) أى : سلام متاركة بسلامتكم منى وسلامتى منكم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ، بين أن هذا اليوم يأتى بغتة وهم لا يشعرون روى ابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة ، والرجلان يطويان الثوب ، ثم قرأ ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم**

لا يشعرون ﴾[1] ثم أردف ذلك بيان أحوال ذلك اليوم ، فمنها أن الأخلاء يتعادون فيه إلا من تخالّوا على الإيمان والتقوى ، ومنها أن المؤمنين لا يخافون من سلب نعمة ينتفعون بها ، ولا يحزنون على فقد نعمة قد فاتتهم ، ومنها أنهم يتمتعون بفنون الترف والنعيم فيطاف عليهم بصحاف من ذهب فيها ما لذ وطاب من المآكل ، وبأكواب وأباريق فيها شهيّ المشارب ، ويقال لهم : هذا النعيم كِفاء ما قدمتم من عمل بأوامر الشرع ونواهيه ، وأسلفتم من إخلاص لله وتقوى له . ثم أعقب ذلك بذكر ما يكون فيه الكفار من العذاب الأليم الدائم ، وذكر أن هذا ليس إلا جزاء وفاقا لما دسوا به أنفسهم من سيء الأعمال ، ثم أردف ذلك بمقال أهل النار لخزنة جهنم وطلبهم من ربهم أن يموتوا حتى يستريحوا مما هم فيه من العذاب ، ثم إجابتهم لهم عن ذلك ، ثم وبخهم على ما عملوا فى الدنيا واستحقوا به العذاب . ثم ذكر ما أحكموا تدبيره من رد الحق وإعلاء شأن الباطل ظنّاً منهم أنا لا نسمع سرّهم ونجواهم ، وقد وهموا فيما ظنوا ؛ فإن الله عليم بذلك ورسله يكتبون كل ما صدر عنهم من قول أو فعل **ثم أمر الله نبيه** ﷺ أن يقول للمشركين إحقاقا للحق ! إن مخالفته لهم فى عبادة ما يعبدون لم يكن بغضا منه لهم ولا عداوة لمعبوديهم بل لاستحالة نسبة ما نسبوه إليه وبنوا عليه عبادتهم لهم من كونهم بنات الله ، تنزه ربنا عما يقولون ، ثم أمره أن يتركهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى يلاقون فيه جزاء أعمالهم وأقوالهم ثم أخبر — سبحانه — بأن لا معبود فى السماء ولا فى الأرض سواه ، وهو الحكيم العليم ، وأن من يعبدونهم لا يشفعون لهم حين الجزاء والحساب ، ثم ذكر أن أقوالهم تناقض أفعالهم ، فهم يعبدون غير الله ويقولون : إن الخالق للكون : سمائه وأرضه هو الله ، ثم أردف هذا ببيان أنه لا يعلم الساعة إلا هو ، وأنه يعلم شديد حزنك على عدم إيمانهم وعدم استجابتهم لدعوتك ، ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم وتركهم وشأنهم ، وسيأتى اليوم الذى يلقون فيه الجزاء على سوء صنيعهم .

التفسير

قوله — تعالى — ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ يقول الله — تعالى — هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ؟ أى : فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين ، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها ، فحينئذ يندمون عليها كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم ، ونحو الآية قوله — تعالى — ﴿ **هل ينظرون إلا**

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطى : تفسير سورة الزخرف ج ٧ صـ ٣٨٧ وقال : « اللقحة » بدل (نعمة) . وعزاه إلى ابن مردويه .

أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾[١] **﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونُزّل الملائكة تنزيلاً الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً . ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾**[٢] وههنا يقول ــ جل فى علاه ــ : **﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾** أى : كل صداقة وخلة فإنها تنقلب فى ذلك اليوم إلى عداوة إلا ما كانت فى الله وفى سبيله ، فإنها تبقى فى الدنيا والآخرة . وهذا كما قال إبراهيم الخليل ــ عليه الصلاة والسلام ــ لقومه **﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾**[٣] وكما حكى الله عنهم وهم فى النار يقولون : **﴿ وماأضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين : إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم**[٤]

وقوله ــ تعالى ــ (إلا المتقين) فإنهم أخلاء فى الدنيا والآخرة ، يقول الحبيب المصطفى ﷺ : « إن الله ــ تعالى ــ يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظِلى يوم لا ظل إلا ظلّى[٥] » رواه مسلم

وعن معاذ ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله ــ عز وجل ــ : المتحابون فى جلالى ، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء »[٦] رواه الترمذى : وقال حديث حسن صحيح لذا رغب النبى ﷺ فى مصاحبة المؤمنين ، ومجالسة الأخيار ، ورهّب من مصاحبة الكافرين ومجالسة الأشرار ، فقال ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحُذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة »[٧]

فقد شبه الرسول الكريم ﷺ الجليس الصالح ببائع الطِيب الذى ينفحك بعطره ، ويغمرك بنشره ، فإما أن يهديك ، وإما أن تجد عنده ريحاً طيبة ، فأنت معه فى ربح دائم ونشوة غامرة ، أما جليس

---

(١) الآية : ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات : ٢٥ ــ ٢٩ من سورة الفرقان .

(٣) من الآية : ٢٥ من سورة العنكبوت .

(٤) الآيات : ٩٩ ــ ١٠٤ من سورة الشعراء .

(٥) صحيح مسلم (كتاب البرّ والصلة والآداب) باب فى فضل الحب فى الله ج ٤ صـ ١٩٨٨ رقم ٣٧ / ٢٥٦٦

(٦) سنن الترمذى (أبواب الزهد) باب : ما جاء فى الحب فى الله حـ ٤ صـ ٢٤

(٧) انظر صحيح البخارى (كتاب الذبائح) باب المسك حـ ٧ صـ ١٢٥ وذكره بمعناه فى كتاب البيوع من نفس المصدر ج ٣ صـ ٨٢ ورواه الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب البر والصلة والآداب) ج ٤ صـ ٢٠٢٦ رقم ١٤٦ /٢٦٢٨

السوء فليس هناك أبلغ من تشبيهه بالحداد الذى ينفخ بكيره — مادة حارقة — فأنت معه فى خسارة دائمة ، فإن لم يحرقك بناره ، أحرقك بشرارة ، فصحبته هم دائما ، وحزن لازم ، ونار تلظى .

وقال ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »[1] رواه الترمذى سننه ، وصححه النووى .

وقال ﷺ : « لا تصاحبْ إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقى »[2] أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى بسند حسن .

وقال بعض الحكماء : اصطف من الإخوان ذا الدين والحسب ، والرأى والأدب ، فإنه رِدءٌ لك عند حاجتك ، ويدفع نائبتك ، وأنس عند وحشتك ، وزَيْن عند عافيتك .

وقال حسان بن ثابت — رضى الله عنه — :

أخلاء الرخاء هُمُ كثير ... ولكن فى البلاء هم قُليل

فلا يغررك خلة من تؤاخى ... فما لك عند نائبة خليل

وكل أخ يقول أنا وفىّ ... ولكن ليس يفعل ما يقول

سوى خِلٍّ له حسب ودين ... فذاك لما يقول هو الفعول

وقال عدّى بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

قوله — تعالى — : ﴿ ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ .

---

(١) سنن الترمذى (كتاب الزهد) باب ٤٥ رقم الحديث ٢٣٧٨ من رواية أبى هريرة وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . إلا أنه قال : « الرجل » مكان (المرء) ج ٤ صـ ٥٨٩

وانظر سنن أبى داود (**كتاب الأدب**) **باب** : من يؤمر أن يجالس ج ٤ صـ ٢٥٩ رقم ٤٨٣٣ بنفس لفظ الترمذى .

(٢) انظر سنن الترمذى (**أبواب الزهد**) باب ما جاء فى صحبة المؤمن ج ٤ صـ ٢٧ رقم ٢٥٠٦ ورواه الإمام أحمد فى مسنده (ومسند أبى سعيد الخدرى) ج ٣ صـ ٣٨ إلا أنه قال : « تصحح » . ورواه أيضا أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : من يؤمر أن يجالس جـ ٤ صـ ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢ من رواية أبى سعيد الخدرى .

روى المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادى منادٍ فى العرصات : « ياعبادى لا خوف عليكم » فيرفع أهل العرصة رءوسهم ؛ فيقول المنادى : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » فينكّس أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لا يخذل وليه ولا يسلمه عند الهلكة .

قال ــ عز وجل ــ : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم** ﴾(١) وقال سبحانه ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون** ﴾(٢)

وهنا يقول ــ سبحانه : ﴿ **ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون** ﴾ أى : يقال لهم : ادخلوا الجنة ﴿ **أنتم وأزواجكم** ﴾ المسلمات فى الدنيا المؤمنات بالله ورسوله . كما قال ــ سبحانه ــ : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء** ﴾(٣) وكما قال ــ جل فى علاه ــ : ﴿ **جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم . فنعم عقبى الدار** ﴾(٤)

وقوله ــ تعالى ــ : (تحبرون) قال ابن عباس : تكرمون . وقال الحسن : تفرحون ، وقال قتادة : تنعمون ، وقال مجاهد : تسُرُّون .

قال القرطبى : الكرامة فى المنزلة ، والفرح فى القلب ، والنعيم فى البدن ، والسرور فى العين .

وبعد أن ذكر ــ سبحانه ــ طرفاً مما يتمتعون به من النعيم ، فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب** ﴾ أى : وبعد أن يستقروا فى الجنة ويهدأ روعهم يطاف عليهم بجفان من الذهب مُترعة بألوان الأطعمة والحلوى وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذ وطاب .

وفى الصحيحين عن حذيفة أنه سمع النبى ﷺ يقول : ﴿ **لا تلبسوا الحرير ولا الدّيباج ، ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها ؛ فإنها هم فى الدنيا ــ أى : للكافرين ــ**

---

(١) الآيات : ٣٠ ــ ٣٢ من سورة فصلت .
(٢) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة الأحقاف .
(٣) من الآية : ٢١ من سورة الطور .
(٤) الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .

ولكم فى الآخرة ﴾[١] قال القرطبى : فمن أكل فيهما فى الدنيا أو لبس الحرير فى الدنيا و لم يتب حُرم ذلك فى الآخرة تحريما مؤبدا . والله أعلم .

وقوله ــ تعالى ــ ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون** ﴾ أى : وفى الجنة ما تشتهيه أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة والأشياء المعقولة والمسموعة ونحوها مما تطلبه النفوس وتهواه كائنا ما كان ، جزاء لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات ، وفيها ما تقر أعينهم بمشاهدته ، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، وأنتم لا تخرجون منها ، ولا تبغون عنها حولا .

أخرج ابن أبى شيبة والترمذى عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رجل : يارسول الله هل فى الجنة خيل ؛ فإنى أحب الخيل ؟ قال : « إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك فى أى الجنة شئت إلا فعلت ، وسأله آخر فقال : يارسول الله هل فى الجنة من إبل فإنى أحب الإبل ؟ فقال : إن يدخلك الله الجنة يكن لك ما اشتهت نفسك ولذت عينك »[٢]

ثم ذكر ــ سبحانه ــ أن هذا كان فضلاً من ربكم آتاكموه كفاء أعمالكم التى أسلفتموها ، فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ أى : وهذه الجنة جعلها الله لكم باقية كالميراث الذى يبقى عن المورث ، جزاء ما قدمتم من عمل صالح .

وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر ــ سبحانه ــ الفاكهة فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون** ﴾ أى : لكم فيها صنوف من الفواكه لا حصر لها ، تأكلون منها حينما شئتم ، وكيفما اخترتم .

قال الإمام ابن القيم :

إن الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور فى الخيال

وإن موضع سوط منها خير من الدنيا وما فيها .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان (كتاب اللباس والزينة) باب : تحريم استعمال إناء الذهب والفضة . الخ صـ ٥٤٠ رقم ١٣٣٩

(٢) روى الترمذى فى سننه حديث المسعودى عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن يزيد ، عن أبيه هذا الحديث مع اختلاف فى بعض الألفاظ ، ثم قال :

حدثنا سويد بن نصر ، أخبرنا عبد الملك بن المبارك ، عن سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن عبد الرحمن بن سابط عن النبى ﷺ نحوه بمعناه ، وهذا أصح من حديث المسعودى .

انظر سنن الترمذى (كتاب صفة الجنة) باب ما جاء فى صفة خيل الجنة ج ٤ صـ ٦٨١ رقم ٢٥٤٣ ورواية ابن سابط صـ ٦٨٢ ذكر سندها فقط ولم يذكر لفظها .

قال ـــ تعالى ـــ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[1] وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذى أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس ، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم ، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين فى الجنة .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله ـــ عز وجل ـــ : أعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وفى صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدى قال : شهدت مع النبى ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى . ثم قال فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[3]

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب »[4]

وقد تقدم حديث أبى أمامة عن النبى ﷺ : « ألا مشمراً للجنة ؛ فإن للجنة خطراً لها ، هى ـــ ورب الكعبة ـــ نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة . ومحلة عالية بهية »[5]

ولو لم يكن من خطر الجنة وشرفها إلا أنه لا يسأل بوجه الله غيرها ، لكفاها شرفا وفضلا كما فى سنن أبى دواد من حديث سليمان بن معاذ عن ابن المنكدر عن جابر ـــ رضى الله عنه ـــ قال قال رسول الله ﷺ : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة »[6] .

---

(١) الآيتان : ١٦ ، ١٧ من سورة السجدة

(٢) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) صـ ٧٩٤ رقم ١٧٩٨

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ج ١٧ صـ ١٦٧

(٤) صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الجهاد) باب الغدوة والروحة فى سبيل الله .. الخ ج ٦ صـ ١٥ ولم يرد فى صحيح مسلم .

(٥) الحديث مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الزهد) باب صفة الجنة ج ٢ صـ ١٤٤٨ رقم ٤٣٣٢ ولكن من رواية أسامة بن زيد وليس من رواية أبى أمامة . فى الزوائد : فى إسناده مقال . والضحاك المعافرى الدمشقى ذكره ابن حبان فى الثقات . . . ثم قال : ورواه ابن حبان فى صحيحه .

(٦) انظر سنن أبى داود (كتاب الزكاة) باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى ج ٢ صـ ١٢٧ رقم ١٦٧١

وفى معجم الطبرانى من حديث بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله جنة عدن ، خلق فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمى . فقالت : قد أفلح المؤمنون »[(١)]

وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها »[(٢)]

وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده ، وجعلها مقرّاً لأحبابه ، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه ، ووصف نعيمها بالفوز العظيم ، وملكها بالملك الكبير ، وأودعها جميع الخير بحذافيره ، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص ، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهى المسك والزعفران ، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن ، وإن سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر ، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر ، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب . وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة ، لا من الحطب والخشب ، وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال ، ألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل . وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى .

وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور ، وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة فى صفاء القوارير .

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام ، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها فإنها تستقر بالطرب لمن يسمعها ، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها . وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير فى ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفى عام .

وإن سألت عن خيامها وقبابها ، فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلا من تلك الخيام ، وإن سألت عن علاليها وجواسقها فهى غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار ، وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب فى الأفق الذى لا تكاد تناله الأبصار .

---

(١) انظر مجمع الزوائد (كتاب أهل الجنة) باب فى بناء الجنة وصفتها ج ١٠ صـ ٣٩٧ ثم ذكر الهيثمى بعد روايتنا هذه رواية أخرى ، وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وأحد إسنادى الطبرانى فى الأوسط جيد .

(٢) صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب بدء الخلق) باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة ج ٦ صـ ٢٩٤ رقم ٦١

وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب ، وإن سألت عن فراشها فبطائنها من إستبرق مفروشة فى أعلى الرتب ، وإن سألت عن أرائكها فهى الأسرة عليها البشخانات وهى الحجال مزررة بأزرار الذهب ، فما لها من فروج ولا ظلال . وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم فعلى صورة القمر . وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاث وثلاثين على صورة آدم — عليه السلام — أبى البشر ، وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين ، وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنَّبيين ، وأعلى منها خطاب رب العالمين .

وإن سألت عن مطاياهم التى يتزاورون عليها ، فنجائب — إن شاء الله — وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ ، على الرءوس ملابس التيجان ، وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم اللؤلؤ مكنون .

وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم ، فهى الكواعب الأتراب ، اللائى جرى فى أعضائهن ماء الشباب ، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود ، وللرمان ما تضمنته النهود ، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور ، وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور ، تجرى الشمس من محاسن وجهها إذا برزت ، ويضىء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت ، إذا قابلت حبها فقل ما تشاء فى تقابل النيرين وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبيبين . وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين ، ويرى وجهه فى صحن صدرها ، كما يرى فى المرآة التى جلاها صقلها ، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها . لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين الأرض والسماء ريحا . وأفواه الخلائق تهليلا وتكبيرا وتسبيحاً ، ولتزخرف لها ما بين الخافقين ، ولغمضت عن غيرها كل عين ، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم ، ولآمن على ظهورها بالله الحى القيوم . ونصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ، ووصالها أشهى إليه من جميع أمانيها ، ولا يزداد على طول الأحقاب إلا حسنا وجمالا ، ولا يزداد لها طول المدى إلا محبة ووصالا ، مبرأة من الحمل والولادة ، والحيض والنفاس ، مطهرة من المخاط والبصاق ، والبول والغائط وسائر الأدناس ، لا يفنى شبابها ، ولا تبلى ثيابها ، ولا يخلق ثوب جمالها ، ولا يمل طيب وصالها ، قد قصرت طرفها على زوجها ، فلا تطمع لأحد سواه ، وقصر طرفه عليها فهو غاية أمنيته وهواه . وإن نظر إليها سرته ، وإن أمرها بطاعته أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته ، فهو منها فى غاية الأمانى . هذا لم يطمثها قبله إنس ولا جان ، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورا ، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤا منظوما ومنثورا ، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نوراً . وإن سألت عن السن فأتراب فى أعدل سن الشباب ، وإن سألت عن الحسن فهل رأيت الشمس والقمر ، وإن سألت عن الحدق فأحسن سواد فى أصفى بياض فى أحسن حَوَرٍ ، وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن من الأغصان ، وإن سألت عن النهود فهن الكواعب ، وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان ، وإن سألت عن حسن الخلق فهن الخيرات الحسان ، اللاتى جمع لهن بين الحسن والإحسان ، فأعطين جمال الباطن والظاهر ، فهن أفراح النفوس وقرة النواظر .

وإن سألت عن حسن العشرة ولذة ما هنا لك فهن العرب المتحببات إلى الأزواج بلطافة التبعل التى تمتزج بالروح أى امتزاج .

فما ظنك بامرأة إذا ضحكت فى وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها . وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت : هذه الشمس متنقلة فى بروج فلكها ، وإذا حاضرت زوجها فياحسن تلك المحاضرة ، وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة . وإن غنت فيا لذة الأبصار والأسماع ، وإن آنست وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع . وإن قبلت فلا شىء أشهى إليه من التقبيل ، وإن نولت فلا ألذ ولا أطيب من ذلك التنويل .

هذا ، وإن سألت عن يوم المزيد وزيارة العزيز الحميد ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه ، كما ترى الشمس فى الظهيرة ، والقمر ليلة البدر ، كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه ، وذلك موجود فى الصحاح والسنن والمسانيد . من رواية جرير وصهيب وأنس وأبى هريرة وأبى موسى وأبى سعيد ، فاستمع يوم ينادى المنادى : ياأهل الجنة ، إن ربكم — تبارك وتعالى — يستزيركم فحىَّ على زيارته ، فيقولون : سمعاً وطاعة ، وينهضون إلى الزيارة مبادرين ، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم ، فيستوون على ظهورها مسرعين ، وحتى إذا انتهوا إلى الوادى الأفيح الذى جعل لهم موعداً . وجمعوا هناك فلم يغادر الداعى منهم أحداً ، أمر الرب — تبارك وتعالى — بكرسيه فنصب هناك ، ثم نصبت لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ومنابر من فضة . وجلس أدناهم — وحاشاهم أن يكون فيهم دنى — على كثبان المسك ، ما يرون أن أصحاب الكراسى فوقهم فى العطايا ، حتى إذا استقرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم . نادى المنادى : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟! فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة ، فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار — جل جلاله ، وتقدست أسماؤه — وقد أشرف عليهم من فوقهم وقال : يا أهل الجنة ، سلام عليكم ، فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، فيتجلى لهم الرب — تبارك وتعالى — ويضحك إليهم ، ويقول : يا أهل الجنة — فيكون أول ما يسمعون منه تعالى — أين عبادى الذين أطاعونى بالغيب ، ولم يرونى ، فهذا يوم المزيد ، فيجتمعون على كلمة واحدة : قد رضينا فارض عنا ، فيقول : يا أهل الجنة ، إنى لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتى . هذا يوم المزيد فاسألونى فيجتمعون على كلمة واحدة : أرنا وجهك ننظر إليه . فيكشف لهم الرب — جل جلاله — الحجب ، ويتجلى لهم ، فيغشاهم من نوره ما لولا أنه — تعالى — قضى أن لا يحترقوا لاحترقوا . ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه — تعالى — محاضرة حتى إنه يقول : يا فلان ، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا — يذكره ببعض غدراته فى الدنيا — فيقول: يارب ألم تغفر لى ؟ بمغفرتى بلغت منزلتك هذه .

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة ، ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم فى الدار الآخرة ، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾[1]

اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار .

قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ، ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى السعداء فى الآخرة ، ثنى بذكر حال الأشقياء ، فقال تعالى : ﴿ **إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ، لايفتر عنهم** ﴾ أى لايخفف عنهم ساعة واحدة ﴿ **وهم فيه مبلسون** ﴾ ايسون من كل خير ، كما حكى عنهم سبحانه وتعالى فقال : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم كما مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ وقال جل فى علاه : ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رءوسهم الحميم ، ويصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ **فأما الذين شقوا ففى النار لهم زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد** ﴾[3] . وقال عز من قايل : ﴿ **ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال اخسئوا فيها ولاتكلمون** ﴾[4] . وقال سبحانه : ﴿ **إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لايجدون وليا ولانصيرا ، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا** ﴾[5] ، قال جل فى علاه : ﴿ **وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب** ﴾[6] .

---

(١) الآيات : ٢٢ ـــ ٢٥ من سورة القيامة .

(٢) الآيتان ٣٦ ـــ ٣٧ من سورة فاطر.

(٣) الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ من سورة الحج

(٤) الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة هود

(٥) الآيات ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة المؤمنون

(٦) الآيات ٦٣ ـــ ٦٨ من سورة الأحزاب

(٧) الآية ٤٩ من سورة غافر

وقال سبحانه : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[١]

ويصور القرآن شدة لهيب هذه النيران ، بضخامة ما يتطاير منها من الشرر ، فهو ليس بذرات صغيرة ، كهذه الذرات ، التى تتصاعد من نار هذه الحياة الدنيا ، ولكنه شرر كجذوع الشجر الضخم ، أو الجمال الصفر ، قال تعالى : ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر * كأنه جمالة صفر*ويل يومئذ للمكذبين ﴾[٢] .

هذه النيران الملتهبة يسمع لظاها من مدى بعيد ، فكأنما تبدى غيظها مما اقترفه هؤلاء الجناة ، واستمع إليه يصور ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ ﴾[٣] ، وفى هذه النيران ذات اللظى يتنفسون لهبها ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾[٤] وليصور خيالك هذا اللهب يتنفسون منه ويزفرون ، وليصور خيالك هذه النيران تحيط بالعصاة من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، قال تعالى : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾[٥] . وليصور الخيال هذه الوجوه تتقلب فى النيران ، والرءوس تنزع منها شواها ، وهذه الأجسام تتخذ ثيابها من النار : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم ﴾[٦] . وهذه الجلود كلما احترقت وصهرت ، استبدلت بجلود اخرى ، ليبدأ عذابهم من جديد ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف تصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾[٧] .

وهكذا لا يجدون فى وسط هذه النيران ظلاً يحسون عنده ببرد الراحة ، اللهم إلا ظل دخان قد تفرق وانتشر شعباً فصار ظلاً ﴿ لا ظليل ولا يغنى من اللهب ﴾[٨] ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم ﴾[٩] ، ويظلون فى هذا العذاب خالدين ﴿ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾ وعليهم حرس ﴿ ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[١٠]

---

(١) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة غافر
(٢) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة المرسلات
(٣) الآيتان : ٦ ، ٧ و الآية رقم ٨ من سورة الملك
(٤) الآية ١٠٦ من سورة هود
(٥) جزء من الآية ٥٤ ، الآية ٥٥ من سورة العنكبوت
(٦) الآية ١٩ من سورة الحج
(٧) الآية ٥٦ من سورة النساء
(٨) الاية ٣١ من سورة المرسلات
(٩) الآيات ٤١ ـــ ٤٤ من سورة الواقعة
(١٠) جزء من الآية ٦ من سورة التحريم

وأما طعامهم فمن شجرة الزقوم ، وهى ﴿ **شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون** ﴾[1] ... فإذا أرادوا الشراب سقوا من عين آنية — أى متناهية فى الحر — وشربوا حميماً — ماء حارا — وغساقاً — صديد أهل النار — ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه * بئس الشراب وساءت مرتفقاً** ﴾[2] .

لا عجب إذاً إن حاول هؤلاء النزلاء أن يفروا من جهنم ، ولكن أنى لهم الفرار وقد أعدت لهم ، ﴿ **ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[3] .

أو تمنوا أن لو كانوا تراباً ، أو دعوا الله أن ينالهم بالهلاك المبيد ﴿ **لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً** ﴾[4] ، ﴿ **يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصليته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعا * ثم ينجيه * كلا** ﴾[5] أرأيت كيف يشتد العذاب بأصحاب النار حتى يتمنى أحدهم أن يفدى نفسه بابنه ، الذى يتمنى المرء أن يفديه بنفسه ، بل يتمنى أن لو هلك الناس جميعاً ونجا وحده ، فى هذا اللهب المشتعل الذى لا يموت من فيه موتة تريحه ، ولا يحيا حياة يرضاها — يلعن أهل النار بعضهم بعضاً ، فإذا حوتهم جهنم جميعاً ، قال الرعاع عن سادتهم : ﴿ **ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار** ﴾[6] ، فيجيبهم الله بأن لكل منهم ضعفا ، ويقول السادة للرّعاع ، أنتم مثلنا فى العذاب ، ولن يخفف عنكم ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾[7] ، وينادى على السيد منهم فيقال لمعذبيه : ﴿ **خذوه فاعتلوه * إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾[8] ، ويتجه هؤلاء العصاة إلى الله ، ويصور القرآن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا ، وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون * قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾[9] وحيناً يصطرخون فيها قائلين : ﴿ **ربنا أخرجنا**

---

(١) الآيات ٦٤ — ٦٦ من سورة الصافات

(٢) جزء من الآية ٢٩ من سورة الكهف

(٣) الحج الآيتان : ٢١ ، ٢٢

(٤) الآية ١٤ من سورة الفرقان

(٥) جزء من الآية ١١ ، والآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ وجزء من الآية ١٥ من سورة المعارج .

(٦) جزء من الآية ٣٨ من سورة الأعراف

(٧) جزء من الآية ٣٩ من سورة الاعراف

(٨) الآيات ٤٧ — ٤٩ من سورة الدخان

(٩) الآيات ١٠٥ إلى ١١٥ من سورة المؤمنون

نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ﴾[1] فيسألون : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾**[2].

وفى النار لا يسعهم إلا اعترافهم بذنوبهم ، فها هم أولاء الخزنة يسألونهم ، كلما أقبل فوج منهم ﴿ **ألم يأتكم نذير * قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فأعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾**[3].

ويتجه أصحاب النار حيناً إلى خازنها ، ويتضرعون أن يقضى ربهم عليهم ، فتكون الإجابة قاضية على آمالهم ، بأنهم مخلدون ، لا يفتر عنهم العذاب ﴿ **ونادوا : يا مالك ليقض علينا ربك قال : إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾** .

وحيناً يتساءلون عن رجال مضوا إلى الجنة مع أنهم كانوا يعدونهم من الأشرار ، فإذا اتجهت أبصارهم تلقاء أصحاب الجنة نادوا ﴿ **أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذى اتخذوا دينهم لهوا ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾**[4] .

وأكبر ما يتمنون يومئذ أن يكون لهم شفعاء ، فيشفعوا لهم فيقولون ﴿ **فما لنا من شافعين ولا صديق حميم * فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴾**[5] ذلك وصف حافل للعذاب الجسمى فى جهنم ، أما العذاب الروحى فشعور هؤلاء المجرمين بأنهم محجوبون عن رضوان الله الذى خلقهم ، وأنعم عليهم بما قل من النعم أو كثر ، ثم قابلوا نعمه بالجحود والنكران فلا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾**[6] وفى كفران النعمة شقاء نفسى ، يتعذب له الضمير ، ويشقى من أجله الوجدان ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾**[7]، ﴿ **أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾**[8]. (من كتاب بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوى) .

---

(١) الآية ٣٧ فاطر
(٢) الآية ٣٧ فاطر
(٣) جزء من الآية ٨ ، الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ من سورة الملك
(٤) من الآية ٥٠ ، والآية ٥١ من سورة الأعراف
(٥) الآيات ١٠٠ ــ ١٠٢ من سورة الشعراء
(٦) الآية ١٥ المطففين
(٧) الآية ٢٧ من سورة الفرقان
(٨) الآية ٥٦ من سورة الزمر

قوله تعالى : ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾ أى وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم ما أخبرناكم أننا فاعلون بهم ، ولكن هم الذين أساءوا إلى أنفسهم فكذبوا الرسل وعصوهم بعد أن أقاموا الحجة عليهم ، فأتوهم بباهر المعجزات ، قال تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** ﴾[1] وبعد أن قص سبحانه علينا قصص قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وفرعون ، قال سبحانه : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم** ﴾ .. الآية[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ أى ونادى المجرمون من شدة العذاب فقالوا : يا مالك ادع لنا ربك أن يقبض أرواحنا ليريحنا مما نحن فيه ، فأجابهم بعد مائة سنة ـــ كما قال مجاهد ـــ أو بعد ألف سنة ـــ كما قال الأعمش : بقوله ﴿ **إنكم ماكثون** ﴾ لا خروج لكم منها ، ولا محيص لكم عنها ، ثم خاطبهم خطاب تقريع وتوبيخ ، وبين سبب مكثهم فيها بقوله : ﴿ **لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون** ﴾ أى لقد بينا لكم الحق على ألسنة رسلنا وأنزلنا إليكم الكتب مرشدة إليه ، ولكن سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه ، وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسكم باللائمة ، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة .

قوله تعالى : ﴿ **أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون * أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾ .

قال القرطبى : قال مقاتل : نزلت فى تدبيرهم بالمكر بالنبى صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة ، حين استقر أمرهم ، على ما أشار به أبو جهل عليهم ، أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله ، فتضعف المطالبة بدمه ، فنزلت هذه الآية وقتل الله جميعهم ببدر ، ومعنى أبرموا : أحكموا .

فالمعنى : أم أحكموا كيداً فإنا محكمون لهم كيداً ، كما قال سبحانه ﴿ **ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون** ﴾[3] ، وكقوله سبحانه ﴿ **إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً * فمهل الكافرين أمهلهم رويداً** ﴾[4] .

---

(١) الآية ٤٩ من سورة الكهف

(٢) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة هود

(٣) الآية ٥٠ من سورة النمل

(٤) الآيات ١٥ ـــ ١٧ من سورة الطارق

وقوله تعالى : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾ . أى بل أيظنون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك ، ولا ما يتكلمون به فيما بينهم بطريق التناجى . ﴿ **بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾ أى بل نسمعهما ونطلع عليهما ، والحفظة يكتبون جميع ما يصدر عنهم ، من قول وفعل ، قال تعالى :﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾(١) .
وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : بينا ثلاثة نفر بين الكعبة وأستارها ، قرشيان وثقفى ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ، وقال الثانى : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، وقال الثالث إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ، فنزلت الآية . قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين * سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾ قال ابن عباس ، والحسن والسدى : المعنى ما كان للرحمن ولد ، فـ « إن » بمعنى ما ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدىء « **فأنا أول العابدين** » أى الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له .
وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده ، على أنه لا ولد له . فهنا (إن) شرطية : أى إن قلتم ذلك ، فأنا أول مَن وحّده ، قال القرطبى : وهو الأجود ، وهو اختيار ابن جرير الطبرى ، قوله تعالى : ﴿ **سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون** ﴾ أى تنزه مالك السموات والأرض وما فيهما من الخلق ، ورب العرش المحيط بذلك كله — عما يصفه به المشركون كذبا ، وعما ينسبون إليه من الولد إذ كيف تكون هذه العوالم كلها ملكا له ويكون شىء منها جزءاً منه . تعالى ربنا عن ذلك علوّا كبيرا ، ﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون** ﴾(٢) .
﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾(٣) ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾(٤) ، ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ***

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة طه
(٢) الآيات ٦٨ — ٧٠ من سورة يونس
(٣) الآية : ١٧ من سورة المائدة
(٤) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة البقرة

سيقولون لله قل فأنى تسحرون * بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون * ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰه إذاً لذهب كل إلٰه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾[1] .

ويصور القرآن ــ فى أقوى صور التعبير ــ موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إلى الله ، فتكاد ــ لشدة غضبها ــ أن تنفجر غيظاً ، وتنشق ثورة ، وتخر الراسيات لهول هذا الافتراء ، وضخامة هذا الكذب ، وأصغ إلى تصوير هذا الغضب فى قوله تعالى : ﴿ **وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئا إدّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا * أن دعوْا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدّاً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون** ﴾ أى فذرهم يخوضوا فى جهلهم وضلالهم ﴿ **ويلعبوا** ﴾ فى دنياهم ﴿ **حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون** ﴾ وهو يوم القيامة أى فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم فى ذلك اليوم ، كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾[3]

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ، وهو العزيز الحكيم ، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ، ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يفلحون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو العزيز الحكيم ﴾ . أى هو إله فى السماء وإله فى الأرض يعبده أهلهما ، وكلهك خاضعون له ، طوع إرادته ، أذلاء بين يديه ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه ، وتسخيرهم لما يشاء ، العليم بكل شىء ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة فسبحانه وتعالى عن الولد . وتبارك أى استقر . تام السلامة من العيوب والنقائص لأنه الرب العلى العظيم المالك للأشياء ، الذى بيده أزمة الأمور ، نقضا وإبراما ، قال

---

(١) الآيات ٨٤ ــ ٩٢ من سورة المؤمنون

(٢) الآيات ٨٨ ــ ٩٥ مريم

(٣) الآيات ٤٢ ــ ٤٤ المعارج

(٤) الآية ٣ من سورة الأنعام

تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا * الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾[(١)]

وقوله تعالى : ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أى وقت قيامها . قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة آيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾[(٢)] فلا يجليها لوقتها إلا هو . وقوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى فيجازى كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾ أى من الأصنام والأوثان ﴿ الشفاعة ﴾ أى لا يقدرون على الشفاعة لهم ، ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ هذا استثناء منقطع أى لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له .

قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[(٣)] . وقال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[(٤)].

قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ أى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ أى لأقرّوا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا . ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أى كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها ، حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له .

قوله تعالى : ﴿ وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ قال قتادة : هو قول نبيكم صلى الله عليه وسلم يشكو قومه إلى ربه عز وجل .

كما أخبر تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾[(٥)] فالتقدير : قيل يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ أى فاصفح عنهم ولا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا ، ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وهذا تهديد من الله تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[(٦)] .

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الفرقان
(٢) الآيات ٤٢ ــ ٤٤ من سورة النزعات
(٣) من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة
(٤) من الآية ٢٨ من سورة الأنبياء
(٥) الآية ٣٠ من سورة الفرقان
(٦) الآية ١١٥ من سورة الأنعام

تفسير سورة الدخان

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية إجماعاً

عدد آياتها : تسع وخمسون

عدد كلماتها : ثلاثمائة وست وأربعون

وحروفها : ألف وأربعمائة وواحد وثلاثون

وفواصل آياتها كلها (من) :

وسميت سورة الدخان لقوله تعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾ .

معظم مقصود السورة :

نزول القرآن فى ليلة القدر ، وآيات التوحيد ، والشكاية من الكفار ، وحديث موسى وبنى إسرائيل وفرعون ، والرد على منكرى البعث ، وذل الكفار فى العقوبة ، وعز المؤمنين فى الجنة ، والمنة على الرسول بتيسير القرآن على لسانه فى قوله تعالى : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك** ﴾[1] .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **إن هى إلا موتتنا الأولى** ﴾[2] مرفوع . وفى الصافات منصوب ذكر فى المتشابه ، وليس منه ، لأن ما فى هذه السورة مبتدأ وخبر ، وما فى الصافات استثناء .

وقوله تعالى : ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾[3] أى على علم منا ، ولم يقل فى الجاثية : فضلناهم على علم ، لأنه ذكر فيه ﴿ **وأضله الله على علم** ﴾[4] قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض** ﴾[5] بالجمع بالموافقة أول السورة ﴿ **رب السموات والأرض** ﴾[6] .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى ختم ما قبلها بالوعيد والتهديد ، وافتتح هذه بالإنذار الشديد (**فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم**)[7] .

(٢) إنه تعالى : حكى فيما قبلها قول رسوله ﷺ : ﴿ **يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون** ﴾ يارب هنا عن أخيه موسى ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾[8] .

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة الدخان
(٢) من الآية ٣٥ من سورة الدخان
(٣) من الآية ٣٢ من سورة الدخان
(٤) من الآية ٢٣ من سورة الجاثية
(٥) من الآية ٣٨ من سورة الدخان
(٦) من الآية ٧ من سورة الدخان
(٧) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة الدخان
(٨) الاية ٢٢ من سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦)

معاني المفردات

(ليلة مباركة) هى ليلة القدر ، (منذرين) أى مخوفين ، (يفرق) أى يفصل ويبين ، (حكيم) أى محكم لا يستطاع أن يطعن فيه بحال ، (موقنين) أى ، تطلبون اليقين وتريدونه ، (فارتقب) أى انتظر (يغشى الناس) أى يحيط بهم ، (اكشف عنا) أى ارفع . (أنّى) أى كيف يكون ومن أين ، (معلم) أى يعلمه بشر ، (والبطش) الأخذ بالقوة والعنف .

المناسبة وإجمال المعنى

بدأ سبحانه وتعالى : بالإخبار عن كتابه الكريم المبين لما فيه صلاح البشر ، أنه أنزل القرآن فى ليلة القدر ، لإنذار العباد ، تخويفهم من عقابه . وإن هذه الليلة يفصل فيها كل أمر حكيم ، فيبين فيها التشريع النافع للعباد فى دنياهم وآخرتهم ، وهو رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى بيده إحياؤهم ، وإماتتهم وهو ربهم ورب الأولين ، ولكنهم يمترون بعد أن وضح الحق ، وأفصح الصبح لذى عينين وبعد أن

ذكر حال كفار قريش ، إذ قابلوا الرحمة بالكفران ولم ينتفعوا بالمنزل ولا بالمنزل عليه ــ أردف هذا أن أمر نبيه بالانتظار حتى يحل بهم بأسه ، لأنهم أهل الخذلان والعذاب ، لا أهل الإكرام والغفران ، وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ هذه بعض حروف الهجاء التى يقصد بذكرها تحدى هؤلاء الجاحدين المنكرين لرسالة سيد الأولين والآخرين ، فقد أيده الله تعالى : بإنزال الكتاب العزيز عليه . وهو كتاب معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، فإن كنتم تكذبون هذا النبى ، الذى أنزل الله عليه ذلك الكتاب فأتوا بحديث مثله إن كنتم صادقين ، أو فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين وإلا ﴿ **فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **والكتاب المبين * إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين** ﴾ .

هذا قسم منه عز وجل : بالكتاب على إنزال الكتاب ، وكل قسم يشتمل على أداة ومقسم به ، ومقسم عليه ، ومقسم ، المقسم هنا هو الله عز وجل ، ولله جل جلاله أن يقسم بما شاء وبمن شاء من مخلوقاته ، فهو المالك المتصرف المحيى المميت ، المعز ، المذل ، الخافض ، الرافع ، الضار ، النافع ، المبدىء ، المعيد ، ذو العرش المجيد ، أما غير الله فليس له أن يقسم إلا بالله وحده ، ومن حلف بغير الله فقد أشرك .

وأداة القسم هنا هى (الواو) وحروف القسم ثلاثة الواو ، والباء ، والتاء ، وقد اختصت التاء بدخولها على لفظ الجلالة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ﴾[2] . والمقسم به ، وهو الكتاب المبين ، والمقسم عليه وهو جواب القسم قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾ .

فقد أنزل الله تعالى : أعظم كتبه وهو القرآن العظيم ، ﴿ **وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** ﴾ بأعظم لغة هى العربية الفصحى . ﴿ **إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ على يدى أعظم ملك هو الأمين جبريل ﴿ **إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثم أمين** ﴾[3] فى أعظم بلد هى مكة المكرمة ﴿ **إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء** ﴾[4] وهذا هو البلد

---

(١) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ البقرة

(٢) من الآية ٥٧ من سورة الأنبياء

(٣) الآيات ١٩ ــ ٢١ من سورة التكوير

(٤) الآية ٩١ من سورة النمل

الأمين، فى أعظم غار هو غار حراء ، فى أعظم ليلة ، هى ليلة القدر ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين** ﴾ فى أعظم شهر هو ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾[١] على أعظم فتى . هو مبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٢] لأعظم أمة ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[٣] بأعظم هدف ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً** ﴾[٤]، ﴿ **الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾[٥] .

ووصف هذه الليلة الكريمة بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب .

قوله تعالى : ﴿ **إنا كنا منذرين** ﴾ أى معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

وقوله تعالى : ﴿ **فيها يفرق كل أمر حكيم** ﴾ أى فى ليلة القدر ، يفصل من اللوح المحفوظ ، إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق ، وما يكون فيها إلى آخرها ، وهكذا روى عن ابن عمر ومجاهد وأبى مالك وغير واحد من السلف ، وقوله تعالى : ﴿ **حكيم** ﴾ أى محكم لا يبدل ولا يغير ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿ **أمراً من عندنا** ﴾ أى جميع ما يكون ويقدره الله تعالى : وما يوجبه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿ **إنا كنا مرسلين** ﴾ أى إلى الناس رسولاً ، يتلو عليهم آيات الله بينات ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ **رحمة من ربك إنه هو السميع العليم** ﴾ أى إنا أرسلنا الرسول به رحمة منا لعبادنا ، حتى يستبين لهم ما يضرهم ، وما ينفعهم وحتى لا يكون لهم حجة بعد إرسال الرسول به ، كقوله تعالى : ﴿ **هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم** ﴾[٦]وكقوله تعالى : ﴿ **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾[٧] . وكقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٨] .

---

(١) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة
(٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء
(٣) الآية ١١٠ من سورة آل عمران
(٤) الآية ٩ من سورة الإسراء
(٥) الآية ١ من سورة إبراهيم
(٦) الآية ٩ من سورة الحديد
(٧) الآية ٥١ من سورة العنكبوت
(٨) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

وقوله تعالى : ﴿ **إنه هو السميع العليم** ﴾ أى السميع لأقوال العباد ، العليم بأفعالهم ، وقوله تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ أى الذى أنزل القرآن . هو رب السموات والأرض ، وخالقهما ومالكهما ومن فيهما ، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين .

﴿ **لا إله إلا هو يحيى ويميت** ﴾ لا معبود بحق إلا هو ، ولا تصلح العبادة إلا له ، وهو المحيى المميت ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون ، ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى هو مالككم والمتصرف فيكم ، ومالك آبائكم الأولين ومدبر شئونهم ، فاعبدوه دون آلهتكم ، التى لا تقدر على ضر ولا نفع ولا موت ولا حياة ولا نشور .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت** ﴾ .. الآية[1] .

ليلة القدر
الليلة المباركة

فضلها : قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾

وقال سبحانه : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر** ﴾[2]

بين سبحانه أنها ليلة مباركة ، وعظم شأنها بقوله تعالى ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ﴾ يعنى به القرآن . وسميت بذلك إما لأن قدرها عند الله عظيم أو لأن القدر فيها يمضى أى يقدر الله فيها ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله .

وبين سبحانه أن العمل فيها من الصلاة والتلاوة والذكر والدعاء خير من العمل فى ألف شهر ، ليس فيها ليلة القدر ، فقال تعالى : ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ .

وهى سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر ، تسلم فيها الملائكة على المؤمنين ، الذين صاموا وصلوا وقاموا لله فى هذه الليلة .

قال تعالى : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر** ﴾ .

---

(١) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف

(٢) سورة القدر الآيات ١ إلى ٥ أى السورة كلها

(١) وقال الحبيب المصطفى ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[(١)] (أخرجه البخارى ــ باب فضل ليلة القدر) استحباب طلبها .

ويستحب طلبها فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان ، فقد كان النبى ﷺ يجتهد فى طلبها فى العشر الأواخر من رمضان .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يجاور فى العشر الأواخر من رمضان ويقول : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » (متفق عليه) .[(٢)]

(٣) وعنها أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :« تحروا ليلة القدر فى الوتر من عشر الأواخر من شهر رمضان » .[(٣)]

قيامها والدعاء فيها :

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » (متفق عليه) .[(٤)]

(٥) وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : أرأيت إن علمت أى ليلة ، ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : قولى : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » (رواه أحمد والترمذى وصححه) .[(٥)]

يا ليلة القدر للعابدين اشهدى، يا أقدام القانتين اركعى لربك واسجدى، يا ألسنة السائلين جدى فى المسألة واجتهدى .

يا نائم الليل كم ترقد ... قم يا حبيبى قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته ... ورداً إذا ماهجع الرقد
من نام حتى ينقضى ليله ... لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوى الألباب أهل التقى ... قنطرة العرض لكم موعد

(١) الحديث أخرجه البخارى فى باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٦٠

(٢) الحديث فى البخارى كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٦٠ والحديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب القيام باب فضل ليلة القدر ج ٢ ، ص ٨٢٣ حديث ٢٠٦ / ١١٦٥ .

(٣) الحديث فى البخارى كتاب الصوم باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٦٠ والحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الصيام ــ باب فضل ليلة القدر ج ٢ ، ص ٨٢٣ حديث ٢٠٦ / ١١٦٥ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٥٩ الحديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ج ٢ ، ص ٨٢٣ حديث ٢٠٦ / ١١٦٥ .

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى صحيحه فى كتاب الدعوات حديث ٣٥٨٠ ج ٥ ، ص ١٩٥ والإمام أحمد فى مسنده ص ٦ / ١٧١ .

يقول تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ بل هؤلاء المشركون فى شك يلعبون ، أى قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولايصدقون كما قال تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ، وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم لاتبصرون ﴾[1]

ثم قال عز وجل : متوعداً لهم ومهدداً : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتى السماء بدخان مبين وفى الدخان قولان : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجىء بعد ، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة ، وممن قال إن الدخان لم يأت بعد : على وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وزيد بن على والحسن وغيرهم . وفى صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال : « ما تذكرون » ؟ قالوا : نذكر الساعة ؟ قال « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات — فذكر — الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم »[2] .

وفى رواية أخرى قلت : يا نبى الله ، وما الدخان ؟ قال هذه الآية :﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره» فهذا قول ، والقول الثانى — أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبى ﷺ ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا ، قاله ابن مسعود . قال : وقد كشفه الله عنهم ، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم[3] . والحديث عنه بهذا فى صحيح البخارى ومسلم والترمذى قال البخارى — بسنده — قال عبد الله — إنما كان هذا لأن قريشا لما استعصت على النبى ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف ، فأصابهم قحط وجهد

---

(١) الآيات ١ — ٣ من سورة الأنبياء

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة باب فى الآيات التى تكون قبل الساعة حديث ٣٩ / ٢٩٠١ ص ٢٢٥ ج ٤ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه فى كتاب الجنائز باب « إذا أسلم الصبى فمات ، هل يصلى عليه » ١ / ١١٧ ، وكتاب الجهاد باب « كيف يعرض الإسلام على الصبى » ٤ / ٨٥ — ٨٦ ، وكتاب الأدب باب قول الرجل : اخسأ : ٨ / ٤٩ — ٥٠ ، وكتاب القدر باب ما يحول بين المرء وقلبه ٨ / ١٥٧ .

وأخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن باب « ذكر ابن صياد » ٨ / ١٨٩ ، ١٩٠ .

وفى تفسير الطبرى ٢٥ / ٦٨

وأخرجه الترمذى فى أبواب القدر باب ما جاء فى الخسف حديث ٢٢٧٤ ، ج ٣ ، ص ٣٢٣

حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم** ﴾ ولقد رجح ابن كثير القول الأول .

فقال بعد أن أورد الروايات المسندة لابن عباس : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين : مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان ، وغيرها التى أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾ أى بين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ **يغشى الناس** ﴾ أى يتغشاهم ويعميهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ **يغشى الناس** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **هذا عذاب أليم** ﴾ أى يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخا .

وقوله سبحانه : ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ أى يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم . قال قتادة : « العذاب » هنا الدخان .

قوله تعالى : ﴿ **أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين** ﴾ أى من أين يكون لهم التذكر والاتعاظ عند حلول العذاب وقد جاءهم رسول يبين لهم الحق وقوله تعالى : ﴿ **ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون** ﴾ أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد توليهم عن محمد ﷺ وتكذيبهم إياه . وقيل أى أنى ينفعهم قولهم « إنا مؤمنون » بعد ظهور اعلام الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون** ﴾[1] ،(وقالوا معلم مجنون)، أى علمه بشر أو علمه الكهنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون** ﴾ وعد سبحانه أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلا ، أى فى زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ، قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبى ﷺ لهم عادوا إلى تكذيبه ، ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم من قضى عليه بالكفر يستمر على كفره . وقيل معنى (إنكم عائدون) إلينا ، أى مبعوثون بعد الموت .

وقيل : المعنى « إنكم عائدون » إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

---

(١) الآية ١٥٨ من سورة الأنعام

وقوله تعالى : ﴿ **يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾ ، والبطشة الكبرى فى قول ابن مسعود : يوم بدر ، وقيل عذاب جهنم يوم القيامة قاله الحسن وعكرمة وابن عباس واختاره الزجاج . قال القرطبى : ويحتمل أنها قيام الساعة ، لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا ، قال ابن جرير عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما قال ابن مسعود رضى الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هى يوم القيامة ، قال ابن كثير وهذا إسناد صحيح عنه وبه يقول الحسن البصرى وعكرمة فى أصح الروايتين عنه والله أعلم . والمعنى:إننا يوم القيامة لنسلطن عليهم بأسنا وننتقم منهم أشد الانتقام ولا يجدون شفيعاً ولا وليا ولا نصيراً يمنع عنهم عقابنا .

طرف من قصة موسى

قال تعالى :

* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾

معانى المفردات

(فتنا) أى بلونا وامتحنا ، (كريم) أى جامع لخصال الخير والأفعال المحمودة قاله الراغب ، (أدوا إلى عباد الله) أى أطلقوا وسلموا ، (أمين) أى ائتمنه الله على وحيه ورسالته ، (وأن لا تعلوا على الله) أى لا تستكبروا على الله بالاستهانة بوحيه ، (بسلطان مبين) أى بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها ،

(عذت بربى وربكم) أى التجأت إليه وتوكلت عليه ، (أن ترجمون) أى تؤذونى ، (فاعتزلون) أى كونوا بمعزل منى لا علىّ ولا لى ولا تتعرضوا لى بسوء ، (مجرمون) أى كافرون ، (أسر بعبادى) أى سر بهم ليلاً ، (متبعون) أى يتبعكم فرعون وقومه ، (رهواً) أى ساكناً ، (مقام كريم) أى مجالس ومنازل حسنة ، (نعمة) أى حسن ونضرة . قال الزمخشرى : النعمة (بالفتح) من التنعيم (وبالكسر) من الإنعام ، (فاكهين) أى طيبى الأنفس ناعمين ، (فما بكت عليهم السماء والأرض) أى لم تكترث لهلاكهم ولا اعتدت بوجودهم ، (منظرين) أى ممهلين ومؤخرين ، (العذاب المهين) أى الشديد الإهانة والإذلال ، (عالياً) أى جباراً متكبراً ، (من المسرفين) أى فى الشر والفساد ، (اخترناهم) أى اصطفيناهم ، (على علم) أى عالمين باستحقاقهم ذلك (على العالمين) أى عالمى زمانهم (الآيات) أى المعجزات كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ، (بلاء مبين) أى اختبار ظاهر .

« المناسبة واجمال المعنى »

بعد أن ذكر سبحانه أن مشركى مكة أصروا على كفرهم ولم يؤمنوا برسولهم ، أردف هذا بيان أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم ، فكثير قبلهم كذبوا الرسل ، فها هم أولاء قوم فرعون قد كان منهم مع موسى مثل ما كان من قومك معك ، بعد أن أتاهم بالبينات التى كانت تدعو إلى تصديقه ، فكذبوه فنصره الله عليهم وأغرق فرعون وقومه وجعلهم مثلاً للآخرين .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول آمين** ﴾ .

أى : ولقد اختبرنا قبل مشركى قومك ، قوم فرعون وهم مثال قومك فى جبروتهم وطغيانهم ، وعتوهم واستكبارهم ، فأرسلنا إليهم الرسول الكريم موسى عليه السلام فقال لهم : أيها القوم ارسلوا معى بنى إسرائيل وأطلقوهم من أسركم وتعذيبكم إنى رسول من الله مأمون على ما أبلغكم غير متهم فيه . كقوله تعالى : ﴿ **وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين ◌ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين** ﴾أى: وأن لا تطغوا وتبغوا على ربكم فتكفروا به وتعصوه فتخالفوا أمره ــ لأنى آتيكم بحجة واضحة على حقية ما أدعوكم إليه ، لمن تأملها وتدبر فيها ، وقوله تعالى : ﴿ **وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون** ﴾ أى وإنى ألتجىء إلى الله الذى خلقنى

(١) الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الأعراف

وخلقكم ، أن لا تصلوا إلىّ بسوء من قول أو فعل، كقوله تعالى : ﴿ **وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون** ﴾ أى وإن لم تصدقونى و لم تؤمنوا بالله لأجل برهانى ، (فاعتزلون) أى كونوا بمعزل منى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا، وقيل : فخلوا سبيلى وكفوا عن أذاى ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾ ، (فدعا ربه) فيه حذف تقديره فكفروا فدعا ربه ، (أن هؤلاء قوم مجرمون) أى مشركون قد امتنعوا من إطلاق بنى اسرائيل ، ومن الإيمان بالله الواحد القهار ،ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ **وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون** ﴾[2] وحينئذ أمره الله أن يخرج بنى إسرائيل من بين أظهرهم بلا أمر فرعون ولا مشورته ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : — ﴿ **فأسر بعبادى ليلاً** ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادى ، أى بمن آمن بالله من بنى إسرائيل (ليلاً) قبل الصباح .

وقوله تعالى : ﴿ **إنكم متبعون** ﴾ أى أن فرعون وقومه سيتبعونكم إذا علموا بخروجكم ، ومسيركم ليلا يؤخر علمهم بذلك ، فلا يدركونكم .

وقوله تعالى : ﴿ **واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون** ﴾ أى وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك فاتركه ساكنا على حاله ، التى كان عليها حين دخلته حتى يدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه .

روى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر رجع ليضربه بعصاه حتى يلتئم خوفاً من فرعون وجنوده أن يتبعوه ، فأمر أن يتركه كما هو حتى يدخلوه ، وإنما أخبر سبحانه موسى بغرقهم ليطمئن قلبه فيترك البحر كما هو .

وقوله تعالى : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين** ﴾ .

أي كم ترك فرعون وقومه بعد مهلكهم من بساتين فيحاء ، وحدائق غناء ، وزروع ناضرة ، وقصور شاهقة ، (كذلك) أى هكذا فعلنا بهؤلاء الذين كذبوا رسلنا وهكذا نفعل بكل من عصانا وخالف أمرنا ، كما قال سبحانه : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب * ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**

---

(١) الآية ٢٧ من سورة غافر

(٢) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة يونس

وأن الله سميع عليم ، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾(١)

وقوله تعالى : ﴿ **وأورثناها قوماً آخرين** ﴾ أى وأورثنا تلك البلاد بما فيها من خير عميم ، ونعيم عظيم ، قوما غير أهلها ، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية ، وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو اسرائيل كما قال تبارك اسمه : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾(٤) .

قال ابن كثير : أى لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فيبكى على فقدهم ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم .

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : فى مسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكيا عليه »(٣)

وتلا هذه الآية ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ — وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملا صالحا يبكى عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم .

قال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً قال فقلت له أتبكى الأرض ؟ فقال أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل ؟ وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾(٤) كانوا أهون على الله عز وجل من أن تبكى عليهم السماء والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ **ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين** ﴾ .

أى ولقد خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد وقتل الأبناء واستحياء النساء وتكليفهم بالأعمال الشاقة إلى نحو ذلك من وسائل الخسف والضيم إذ كان جبارا متكبراً مسرفاً فى الشر والفساد ،

---

(١) الآيات : ٥٢ — ٥٤ من سورة الأنفال

(٢) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف

(٣) الحديث أخرجه أبو يعلى الموصلى عن أنس فى ...

(٤) الآية ٢٩ من سورة الدخان

ولا أدل على ذلك من ادعائه الألوهية إذ قال أنا ربكم الأعلى ، كما قال سبحانه : ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾ أى ولقد اصطفيناهم على عالمى زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب وأرسلنا فيهم من الرسل ، ونحن عالمون بأنهم أهل لكل مكرمة وفضل لصبرهم وجهادهم مع النبى موسى (عليه السلام) . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين** ﴾ أى وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ **ما فيه بلاء مبين** ﴾ أى اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به .

منكرو البعث وجزاؤهم

قال تعالى :

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

معانى المفردات

(بمنشرين) أى بمبعوثين ، يقال نشر الله الموتى وأنشرهم إذا أحياهم ، (وتبّع) واحد التبابعة ، وهم ملوك اليمن .

(لاعبين) أى عابثين ، (بالحق) أى بسبب الحق وهو الإيمان بالله والطاعة له ، (يوم الفصل) هو

---

(١) الآيتان : ٤ ، ٥ القصص

(٢) الاية : ٢٠ من سورة المائدة

يوم القيامة ، سمى بذلك لأنه يفصل فيه الحق والباطل (ميقاتهم) أى وقت موعدهم ، (يغنى) أى ينفع ، (مولى) أى حليف . (شجرة الزقوم) هى شجرة ذات ثمر مّر تنبت بتهامة ، شبهت بها الشجرة التى تنبت فى الجحيم ، (الأثيم) أى الكثير الآثام والذنوب وهو الكافر ، (المهل) درديّ الزيت أو المعدن المذاب ، (والحميم) الماء الذى تناهى حره ، (والعَتل) أن تأخذ بمنكبى الرجل فتجره إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة ، قال ابن السكِّيت : عتلته إلى السجن وأعتلته إذا دفعته دفعاً عنيفاً ، (سواء الجحيم) وسطها .

المناسبة واجمال المعنى

عود على بدء — كان الكلام أولاً فى كفار قريش ، إذ قال فيهم : بل هم فى شك يلعبون ، أى أنهم فى شك من البعث والقيامة ، ثم بين كيف أصروا على كفرهم ، ثم ذكر أن قوم فرعون كانوا فى إصرارهم على الكفر كهؤلاء ، وقد أهلكهم الله وأنجى بنى إسرائيل ، ثم رجع إلى الحديث الأول ، وهو إنكارهم للبعث ثم توعدهم بأنه سيستن بهم سنة من قبلهم من المكذبين ، فقد أهلك من هم أقوى منهم بطشاً وأكثر جنداً ، هذا لانه سبحانه خلق السموات والأرض بالحق وما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ثم ذكر سبحانه يوم البعث ، يوم القيامة ، يوم الجزاء على الأعمال فـ ﴿ **الذين كفروا لهم عذاب شديد ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾[1] .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إن هؤلاء ليقولون ، إن هى إلا موتتنا الأولى ، وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين** ﴾ .

(إن هؤلاء ليقولون) يعنى كفار قريش (إن هى إلا موتتنا الأولى)أى: إن هى إلا حياتنا الدنيا ، ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ، (وما نحن بمنشرين) أى بمبعوثين . قيل : إن قائل هذا من كفار قريش أبو جهل ، قال : يا محمد ، إن كنت صادقاً فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا ، أحدهما — قصى بن كلاب فإنه كان رجلا صادقاً ، لنسأله عما يكون بعد الموت ، وهذا القول من أبى جهل من أضعف الشبهات ، لأن الإعادة إنما هى للجزاء لا للتكليف ، فكأنه قال :إن كنت صادقاً فى إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف .. حكاه الماوردى .

ثم خاطبوا من وعدوهم بالنشور ، وهم النبى وأصحابه وقالوا لهم : (فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) أى إن كان البعث حقا كما تقولون فعجلوا لنا بإحياء آبائنا الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا إن كنتم صادقين فيما تدّعون .

---

(١) الآية ٧ من سورة فاطر

وهذه حجة داحضة ، فإن المعاد يوم القيامة بعد انقضاء الدار الدنيا حين يعيد الله العالمين خلقا جديداً ، ومن ثم لم يتعرض الكتاب الكريم لردّ ما قالوا بل قال لهم مهدداً متوعداً منذراً بأسه الذى لا يرد :

﴿ **أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين** ﴾ أى إن نظراءهم المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع أهلكهم الله وخرب ديارهم وشردهم فى البلاد شَذَرَ مذَرَ ، وقد كانوا أقوى منهم جندا وأكثر عدداً ، وكانت لهم دولة وصولة ، وهؤلاء ليسوا فى شيء من ذلك — وكذلك فعل بمن قبلهم كعاد وثمود إذ كانوا فى خسران بين بكفرهم وإنكارهم للبعث والنشور ، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم** ﴾ .

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) أى وما خلقنا الخلق عبثاً بأن نوجدهم ثم نفنيهم بغير امتحان بطاعتنا ، واتباع أمرنا ونهينا وبغير مجازاة للمطيع على طاعته ، والعاصى على معصيته ، بل خلقناهم لنبتلى من أردنا امتحانه منهم بما شئنا ولنجزى الذين أساءوا بما عملوا ونجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

(ما خلقناهما إلا بالحق) أى إلا بالأمر الحق وقيل إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته .

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون ذلك ، منهم لا يخافون من سخطه عقوبة لهم على ما اجترحوا من السيئات ، ولا يرجون ثوابا على خير ما فعلوه لتكذيبهم بالميعاد والعودة إلى دار أخرى بعد هذه الدار .

ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾[2] .

وكقوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾[3] .

وكقوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[4] . وكقوله جل فى علاه : ﴿ **افحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون،**

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب
(٢) الآيات ١٦ — ١٨ من الأنبياء
(٣) الآيات ٢٧ — ٢٩ من سورة (ص)
(٤) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الجاثية

فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم * ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾[١] .

فذلك ظن الذين كفروا ، أما الذين آمنوا فقد وصفهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار* ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار* ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار* ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾**[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين * يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ﴾** .

أى إن هذا اليوم الذى يفصل الله فيه بين خلقه فيحق الحق ، ويبطل الباطل ، لآت لا محالة وهو وقت حسابهم ، وجزائهم على ما كسبت أيديهم من خير أو شر ، ﴿ **يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون** ﴾ ، أى إن هذا يوم تنقطع فيه الأسباب بابن آدم فلا تنفع الناس إلا أعمالهم ، فمن أصاب خيراً فى دنياه سعد به ، ومن أصاب شرّاً شقى به ، ولا يغنى القريب عن القريب ولا يدفع عنه شيئا من عذاب الله ، ولا يجد الناصر الذى يقيه ذلك العذاب . كقوله تعالى : ﴿ **لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير** ﴾[٣] ، وكقوله عز وجل : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾[٤] وكقوله جلت قدرته ﴿ **ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم** ﴾ .

أى ولكن من رحمه الله فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه ولا إلى ناصر ينصره قاله الكسائى ، وقال القرطبى : ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً ، أى لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم فى شفاعة بعضهم لبعض (إنه هو العزيز الرحيم) العزيز المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه فقرن سبحانه الوعد بالوعيد .

---

(١) الآيات ١١٥ — ١١٧ من سورة المؤمنون
(٢) الآيات من ١٩٠ إلى ١٩٥ من سورة آل عمران
(٣) الآية ٢ من سورة الممتحنة
(٤) الآية ١٠١ المؤمنون
(٥) الآيتان ١٠ ، ١١ من المعارج

قوله تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾ .

(إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) أى إن الزقوم وهو ثمر هذه الشجرة التى فى الجحيم طعام الكافر كثير الذنوب والآثام .

وشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسماها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، غلت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار لذا قال سبحانه : ﴿ **كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم** ﴾ . وشبه ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب ويكون كالماء الحار إذا اشتد غليانه .

قوله تعالى : ﴿ **خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم** ﴾ أى ويقال للزبانية « ملائكة جهنم » خذوا هذا المجرم فادفعوه دفعا إلى وسط جهنم ، لينال قسطه من عذابها ﴿ **ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم** ﴾ أى وبعد أن تدخلوه فيها صبّوا فوق رأسه من الماء الساخن الذى ذكرنا صفته . كقوله تعالى : ﴿ **يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾ قال قتادة : نزلت فى أبى جهل وكان قد قال : ما فيها ــ مكة ــ أعز منى ولا أكرم ، فلذلك قيل له : ذق إنك أنت العزيز الكريم ، ومعنى الآية أى ذق هذا الذل والهوان اليوم ، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم ، وها هو ذا قد تبين لك أنك أنت الذليل المهين .

(إن هذا ما كنتم به تمترون) أى إن هذا العذاب الذى تعذبون به هو العذاب الذى كنتم تشكون فيه فى الدنيا ، فتختصمون فيه ، ولا توقنون به ، فقد لقيتموه فذوقوه كقوله تعالى : ﴿ **يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعلمون** ﴾[2] .

---

(١) الآيات ١٩ ــ ٢٢ من سورة الحج

(٢) الآيات ١٣ ــ ١٦ من سورة الطور

جزاء المتقين

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

معانى المفردات

(فى مقام أمين) أى فى مجلس أمنوا فيه من كل هم وحزن ، (سندس) أى ديباج رقيق (إستبرق) أى حرير فيه بريق ولمعان ، (زوجناهم) أى قرناهم (بحور عين) أى بجوار بيض حسان واسعات العيون (يدعون) أى يطلبون (وقاهم) أى حفظهم (ارتقب) أى انتظر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الكافرين ، وما يرونه من الأهوال فى ذلك اليوم ـــ أعقب هذا بوعد المتقين بما يلاقونه فى جنات النعيم من ضروب التكريم فى الملبس والزوجات والمآكل ثم ، ببيان أن هذا النعيم أبدى خالد لا يعقبه موت ولا تحول ولا انتقال ، ثم ختم السورة بالمنة على العرب فى نزول القرآن بلغتهم لعلهم يعتبرون ويتعظون به ، ثم توعدهم إذا هم كذبوا بما جاء به الرسول بحلول النقمة بهم ، والنصر له عليهم .

التفسير

قول تعالى : ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين ، فى جنات وعيون ، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمين** ﴾ .

قال ابن القيم : « المقام » موضع الاقامة « والأمين » الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذى قد جمع صفات الأمن كلها . فهو آمن من الزوال والخراب ، وأنواع النقص ، وأهله آمنون فيه من الخروج والنقص والنكد ، والبلد الأمين الذى قد أمن أهله ، فيه مما يخاف منه سواهم ، وقال ابن كثير : قد آمنوا فيها من الموت والخروج ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ، ومن الشيطان وكيده ، وسائر الآفات والمصائب ، (فى جنات وعيون) وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم وشرب الحميم ، فالمتقون

فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . (يلبسون من سندس) وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها (وإستبرق) وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالى القماش ، (متقابلين) أى على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره فهم متواجهون يدور بهم مجلسهم حيث داروا .

وقوله تعالى : ﴿ **كذلك وزوجناهم بحور عين** ﴾ أى هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتى ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾[١] ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾[٢] ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾[٣] « والحور » جمع حوراء . وهى المرأة الشابة الحسناء ، الجميلة ، البيضاء شديدة سواد العين ، والعين هن اللاتى جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة .

ذكر ابن المبارك : عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم ، ومن تحت سبعين حُلة ، كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء ، وقال القرطبى : وعن أبى قرصافة سمعت النبى ﷺ يقول : « إخراج القمامة من المسجد مهور الحور العين »[٤] وعن أنس أن النبى ﷺ قال « كنس المساجد مهور الحور العين » ذكره الثعلبى رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾ قال قتادة : آمنين من الموت والوصب والشيطان . وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم ، أو من أن ينالهم من أكلها أذى أو مكروه .

قال الامام ابن القيم : « وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن فى قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين** ﴾[٥] ، وفى قوله تعالى : ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾ فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ، ولا سوء عاقبتها ومضرتها ، وأمن الخروج منها ، فلا يخافون ذلك ، وأمن الموت ، فلا يخافون فيها موتاً » .

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الرحمن
(٢) الآية : ٤٩ من سورة الصافات
(٣) الآية ٥٨ من سورة الرحمن
(٤) الحديث فى الدر المنثور فى تفسير قوله تعالى « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » ج ٤ ، ص ١٤٤ عن أبى قرصافة .
(٥) الآية ٥١ من سورة الدخان

الأمن فى ظل الإسلام

مقدمة ..

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ . أما بعد :

فإن الأمن هو النعمة العظمى بعد الإيمان بالله لذا فإن الله تعالى سمى نفسه المؤمن أى الذى يؤمن عباده ، ويكفى الأمن شرفا وقدراً أنه من أسماء الله تعالى الحسنى ، ولقد قدمه الله تعالى على نعمة الرزق فقال سبحانه : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان** ﴾[(١)] وجعل الله الأمن كلمة جامعة وافية كافية شافية جزاء للمؤمنين فبعد ما سأل القرآن هذا السؤال﴿ **فأى الفريقين أحق بالأمن** ﴾[(٢)] أجاب فى صراحة ووضوح وشموخ ورسوخ وبزوخ قائلا : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾[(٣)] وقد وصف الله تعالى دار الخلد بأنها مقام أمين فقال عز من قائل ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾[(٤)].

ولقد امتن الله تعالى على قريش بالأمن من الخوف فقال : ﴿ **الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾[(٥)] ، وقال : ﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا** ﴾[(٦)] وقال : ﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا** ﴾[(٧)] .

والحقيقة أنه لا حياة مع الخوف إذ تتحول الدنيا بلا أمن إلى أرض مسبعة يفترس القوى فيها الضعيف وتصبح الحياة ظلمات بعضها فوق بعض كأنها بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، والحياة مع الأمن تصير جنات ظلالها وارفة يتبوأ الإنسان فيها حياة طيبة مباركة ويعيش عيشة راضية يثمر وينتج يصون ولا يبدد ، ويحمى ولا يهدد ، يتفيأ ظلال الحرية ، ويأخذ مكانه تحت الشمس ، لذلك فإن الإسلام هو دين الأمن والأمان ، والعزة والكرامة ، والإخاء والمساواة ، والحرية والرفعة ، فلنعمل جميعاً على تحقيق هذه النعمة العظيمة نعمة الأمن ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون وطوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

---

(١) من الآية ١١٢ من سورة النحل

(٢) من الآية ٨١ من سورة الأنعام

(٣) من الآية ٨٢ من سورة الأنعام

(٤) الآيات ٥١ ــ ٥٥ من سورة الدخان

(٥) الآية رقم ٤ من سورة قريش

(٦) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت

(٧) من الآية ٥٧ من سورة القصص

أهمية الأمن :

حقا إن الأمن كلمة خفيفة على اللسان عميقة الوجدان ، مطمئنة للجنان ، إنه فعلا نعمة عظمى ، وغاية يسعى إليها كل إنسان ، بل هى مطلب أساسى ، لا تستقيم الحياة بدونه ، وضعه الحق سبحانه وتعالى جنبا لجنب مع المطلب الأول الذى يسعى إليه كل كائن حى وهو الطعام ، بل إنه سبحانه جل شأنه قدم نعمة الأمن على نعمة الرزق فقال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان** ﴾[١] ولم يمن الحكيم الخبير على قريش بنعمة كما من عليها بآية أطعمها من جوع وآمنها من خوف فقال جل شأنه : ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف** ﴾[٢] .

﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء** ﴾[٣] .

﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا** ﴾[٤] .

بل إن العلى القدير جعل الأمن هو غاية المنى ، والجزاء الأوفى ، لمن جاهدوا واستمسكوا بالعروة الوثقى ، واتبعوا طريق من سبقونا بالإيمان لم يبالوا بما فيه من صعوبات ومشقات ، فقال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾[٥] .

لماذا ؟ لأنهم خافوا مقام ربهم فجعل الأمن عاقبة أمرهم لأنه|قال وقوله الحق فى حديثه القدسى :« لا أجمع لعبدى أمنين ، ولا خوفين أبدا ، إن هو أمننى فى الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن هو خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة »[٦] .

فما هو الأمن الذى نال هذه المكانة العظمى ، وجعله الله أسمى الغايات للمؤمنين يتجاوب معه كيانهم وتتشوق إليه أرواحهم وتتطلع إليه أفئدتهم ؟ هل هو الطمأنينة ؟ هل هو السعادة ؟ أهو الاستقرار العائلى والوظيفى ؟ أهو ضمان الرزق والعيش فى رغد من الحياة ؟ أهو أمن الدولة بالمحافظة على حدودها الخارجية وعدم القلقلة والاضطرابات داخليا ؟ أم هو أمن النفس البشرية وحمايتها من تيارات العواصف التى تطيح بها وتجعلها تئن تحت الضغوط الدنيوية وتسبب لها القلق والضياع .

أسئلة كثيرة تدور فى أعماق كل إنسان تجعله يتحير فى اختيار إجابة محدودة واضحة المعالم عن الأمن ، ليس هذا فقط بل إنها تصبغ حياة الناس بصبغة معينة تجعل كلا منهم يتحرك فى كل اتجاه ويجرى وراء

---

(١) الآية : ١١٢ من سورة النحل
(٢) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة قريش
(٣) الآية ٥٧ من سورة القصص
(٤) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة
(٥) الآية ٨٢ من سورة الأنعام
(٦) الحديث فى إحياء علوم الدين ج ٤ ، ص ١٥٩ ، ج ٤ ، ص ١٦٢

كل ما يتصور أنه يحقق له الأمن . ومن مجموع هذا الإنسان تتكون المجتمعات فالشعوب فالدول ، وتتحدد العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وبالتالى فلنا أن نتصور خطورة الموقف فى تحديد مفهوم الأمن لأنه بناء على هذا المفهوم ستدور عجلة الحياة ، إن خيراً أو شرّاً وسوف تتشكل العلاقات الداخلية والخارجية لكل دولة على حدة ثم تتشكل العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب .

ولذلك سنحاول بإذن الله أن نوضح ما وسعنا الجهد مفهوم الأمن ، ثم نوضح المنهج الإسلامى فى الأخذ بالنفس الإنسانية ، نحو أمن الدنيا ، وأمن الآخرة ، حتى إذا جاء أجلها سعت إلى ربها فرحة مستبشرة ، بقوله الحق : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾[1] .

مفهوم الأمن عند الناس

نظرا لأن الأمن هو إحساس داخلى فى النفس البشرية يدعمه الواقع العملى ، فإنه من الصعب بمكان على الإنسان أن يحدد مفهوما واضح المعالم للأمن ، لأن هذا المفهوم يختلف من إنسان لآخر حسب قدراته النفسية ، والعقلية ، وظروفه الاجتماعية والاقتصادية ، كما أن هذا المفهوم أيضا يتغير من دولة لأخرى حسب وضعها الجغرافى،وظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فإذا سألنا كل واحد منا هذا السؤال : كيف يتحقق لك الأمن ؟ نجد أن الإجابات قد تنوعت تنوعا لا حد له : فالبعض يرى أن الأمن من وجهة نظره هو ألا يخاف على نفسه وولده من التعرض للسرقة أو الخطف أو القتل سواء فى منزله أو الطرق التى يسير فيها ، أو وسائل النقل العامة ، أو فى أى مكان حل فيه أو ارتحل عنه بمفرده ، أو مع أهله وأحبابه وأصدقائه .

والبعض الآخر : يرى أن الأمن هو ألا يتعرض لإهمال جسيم يودى بحياته هباء إذا مرض ، أو أصيب فى حادث ، هو أو أى فرد من أفراد أسرته ، فيجد الدواء متوفراً فى متناول يده ، ويجد المستشفى الذى ينتقل إليه بسهولة ويسر ، ويجد القلب الرحيم والرعاية اللازمة التى تنقذ حياته ، أو حياة أحبائه فيشعر أنه إنسان ينتمى لوطن غال يقدر قطرات العرق والجهد الذى يبذله فى إدارة عجلة الحياة والإنتاج .

---

(١) الآيات ٢٧ - ٢٩ من سورة الفجر

ـــ وهناك بعض ثالث : يرى أن الأمن هو ألا يشعر أنه مهدد فى رزقه ومستقبله ، وأن هناك من القوانين الاجتماعية ما يحميه ، فى حالة الشيخوخة والمرض ، أو فى حالة أن يطرده صاحب العمل فى أى وقت يشاء . بدون أى ذنب يجنيه سوى أنه يقول الحق ولا شيء غير الحق .

ـــ وهناك من يرى : أن الأمن جمع المال فيجرى وراء جمعه بشتى الطرق لا يهمه فى ذلك من أى الطرق جمعه حلالا كانت أم حراما ؟ ولا يهمه فى أى الطرق أنفقه ، أكانت فى مرضاة الله أم فى مرضاة نفسه وشهواته وأطماعه .

ـــ وهناك النساء : وهن نسبة كبيرة فى المجتمع لها وزنها وثقلها الذى لا ينكره أحد ، فهن المدرسة التى تخرج الأجيال التى تحمل على سواعدها بناء المجتمع وفى رعايتهن الرعاية الطيبة ، إعداد شعب طيب الأعراق ، هؤلاء النساء يرون أن الأمن هو ألا تعيش الواحدة منهن مهددة فى مستقبلها يعتصرها الخوف من أن تجد نفسها فجأة مطلقة . ومحرومة من أعز ما لديها وهو فلذات أكبادها ، أو تجد نفسها شريدة وحيدة لا تجد القوت الذى يكفيها ، وبالتالى عليها أن تخوض غمار الحياة تصارع أمواجها لتحافظ على كيانها كإنسانة وعلى عقيدتها ومبادئها التى تمنعها من الانحراف .

ـــ وهناك من يرى أن الأمن فى ألا تضيع حقوقه ، بين المحاكم إذا اقتضاه الأمر للتقاضى ويجد القاضى العادل المنصف الذى يحكم بالحق ، فلا تميل بيديه إحدى كفتى الميزان ، فيشيع الظلم وهو المعول الأساسى فى انهيار المجتمعات .

ـــ وهناك : من يرى الأمن فى العدالة الاجتماعية حيث لا محسوبية ولا رشوة ، ولا نفاق ولا تفاوت رهيب فى توزيع الدخول يؤدى إلى سيطرة طبقة على أخرى بحيث يصبح حينذاك فئة طاغية من كثرة المال الذى يزيد عن الحد وفئة مطحونة من شدة الفقر وهى تمثل الغالبية العظمى من الشعب وبالتالى تفقد الحافز على الإنتاج لأنها مهما تعبت فإن الهوة ستظل كبيرة ، حيث الفقر حركة تراكمية لأسفل والغنى حركة تراكمية لأعلى ، وهذا يؤدى إلى تدهور البنيان الاجتماعى فى الدولة ، فيفقد الجميع الإحساس بأى نوع من أنواع الأمن .

ـــ كثيرون كثيرون فى المجتمع كل منهم تدور فى أعماقه مفاهيم معينة عن الأمن ، ولو أن الغالبية العظمى منهم تتصور أن هذا الأمن لابد وأن يتحقق مع التقدم والرفاهية وتطبيق الديمقراطية الغربية ، فإذا كان الأمر كذلك كما يتصورون ، فلم تعانى معظم الشعوب الأوروبية وشعوب الولايات المتحدة الأمريكية ، الإحساس بفقدان الأمن ؟ رغم أن تقدمها يمثل حلما لكل الدول المتخلفة وتمثل ديمقراطيتها قمة مشاركة الشعوب فى صنع قراراتها المصيرية بنفسها وأعلى درجة من الرقابة الشعبية على الحكام مما تتباهى به تلك الدول نفسها على شعوب الكرة الأرضية بأسرها !!

ومع ذلك نجد أن العذاب النفسى ، والشقاء الروحى ، والشذوذ الجنسى ، والانحلال الخلقى ، الذى تقاسى منه هذه الأمم اليوم ، ليكاد يغطى على الإنتاج والرخاء والمتاع ، ويكاد يصبغ الحياة كلها بالكفر والقلق والشقاء وفقدان الأمن بكل معانيه .

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية ، والبشرية تذوق منها الكثير ، إذا بعدت عن منهج الله ، لأن سنة الله فى الكون هى مصداق قوله تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾[1] .

إذن فالأمن الحقيقى هو فى منهج الله العظيم الذى نزل به الروح الأمين على قلب سيد الخلق وإمام المرسلين ليكون رحمة للعالمين ، وهذا ما خاطبه به أصدق القائلين حيث قال :

﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[2]

﴿ **فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾[3]

﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[4]

﴿ **فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة** ﴾[5]

﴿ **وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾[6]

﴿ **ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك** ﴾[7]

ذلك الرسول الذى اجتمعت حوله القلوب ، فأشاع فيها الأمن حتى وصف بأنه نبى الرحمة وقال فى مدحه أمير الشعراء :

فإذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هما الرحماء

ولنا أن نتخيل مجتمعاً ودستوره ... الرحمة وملجؤه الرحمن الرحيم

أى أمن وأى طمأنينة تشيع فيه ، حقا إن الإسلام وضع مفهوما للأمن تتطلع إليه القلوب ، وتشرئب إليه الأرواح ، لأنه من عند حكيم خبير ، حدده فى آيات قرآنية تشع نورا وبهاء فقال جل شأنه : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ، ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾[8] .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام

(٢) الآية ١٠٧ الأنبياء

(٣) الآية ٥٤ من سورة الأنعام

(٤) الآية ٨٩ من سورة النحل

(٥) الآية ١٥٧ من سورة آل عمران

(٦) الآية ٥٧ من سورة يونس

(٧) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

(٨) الآيات ١٣٣ إلى ١٣٧ من سورة طه

مفهوم الأمن الاسلامى

إن مفهوم الأمن الإسلامى عميق كل العمق ، شامل كل الشمول ، فيتناول الإنسان نفسا وروحا وجسدا ، يتناول واقعه العملى ، وهو الدنيا التى يعيش فيها ومعاده الأزلى ، وهى آخرته التى سيرجع إليها .

المنهج الاسلامى لتحقيق الأمن

إن الاسلام حقق الأمن للإنسان فى صورة مضيئة مشرقة حيث أفاض على القلوب الطمأنينة وعلى العقول النضج والوعى . ونقل البشرية إلى تلك القمة الساحقة وفتح لها آفاقا واسعة ، سواء فى ذلك الآفاق المكانية ، أو الزمانية لتجول فيها وتعرف أن وعد الله حق وأن لا ملجأ من الله إلا إليه بالاعتصام به واتباع منهجه .

﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾[1]

﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[2]

﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها ﴾[3]

وهكذا فإن تلك الآفاق تحرر الإنسان من وطأة بشريته التى تسجنه داخل جدران جسده ، وعقله وأهوائه وشهواته ، وتسبب له القلق والضياع .

ثم لم يقتصر الإسلام على ذلك بل إنه وضع منهجا متكاملا لذلك الإنسان ، يحقق له الأمان المطلق الذى تنشده كل نفس بشرية ، يشمل هذا المنهج خمسة دعائم أساسية تشكل فى مجموعها دين الإنسان ودنياه ، واقعه وأخراه ، احتياجاته العاجلة واحتياجاته الأخروية ، تلك الدعائم هى : —

١ — الأمن للعقيدة : حيث تشدد فى توحيد العقيدة ، وبين أن الإسلام هو رسالة الرسل أجمعين . ووضع دعائم الإيمان بالغيب كأساس لتقوية العقيدة . وصحح عقائد أهل الكتاب وحرم الردة .

٢ — الأمن للنفس : حيث عالج مخاوف النفس البشرية بشتى صورها سواء الخوف من الموت ، أو فوات الرزق ، أو المصاعب والمخاطر ، وحارب المذموم من الأخلاق كالغيرة والحسد والنفاق ، والغش ، والكذب ، والخديعة ، والغيبة والنميمة ، وعالج اليأس ، أخطر أعداء النفس البشرية .

٣ — الأمن للعقل : حيث أعد البشرية للرشد العقلى ، وحمايتها من استنفاد العقل فى تيه الفلسفات المذهبية وأهلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة فى أدراك الحق وأسرار الخلق ، ولذلك كان هناك من القوانين الإلهية ، الكثير لحماية ذلك العقل أهمها تحريم المسكرات ، وكل ما يضر بالعقل بزجه فى متاهات الجاهلية العمياء .

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٣٧ من سورة ق

(٣) الآية ١٠٥ يوسف

٤ ــ الأمن للعرض : حيث حدد منهجه فى الحفاظ على العرض بتحريم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ؛ ليعين الناس على التسامى ويطهر المجتمع مما يشوبه من أدران تسبب له القلق والضياع .

٥ ــ الأمن للمال : فالمال عصب الحياة وأى اختلال فى تداوله يعرض المجتمعات الإنسانية إلى هزات اقتصادية عنيفة ، فحرم كل طريقة لتداول الأموال بالباطل ، مثل السرقة أو الغش أو الرشوة ، أو القمار أو احتكار الضروريات لإغلائها ، أو جميع أنواع البيوع المحرمة .

وسنتناول بالتفصيل إن شاء الله تلك النقاط الخمس لنوضح كيف يحقق الإسلام الأمن للبشرية وكيف يعصمها من السقوط فى مهاوى القلق ، وكيف يأخذ بيدها إلى الطمأنينة والرضا والسعادة ، التى هى مطمع كل إنسان وغاية مسعاه .

فالله يقول الحق وهو أصدق القائلين :

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾(١)

﴿ وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾(٢)

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾(٣)

ولنا أن نتخيل مجتمعاً دستوره الرحمة ، وملجؤه الرحمن الرحيم ، ونبيه هو نبى الرحمة : أى أمن وأى طمأنينة تشيع فيه . فلنرهف السمع ، ونوقظ الحواس ، ونحن ننصت إلى ما جاءت به الشريعة الغراء لترسى بكل الوضوح وبكل معانى العظمة دعائم الأمن ليكون هو البشرى وهو الغاية وهو الجزاء الأوفى **﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾**(٤)

﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾(٥)

﴿ إن المتقين فى مقام آمين ﴾(٦)

---

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء
(٢) الآية ٥٧ من سورة يونس
(٣) الآية ٥٢ من سورة الأعراف
(٤) الآية ٨٢ من سورة الأنعام
(٥) الآية ٣٧ من سورة سبأ
(٦) الدخان ٥١

أولاً : تحقيق الأمن للعقيدة :

إن المنهج القرآني فى دعم العقيدة الإسلامية غنى وزاخر ، ويجل عن الوصف،وكيف لا والتشريعات والتوجيهات الإسلامية كلها تنبع من أصل واحد ، وترتكز على ركيزة واحدة ، وهى عقيدة التوحيد المطلق ، ومن تلك العقيدة فى الله تنبع كل التصورات الأساسية التى تقوم عليها المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والأخلاقية ، والتى تؤثر على علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفى العلاقات الدولية ، كما أنها تجعل العبادات قاعدة للمعاملات بما فيها من تطهير للضمير والسلوك ، وبالتالى فإن أى خلل فى دعم تلك العقيدة معناه إشاعة القلقلة والاضطرابات فى المجتمع الإنسانى حيث يتبع كل فرد هواه مما يترتب عليه الفوضى الشاملة فى المجتمع ككل : ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾[(١)]

فما هى تلك الخطوات التى اتخذها المنهج الإلهى لدعم العقيدة الإسلامية ؟ إن تلك الخطوات تتمثل فى نواحى شتى نوجزها فيما يلى : ــ

١ ــ التشدد فى توحيد العقيدة : ــ

إن الإسلام يتشدد فى توحيد العقيدة فى الله ورسله حماية للمؤمن من تشتته بين أهواء ونوازع شتى تبدد طاقاته الروحية ، وتضيع معالم الهدف والطريق ، قال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[(٢)]

وقال جل شأنه : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾[(٣)] .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول « لا إله إلا الله » أما اختلاف المناهج فى الشريعة ، فقد جاء حسب تطور البشرية من طفولتها المادية ، إلى شبابها الجارف إلى رجولتها الكاملة ، على يد خاتم الأنبياء ﷺ ، وما من شك فى أن البشرية فى فجرها أيام آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم ، غير البشرية أيام موسى وعيسى ، غير البشرية أيام سيدنا محمد ﷺ ، فعقيدة الأنبياء جميعاً واحدة وهى التوحيد ، أما الشرائع فإنها جاءت مطابقة لمقتضى أحوال الأمم فيما يصلحهم ديناً ودنيا .

---

(١) القصص من الآية ٥٠
(٢) من الآية ١٩ من سورة آل عمران
(٣) الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ من سورة النساء

قال تعالى :

﴿ لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ﴾[1]

وقال جل شأنه :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[2]

ولا شك أن هذا التوحيد هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس فى هذا الوجود أينما امتد بصره ، ولأنه هو التصور الكفيل بضم المؤمنين جميعاً فى موكب واحد ، هو موكب النور فى مواجهة صفوف الكفر وأحزاب الشيطان ، ومن ثم كان الإسلام هو الدين وكان المسلمون المعتقدون عقيدة صحيحة ، لم يدخلها أى نوع من أنواع الشرك هم ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾[4] .

وقد عُنِى الإسلام عناية بالغة بتقدير حقيقة وحدانية الله سبحانه ، وحدانية لا تلتبس ، بشبهة شرك ، أو مشابهة فى أية صورة من الصور ، وذلك لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ليعرفوا من صاحب السلطان فى هذا الكون وفى هذه الأرض فلا يخضعون إلا له ولمنهجه وشريعته فى الحياة ، وهنا يتحقق الأمن والطمأنينة للمجتمع المسلم .

قال تعالى فى حديث قدسى جليل يعتبر دستوراً تطبيقيّاً يؤكد على أن الإيمان بوحدانية الله والتسليم له وحده ، كفيل بتحقيق كل دواعى الأمن للإنسان المؤمن :

« يا موسى ما أحبنى من أحب المال ، وما أحبنى من أحب الدنيا ، فإنه لا يسع قلب واحد حبى وحبها أبدا ، يا موسى ما خافنى من خاف الخلق ، وما توكل علىّ من خاف فوات الرزق ، وعزتى وجلالى ما توكل علىّ عبد إلا كفيته ، وبيدى مفاتح الملك والملكوت ، وما اعتصم بى عبد الا أدخلته الجنة وكفيته كل مهمة ، ومن اعتصم بغيرى أسخت الأرض تحته . وقطعت الأسباب من فوقه ولا أبالى كيف أهلكته ، يا موسى خمس كلمات ختمت لك بهن التوارة ، إن عملت بهن نفعك العلم كله وإلا لا ينفعك شيء منه :

الأولى : لا تخف ذا سلطان ما دام سلطانى باقيا وسلطانى دائم لا يزول أبدا» .

الثانية : كن واثقاً من رزق مضمون لك مادامت خزائنى مملوءة وخزائنى مملوءة لا تنفد أبدا .

الثالثة :لا ترعيب غيرك مادام فيك عيب والمرء لا يخلو من عيب أبداً .

الرابعة : لا تدع محاربة الشيطان مادامت روحك فى بدنك فإنه لا يدع محاربتك أبداً .

الخامسة : لا تأمن مكرى حتى ترى نفسك فى الجنة ، وفى الجنة أصاب آدم ما أصاب فلا تأمن مكرى أبداً .

---

(١) الحج الآية ٦٧

(٢) من الآية ٤٨ من سورة المائدة

(٣) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران

أهمية التوحيد فى المنهج الإسلامى :

(١) قال المصطفى ﷺ : أيحب أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن كل ليلة ؟ فثقل ذلك على المسلمين وقالوا أينا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟ فقال لهم : أقرأوا : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »[١]

فلماذا احتلت سورة الإخلاص هذه المكانة ؟

يتضح هذا من اسمها فهى إخلاص الوجه لله وحده لا نشرك به سلطاناً » .

﴿ **فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾[٢] . إنه الله الذى يجب أن يقاتل المؤمنون فى سبيله لإعلاء كلمة ، الحق ولا يخشون إلا إياه سبحانه وتعالى : ﴿ **ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه أن كنتم مؤمنين** ﴾[٣]

ـــ إنه الله الواحد الذى يهدى إلى الحق من اتبع سبيله ويضل من اتبع الشهوات .

﴿ **قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق** ﴾[٤]

﴿ **أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وأضله الله على علم** ﴾[٥]

ـــ هو الواحد الأحد له ملكوت السموات والأرض .

وتلك الأحدية فى حد ذاتها لها عظمتها فى إشاعة الأمن فى الوجود كله لأنه كما قال جل وعلا : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾[٦]

ـــ وتلك الوحدانية تحرر النفس من كل خوف من آلهة عاجزة تظهر فى صورة ملوك جبارين فى الأرض وهم لا يملكون حولا ولا قوة أمام قوة الله سبحانه وتعالى .

﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾[٧] .

ـــ إنه الفرد الصمد الذى يقصده الناس فى قضاء حوائجهم ، ويغيث الملهوف ويفرج كرب المكروبين ويرفع راية المتضورين ويهدى الحيارى واليائسين .

---

(١) الحديث : أورده القرطبى فى تفسير سورة الإخلاص ج ١٠ ، ص ٢٤٧ وقال : أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى الدرداء بمعناه ا هـ . قرطبى

(٢) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون

(٣) الآية ١٣ من سورة التوبة

(٤) الآية ٣٥ من سورة يونس

(٥) الآية ٢٣ من سورة الجاثية

(٦) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء

(٧) الآية ٨١ من سورة الأنعام

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته . أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(١) .

● إنه الله الذى لم يلد و لم يولد لإنه غنى عن العالمين :

﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى ﴾(٢)

● إنه الله الذى ليس له كفوا أحد سبحانه وتعالى جل شأنه . **﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾**(٣)

﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾(٤)

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحانه وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم . النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾(٥)

سبحانك ربى لا إله إلا أنت . يا من يقف القلم عاجزا خاشعا أمام عظمة منهجك فى توحيد عقيدتنا بما يحقق للنفس اطمئنانها ، وسكونها إلى من بيده أمرها :

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد

٢ ــ **التأكيد على أن الإسلام هو عقيدة الرسل أجمعين** لا شك أن التأكيد على هذا المفهوم يجعل المسلم يزداد يقينا واعتزازا بدينه ، ويجعل نفسه تطمئن إلى ان هذا الدين هو الحق المبين حيث دعا إليه رسل الله أجمعون من عهد آدم إلى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ .

---

(١) الآيات ٦٢ ــ ٦٤ من سورة النمل

(٢) الآية ٦٨ من سورة يونس

(٣) الآية ٣٩ من سورة يوسف

(٤) الآية ٥٤ من سورة الأعراف

(٥) الآيات ٦٨ ــ ٧٢ من سورة القصص

﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾[١]

لماذا ؟ لأن الإسلام هو الرسالة التى بعث بها الأنبياء عبر تاريخ البشرية .

فها هو سيدنا نوح يخاطب قومه فيقول لهم :

﴿ **فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرتِ أن أكون من المسلمين** ﴾[٢]

ويحدثنا الله سبحانه وتعالى عن عقيدة سيدنا إبراهيم أبى الأنبياء فيقول جل شأنه : ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما** ﴾[٣]

وغرس سيدنا إبراهيم فى نفوس أولاده الإسلام وأنشأهم عليه ووصاهم به .

﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[٤]

وكان أهم ما يشغل أحد أحفاده ، وهو نبى الله يعقوب ، ساعة الموت ، حين لقاء الواحد القهار هو الوصية بدين الحق دين التوحيد ألا وهو الإسلام .

﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون** ﴾[٥]

وقالت الملائكة عندما كلفها الله بإخراج الذين آمنوا من قوم لوط ، وإهلاك الباقين الذين كذبوا به وجحدوا نعمة ربهم : ﴿ **فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾[٦]

وها هو سيدنا موسى يبلغ المنهج الإلهى فيخاطب قومه قائلاً : ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾[٧] وعندما آمن السحرة برسالة موسى وهددهم فرعون بأبشع أنواع العقاب ، قالوا له فى يقين لا يتزعزع وقلب مطمئن بحلاوة التوحيد .

﴿ **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾[٨] .

حتى فرعون عندما أدركه الغرق وعرف أنه لا ملجأ من الله إلا إليه قال : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾[٩] .

وعلى لسان سليمان يقول الحق جل وعلا :

﴿ **فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** ﴾[١٠] .

---

(١) الآية ٨٥ من آل عمران

(٢) الآية ٧٢ من سورة يونس

(٣) الآية ٦٧ من سورة آل عمران

(٤) الآية ١٣٢ من سورة البقرة

(٥) الآية ١٣٣ من سورة البقرة

(٦) الآية ٣٦ من سورة الذاريات

(٧) من الآية ٨٤ من سورة يونس

(٨) الآية ١٢٦ من سورة الأعراف

(٩) من الآية ٩٠ من سورة يونس

(١٠) الآية ٤٢ من سورة النمل

وتقول ملكة سبأ بعد أن هداها الله على يد نبيه سليمان :

﴿ **وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾[(١)]

ويحكى لنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك الحوار الربانى بينه وبين رسوله الكريم عيسى فيقول جل شأنه :

﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾[(٢)]

وقال تعالى لصفيه وحبيبه محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾[(٣)] .

وهكذا فلا حجة للناس على الله بعد الرسل ، ولا عدوان إلا على الظالمين ولا عذر لعقيدة متميعة تتأرجح بين الشك واليقين ، فالإسلام رسالة شامخة وارفة الظلال ، مغدقة الثمار ترفع رؤوس معتنقيه عالية وتملأ نفوسهم عزة وأمنا ، وتضفى على خطواتهم ثباتا وإرادة ، وكيف لا وهو عقيدة رسل الله أجمعين : صفوة البشرية وساداتها جاء بها خاتمهم وإمامهم صلوات ربى وسلامه عليه فأغدق على النفس المؤمنة الطمأنينة والسكينة ، وسد عليها كل منافذ الشك والقلق .

(٣) الإيمان بالغيب كأساس لدعم العقيدة :

إن أعظم ما يدعو لدعم العقيدة وجعلها راسخة متينة لا تتزعزع ، هو مدى الإيمان بالغيب ، فالمؤمن يتحمل ما يلاقيه من عنت ومشقة فى الحياة راضياً ، لأنه محتسب أجره عند الله ، يطلب عفوه وغفرانه ، ودخول جناته ، كما أنه يتجاوز عن الزلات ويعفو عن المسىء ويكظم غيظه ، ويدفع بالتى هى أحسن ، ابتغاء مرضاة الله إيمانا بالغيب الذى نبأنا عنه الصادق المعصوم .

إن الإيمان بالغيب هو الاختبار الحقيقى للإنسان لأنه يجاهد وجوده المادى ، فى سبيل وجوده المعنوى ، دون أن يرى الله صاحب الوجود الحقيقى ودون أن يرى الجنة أو النار ، فلو تكشف له كل هذا لخضع لله جبراً وقسراً ، واختار الجنة وخشى النار لعظمة الأولى وجمالها وهول الثانية وجحيمها . وبالتالى لا يصبح هناك مجال لتفاوت أقدار الناس ومكانتهم ولا ينصهر الإنسان وينصقل بخوض تجربة الحياة الدنيا التى أرادها الله له ، ولننصت إلى حديث رسول الله ﷺ لنعرف فضل الله على من عبده بظهر الغيب .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :[(٤)]« إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، ما يقول عبادى ؟ قال يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك قال فيقول : هل رأونى ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول كيف لو رأونى ؟ ،

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة النمل

(٢) الآية ١١١ من سورة المائدة

(٣) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة الزمر

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ج ١٠٨ ، ج ٨ طبعه الشعب

قال : فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تحميداً وتمجيداً وأكثر لك تسبيحاً ، قال : فيقول : ما يسألونى ؟ قال : يقولون يسألونك الجنة ! قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله يارب ما رأوها ، قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشدَّ لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، قال : ممَّ يتعوذون ؟ قال : يقولون : يتعوذون من النار . قال فيقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوها قال فيقول : فكيف لو رأوها قال يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة . قال فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة . قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم — رواه البخارى .

حقاً إن الإيمان بالغيب هو المحك الحقيقى للإيمان ، وهو الاختبار الشاق للإنسان ، اختيار ما فى الصدور وتمحيص ما فى القلوب . ﴿ **وليبتلى الله ما فى صدوركم ويمحص ما فى قلوبكم** ﴾[1] .

وهذا الابتلاء يعرضه الله علينا فى كل شيء وبعد فرض أوامره وعرض عاقبة المتقين . ومن أمثلة ذلك :

﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[2] .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** ﴾[3] .

﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز** ﴾[4] .

إن الإيمان بالغيب هو أمن وحماية وقوة للعقيدة ، لأنه سيوقظ الضمير فيقف حارساً على الحواس ، لأنه يخاف الله ويخشى عاقبة أمره .

﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾[5] .

﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم** ﴾[6] .

---

(١) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران

(٢) الآيات ١٥٥ — ١٥٧ من سورة البقرة

(٣) الآية ٩٤ من سورة المائدة

(٤) الآية ٢٥ من سورة الحديد

(٥) الآية ١٨ من سورة فاطر

(٦) الآية ١١ من سورة يس

﴿ **وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة** ﴾[١] .

والإيمان بالغيب يحمى الإنسان من عوامل القلق فى البحث عما وراء الطبيعة وعن نشأة الكون ونهايته وعما ينتظره ساعة الموت وفيما بعد الموت ، لأنه آمن بالله ثم استقام . والله يقول وقوله الحق : ــ

﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾[٢] ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيَّانَ يبعثون** ﴾[٣] ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله** ﴾[٤] .

وجعله أهم صفات المؤمنين المتقين وهو أول ما يطالعنا فى كتاب الله عز وجل فى أول سورة البقرة حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[٥] .

٤ ــ تصحيح عقيدة أهل الكتاب :

إن تصحيح عقيدة أهل الكتاب من يهود ونصارى هو فى حد ذاته دعم للعقيدة الإسلامية ، لأنه اعتناء ببيان الحق وإظهاره ، وبيان الباطل وكشفه ، حتى يكون المؤمن على هدى من ربه ، فيطمئن قلبه ويسير فى الحياة ثابت الخطى لأنه رضى بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ﷺ .

يتولى القرآن تصحيح عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير مما يبعدها عن العقيدة الصحيحة فى الله وهذا يسبب قصورا فى العقل للبشر أجمعين يؤدى إلى الغلو والتفريط فى تفكير البشرية جمعاء يبعدها عن منهج الحياة وهو منهج الله ، فيخاطب الله أهل الكتاب خطابا زاجرا يردهم به إلى طريق الحق والجادة والصواب فيقول جل شأنه : ــ

﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** ﴾[٦]

إن ذلك الخطاب لأهل الكتاب احتل أهمية كبرى فى القرآن الكريم ، نظرا لأنه خاتم الرسالات إلى العالمين ، فكان لابد من تخليص عقيدة التوحيد ، من كل ما يشوبها من أساطير البشر وتخبطهم فى جاهليتهم العمياء ، فنجد الحق سبحانه وتعالى : يصحح لليهود اختلالات تصور التوحيد ويزيح ما تراكم عليه من غبار الباطل فيقول جل شأنه : ــ

---

(١) الآية ٩٤ من سورة التوبة
(٢) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران
(٣) الآية ٦٥ من سورة النمل
(٤) الآية ١٢٣ من سورة هود
(٥) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة البقرة
(٦) الآية ٧٧ من سورة المائدة

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون* وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾(١) .

ويتجه الله سبحانه وتعالى : إلى المسيحيين بتصحيح ما اعترى ديانتهم من قصور بَعُد بهم عن معنى الدين الحقيقى وأصاب عقيدتهم بانحراف بعدهم عن الحق المبين فيقول جل شأنه : **﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾**(٢) .

إن الآيات التى يخاطب فيها الله اليهود والنصارى ليبين لهم العقيدة الصحيحة لا تعد ولا تحصى ، بحيث لا يسمح المجال هنا بسردها ، وما يهمنا الاستدلال به ، هو حرص المنهج الإسلامى على دعم عقيدة المسلم لأنها هى العقيدة الحقة التى ارتضاها الله لنا وبها نحقق الأمن فى أروع معانيه لأن التلقى فى شئون الحياة كلها من الله وحده ويا لها من نعمة عظمى .

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾(٣) .

٥ ــ تحريم الردة :

إن الإسلام عقيدة التسامح ولكنه ليس عقيدة التميع . إنه تصور جاد ونظام جاد ، والجد لا ينافى التسامح ، ولكنه ينافى التميع ، فهو يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له ، فلا يكرههم أبداً على اعتناق عقيدته ، ولهم ــ حتى وهم يعيشون فى ظل نظامه ودولته ــ أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام ، فى غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن فى الدين . وهو يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم ويمتعهم بخير الوطن الإسلامى بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام ، ويدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم فى غير ما يتعلق بمسائل النظام العام .

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه فى العقيدة ، ولكنه لا يتسامح أبداً مع من يوحدون الله ، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم يرتدون بعد ذلك لأن هذا أخطر ما يمكن ، أن يطعن به الأعداء الإسلام وهذا ما فعله الكفار فعلا فى أول الدعوة لمحاربة الإسلام ورسول الإسلام محمد صلوات الله وسلامه عليه ، حيث زين لهم الشيطان أن يعلنوا إسلامهم ثم يرتدوا بعد ذلك معلنين أن هذا الإسلام

(١) الآيات ٤٠ ــ ٤٣ من سورة البقرة
(٢) الآيتان ١٧١ ، ١٧٢ من سورة النساء
(٣) من الآية ٣ من سورة المائدة

ليس أهلا لهم ، وفيه من المبررات ما يجعلهم يرجعون عنه وهذا ما أخبر به الله العليم رسوله الكريم حتى يحذره منهم .

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾(١) .

ومن هنا وحماية للعقيدة الإسلامية وتدعيماً لها حرمت الردة فى الإسلام تحريما قطعيا ، ووصلت عقوبة تلك الجريمة إلى حد القتل ، وذلك حتى لا يستباح دين الله لضعاف النفوس أن يجعلوه مطمعا لتحقيق أغراضهم ثم ينفضوا منه بعد ذلك تاركين وراءهم البلبلة ، والتزعزع فى عقيدة الباقين ، ولذلك قال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه « من خالف دينه دين الإسلام فاضربوا عنقه »(٢) ، وقال أيضا ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه »(٣) .

وهذا الحكم مستمد من القانون الأساسى وهو القرآن الكريم حيث يقول الله عز وجل :

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٤).

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾(٥) .

وهكذا لم يترك الإسلام ثغرة واحدة يمكن أن ينفذ فيها الشك فى العقيدة إلا وأحكم مغاليقها لتظل عقيدة المسلم قوية البنيان . عميقة الأساس لا تتزلزل ولا تهتز ، لا تستطيع جيوش الباطل مهما أوتيت من قوة أن تغلبها أو تنتصر عليها وهكذا يعيش المؤمن فى أمن عقائدى ، لا يشعر بعظمة هذا الأمن إلا من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان وكفى بها من نعمة .

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(٦) .

وننتقل الآن إلى مجال آخر من المجالات التى اهتم الإسلام بتحقيق الأمن فيها بل إنه مجال لا يقل أهمية عن مجال العقيدة لأنهما متلازمان متلاصقان لا غنى لأحدهما عن الآخر وهو مجال النفس البشرية . فإن كانت العقيدة كالغيث فإن النفس كالأرض ، وكلما كان الغيث غزيرا والأرض خصبة فإنها تؤتى ثمارها . كأروع ما يكون الجنى ، فلنتجول فى رياض الإسلام ونرى كيف أسبغ على النفس المؤمنة كل أمن وطمأنينة وأحاطها بسياج منيعة تحميها من عواصف القلق المدمرة .

---

(١) الآية ٧٢ من سورة آل عمران

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى دعاء النبى ﷺ

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى استتابة المرتدين

(٤) من الآية ٢١٧ من سورة البقرة

(٥) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران

(٦) الآية ٢٨ من سورة الرعد

ثانياً : تحقيق الأمن للنفس :

ما أعظم المنهج الإسلامى فى علاج النفس البشرية من كل المخاطر والصعاب التى تعترض طريقها فى الحياة الدنيا . ذلك المنهج الذى تتضاءل أمامه كل علوم النفس التى تحاول دراسة وعلاج الصراعات النفسية ، وكيف لا ، وواضع المنهج هو الحكيم الخبير خالق النفس البشرية الذى يعلم مستقرها ومستودعها . يقول الحق تبارك وتعالى تأكيدا عن هذا العلم :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾(١)

﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ﴾(٢)

﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾(٣)

﴿ ألا يعلم من خلق ﴾(٤)

وانطلاقاً من هذا العلم فإن المنهج الربانى أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة ، أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله سبحانه فيها حضورا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان،أخذها جملة لا تفاريق ، وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة : لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغا ، فنقل البشرية من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الناس إلى عدالة الإسلام ، وهكذا امتلأت النفوس المؤمنة بالإيمان ذلك الإحساس الندى الرضى البهيج ، فلم تعد بحاجة إلى نشوة الخمر أو إرضاء الرغبات والشهوات الكاذبة لأنها ترف بالإيمان المشع إلى الملأ الأعلى الوضيء وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله ، وتذوق طعم هذا القرب . فتمج كل نشوة عداها :

إنه استنقذ الفطرة من ركام الجاهلية . وفتحها بمفتاحها الذى لا تفتح بغيره ، وتمشى فى حناياها وأوصالها وفى مسالكها ودروبها ، ينشر النور والحياة والنظافة والطهر واليقظة والهمة والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير ، والخلافة فى الأرض على أصولها التى قررها العليم الخبير وعلى عهد الله وشرطه وعلى هديه ونوره .

وبالتالى فإن هذا المنهج الإسلامى لم يحاول زرع اليأس فى النفس البشرية بل استجاشة تلك النفس وتشجيعها وتحذيرها وطمأنتها فى آن واحد ، وشمل العلاج نواحى عدة يعجز الإنسان عن حصرها ولكن يمكن تلخيصها فى عدة نقاط رئيسية تضم كل منها العديد من اتجاهات المنهج الربانى لتحقيق الأمن للنفوس :

١ ــ علاج الخوف بكل أنواعه : سواء الخوف من الموت . أو من فوات الرزق ، أو أى نوع من أنواع المخاطر والصعاب .

---

(١) من الآية ١٦ من سورة ق

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الإسراء

(٣) من الآية ٢٣٥ من سورة البقرة

(٤) من الآية ١٤ من سورة الملك

٢ ـ علاج اليأس : هذا اليأس الذى قد يهدد حياة الإنسان بالشلل التام وبالتالى يؤدى إلى تدميرها .
٣ ـ علاج مساوىء الأخلاق والدعوة إلى مكارمها : وذلك لتهذيب النفوس البشرية ومحاربة كل ما يعكر صفو المجتمعات من شيوع رذائل الأخلاق التى تزلزل كيانها وتنشر الحقد والكراهية والقلق بين الناس .

١ ـ علاج الخوف بكل أنواعه :

إن المنهج الإسلامى وضع العلاج بطريقته الخاصة وهى رد تلك النفس إلى خالقها فى كل ما يعتريها من خوف وإرجاعها إلى الواحد الحق الذى إليه المنتهى وإليه المصير :

ـ فالنفس التى تخاف من الموت : إذا رجعت إلى خالقها وأرهفت السمع إلى آياته المحكمات عرفت أن الموت علينا حق مهما فررنا منه أو أحجمنا عن ملاقاته فى أى صورة من صور الجهاد لإعلاء كلمة الحق فى مواجهة الباطل .

﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾(١)

﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾(٢)

﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾(٣)

﴿ لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾(٤)

حقاً إن الموت حتم فى موعده المقدر ولا علاقة له بالحرب والسلم ولا علاقة له بحصانة المكان الذى يحتمى به الفرد أو قلة حصانته ولا يؤخره أن يؤخر عن الناس تكليف القتال ، ولا التكاليف الجهادية تعجله عن موعده وبالتالى فلا داعى لخوف النفس وجزعها وخشيتها من خوض المكاره والحروب .

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾(٥)

﴿ قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾(٦)

﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾(٧)

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾(٨)

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة ال عمران
(٢) الآية ٦٠ من سورة الواقعة
(٣) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء
(٤) الآية ٣٤ من سورة الأعراف
(٥) الآية ٧٨ من سورة النساء
(٦) الآية ١٦٨ من سورة آل عمران
(٧) الآية ٣٤ سورة لقمان
(٨) الآية ١٤٥ سورة آل عمران

ومتى أيقنت النفس ذلك اندفعت آمنة مطمئنة فى خضم الحياة ترسى دعائم الحق والعدل والخير ، غير هيابة ولا وجلة لأن كلمات الحق جل وعلا كشفت لها حقائق الوجود فى سهولة ويسر وأصبح عندها رؤية واضحة محددة للأمور ، فالموت معناه لقاء الله ولقاء محمد وصحبه الأخيار الأبرار ومعناه انتهاء ما فيه الإنسان من مكابدة ومشاق ، والانتقال إلى سعادة لا شقاء بعدها أبداً ، ونعيم لا يزول لأنه نال ذلك بحسن عمله فى الحياة الدنيا .

﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾(١)

﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾(٢)

حماية الإسلام للنفس :

رغم أن الاسلام وضع ذلك المفهوم الواضح للموت ،إلا أنه يأبى أن يلقى الإنسان بنفسه إلى التهلكة ، فالنفس أمانة ، حرص الإسلام على حمايتها ، بكل القوانين التشريعية ، وذلك لإسباغ صفة الأمن على المجتمعات البشرية ، بحيث لا تذهب الأرواح سدى ، بل إذا كان لابد من ذلك ، فليكن فيما يعود بالخير العميم ، والنفع الأكيد على المجتمع بأسره ، ولذلك حرّم الإسلام القتل فى غير قصاص ، وفى غير دفع فساد فى الأرض ، تحريماً قاطعاً :

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾(٣)

إن قتل نفس واحدة بدون سبب شرعى ، يعدل قتل الناس جميعاً ، لأن حق الحياة واحد ثابت لكل نفس ، وقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على هذا الحق ، الذى تشترك فيه كل النفوس ، وبالتالى فإن الحفاظ على الأرواح يجعل الناس تستمتع بالأمن ، وتزاول نشاطها فى طمأنينة ، وهذا يدعو إلى رقى الحياة الإنسانية ، وزيادة الخير والفضيلة ، والإنتاج والنمو ، وبخاصة أن هذا كله يوفر للناس جميعا ضمانات الحياة كلها ، وينشر من حولهم جوا ، تنمو فيه بذور الخير ، وتذوى بذور الغدر والشر .

ـــ هذا حكم الإسلام بالنسبة لقتل أى نفس عموما ، فما هو حكمه بالنسبة لقتل النفس المؤمنة ؟ لا يوجد سبب فى منطق الإسلام ، يمكن أن يفرق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة ، ومن ثم لا يقتل المسلم مسلماً أبداً ، وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة ، اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ ، وللقتل الخطأ توضع التشريعات والأحكام . أما القتل العمد فلا كفارة له لأنه وراء الحسبان ، ووراء حدود الإسلام :

---

(١) الآية ٢ من سورة الملك

(٢) الآية ١٠٠ من سورة النساء

(٣) الآية ٣٢ من سورة المائدة

﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ﴾(١) .

فهذا هو الاحتمال الوحيد فى الحس الإسلامى، وهو الاحتمال الحقيقى فى الواقع ، فإن وجود المسلم إلى جوار المسلم مسألة كبيرة ، جدّاً ونعمة عظيمة جدّاً حيث تجمع المسلمين العقيدة والقرابة فى رسول الله ﷺ . ثم ترتقى فتجمعهم فى الله سبحانه : الذى ألف بين قلوبهم ذلك التأليف الربانى العجيب :

﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً ﴾(٢)

إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب بغير حق ، ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العظيمة التى أنشأها الله بين المسلم والمسلم إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها وبالتالى فمن العسير أن يقدم مسلم على ذلك بسهولة ، وهو أكبر أمن النفس فى المجتمع الإسلامى .

ولم يقتصر الأمن فى الإسلام على النفوس البشرية ،(٣) إنما تجاوزه إلى مخلوقات الله المتنوعة ، فقد حدث أن صحابيا أخذ بعض أفراخ طير من تحت أمه ، فغضب الرسول ﷺ لذلك وأمره أن يردّ الأفراخ إلى أمها وذلك حتى لا يفزع تلك الأم .

ولقد أعلنها عمر رضى الله عنه : صريحة مدوية عبر التاريخ : لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟

وقال ﷺ : (٤)« إن الفاجر إذا مات استراح منه البلاد والعباد والشجر والدواب » وهل يستريح العباد والشجر والدواب إلا من اعتداء الفاجر عليه بالقتل أو الهدم أو التعذيب ؟

ويردد لنا التاريخ حرص الإسلام على النفس بصفة عامة فى تلك الوصية التى كان يوصى بها الخليفة الأول ــ سيدنا أبو بكر الصديق ــ الجيوش الإسلامية وهى ذاهبة لقتال العدو فى الميدان فيقول لهم : لا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا صبيا ، ولا تقطعوا شجرا ولا تذبحوا من الأنعام إلا للطعام وستجدون قوما فى الصوامع فدعوهم وما يدينون . فأى خوف من الموت إذن يمكن أن ينتاب الإنسان فى مجتمع مسلم وأى أمان تشعر به النفوس فى ذلك المجتمع .

فالموت على كل الوجوه هو لقاء الله عز وجل فما أعظمه من لقاء وخاصة إذا كان هذا الموت فى سبيل الله وعلى سنة رسوله الكريم ﷺ .

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلو ممزع

---

(١) الآية ٩٢ من سورة النساء

(٢) الآية ٩٣ من سورة النساء

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى الأدب المفرد

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى مستريح ومستراح منه باب ٢١ حديث ٦١ / ٩٥٠ ج ٢ ، ص ٦٥٦

ـ الخوف من فوات الرزق لا معنى له فى الإسلام :

لأنه من بديهات العقيدة الإسلامية أن الرزق بيد الله يوزعه بحكمة وعدل على عباده : قال تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾(١)

﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾(٢)

﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾(٣)

وهكذا يحدد المنهج الربانى بوضوح ويقين مصدر الرزق وتوزع الأرزاق حتى يكد المسلم ويجتهد فى الحياة بدون قلق أو خوف لأنه على يقين أن رزقه سيأتيه من خالق السموات والأرض ، فدستور المسلم هو القرآن العظيم حافل بما يؤكد هذا اليقين :

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ﴾(٤)

﴿ أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾(٥)

﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾(٦)

﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور ﴾(٧)

والمؤمن على يقين أن هذا الرزق يتفاوت فيه الخلق لحكم كثيرة ، أرادها الحق سبحانه وتعالى تختص بعلمه وحده :

﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ﴾(٨)

﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾(٩)

﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾(١٠)

---

(١) الآية ١٢ من سورة الشورى
(٢) الآية ٢١ من سورة الحجر
(٣) الآية ٢٢ من سورة الذاريات
(٤) الآية ٣١ من سورة يونس
(٥) الآية ٦٤ من سورة النمل
(٦) الآية ٣ من سورة فاطر
(٧) الآية ٢١ من سورة الملك
(٨) الآية ٧١ من سورة النحل
(٩) الآية ١٩ من سورة الشورى
(١٠) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام

﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾[(١)]

وهكذا يعالج الإسلام ضعف النفس وحرصها وشحها وقصورها الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة ، فيقرر الله تلك الحقيقة الأزلية وهى أن الرزق بيد الله ليبث عوامل الطمأنينة فى نفس المؤمن فيسعى لطلب الرزق دون أن يشغله ذلك عن إقامة دعائم الحق .

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[(٢)]

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾[(٣)]

﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾[(٤)]

﴿فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[(٥)]

إذن فليس هناك أدنى شك عند المؤمن الواثق بربه أن الرزق بيد الله ، فلا داعى للخوف ولا داعى للانقياد لتلك النفس الأمارة بالسوء ، بل عليه السعى لذكر الله ، والمشى فى مناكب الأرض والتوكل على الله ، قال الصادق المعصوم : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »[(٦)] .

فليطمئن المؤمن نفسه وليقل دائماً :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل
الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا
لكنه خلق الإنسان من عجل

وها هو الحى القيوم يزيل ما بقى عالقا بالنفوس من مخاوف بصدد الرزق ، فيقول جل شأنه فى حديث قدسى قريب من نفس المؤمن :[(٧)]« ابن آدم خلقت السموات والأرض ولم أعَىَ بخلقهن . أفيعيينى رغيف أسوقه إليك كل حين ، ابن آدم لى عليك فريضة ، ولك على رزق ، فإن خالفتنى فى فريضتى لم أخالفك فى رزق ، وعزتى وجلالى إن لم ترض بما قسمت لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية ، لا ينالك منها إلا ما قسمت لك ولا أبالى » .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الزخرف

(٢) من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق

(٣) الآية ٣١ من سورة الإسراء

(٤) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام

(٥) من الآية ١٥ من سورة الملك

(٦) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ١٤ حديث ٤١٦٤ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٧) حديث قدسى : أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق

إذن على المؤمن إقامة دعائم الحق ، وعلى الله الرزق ، فإذا تعرض للفتنة فى الدنيا فأمامه الهجرة فى سبيل الله ، حيث يجد فى الأرض متسعا للرزق ومنطلقا للنجاة والحياة .

﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾ (١) .

فالهجرة فى سبيل الله هى الشرط والأساس لوجود الخير ، والأمن فى الأرض ، أما الهجرة للثراء أو الفرار من الحق أو لأجل الحصول على الملذات والشهوات فلا تدخل ضمن الوعد الإلهى .

ـــ أما الخوف من أنواع المخاطر والصعاب فله العلاج فى الصيدلية الإسلامية .

لأن الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ يعلم حقيقة النفس البشرية وأنها قد تحجم أمام الصعاب والمخاطر ، وقد تيأس ، فيعالجها الله سبحانه باستجاشتها . وطمأنتها . فى آن واحد ، ويأخذ بيدها فى كل موقف من مواقف الحياة .. لتجتازه بعقيدة إيمانية ثابتة ويقين لا يتزعزع بنصرة الحق سبحانه وتعالى .

فعند لقاء العدو عندما تأتى تلك اللحظات التى تعلو فيها المشقة على الطاقة ويربو الألم على الاحتمال ، ويحتاج القلب البشرى إلى مدد يعلو على كل مدد بشرى وإلى زاد سماوى علوى . هنا لك يأتى المدد من هذا المعين ويأتى الزاد من رب العالمين الرحمن الرحيم فيقول جل شأنه :

﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً ﴾ (٢) .

هكذا يطمئنهم الحق جل وعلا « إنهم إن كانوا يحتملون آلام المعركة بجميع أنواعها فليسوا وحدهم الذين يتحملونها بل إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح والألم » ولكن شتان بين الفريقين فالمؤمنون يتوجهون إلى الله بجهادهم ويرتقبون عنده جزاءهم وهذا يسبغ عليهم الأمن والطمأنينة فى المعركة لأن عاقبتهم كلها خير فإما النصر وإما الشهادة ، أما الكفار فهم ضائعون مضيعون لا يتجهون لله ولا يرتقبون عنده شيئا فى الحياة ولا بعد الحياة .

﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ﴾ (٣)

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ (٤)

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (٥)

---

(١) من الآية ١٠٠ من سورة النساء

(٢) الآية ١٠٤ من سورة النساء

(٣) الآية ٢٤ من سورة هود

(٤) الآية ١٠٠ من سورة المائدة

(٥) الآية ٧٤ من سورة النساء

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة تكون فيها فى معركة مكشوفة غير متكافئة ، ولكن القاعدة لا تتغير ، فالمؤمن دائماً بخير ، لأنه يتلقى مددا إيمانياً يختلف فى طبيعته وقوته عن مدد الأعداء ، ذلك المدد يصل إليه فى إشعاعات نورانية ، تلقى فى صدره الأمن والجرأة ، لأن الحق يخاطبه بها فيقول عز من قائل :

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[1]

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[2]

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴾[3]

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾[4]

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[5]

ولما كانت المخاطرة والصعاب التى يواجهها المؤمن لا تتعلق بالحرب فقط بل هناك الكثير من الاختبارات الإيمانية التي يتعرض لها المؤمن بالابتلاءات الإلهية ، فمازال هناك الكثير فى منهج العلاج من الصيدلية الإسلامية ، يقول الصادق المعصوم فى حديث جامع شامل لمواجهة تلك المخاطر والصعاب :

«حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء»[6]

« ويقول أيضا صلوات ربى وسلامه عليه : « الصدقة تطفىء غضب الرب كما يطفىء الماء النار »[7]

وهكذا فلا خوف من البلاء بل صبر وطمأنينة وسكينة من عند الله

﴿ وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾[8]

يقول الإمام ابن القيم « الصبر : حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحوه ، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام به العبد كما ينبغى انقلبت المحنة فى حقه منحة ، واستحالت البلية عطية ، وصار المكروه محبوباً ، فإن الله سبحانه وتعالى ، لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته ، فإن لله تعالى على العبد عبودية فى الضراء ، كما له عبودية فى السراء وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون .. فمن كان عبداً لله فى الحالتين قائماً بحقه فى المكروه والمحبوب

---

(١) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة

(٢) الآية ٧ من سورة محمد

(٣) الآية ٥١ من سورة غافر

(٤) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران

(٥) الآية ٤٠ من سورة الحج

(٦) الحديث فى حلية الأولياء فى ترجمة إبراهيم بن يزيد النجفى ج ٤ ، ص ٢٣٧

(٧) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه فى كتاب : الزكاة باب ما جاء فى فضل الصدقة ج ٢ ، ص ٨٦ حديث ٦٥٨

(٨) الآية ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة البقرة

فذلك الذى تناوله قوله تعالى : ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾[1] ، فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان قال تعالى : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾[2]

وننتقل الآن إلى النوع الثانى من المنهج الإسلامى لتحقيق الأمن للنفس وهو علاج اليأس .

٢ ـ علاج اليأس :

إن اليأس : لا مكان له إطلاقاً فى أساسيات العقيدة للمسلم ، لأن المنهج الإسلامى اهتم بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة حية له ، فى شعورها وسلوكها ، فيرى الناس صورة الإيمان فى هذه النفس فتكون شهادة لهذا الدين بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيته حيث صاغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال .

فاليأس يشتت قوى الإنسان ويذهب نفسه حسرات ويجعله عضوا غير نافع فى المجتمع الإنسانى ، بل إنه عضو ضار ينقل عدوى اليأس والإحباط إلى غيره ، وينشر القلق والفشل بين الناس وهو أخطر ما يهدد المجتمعات بصفة عامة ، ولذلك فهناك قاعدة أساسية فى بناء المجتمع الإسلامى مكتوب على بابها ،

﴿ **ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾[3] .

فاليأس معناه الشك فى قدرة الله ، ولذلك فهو يعادل الكفر ، أما المؤمن فهو يعلم علم اليقين أن بيده مقاليد الأمور :

﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير** ﴾[4] .

﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾[5]

وبالتالى فعليه أن يسعى لتذليل كل ما يقابله من صعوبات فى الحياة لأن الله لم يخلق داء إلا وجعل له دواء[6] كما قال لنا الصادق المصدوق فيجب أن يعمل ذهنه فى البحث عن هذا الدواء مهما عز أو ندر ، فما خلقنا فى هذه الدنيا إلا لنكد ونتعب فيها ، وننتصر على كل ما يواجهنا . من متاعب الحياة ، وهذا الانتصار فى حد ذاته هو ما يؤهل المؤمن لدخول الجنة حيث لا يشقى بعدها أبداً .

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة الزمر

(٢) من الآية ٤٢ من سورة الحجر

(٣) من الآية ٨٧ من يوسف

(٤) من الآية ١٧ من سورة الأنعام

(٥) الآية ٥١ من سورة التوبة

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى الطب فى باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء وهذا الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾[١] .

﴿ **أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون** ﴾[٢]

إن الخالق العليم بخبايا النفس البشرية ، يعلم أن الإنسان يميل إلى التراخى ، وحب النعيم الدائم ، أما الابتلاءات الإلهية التى تضطره إلى الكفاح والمجاهدة فإنها قد تدفع به إلى اليأس ، فيحدثنا عن ذلك فى قرآنه الحكيم ، فيقول عز من قائل :

﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور** ﴾[٣] .

﴿ **لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط** ﴾[٤]

﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا** ﴾[٥] .

ولكن هذا يتعارض مع البناء الأساسى للعقيدة الإسلامية التى ترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة ، والتى ترد الأمر كله لله ، فليعلم المسلم أنه مهما أحاطت به المحن ، فإنه بإيمانه بالله والالتجاء إليه والتوكل عليه والاستمساك بمنهجه سيجتاز تلك المحن بمشيئة الله تعالى ، ويشعر بعدها بقرب أكثر من الله وبسعة رحمته .

﴿ **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم** ﴾[٦] .

فالإسلام دين العمل والجهاد ، والصبر والثبات والبذل والتضحية،أما اليأس فمعناه انحراف عن ذلك الدين القيم واتجاه فى طريق الضلال والعياذ بالله .

﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾[٧] .

فليتمسك المؤمن بدينه الذى ارتضاه وينفذ كلام ربه العظيم ، وسنة رسوله الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وحينذاك سيكون بينه وبين اليأس بعد المشرقين ﴿ **قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾[٨]

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران
(٢) الآية ١٦ من سورة التوبة
(٣) الآية ٩ من سورة هود
(٤) الآية ٤٩ من سورة فصلت
(٥) الآية ٨٣ من سورة الإسراء
(٦) من الآية ١١٨ من سورة التوبة
(٧) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام
(٨) الآية ٥٦ من سورة الحجر

وهكذا فلا يأس مع الإيمان ولا إيمان مع اليأس بل رجاء فى رحمة الله وعفوه ورضاه وامتثال لأوامره ، واجتناب نواهيه ، فالبشرى تتردد مع آيات الله البينات :

﴿ لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾(١)

﴿ وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾(٢)

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾(٣)

تلك الرحمة هى التى تشفى صدور قوم مؤمنين ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور وتبعدهم عن مهاوى اليأس والهلاك وتنجى كل من دعا ربه فى أحلك لحظات حياته .

يحدثنا المولى سبحانه وتعالى عن آثار رحمته التى تنجى عباده المؤمنين من كل كرب فيقول عز من قائل :

﴿ فانجيناه والذين معه برحمة منا ﴾(٤)

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾(٥)

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾(٦)

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾(٧)

﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾(٨)

﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾(٩)

﴿ وأتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾(١٠)

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾(١١)

﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ﴾(١٢)

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾(١٣)

فكيف يكون هناك يأس مع دين ربه هو الرحمن الرحيم ، ورسوله هو نبى الرحمة ، ومن مواد دستوره .

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾(١٤)

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الزمر
(٢) الآية ١٢٠ من سورة آل عمران
(٣) الآية ٥٦ من سورة الأعراف
(٤) الآية ٧٢ من سورة الأعراف
(٥) من الآية ٥٨ من سورة هود
(٦) من الآية ٦٦ من سورة هود
(٧) من الآية ٩٤ من سورة هود
(٨) الآية ٨٢ من سورة الكهف
(٩) الآية ٢ من سورة مريم
(١٠) الآية ٨٤ من سورة الأنبياء
(١١) الآية ٥٠ من سورة الروم
(١٢) الآية ١٧ من سورة الأحزاب
(١٣) الآية ٢ من سورة فاطر
(١٤) الآية ٥٣ من سورة الزمر

فإذا عرفنا أيضا أن عدد الآيات التى ذكرت فيها كلمة الرحمة تبلغ ٣٣٩ آية لأيقنا عظمة هذا الدين فى علاج النفس البشرية من أكبر آفاتها التى تحرمها من أعظم نعمة فى الوجود ألا وهى الأمن . فكيف إذن يشعر إنسان مؤمن باليأس ، وهو يعلمُ علم اليقين أنه يعيش فى كنف الرحمن الرحيم ؟

٣ ــ علاج مساوىء الأخلاق والدعوة إلى مكارمها :

لا يدرك حقيقة نعمة الأمن فى هذا الدين ، ولا يقدرها قدرها ، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ، ومن لم يذق ويلاتها ، والجاهلية فى كل زمان ومكان هى تلك النفوس التى لم تتأدب بأدب الله ، ولم ترتو من معين العلم الإلهى ، ولذلك فقد اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بالجانب الأخلاقى ، لأن تلك الأخلاق هى المرآة الحقيقية لقياس حضارة الشعوب ، وتقدمها الروحى ، فحين تتشرب النفوس حلاوة الإيمان ، فإنها تشيع بهجة ، وصفاء ، وتنشر الأمن ، والطمأنينة ، على كل من حولها .

وها هو المصطفى صلوات ربى وسلامه عليه يحدد بوضوح لا ريب فيه اهتمام المنهج الإسلامى بالأخلاق لأنها المعول فى بناء المجتمعات الآمنة الراقية إلى السموات العلى فيقول :

﴿ **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** ﴾[1]

بل إنه لا يكتفى بذلك بل يحدد بوضوح أكثر أن التعامل بين الناس هو المقياس الحقيقى لدرجة الإيمان ، لأنه انعكاس لنفوس تأدبت بأدب الإسلام ، فيقول الحبيب المصطفى ﷺ « الدين المعاملة »[2] ، ويقول أيضا معلم البشرية وهاديها إلى الرشد والخير : « الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .

والمنهج الإسلامى لتهذيب النفوس وإزالة كل ما يكدر صفوها ويحرمها من متعة الأمن ، الذى يمكن أن تتمتع به النفس المؤمنة ، غنى وزاخر ويجل عن الوصف ، فضلا عن الحصر ، ولذلك سنجتهد ــ بعون الله ــ فى اقتطاف بعض رياحين ذلك المنهج كنماذج للاستشهاد على كلامنا ، أما المنهج ككل فلا يدرك خباياه إلا من صدق الله ورسوله فى السر والعلن وتذوق حلاوة الإيمان وبهجتها لأن الحبيب محمداً ﷺ قال : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »[3]

من معالم ذلك المنهج الربانى لتهذيب النفوس :

١ ــ الوفاء بالعهود :

قال تعالى فى التأكيد على الوفاء بالعهود فى كل صورها طالما أنها فى حدود ما أمر به الله ورسوله :

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٢ ، ص ٣٨١

(٢) الحديث أخرجه البيهقى ج ١٠ ، ص ٢٩٢ فى أخلاق الرسول ﷺ

(٣) فى إتحاف السادة المتقين ٧ / ٢٣٢ ، ٣ / ٤٤٩ ، حلية الأولياء ١٠ / ١٥ ، القرطبى ١٣ / ٣٦٤ والدر المنثور ١ / ٣٧٢

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾[١] ، **﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾**[٢]

﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ﴾[٣]

وقال رسول الله ﷺ : « لا دين لمن لا عهد له ولا إيمان لمن لا أمانة له »[٤].

وهكذا فلا يحل لمسلم أن يخون الله ورسوله ، وبالتالى لا يخون أخاه المسلم الذى ارتبط معه بوشيجة القرابة فى الله ورسوله ، إنه مجتمع يسوده الأمن على الوفاء بالعهد لأن نفوس أفراده انتهلت من معين سماوى علوى فاطمأنت بنور الله .

٢ ــ رعاية الحقوق :

حرص الإسلام حرصاً شديداً على تربية النفوس على رعاية حقوق الغير وهذا فى حد ذاته حفظ لحقوق المسلم نفسه : لأن القوانين الإلهية شملت تحديد حقوق المجتمع بأسره سواء كانت حقوق الأبوين أو الزوجين أو الأبناء أو الأهل والجيران والأحباب ، حتى أهل الديانات الأخرى لهم أيضا حقوق ، وبالتالى فإن مراعاة تلك الحقوق جميعها تنشر الأمن بين أفراد المجتمع المسلم ، فيسعى كل فرد لبناء المجتمع وهو قرير العين مطمئناً على نفسه وماله وعرضه لأنه يعيش فى ظل دستور الحكيم الخبير ، ويسير على سنة رسوله الكريم الذى قال فى حديث جامع شامل :

« كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[٥]

بل وصل التشدد الإسلامى فى رعاية حقوق الغير إلى أقصى مداه فحرم الاعتداء على تلك الحقوق التى تؤدى إلى فزع أصحابها ، حتى ولو كان ذلك على سبيل المزاح ، فقد حدث أن صحابيا أراد أن يمزح فأخفى نعل أخيه .فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب وقال : « من فزع مؤمنا فليس منا ».

٣ ــ محاربة النفاق :

إن النفاق فى حقيقته هو الضعف عن الإصرار على الحق فى مواجهة الباطل ، وهذا الضغط هو ثمرة الخوف والطمع . وتعليقها بغير الله ، ولا يخفى على أى عاقل ما للنفاق من آثار هدامة على المجتمعات البشرية لأنها تنشر القلق بين الناس على حقوقهم التى تضيع بسبب تمسكهم بالحق ، فى نفس الوقت الذى يرون

(١) الآية ٩١ من سورة النحل

(٢) الآية ١٠ من سورة الفتح

(٣) الآية ٧٧ من سورة آل عمران

(٤) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ، ص ١٣٥ ، ص ١٥٤

(٥) الحديث فى صحيح مسلم فى كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه حديث ٣٢ / ٢٥٦٤ ج ٤ ، ص ١٩٨٦

فيه فئات تنمو وتحقق السيادة لأنها تتملق بالباطل وهذا بدوره يؤدى إلى الإحباط لدى النفوس التى تكد وتشقى ولا تجد ثمار عملها ، علاوة على انتشار جميع الأمراض الأخلاقية التى تفتك بالمجتمع نتيجة انتشار النفاق مثل الغش والمحسوبية والرشوة والتهاون فى الانتاج وتدهوره ، وظهور قوى الشر على قوى الخير لأنها تجد من يدعم سلطتها بالنفاق .

ولذلك وضع الحق ــ سبحانه وتعالى ــ أبشع أنواع الجزاء للنافقين حتى يكون العقاب رادعا عن التمسك بهده الخصلة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر فقال تعالى :

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾[1]

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾[2]

﴿ نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون ﴾[3]

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾[4]

٤ ــ تطهير ضمائر المجتمع المسلم

ركز المنهج الاسلامى على رفع المستوى الخلقى والنفسى للمجتمع المسلم حتى تشيع الثقة المتبادلة بين المؤمنين ويعيش الجميع فى أمن من انقطاع روابط المودة والألفة بينهم الناتجة عن : سخرية الناس بعضهم من بعض ، أو الجهر بالسوء ، أو التنابز بالألقاب أو سوء الظن الذى يحبط كثيرا من أعمال الخير ويؤدى إلى إلصاق التهم بالأبرياء أو التجسس الذى يحرم الناس من حق الأمن على أسرارهم ، أو الغيبة والنميمة التى تجعل الإنسان غير آمن على ما يقال فى غيابه من كشف عوراته أو الحاق الضرر والأذى به .

وكل هذه مساوىء أخلاقية إذا انتشرت فى أى مجتمع ، انتشر معها كل عوامل القلق النفسى ، وهضم الحقوق ، وتدمير كيان الإنسان ببعثرة ما تحتويه سريرته على ألسنة الخلق .

والويل كل الويل لمجتمع يعانى من هذه الأمراض ، انه يحرم من كل أمن ومن كل سعادة ومن كل طمأنينة ، ولذلك فقد كان التركيز الاسلامى على تلك الناحية عميقا كل العمق ، حازما كل الحزم ، نكتفى هنا بالاشارة إلى بعض الآيات القرآنية التى تنهى عن ذلك ويكفى أن النهى من رب العالمين ملك الملوك الأعظم .

قال رب العزة جل شأنه فى إرساء المنهج الربانى لتطهير ضمائر عبادة المؤمنين .

---

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء

(٢) الآية ١٤٥ من سورة النساء

(٣) الآية ٦٧ من سورة التوبة

(٤) الآية ٦٨ من سورة التوبة

﴿ يا أيها الذين أمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾(١)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾(٢)

﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً ۝ إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً ﴾(٣)

وهكذا فإن الحكيم الخبير يعلم شدة حساسية المجتمعات وإنها فى حاجة إلى آداب اجتماعية تتفق مع هذه الحساسية ، ورب كلمة عابرة لم يرد قائلها بها إلا فرداً من الناس ، ولكن هذه وتلك تترك فى نفسية المجتمع وفى أخلاقه وفى تقاليده وفى جوه آثاراً مدمرة تشيع القلق والفساد وتتجاوز الفرد المقصود إلى الجماعة الكبيرة .

ومن هنا كانت الدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهى عن مذمومها من أعظم نعم الله لتحقيق الأمن للنفس المؤمنة .

٥ ــ ضبط النفس وسماحة القلب

إن هذا الخلق هو من أهم العوامل التى تحقق الأمن فى المجتمعات الاسلامية لأنه ليس من حق المسلم فى فورة الغضب التى ودفعه الشنآن ان يعتدى على الغير ، بل إنه بالاستعانة بالله يمكنه كبت مشاعر الغضب التى قد تمتد إلى مدى لا يحمد عقباه ، بل انه يمكنه التسامى والتسامح بتقوى الله وطلب مرضاته .

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾(٣)

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾(٤)

ويقول الله فى حديثه القدسى « عبدى اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب ولا أمحقك فيمن أمحق » .

إنها القمة فى ضبط النفس وسماحة القلب تليق مع أمة مكلفة من ربها جاءت لتكون خير أمة أخرجت للناس ، تنشر الأمن والعدل حتى مع الغضب والكره ، فأى أمن أعظم من أن يأمن الإنسان شر من يكرهه ؟ !

---

(١) الآية ١١ من سورة الحجرات

(٢) الآية ١٢ من سورة الحجرات

(٣) الآيتان : ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء

(٤) الآية ٢ من سورة المائدة

(٥) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران

٦ ــ تجنيد النفس فى وجه ذاتها وفى وجه عواطفها :

لما كانت النفس أمارة بالسوء ــ إلا من رحم ربى ــ لذا كان هناك الكثير من التوجيهات الإلهية لحماية تلك النفس من الذهاب حسرات فى الدنيا والآخرة . من تلك التوجيهات :

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾(١)

إنه نهى عام عن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض ، سواء أى نوع من أنواع التفضيل ، فى الوظيفة والمكانة ، وفى الاستعدادات والمواهب ، وفى المال والمتاع ، لأن هذا فيه إضاعة النفس فى التطلع والحسد وما يصاحبه من حقد وحنق وشعور بالضياع والحرمان ، والتهاوى والتهافت ، أمام هذا الشعور ، مما يذهب بطمأنينة النفس ، ويورث القلق والفكر ، ولذلك كان النهى فى صالح المؤمن لتحقيق الأمن له . فعليه ان يتوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء ، موئل الطمأنينة والرجاء ، ومبعث الإيجابية فى تلمس الأسباب إلى الله الخالق الرازق .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾(٢)

إنه تجنيد للنفس المؤمنة فى مواجهة عواطفها لإقامة العدل حتى ولو كان هذا ضد أقرب الناس إلى تلك النفس ، ولكنه المنهج الإسلامى لإرساء دعائم العدل والحق لأنها الأساس فى إشاعة الأمن والطمأنينة فى المجتمعات بأسرها .

٧ ــ المحاولة الدائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى

إن توثيق تلك العلاقات بين الناس نابع من أهمية ترابط أفراد المجتمع بحيث يصبحون جميعاً كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى كما قال الصادق المعصوم ، وقد سئل الرسول صلوات ربى وسلامه عليه أى العمل خير ؟ قال « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »(٣)

هذا فى إفشاء السلام ابتداء وهو سنة ، أما الرد عليه فهو فريضة يقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً ﴾** (٤)

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النساء
(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء
(٣) الحديث
(٤) الآية : ٨٦ من سورة النساء

إن المجتمع الإسلامى بنى على السلام والأمن والحب وصلة الرحم . قال ﷺ : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويعطف على صغيرنا »[(١)]

وقال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[(٢)]

وقال أيضا : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(٣)]

إنه مجتمع قام منهم على الإحسان للوالدين ولذى القربى .

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالواندين إحساناً ﴾[(٤)]

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذى القربى ﴾[(٥)]

ومن منهجه الإحسان للجار : قال ﷺ :

« ظل جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[(٦)]

- والإحسان إلى اليتيم ورعايته

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ﴾[(٧)]

- والإحسان فى القول :

﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾[(٨)]

- والإحسان فى الميزان :

﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[(٩)]

- والإحسان فى الرد على الإساءة :

﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾[(١٠)]

- والإحسان فى أداء الحقوق لأصحابها :

﴿ فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾[(١١)]

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ١ ، ص ٢٥٧

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الايمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده باب ٣ ص ١ ، ص ٩

(٣) الحديث اخرجه الامام احمد فى سنده ص ٣ ، ص ١٧٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨

(٤) الآية ٢٣ من سورة الاسراء

(٥) الآية ٩٠ من سورة النحل

(٦) الحديث اخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب ٢٨ ص ٧ ، ص ٧٣

(٧) الآية ٣٤ من سورة الاسراء

(٨) الآية ٥٣ من سورة الاسراء

(٩) الآية ٣٥ من سورة الإسراء

(١٠) الآية ٩٦ من سورة المؤمنون

(١١) الآية ١٧٨ من سورة البقرة

فأى أمن بعد ذلك لنفوس تهذبت بتلك التعاليم الربانية ؟ وأى أمن لمجتمع تشربت نفوس أفراده تلك النفحات الإلهية ؟ وأى منفذ تركه الخبير الحكيم لأطباء علم النفس كى يلجوا منه لمعالجة ما لم يعالجه الرحمن الرحيم ؟

إنها تلك النفوس المطمئنة التى استجابت لله والرسول فكان عاقبة أمرها رشدا ورجعت إلى ربها راضية مرضية .

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾(١)

ثالثاً : تحقيق الأمن للعقل

جاء الإسلام فى ختام الرسالات السماوية ليعد البشرية للرشد العقلى ويؤهلها لاستخدام أعظم نعمة وهبها الله للإنسان ــ وهى العقل ــ استخداما كاملا فى إدراك الحق الذى تنبث آياته فى صفحات الوجود وفى أسرار الكون الذى جاء القرآن لكشفه وتجليته .. ولذلك فقد اهتم المنهج الربانى بتكريم العقل الإنسانى لأنه أداة الإدراك البشرى ووسيلته فى تلقى الوحى الإلهى وإدراك مدلولاته فكان أعظم تكريم لذلك العقل هو تحقيق الأمن له حتى لا يتخبط تحت ضغط النزعات والشهوات والأهواء ويتيه فى خضم الحياة ، وحتى لا يكون لله على الناس حجة بعد ذلك كما أنبأنا بذلك فى دستوره الحكيم : **﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾**(٢)

وقد شمل هذا المنهج الربانى لتحقيق الأمن للعقل عدة نقاط نعرضها فيما يلى :

١ ــ حماية العقل بالوحى الإلهى :

إن الله العظيم الرحيم الحكيم لا يدع هذا الكائن الإنسانى وحده فهو الذى خلقه وهو يعلم سره وجهره وطاقاته وقواه ونقصه وضعفه ، وحاجته إلى الموازين القسط التى يرجع إليها بتصوراته وأفكاره وأقواله وأعماله وأوضاعه ونظامه ليرى إن كانت صوابا وصلاحا أو كانت خطأ وفسادا .

ويعلم سبحانه وتعالى : أن العقل الذى أعطاه له يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ، ومطامعه ورغباته ، فضلا على أنه موكل بطاقات الأرض التى له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله ، وليس موكلا بتصور الوجود تصورا مطلقاً ، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة فهذا مجال العقيدة التى تأتى له من الله فتنشىء له تصوراً سليماً للوجود والحياة ، ومن ثم وحماية لهذا العقل ورده إلى صحته وسلامته

---

(١) الآيات ٢٧ ، ٣٠ من سورة الفجر
(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء

فإن الله يكل الناس إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه ، وهذا هو الذى يليق بكرم الله وفضله ورحمته وعدله ، فما كان ليخلق البشر ثم يتركهم سدى ، ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولا

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[١]

فتقدير الله حق قدره يقتضى الاعتقاد بأنه أرسل إلى عباده رسلا يستنقذون فطرتهم من الركام ويساعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط والانطلاق للنظر الخالص والتدبر العميق . وأنه أوحى إلى هؤلاء الرسل منهج الدعوة إلى الله وأنزل على بعضهم كتباً تبقى بعدهم فى قومهم إلى حين ـــ ككتب موسى وداود وعيسى ـــ أو تبقى إلى آخر الزمان كالقرآن العظيم الذى جاء به محمد ﷺ وهكذا فإن الله قد جعل حجته على الناس هى الوحى والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هى عقلهم البشرى ، ولا حتى فطرتهم التى فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به ، لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن الفطرة وحدها تنحرف وأن لا عاصم لعقل ولا لفطرة إلا أن يكون الوحى هو الرائد الهادى وهو النور والبصيرة ، والواقع يشهد أن الحياة الإنسانية التى قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو العلم هى أبأس حياة يشقى فيها الإنسان مهما فتحت عليه أبواب كل شيء ، ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد ، ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق ، ومن هنا كان الوحى حماية للعقل وأمنا له بدل التيه فى الفلسفات المادية ، (مستفاد من كتاب « فى ظلال القرآن ») للشيخ سيد قطب .

﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك)[٢]

﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم ﴾[٣]

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[٤]

٢ ـــ تحريم المسكرات التى تذهب بالعقل :

قال تعالى فى كتابه الكريم محرماً الخمر على عباده المؤمنين :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[٥]

---

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء

(٢) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الانفطار

(٣) الآية ١٦٢ من سورة آل عمران

(٤) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت

(٥) الآية ٩٠ من سورة المائدة

ثم بين جل شأنه حكمة هذا التحريم بأنها السبيل إلى وقوع العداوة ، والبغضاء والتشاحن بين الناس ، وأنها تمنع عن ذكر الله وإقامة الصلاة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾ (١)

وإذا عرفنا أن ذكر الله يشمل كل عمل يقوم به المسلم وقلبه متصل بالحق لتبين لنا مدى الخسارة التى تتحقق من المسكرات لأنها تحرم المجتمع من ثمار عقل واع اتصل بقلب مطمئن بالحق ، فأنتج روائع العقل البشرى . هذا فضلا عما تشيعه المسكرات من بقية المساوىء الأخرى التى تشيع القلق فى المجتمعات البشرية وتحرمها من الأمن والطمأنينة .

٣ ــ دعوة العقل إلى جولة فى الآفاق :

إن هذه الدعوة فى حد ذاتها هى تحرير للعقل من القيود التى تكبله وتجعله يتعثر تحت ضغط الحاجات والمطالب ، حيث إنه بتجوله فى الآفاق سيشعر بعظمة الخالق وقوته ، فيستمد منه مددا وقوة لينهض بالأعباء التكليفية التى خلق من أجلها ، كما أن هذه الجولة ستوقظه من سبات الغفلة وتفتح كل ما فيه من أذن واعية ومن طاقة فكرية :

﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾
(آل عمران ــ ١٩٠)

﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾ . (الحج ٤٦)

إن هذه الدعوة بلا شك موعظة وعبرة من كل الوجوه :

فمن تشبع فى العقل البشرى حبه إلى المعرفة والإذعان أمام القوى المادية . ولهذا وجه المنهج الربانى الإدراك البشرى لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية فى الوجود كله وهى فى ذاتها خوارق معجزة ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود ويتألف منها قوامه :

﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ . (الإسراء ٩٩)

﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾ (مريم ٩)

﴿ **أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض** ﴾ (الأعراف ١٨٥)

﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾ . (ق ٦ ، ٧)

---

(١) الآية ٩١ من سورة المائدة

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (الغاشية ١٧ ـــ ٢٠)

ـــ وهذه الدعوة فيها شحذ للعزائم فيعرف الإنسان أن حل مشاكله ليس بالتراخى وندب الحظ إنما بالعمل والتفكير والإدارة .

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ (العنكبوت ٢٠)

﴿ خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾ (الأنبياء ٣٧)

إن هذه الدعوة فيها تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ (الروم ٤١)

﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾ (الصافات ١٣٧ ، ١٣٨)

٤ ـــ مخاطبة العقل بما هو أهل له .

لا يوجد منهج يكرم العقل الإنسانى مثلما يكرمه الإسلام ، ولا يوجد دين يشبع التطلعات العقلية ويجيب على تساؤلاتها مثلما يجيب الإسلام . ولا عجب فإنه خاتم الأديان والرسالات جاء ليتلاءم مع النضج البشرى والقدرات العقلية المتطورة إلى آخر الزمان والأجيال .

وقد نطق بهذه الحقيقة أعرابى على فطرة الله لم يتلوثون بأجهزة التوجيه والتأثير من شياطين الجن والإنس عندما سأله الناس : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأن دينه لم يأمر بشىء وقال العقل : ليته ما أمر . وما نهى دينه عن شىء وقال العقل : ليته ما نهى .

ـــ ولذلك فقد قام القرآن أساسا على مخاطبة العقول البشرية لتدرك الحقيقة الأولى وهى أن هذا الدين من عند الله .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ . (النساء ٨٢)

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (محمد ٢٤)

﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ (المؤمنون ٦٨)

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ (ص ٢٩)

ـــ وقام القرآن ثانيا على وجود أحكام أساسية الحكم فيها لله ، وذلك حماية للعقل لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا فى المدى المحدود ويستحيل أن ينظر من جميع الزوايا ، وإلى جميع المصالح لا فى اللحظة الواحدة ولا فى التاريخ كله ، بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة فلا ينبغى أن يكون الحكم فيها أو فى حكم ثابت قطعى من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشرى . قال تعالى :

﴿ إن الحكم إلا لله يقُصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين ﴾ (الأنعام ٥٧)

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ (المائدة ٥٠)

﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (الأنعام ٦٢)
﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ﴾ (الرعد ٣٧) .
وقام القرآن ثالثا على فتح المجال للعقول البشرية فيما لا نص فيه مما يجدّ من الأقضية فى حدود ما أمر به الله ورسوله . وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيقى بالقدر الذى أراده الله له من التكريم فى مجاله الذى يحسنه وهو معرفة نواميس الكون والإبداع فى عالم المادة وهو ملك عريض . وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة وتوجيهاً كبيراً حتى يألف الإدراك البشرى هذا اللون من النقلة وهذا المدى من الرقى وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشرى فى ظل التوجيه الربانى والضبط القرآنى والتربية النبوية قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية فى آن واحد وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلى الذى يتلاءم مع تطوير الأجيال
﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ (يونس ١٠)
﴿ فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق ﴾ (الطارق ٥ ، ٦)
﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (الأنعام ٩٩) .
إن رسول الله ﷺ كان بحق خير من بلغ الرسالة وأدى الأمانة حيث كان فى كل خطوة من خطواته سلوكا تطبيقيا للمنهج الربانى فاستنهض الهمم ، ووضع العقل البشرى فى مكانته اللائقة به فكان يستشير أصحابه فى كل الأمور التى لم ينزل بها الوحى وفتح مجال الاجتهاد على مصراعيه حيث قال : إنه للمجتهد إذا أصاب أجران ، وإذا أخطأ أجر ـــ فأى تقدير للعقل أعظم من هذا التقدير وأى أمن له من التيه تحت ضغط التيارات الدنيوية أحكم من هذا الأمن . فهناك كتاب الله وسنة رسوله الكريم وسنة الخلفاء الراشدين ، لا يمكن أن يضل عقل أبدا استضاء بنورهم وسار فى هديهم ، واجتهد ما وسعه الجهد تحت ظلهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :
﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ (طه ١٢٣)
﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ﴾ (الأنعام ١٤٤)
حقا إن هدى الله هو الأمان للعقل وهو نور للفؤاد ، وماذا بعد الهدى إلا الضلال ؟ ! !

رابعاً : تحقيق الأمن للعرض :

إن الإسلام عندما حدد منهجه فى الحفاظ على العرض كان هدفه هداية الناس وحمايتهم من عوامل القلق ومن الانحراف فى الهاوية ، وإعانتهم على التسامى فى المرتقى الصاعد إلى السموات العلى . ولذلك فقد أهتم اهتماما بالغا بميدان الحفاظ على الأسرة وتطهير المجتمع وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة التى يحب الله أن يلتقى عليها الرجال والنساء وتحريم ما عداها من الصور وتبشيعها وتقبيحها فى القلوب والعيون لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قال تعالى موضحا نعمته الكبرى ومنته العظمى علينا :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (الروم ٢١)

وقال جل شأنه : **﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾** (النحل : ٧٢)

إنها القاعدة الأولى فى نظام المجتمع الإسلامى، هى الأسرة : جعلها الإسلام وحدة المجتمع وأصدر من القوانين والتشريعات الإلهية ما يحقق صيانة هذه الأسرة من كل شائبة ومن كل اختلاط فى الأنساب ينشأ من شيوعية الاتصال الجنسى أو ينشأ من انتشار الفاحشة وتلوث المجتمع بها . ومن أهم تلك القوانين فرض عقوبات صارمة على الزانى والزانية :

فإن لم يكونا متزوجين : قال تعالى : **﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾** (النور ٢)

وإن كانا متزوجين : ما ورد فى الحديث الشريف :كان مما يتلى « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله ورسوله[1] »

إن الأسرة القائمة على الزواج العلنى الذى تخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه ، ويتم به الإحصان — وهو الحفظ والصيانة — هى أكمل نظام يتفق مع فطرة الإنسان وحاجاته الحقيقية الناشئة من كونه إنسانا ، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية — وإن كانت تتضمن هذه الغاية فى ثناياها وتحقق أهداف المجتمع الإنسانى كما يضمن لهذا المجتمع الأمان المطلق : أمن الضمير ، وأمن البيت ، وأمن المجتمع فى نهاية المطاف ...

إن حماية الإسلام للعرض هو حماية لعرض كل المؤمنين من العدوان عليه : قال جل شأنه محذرا من هذا الانتهاك :

﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ (الشعراء : ٦٦)

ولنعرف عظمة الوصف الإلهى بأن ترك ما أحل من الأزواج إلى غير ما أحل بأنه عدوان يشمل المجتمع بأسره يمكن النظر إلى حياة المجتمعات التى تحررت من قيود الدين والأخلاق والحياء فى هذه العلاقة :

« لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هى المعول الأول الذى حطم الحضارات القديمة : حطم الحضارة

(١) مسند أحمد ٥ /١٨٣ والسنن الكبرى للبيهقى ــ كتاب الحدود ــ باب ما يستدل به على أن السبيل هو جلد الزانين ورجم الثيب ٨ /٢١١ والحاكم فى المستدرك ــ كتاب الحدود ٤ /٣٦٠ وفتح البارى كتاب الحدود ــ باب الاعتراف بالزنا ١٢ /١٤٣

الإغريقية ، وحطم الحضارة الرومانية ، وحطم الحضارة الفارسية . وهذه الفوضى ذاتها هى التى أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة . وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة ، فيما يلى :

ــ فى الأدب الفاحش الخليع الذى يدعو إلى انهيار المثل والمبادىء .

ــ فى الأفلام السينمائية التى تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى المدمرة .

ــ فى انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء الذى يظهر فى عريهن وفى إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام .

ــ انتشار موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات والإدمان على المخدرات وجرائم الاعتداء على النساء والفتيات الصغيرات وانتشار الأمراض السرية الفتاكة .

ــ انتشار الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية وهو من أكثر العناصر فى جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر . وهو أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التى قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن .

ــ وجد أن الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم لا لأنهم فى حاجة إلى المال ولكن لأن بهم شذوذا جنسيا ناشئا من آثار الفوضى الجنسية السائدة فى المجتمع .

ــ هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين وذلك فى مجتمع لايدرى فيه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته فى الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق ، ولاتدرى الزوجة إن كان زوجها الذى خرج فى الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية ! مجتمع تعيش فيه البيوت فى مثل هذا القلق كفيل بأن يحطم كل سعادة مادية يحصل عليها المرء .

ــ هناك انخفاض مستمر فى نسبة المتزوجين وارتفاع مستمر فى نسبة عدد المواليد غير الشرعيين . وهكذا تزيد نسبة الحياة القلقة الشريدة التى يعيشها هؤلاء الأطفال مما ينعكس على المجتمع بأسره .

ــ إن سهولة تلبية الميل الجنسى ، وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد ، لا تدع مجالا لتكوين الأسرة ولا لاستقرارها ، مما يؤدى إلى الاتجاه نحو انقراض النسل . هذا مآله زوال الحضارة والاجتماع والفناء آخر الأمر » (مستفاد من ظلال القرآن الجزء : ٥)

صدقت يارب العزة يا من قلت وقولك الحق :

﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ (الأنعام ١٥١)

ثم خصصت الزنى بمزيد من التخصص ومزيد من النهى فقلت :

﴿ **ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾ . (الإسراء ٣٢) .

وقال رسولك الكريم ــ صلوات ربى وسلامه عليه ــ :

« لا يسرق السارق وهو مؤمن ، ولا يزنى الزانى وهو مؤمن »[١]

الإيمان أكرم على الله من ذلك .

«لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[٢] .

« إن الزناة تشتعل وجوههم ناراً »[٣]

« الزنا يورث الفقر »[٤] .

وهكذا فإن الذين يحسبون أن التقيد بمنهج الله وبخاصة فى علاقات الجنسين أمر شاق ومجهد يعيشون فى وهم كبير ، فإطلاق الشهوات من كل قيد وتحرى اللذة فى كل تصرف ، والتجرد فى علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقى ومن كل التزام اجتماعى هذا كله يبدو يسرا وراحة وانطلاقا ولكنه فى حقيقته مشقة وجهد . ونتائجها فى حياة المجتمع بل وفى حياة كل فرد هو القلق وفقدان الأمن والانهيار فى النهاية .

وإنه لمفخرة للإسلام ذلك المنهج الذى وضعه الحكيم الخبير فى المحافظة على العرض وتحقيق كل دواعى الأمان له ، لأنه علامة مضيئة وحجر راسخ فى حياة المجتمعات الإسلامية يجعلها تعيش آمنة مطمئنة فى كنف الإسلام الذى جاء من رب رحيم على يد رسول الرحمة الذى أعلنها بكل يقين الإيمان : وبكل نقاء الرسالة وصفائها وأمنها « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه »[٥]

خامسا : تحقيق الأمن للمال :

إن المال هو عصب الحياة وقوام حياتها وعليه يتوقف تقدم المجتمعات ونهضتها ورخاؤها وعليه أيضا يتوقف أمن تلك المجتمعات وطمأنينتها إذا آمنت بالطريقة المثلى لتداول المال بين الأفراد .

ولأهمية المال القصوى فى إدارة عجلة الحياة فإن المنهج الإسلامى أهتم اهتماما بالغاً بكل منفذ وكل طريقة يتم بها تداول المال سواء فى الاستهلاك أو الادخار أو الاستثمار أو كيفية توزيع الدخول . ليس

(١) البخارى ــ كتاب الأدب ــ باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ٨ /٤٨ ، ومسلم ــ كتاب الإيمان ــ باب قول النبى ــ ﷺ ــ : لا ترجعوا بعدى كفارا ، والنسائى فى تحريم الدم ــ باب تحريم القتل ، وابن ماجه فى الفتن ــ باب لا ترجعوا بعدى كفارا حديث رقم ٣٩٤٣ وأبو داود ــ كتاب السنة ــ باب زيادة الإيمان ونقصه ٥ /٦٤ حديث ٤٦٨٩

(٢) البخارى ــ كتاب الديات ــ باب قول الله تعالى : أن النفس بالنفس ٩ /٦ ومسلم ــ كتاب القسامة ــ باب ما يباح به دم المسلم رقم ١٦٧٦ وأبو داود ــ كتاب الحدود ــ باب الحكم فيمن ارتد ٤ /٥٢٢ رقم ٤٣٥٢ والترمذى ــ كتاب الحدود ــ باب فى المرتد رقم ١٤٥٨ وقال : حسن صحيح والنسائى ــ كتاب تحريم الدم ــ باب الحكم فى المرتد،وابن ماجه ــ كتاب الحدود ــ باب المرتد عن دينه رقم ٢٥٣٥

(٣) رواه الطبرانى . مجمع الزوائد ــ كتاب الحدود والديات ــ باب ذم الزنا ٦ /٢٥٥

(٤) الترغيب والترهيب ــ كتاب الحدود ــ باب الترهيب من الزنا ٣ /٢٧١

(٥) أبو داود ــ كتاب الأدب ــ باب فى الغيبة ٥ / ١٩٥ رقم ٤٨٨٢ والترمذى ــ كتاب البر ــ باب فى شفقة المسلم على المسلم رقم ١٩٢٨ وقال:حسن صحيح ،وابن ماجه ــ كتاب الفتن ــ باب حرمة دم المؤمن وماله ٢ /١٢٩٨ رقم ٣٩٣٣

هذا فقط بل أنه اهتم بالمال بعد وفاة المسلم عن طريق قوانين الميراث واهتم بالمحرومين من المال ففرض لهم الزكاة كركن أساسىٍّ من أركان الإسلام الخمسة وأضاف لهم الصدقات فى حدود الثلث مما أفاض الله به على خلقه ووسع عليهم فى رزقهم .

هناك قاعدة أساسية فى التشريع الإسلامى يتفرع عنها مواد فرعية كثيرة كلها تهدف إلى تحقيق الأمن للمال . هذه القاعدة مكتوب على بابها :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ . (النساء ٢٩)

إنه نهى عام عن كل طريقة يتم بها تداول الأموال لم يأذن بها الله أو نهى عنها ، ومنها السرقة والغش والرشوة والقمار واحتكار الضروريات لإغلائها وجميع أنواع البيوع المحرمة والربا فى مقدمتها . وعقب ذلك النهى بما يوحى بالآثار المدمرة التى ينشئها أكل الأموال بالباطل فى حياة الجماعة إنها عملية قتل للمجتمعات حيث يباع فيها ما ليس يباع كالعرض والذمة والضمير والخلق والدين .

فما هى الخطوات التفصيلية التى انتهجها الإسلام لتحقيق الأمن للمال ؟

١ ــ تشديد عقوبة السرقة والاعتداء على الملكية الفردية والاعتداء على أمن الجماعة .

قال تعالى وهو أحكم الحاكمين : **﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾** (المائدة ٣٨ ــ ٣٩) .

إن قطع اليد تنكيل من الله رادع لكل من تحدثه نفسه بالسرقة . وهو رحمة بالجماعة كلها لأنه يوفر لها الطمأنينة والأمن .

٢ ــ تحريم الاكتناز

إن اكتناز الأموال وحبسها عن التداول هو تعطيل لوظائفها الأساسية وحرمان المجتمع المسلم من الخير الذى سيعود عليها باستثمار تلك الأموال ومواجهة مطالبه واحتياجاته الأساسية وتحقيق الأمن لحياة الفقراء بعيدا عن شظف العيش قال تعالى فى كتابه الكريم محذرا أشد التحذير لكل من تسول له نفسه اكتناز النقود وحبسها عن الاستثمار فى الأغراض التى حددها الله لنا لتحقيق الرفاهية والتقدم للمجتمع المسلم :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم * هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ . (التوبة ٣٤ ــ ٣٥)

ويضرب لنا الله فى القرآن الكريم أمثلة لقوم كنزوا المال فعوقبوا بالدمار فها هو ذا قارون يؤتى من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . ويأمره قومه بالإحسان كما أحسن الله إليه فيقول : **﴿ إنما**

أوتيته على علم عندى ﴾ فيكون المآل ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ (القصص ٨١)

وها هو ذا ثعلبة يعاهد الله إن آتاه مالا ليصدقن وليكونن من الصالحين ، فيؤتى المال ويبخل به ويكنزه فتكون العاقبة : ﴿ **فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه** ﴾ (التوبة ٧٧) .

٣ ــ تحريم الربا

إن تحريم الربا من أعظم الإجراءات فى المنهج الإسلامى لتحقيق الأمن للمال . فالربا هو توجيه المال أى وجهة ، الهدف منها زيادة الربح بصرف النظر عن نوعية الاستثمار الموجه إليه ، هذا المال ، حتى ولو كان فى أحط المشروعات وإن كان فى ظاهره يحقق عائدا مجزيا إلا أنه فى باطنه يحقق عائدا سلبيا ليس على المجتمع ككل فقط ، وإنما على المستثمر نفسه . لأن الربا يثقل الصناعة بالفوائد الربوية التى تضاف إلى أصل التكاليف ويثقل التجارة والمستهلك بأداء هذه الفوائد التى يفرضها على الصناعة . وهذا يؤدى إلى ارتفاع الأسعار مما يؤدى إلى ارتفاع تكلفة عوامل الإنتاج على المدى الطويل مما يسبب خسارة المستثمر أو انخفاض نسبة ربحه . فإذا أراد ارتفاع تلك النسبة فإنه سيضطر إلى رفع سعر سلعته وهكذا يدخل المجتمع فيما يسمى بالتضخم الحلزونى ، وهو ما يجر أوخم العواقب التى يعرفها الاقتصاديون جيدا ويلمسها رجل الشارع فى ذلك الارتفاع الرهيب فى الأسعار وعدم مقدرته على الوفاء باحتياجاته الأساسية بنفس الدخل الذى كان يحصل عليه فيما مضى .. وهذا يؤدى إلى انتشار الفقر ، وزيادة وطأة أعباء الحياة على الناس وهو ما يرفضه الإسلام أساسا لأنه دين العزة والقوة والرخاء . قال تعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾ (الروم ٣٩)

﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾ (البقرة ٢٧٥ ــ ٢٧٦)

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة** ﴾ (آل عمران ١٣٠)

٤ ــ تحريم الاحتكار :

حرم الإسلام تحريما قاطعا تخزين كميات كبيرة من الناتج تؤدى إلى نقص المعروض منه فى السوق أو اختفائه فلا يجد المسلم حاجته الضرورية إلا بأسعار مرتفعة ، وهذا يشكل عناء كبيرا على ذوى الدخول المحدودة ويتنافى أساساً مع العدالة الاجتماعية والتكامل الاجتماعى الذى بنى عليهما الإسلام دعائمه .

إن الاحتكار معناه تحكم القلة فى الأغلبية . معناه قلق الناس وخوفهم الدائم من ارتفاع الأسعار بحيث لا يقدرون على مواصلة مسيرتهم فى الحياة .

قال تعالى فى بيان عقوبة المحتكر الذى يسبب بتصرفه هذا تضخما اقتصاديا يجر الويلات على المجتمع بأسره :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ (المائدة : ٣٣)

وقال صلوات الله وسلامه عليه تأكيدا لذلك المنهج الربانى :

« من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم ، كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة »[١] .

« من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس »[٢]

« من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله والله برىء منه »[٣] .

« بئس العبد المحتكر إن سمع برخص ساءه وإن سمع بغلاء فرح »[٤] .

فأى أمن يشعر به الإنسان على ماله واحتياجاته وهو يعيش فى مجتمع تظلله تلك القوانين السامية حيث ترتقى بالبشرية إلى قمم سامقة ؟ !

٥ ــ الاهتمام بتوثيق الدين :

لما كان الإسلام دين الحياة فهو يراعى تلك الضرورة التى تلجىء الناس إلى الدين ، فنظمها أروع تنظيم بالمحافظة على حق الدائن والمدين وحماية حقوق كل منهما فى تبادل الأموال . فجعل آية الدين أطول آية فى القرآن الكريم وأمر فيها بكتابته كما أباح الرهن لتوثيق الدين قال تعالى فى دستوره الحكيم :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه

---

(١) مسند أحمد ٢٧/٥ والحاكم فى المستدرك (كتاب البيوع) ١٢/٢ والبيهقى فى السنن الكبرى ٣٠/٦

(٢) سنن ابن ماجه (كتاب التجارات) باب الحكرة والجلب٢/٧٢٩ رقم ٢١٥٥

(٣) مسند أحمد ٣٣/٢ ومجمع الزوائد (كتاب البيوع) باب الاحتكار ١٠٠/٤ والحاكم فى المستدرك ١٢/٢

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ــ كتاب البيوع ــ باب الاحتكار ٤ /١٠١

فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بل شىء عليم وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴾ (البقرة ٢٨٢ ــ ٢٨٣)

أى أمن وأى روعة أعظم من ذلك التنظيم البديع للدين ؟ ! فلا هضم للحقوق ولا ضياع للأموال بل إحكام وأمان من لدن حكيم خبير .

٦ ــ الحفاظ على مال الضعيف :

إن تداول المال فى المجتمع يستلزم خبرة ودراية عظيمتين . وكنز المال ممنوع فى الإسلام . إذن ما هو الحل بالنسبة لمن عنده مال ولكنه ضعيف عن استثمار هذا المال مثل اليتيم والسفيه هنا يتدخل الشرع ليحكم حكمه العادل :

ــ بالنسبة لليتيم فعلى ولى أمره أن يستثمر ماله بالحكمة . بما يعود على اليتيم بالنفع وليحذر من تسول له نفسه بأن يستحل شيئاً من هذه الأموال قال تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** ﴾ (النساء ١٠)

حتى إذا بلغ اليتيم رشده وأصبح قادرا على استثمار أمواله بنفسه وجدها قد نمت وربت مع الزمن فيستطيع ولى الأمر حينئذ أن يطمئن باله ويرتاح من المهمة التى كلفه الله بها وألقاها على عاتقه فقام بها خير قيام عملا بقول الله عز وجل :

﴿ **وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا** ﴾ (النساء ٢) .

﴿ **وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا** ﴾ (النساء ٦)

ــ بالنسبة للسفيه فليس من الحكمة ترك المال بين يديه يبعثره كيفما يتراءى له خياله المريض . بما ينعكس آثاره السيئة على المجتمع الإسلامى ككل . ولذا كان حكم الله ــ سبحانه وتعالى ــ بأن يكون هناك من يتولى أمر السفيه ويحرص على ماله لأن المال قوام الحياة وله الدور الإيجابى فى إدارة عجلتها قال تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفا** ﴾ (النساء ٥) .

٧ ــ تحريم الغش والرشوة :

إن الغش والرشوة وسيلتان للحصول على حقوق بدون وجه حق وهما وبال على المجتمع عندما يصاب بداء التراخى وحب الكسب السريع إنهما يؤديان إلى أسوأ تداول للمال يعود بأوخم العواقب على

الاقتصاد القومى كله . ولهذا كان هناك من القوانين الإلهية ما يردع تلك الأمراض الفتاكة التى يمكن أن تصيب النفوس البشرية وتحرم المال من أمن التداول فيما خلق الله له .

﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** ﴾ (البقرة ١٨٨)

وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل فيه ؟ »(١)

« لعن الله الرشوة والرائش والمرتشى »

أما بشأن الغش الذى يؤدى إلى الحصول على أموال بطرق غير مشروعة فإنه بخس لحقوق الناس وفساد فى الأرض ما بعده فساد ، له عقوبة تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف لأنه سمع قول الحق ــ تبارك وتعالى ــ ولم يستجب له . ﴿ **يا قوم أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ (هود ٨٥) .

ولأنه خرج من تبعية أمة محمد الرسول الأمين الذى قال ــ صلوات ربى وسلامه عليه ــ « من غش فليس منا »(٢).

إن ما عرضناه من مقتطفات عن كيفية تحقيق المنهج الإسلامى الأمن للمال يعتبر قطرة من محيط لأن ذلك المنهج عظيم كل العظمة ، عميق كل العمق ، فأنى لقلم أن يوفى ذلك المنهج حقه ، ويكفينا أن نردد قول الحق ــ سبحانه وتعالى ــ :

﴿ **ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ (لقمان ٢٧)

[صدق الله العظيم]

قوله تعالى : ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾ أى يطلبون ما يشتهون من أنواع الفاكهة ، وهم آمنون من انقطاعها ، ومن غائلة أذاها ومكرها ، فهى ليست كفاكهة الدنيا التى نأكلها ونخاف مكروه عاقبتها أو نخاف نفادها فى بعض الأحايين قال تعالى : ﴿ **وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾(٣) .

(١) رواه الطبرانى والبزار ورجال الطبرانى رجال الصحيح ــ مجمع الزوائد ــ كتاب البعث ــ باب ما جاء فى الحساب . ١٠ /٣٤٦

(٢) مسلم ــ كتاب الإيمان ــ حديث رقم ١٦٤

وابن ماجه ــ كتاب التجارات ــ باب النهى عن الغش ٢ /٧٤٩ رقم ٢٢٢٤ والترمذى ــ كتاب البيوع ــ باب فى كراهية الغش ٣ /٥٩٧ رقم ١٣١٥

(٣) سورة الواقعة الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

وبعد أن وصف ما هم فيه من نعيم مقيم ، بين أن حياتهم فى هذا النعيم دائمة لا يلحقها موت ولا فناء فقال تعالى : ﴿ **لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى** ﴾ أى : لا يذوقون فيها الموت البتة لأنهم خالدون فيها ثم قال : ﴿ **إلا الموتة الأولى** ﴾ على الاستثناء المنقطع ، أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا . وقيل : « إلا » بمعنى سوى ، أى : سوى الموتة التى ماتوها فى الدنيا .

وقد ثبت فى الصحيحيين أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم يقال : ياأهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت »[١]

وروى أبو هريرة وأبو سعيد ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : « يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً »[٢] رواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ **ووقاهم عذاب الجحيم** ﴾ أى : وهم مع هذا النعيم قد نجاهم من العذاب الأليم فأعطاهم ما يطلبون ، ونجاهم مما يهربون كما قال تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون * متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين** ﴾ (الطور ١٧ ، ١٨ ، ١٩) .

وقوله تعالى : ﴿ **فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ أى : فعل ذلك بهم تفضلاً منه عليهم ، إذ وفقهم فى الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة (ذلك هو الفوز العظيم) أى : السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة .

عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ــ عز وجل ــ يقول لأهل الجنة : ياأهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ياربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ! فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك** ﴾ يعنى القرآن العظيم أى : سهلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ أى : يتعظون وينزجرون . كما قال تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ فختم السورة جل فى علاه بالحث على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا ، كما قال فى مفتتح السورة ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾ .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الجنة ونعيمها ــ باب النار يدخلها الجبارون والنار يدخلها الضعفاء صـ ٨٠٠ رقم الحديث ١٨١١ ومسلم ــ كتاب الجنة ونعيمها ــ باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤ /٢١٨٨ رقم ٢٨٤٩

(٢) صحيح مسلم ــ كتاب الجنة وصفة نعيمها ــ باب دوام نعيم أهل الجنة ٤ /٢١٨٢ رقم ٢٨٣٧

(٣) صحيح مسلم ــ كتاب الجنة وصفة نعيمها ــ باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا ٤ /٢١٧٦ رقم ٢٨٢٩

وقوله تعالى : ﴿ **فارتقب إنهم مرتقبون** ﴾ أى : انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت ، حكاه النقاش وقيل : انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وسيعلمون لمن تكون النصرة والغلبة وعلو الكلمة فى الدنيا والآخرة .

﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾[1] .

تفسير سورة الجاثية

مقدمة :

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية بالإجماع . عدد آياتها : سبع وثلاثون آية .

وعدد كلماتها : أربعمائة وثمانون . وحروفها ألفان ومائة وتسعون .

ومجموع فواصل آياتها : (من) .

ولها اسمان : سورة الجاثية ؟ لقوله تعالى : ﴿ **وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها** ﴾ ، وسورة الشريعة لقوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها** ﴾ .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان حجة التوحيد ، والشكاية من الكفار والمتكبرين ، وبيان النفع والضرء والإساءة والإحسان وبيان شريعة الإسلام والإيمان ، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان ، وذم متبعى الهوى ، وذل الناس فى المحشر ، ونسخ كتب الأعمال من اللوح المحفوظ ، وتأبيد الكفار فى النار ، وتحميد الرب المتعال بأوجز لفظ ، وأفصح مقال فى قوله تعالى : ﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

المتشابهات : ﴿ **وآتيناهم بينات من الأمر** ﴾ نزلت فى اليهود وقد سبق قوله ﴿ **نموت ونحيا** ﴾ سبق . وقيل : فيه تقديم وتأخير أى : نحيا ونموت . وقوله تعالى : ﴿ **ولتجزى كل نفس بما كسبت** ﴾ بالباء موافقة لقوله : ﴿ **ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون** ﴾ قوله : ﴿ **سيئات ماعملوا** ﴾ لتقدم : ﴿ **كنتم تعملون** ﴾ ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾ قوله : ﴿ **ذلك هو الفوز المبين** ﴾ تعظيما لإدخال الله المؤمنين فى رحمته .

مناسبتها لما قبلها :

أن أول هذه السورة مشاكل لآخر سابقتها فى الأغراض والمقاصد .

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٥١ ، ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

معانى المفردات

(لآيات) لعبراً ، (يبث) أى : يفرق وينشر (اختلاف الليل والنهار) أى : تعاقبهما ليل بعد نهار ، ونهار بعد ليل (من رزق) أى : من مطر وشمس سمى بذلك لأنه سبب له (وتصريف الرياح) أى : تغيرها من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال . (الأفاك) كثير الإفك والكذب (الأثيم) كثير الإثم والمعاصى .
(يصر) الإصرار على الشيء : ملازمته . (من ورائهم) أى : بعد آجالهم (يغنى) يدفع (أولياء) أى : أصناماً (الرجز) أشد العذاب .

التفسير

قوله تعالى :
(حمٓ) هذه أمثلة من الحروف المقطعة ، ونحن نرجح الرأى القائل إنها إشارات واضحة ودلالات قاطعة على إعجاز القرآن الكريم .
وقوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ أى : إن هذا الكتاب الكريم أنزله العزيز الغالب القاهر لكل شيء ، الحكيم فى تدبيره لكل ما خلق ، فهو سبحانه مع قهره للعوالم المادية والروحية ، لا يتصرف إلا بالحكمة كما يشاهد فى النبات والحيوان والأجسام الإنسانية ودوران الكواكب وانتظامها

فى سيرها ، فكل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة فى صنعها ومن ثم أعقب ذلك بنتائج العزة والحكمة فقال تعالى :

﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين** ﴾ أى : إن فى السموات السبع اللاتى منهن ينزل الغيث ، وفى الأرض التى منها يخرج الخلق ـــ لأدلة واضحة للمصدقين بالحجج إذا تأملوها وفكروا فيها تفكير من يسلك السبيل القويم ، فيرتب المقدمات ، ليصل فيها إلى النتائج التى هى لازمة لها بحكم النظام الفكرى والترتيب العقلى ، وبعد أن ذكر الأدلة الكونية التى فى الآفاق أتبعها بذكر الأدلة التى فى الأنفس فقال تعالى :

﴿ **وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون** ﴾ أى : وإن فى خلق الله إياكم على أطوار مختلفة من تراب ثم من نطفة إلى أن تصيروا أناسىّ ، وفى خلق ما تفرق فى الكون من الدواب ـــ لحججاً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء فيقررونها بعد العلم بصحتها . وقوله تعالى : ﴿ **واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون** ﴾ أى : وإن فى تعاقب الليل والنهار عليكم ؛ هذا بظلمته وسواده ، وذاك بنوره وضيائه ، وفيما أنزل الله من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد موتها ، فتهتز بالنبات والزرع من بعد جدوبها وقحوطها ، فتخرج أرزاق العباد وأقواتهم ، وفى تصريف الرياح لمنافعكم شمالية مرة وجنوبية أخرى ، صبأ مرة ، ودبوراً أخرى ـــ لأدلة وحججا لله على خلقه الذين يعقلون عنه حججه ويفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبر ونحو هذه الآيات قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ١٦٣ ـــ ١٦٤

قوله : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ أى : هذه آيات القرآن بما فيها من حجج وبينات ، نتلوها عليك متضمنة للحق . ﴿ **فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون** ﴾ أى : فبأى حديث أيها القوم بعد حديث الله الذى يتلوه على رسوله ، وبعد حججه وبراهينه التى دلكم بها على وحدانيته ــ تصدقون إن كذبتم به .

فإذا كنتم لا تؤمنون بهذه الآيات ولا تنقادون لها ، فبم تؤمنون ؟ وإلام تنقادون ؟ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

وبعد أن بين للكفار آياته ، وذكر أنهم إن لم يؤمنوا بها فبأى حديث بعدها يؤمنون ؟ أتبعه بالوعيد العظيم لهم فقال تعالى :

﴿ **ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم** ﴾ أى : فالويل أشد الويل ، والعذاب أقسى العذاب لكل كذاب فى قوله ، أثيم فى فعله .

﴿ **يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها** ﴾ أى : إذا سمع آيات الله تقرأ عليه ، وهى مشتملة على الوعد والوعيد ، والإنذار والتبشير ، والأمر والنهى ، والحكم والآداب ، أصرّ على الكفر بها وجحدها عنادا كأنه ما سمعها كما قال سبحانه : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم** ﴾[1] .

ثم أوعده على ما فعل عذاباً أليما فى نار جهنم فقال :

﴿ **فبشره بعذاب أليم** ﴾ أى : فبشره أيها الرسول بالعذاب المؤلم الموجع فى جهنم وبئس القرار .

وفى تسمية هذا الخبر المحزن بشرى ، وهى لا تكون إلا فى الأمر السار ــ تهكم بهم ، واحتقار لشأنهم كما قال سبحانه : ﴿ **بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا** ﴾ أى : وإذا وصل إليه خبرهاوبلغه شيء منها ، جعلها هزوا وسخرية ، فقد روى أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم *طعام الأثيم** ﴾ دعا بتمر وزُبد وقال لأصحابه : تزقموا من هذا ، ما يعدكم محمد إلا شهداً ، وحين سمع قوله تعالى ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾ أى على النار قال : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى .

---

(١) سورة لقمان الآيتان : ٦ ــ ٧

(٢) سورة النساء الآية : ١٣٨

﴿ **أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ أى : أولئك الأفاكون المتصفون بتلك الصفات لهم العذاب الذى يهينهم ويذلهم فى نار جهنم بما كانوا فى الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته ، واتخاذهم لها هزو

وقوله تعالى : ﴿ **من ورائهم جهنم** ﴾ أى : ومن وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر جهنم والمراد أنها من قدامهم ، لأنهم متوجهون إليها كقوله : ﴿ **وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا** ﴾ أى : ولا يدفع العذاب عنهم ما كسبوا من الأموال والأولاد .

﴿ **ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء** ﴾أى :ولا تغنى عنهم أصنامهم التى عبدوها من دون الله شيئا ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ أى :قوله تعالى : ﴿ **هذا هدى ، والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ ﴿ **هذا هدى** ﴾أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أيها الرسول هاد إلى الحق وإلى طريق مستقيم لمن اتبعه وعمل بما فيه فهو حبل الله المتين ، والنور المبين ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه كما قال تعالى : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾

﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾[1] ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾[2]

وقوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ أى : والذين جحدوا بآياته الكونية فى الأنفس فمروا عليها وهم عنها معرضون ، وجحدوا بآياته المنزلة على رسوله الكريم لهم العذاب المؤلم الموجع يوم القيامة .

من نعم الله تعالى على عباده

قال تعالى :

* ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٨
(٢) سورة البقرة الآية : ٢

فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

معـانى المفردات

(سخر) هيأ ، (الفلك) السفينة (الابتغاء) الطلب ، (يغفر) أى : يعفو ويصفح (لا يرجون) أى : لا يتوقعون حصولها ، (أيام الله) وقائعه بأعداء دينه ، (الكتاب) المراد به الكتب التى نزلت على أنبياء بنى إسرائيل ، (الحكم) الفصل بين الناس فى الخصومات ، لأنهم كانوا ملوكا ، (بينات من الأمر) أى : دلائل واضحات فى أمر الدين ، ويندرج فيها معجزات موسى — عليه السلام — (بغيا) أى : حسدا وعنادا ، (على شريعة من الأمر) أى : على طريقة ومنهاج فى أمر الدين . وأصل الشريعة مورد الماء فى الأنهار ونحوها ، وشريعة الدين يرد منها الناس إلى رحمة الله والقرب منه ، (بصائر للناس) أى : معالم للدين بمنزلة البصائر فى القلوب ، (الاجتراح) الاكتساب ، ومنه الجارحة للأعضاء التى يكتسب بها كالأيدى والمراد بالسيئات : سيئات الكفر والإشراك بالله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف الحجج الدالة على ـــ ربوبيته ووحدانيته ـــ أردف ذلك ذكر آثارها ، فمن ذلك تسخير السفن فى البحار ، ومنها تسخيره باقى السموات والأرض من شموس وأقمار وبحار وجبال لتنتفعوا بها فى مرافقكم وشئونكم المعيشية . ثم أمر المؤمنين بمحاسن الأخلاق ، فطلب إليهم أن يصفحوا عن الكافرين ويحتملوا أذاهم ، وعند الله جزاؤهم فمن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ويوم القيامة يجازى كل نفس بما كسبت من خير أو شر . ثم ذكر بعد ذلك ـــ تسلية لرسوله ـــ بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، بل طريقهم طريق من تقدمهم . فلقد أنعم الله على بنى إسرائيل بنعم كثيرة وقد حصل بينهم الاختلاف بغيا وحسداً . ثم أمر الرسول بأن يتمسك بالحق ولا يتبع أهواء الجاهلين الضالين ، ثم ذكر أن القرآن معالم للهداية تهتدى بها القلوب الضالة عن طريق الحق ، فتلزم الجادة وتصل إلى طرق النجاة ثم يبين سبحانه أنه لا يسوى بين المحسن والمسيء وذكر الدليل على هذا بأن الله ما خلق الخلق إلا بالحق المقتضى للعدل والانتصاف للمظلوم من الظالم ، والتفاوت بين المحسن والمسيء فى الجزاء ، وإذا لم يكن هذا فى الحياة كان فى دار الجزاء حتماً ، لتجزى كل نفس بما كسبت فلا تظلم بنقص ثواب أو بمضاعفة عقاب . ثم عجَّب سبحانه ممن ركب رأسه واتبع هواه وترك الهدى واضل الله وهو العليم باستعداده وخبث طويته ، فهو ممن ختم الله على سمعه وقلبه ، فلا يتأثر بعظة ، ولا يفكر فى آية ، وجعل على بصره غشاوة مانعة من الاستبصار والاعتبار ، فمن تعبد الله يهديه ؟ أفلا تتذكرون وتتفكرون فى هذا ؟ ثم ذكر سبحانه حماقة أخرى من حماقاتهم ، تلك أنهم أنكروا البعث وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما ذلك منهم إلا ظنون وأوهام لا مستند لها من نقل ولا عقل ، فأمر الله رسوله أن يجيبهم بأنه هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، ثم يجمعهم فى يوم لا شك فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ۞ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾

أى : إن ذلك الخالق الواحد الذى أقمت لكم الأدلة على وجوده ـــ هو الذى يسَّر لكم استخدام البحر لتجرى فيه السفن بإذنه وقدرته حاملة أقواتكم ومتاجركم لتقوم بشئونكم المعيشية ، ولتطلبوا رزق ربكم منه ولتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم ، فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه كما قال سبحانه : ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾

وقوله تعالى : ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ أى : وسخر لكم جميع ما خلقه فى سمواته وأرضه مما تتعلق به مصالحكم وتقوم به معايشكم ، فمما سخر لكم من المخلوقات السماوية الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، ومن المخلوقات الأرضية الدواب والأشجار والجبال والبحار والسفن رحمة منه وفضلا ﴿ **جميعا منه** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ وكل هذه أدلة ناطقة على أنه الله الذى لا إله غيره ، لمن تأمل فيها واعتبر بها وتدبرها حق التدبر ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ فى خلق السموات والأرض ويقولون ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار .

ألا إننـــا كلنـــا بائـــد ... وأىُّ بنـــى آدم خالـــدُ
وبدؤهـــم كان مـــن ربهم ... وكـــلّ إلى ربـــه عائـــد
فيا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيـف يجحـده الجاحـد
وفى كل شيء لـــه آيـــة ... تـــدل على أنـــه الواحـــد

وللعلم فى عالم البحار والأنهار كلمة

قال الدكتور / عزت محمد خيرى فى كتابه « دلائل الحق فى عظمة الخالق » تحت عنوان المياه .. مصادرها وخواصها وأهم منافعها ما نصه :

قال تعالى : ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ (٢٤ ـــ الروم) .

حقا إن الماء شريان الحياة فوق الأرض للإنسان والحيوان والنبات ، والعلم يشهد بأنه من أهم ، إن لم يكن أهم المواد الكيميائية على الإطلاق . فالماء يغطى حوالى ثلاثة أرباع سطح الأرض ، ويصل فى أعماقه فيما يتراوح بين الأمتار بالنسبة للأنهار وعشرات الكيلو مترات بالنسبة للبحار ، ويدخل الماء بنسب كبيرة فى تكوين الكائنات فى الدم والخلايا والأنسجة فى النبات والحيوان والإنسان ، فيحتوى جسم الإنسان على حوالى ٦٥ ٪ من وزنه ماء ، ويحتوى اللبن على ٨٥ ٪ ، وثمار البطيخ مثلاً على ٩٢ ٪ والطماطم على ٩٤ ٪ منه . ومن ناحية أخرى يحتوى جو الأرض على حوالى ١ ـــ ٥ فى المائة بالحجم من بخار الماء تتغير من مكان إلى آخر وإن وجود بخار الماء فى طبقات الجو العليا له من الأهمية العظمى للحياة على الأرض ما يجعلنا نسجد لله شاكرين إذ أنه يمتص الأشعة تحت الحمراء من الشمس فلا يسمح بأن يصل منها إلى الأرض إلا القدر الذى يحفظ الحياة عليها ، وكذلك يعمل بخار الماء فى الجو كحافز لكثير من عمليات الاحتراق والعمليات الطبيعية الأخرى .

وللماء من الخواص الطبيعية المميزة له عن المواد الأخرى ما يؤثر تأثيرا أساسيا فعالاً على الحياة الطبيعية والبيولوجية مما سيأتى ذكره فيما بعد وكان القدماء يعتقدون أن الماء عنصر وليس مركبا ، إلى أن تمكن العالم كافندش من إثبات تكونه عند احتراق الهيدروجين فى الهواء وكان ذلك عام ١٧٨١ ميلادية ، وفى عام ١٧٨٣ أثبت لافوازييه التركيب الجزيئى للماء من ذرتين من الهيدروجين وذرة واحدة من الأكسيجين ، ويوجد العنصران فى الماء بنسبة وزنية تبلغ ٢,٠١٦ إلى ١٦,٠٠٠ .

والماء كما نعلم نوعان أساسيان ، ماء عذب ، وماء ملح ، الأول مصدره الأصلى المطر ، والثانى مصدره البحر والمحيط ، والماء ينزل من السماء إلى الأرض ويتبخر من الأرض إلى السماء فى دورة موزونة وبقدر معلوم منظوم تتجمع السحب وتزخر ، وتتحرك وتلقح ، وتتطابق وتتعانق وتتشاحن وتتكهرب ، وتبرق وترعد ، وتفيض وتهطل وتهبط إلى الأرض فتحيى وتبهى يقول العليم القدير :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١٦٤ ـــ البقرة)

وماء المطر يكاد يكون نقيّاً خالصا من الآثار الضئيلة من الغازات المذابة الموجودة فى الهواء وأهمها النتروجين والأكسجين وثانى أكسيد الكربون والقليل جدا من النشادر وحمض النتروز وحمض النتريك ونترات النشادر ، وفى بعض المناطق الصناعية قد يذيب ماء المطر آثارا من حمض الكبريتوز والكبريتيك ، كما يحمل ماء المطر معه بعض ذرات التراب . هذا ولا تزيد نسبة الشوائب فى ماء المطر على أجزاء صغيرة فى المليون (تتراوح بين ٥ ـــ ٧ فى المليون) . ويمكن أن يستقبل ماء المطر فى خزانات طبيعية أو صناعية أو يتجمع على سطح الأرض فى أنهار أو جداول تسير شرايين للحياة ومنابع للخير والفضل وتصب فائضها فى البحر ، وقد تنساب مياه الأمطار تحت سطح الأرض إلى أعماق صغيرة أو كبيرة وتتفجر من هذه الأعماق تحت الظروف المناسبة كينابيع وعيون ، أو تحفر لها الآبار لتفتح أمامها طريق الخروج إلى سطح الأرض .

أما ماء البحر (والمحيطات) فيكون حوالى ٩٨ ٪ من المحتوى المائى للكون وهو يحتوى على نسبة من المواد المذابة تبلغ فى المتوسط ٣,٥ ٪ من وزنه ـــ وقد تصل هذه النسبة إلى ٢٥ ٪ فى البحار المقفلة كالبحر الميت مثلاً ـــ منها حوالى ٢,٦ ٪ على هيئة كلوريد الصوديم (ملح الطعام) ، والباقى يشتمل على أملاح المغنسيوم والبوتاسيوم والكالسيوم وغيرها من العناصر على هيئة كلوريدات أو كبريتات أو بروميدات أو يوديدات .

وفى الحق يمكن اعتبار المحيطات والبحار على أنها مخازن هائلة ومصادر زاخرة للكيماويات تشتمل

تقريبا على كل العناصر المعروفة بنسب متفاوته . ومن الطريف والمفيد أن نعلم أن الحجم الكلى لماء البحر يقدر بحوالى ١٣٥٠ مليون كيلو متر مكعب ، يحتوى كل كيلو متر مكعب منها على حوالى مليار طن من ماء البحر .

ولكل من النهر والبحر فوائده العديدة ومنافعه الكبيرة لا يبغى أحدهما على صنف الآخر بل يبقى كل منهما محتفظا بصنفيته والبرزخ محط الحياة ، يقول تعالى :

﴿ **مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾ (١٩ ــ ٢٠ الرحمن) ينبع النهر ومصدره مدرار من عذب مياه الأمطار ويسير فى طريقه من مستواه العالى إلى مستوى البحر المنخفض فيلتقى به ويصب فيه ما زاد على مستوى مساره وما فاض عن مجال استغلاله . وإذ يلتقى ماء النهر العذب بماء البحر الملح الأجاج يحتفظ كل منهما بصفاته اللهم إلا من جزء صغير قصير يقع فى جوار المصب تجد على جانبيه الماء العذب فى النهر والماء المالح فى البحر . وقد أثبت العلم بنظرياته هذه الحقيقة الملموسة على سطح الأرض كما أثبتها بالنسبة للمياة الجوفية وأمكن تحديد المستويات التى يوجد عندها الماء العذب والمستويات التى يوجد عندها الماء الملح ، بما يدلل على عظمة الخلق وبقاء النعمة والفضل فماذا كان يحدث لو اختلط العذب بالملح ، أكانت هناك حياة لنبات أو حيوان أو إنسان بمثل هذا اليسر والفيض ....؟ أما كنا محتاجين لنشرب ونسقى ونروى إلى الطاقات الهائلة والوسائل المعقدة والتكاليف الباهظة لكى نجعل من الملح الأجاج عذبا ؟

يقول تعالى : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ (الأنعام ٩٩) .

قلنا : إن الماء من الخواص الطبيعية والتركيبية مما يؤدى دورا هاما فى الحياة بمختلف صورها ، وفيما يلى نقتطف اثنتين من هذه الخواص لأهميتها الخاصة :

١ ــ الماء مذيب قوى قادر على إذابة الكثير من المواد خاصة ذات التركيب الأيونى ، وذلك يرجع إلى ماله من خاصية القطبية الكهربية وإلى ثابت العزل الكبير له ، وتعزى هاتان الخاصيتان للتركيب الألكترونى والفراغى لجزئيات الماء إذ إن هذه الجزئيات تترابط مع بعضها البعض عن طريق ما يسمى بروابط الهيدروجين بفعل قوى الجذب بين الشحنة الموجبة حول الهيدروجين والسالبة حول الأكسجين فى كل جزء . ومن ثم يصبح الماء وسطا مهما لسائر العمليات والتفاعلات الكيمائية والبيولوجية . ولعل من أبسط الخصائص التى يتميز بها الماء فى هذا المجال وأهمها أثرا هو أن الماء قادر على أن يذيب الأكسجين بنسبة أكثر من إذابته النتروجين (وكلتاهما نسبته صغيرة) وعلى ذلك فإن الهواء المذاب فى الماء يحتوى على نسبة أكثر من الأكسجين عنه فى الجو ولولا ذلك ما تمكنت الأسماك وسائر الأحياء المائية أن تعيش فى الماء ومعلوم أنها لا تستطيع الحياة فى الهواء خارج الماء .

٢ ــ يتميز الماء بأنه المركب الوحيد الذى يكون وزن الحجم المعين منه أكبر فى الحالة السائلة عنه فى الحالة الصلبة ، ولذلك نجد الثلج يطفو فوق سطح الماء السائل . ويُعزى ذلك إلى أنه نظرا لتركيب جزيئات الماء السابق بيانه تزاد نسبة الروابط الهيدزوجينية وبالتالى يزداد تجمع هذه الجزيئات فى الحالة الصلبة عنه فى الحالة السائلة وبالتالى يكون الحجم فى الحالة الصلبة أكبر منه فى الحالة السائلة أى : أن الكثافة تكون أصغر بالنسبة للثلج عنها بالنسبة للماء عند نفس درجة الحرارة (درجة الصفر المئوى) .

وقد ثبت أن الماء تكون له كثافة كبرى عند درجة ٤ مئوية وهى الوحدة ولعل هذه الخاصية هى إحدى النعم الكبرى التى خص بها الله عباده فى الأرض فلو أن الماء سلك مسلك غيره من المواد لهبط الثلج فى الشتاء إلى قاع المحيطات والبحار ، بل والأنهار فى بعض البقاع ، ولما تمكنت حرارة الشمس أن تصل إليه فى الربيع والصيف ، ولتراكمت الثلوج وتجمدت الأحياء فى المحيطات والبحار ، ولحدث ما يتضاعف عن ذلك الشىء الكثير .

هذه بعض المعلومات عن الماء ومازال عنه الكثير وهذه إحدى دلائل الحق فى عظمة الخالق .

الماء كوسط للحياة ووقود للمستقبل

إنه لعجيب مثير ذلك السائل البسيط شكلاً العظيم فعلا وأثراً ، المتنوع فضلا ونفعا ، إنه الماء نعمة الله الكبرى على مخلوقاته فى الأرض من إنسان وحيوان ونبات ، إنه ذلك السائل الذى يصفه الخالق جلت قدرته بقوله :

﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا** ﴾ (٥٤ ــ الفرقان)

﴿ **والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون** ﴾ (٦٥ ــ النحل) .

﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** ﴾ (٤٨ ، ٤٩ الفرقان) .

ولا غرو فإن الجوانب المتعددة للماء فى الحياة تجعله يلعب أدوارا أساسية تجذب اهتمام كل عامل فى المجالات الفيزيقية والكيمائية ، والبيولوجية والجيوفيزيقية ، والجغرافية ، والفيزيقية الجوية والفلكية ، وإن كلا من هذه المجالات الواسعة الغنية تجد فى الماء ــ كما لا تجد فى أية مادة فى الطبيعة ــ مزايا وخصائص فريدة وفوائد حيوية .

ولكى ندرك أهمية الماء كوسيط للحياة نشير إلى الحقيقة التى توصل إليها علماء وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وهى أن كل عملية يتبعها تحول فى المواد فى الكائنات الحية ــ فى الإنسان بصفة خاصة ــ لا يمكن أن تحدث إلا إذا كانت نواتجها فى حالة ذوبان ، وأهم المذيبات لهذه النواتج الماء ،

وكذلك فإن أهم العمليات الحيوية ــ الكيميائية والبيولوجية ــ فى الكائنات الحية تتم فى وسط مائى مثل عمليات التنفس ، وبناء الأنسجة وتجددها والتمثيل الغذائى ، والهضم والإخراج .

ويعتبر المشتغلون بالجغرافيا أن الماء يقع بمثابة الأداة الأساسية التى صاغها الله ــ الخالق الإنشائى للطبيعة ــ لتدخل فى تركيب مكوناتها ، وتتغلغل فى ثنايا موجوداتها ، وتسبح فى جو كوكبنا الأرضى بخارا إلى تكثيف وتتراكم سحبا زاخرة فتسقط بعد ذلك ماء عذباً طهورا كل ذلك من صنع الخلاق القادر . وحقّاً إن كل دارس متأمل فى قصة الماء فى الطبيعة يستطيع أن يقرر دون أدنى شك أنه لا يوجد أى جسم صلب فى الطبيعة لا يدخل الماء فى تركيبه ، يقول بذلك ــ عن بحث وفحص ومشاهد وتجريب ــ علماء الطبيعة الأرضية (الجيوفيزيقيا) والكيمياء الأرضية (الجيوكيمياء) وينبئنا المشتغلون بالأرصاد الجوية على أساس تعرفهم لدورة الماء فى الطبيعة أنه ما من عملية أساسية فى الطبقة الحية من الأرض ــ الغلاف الجوى أو البيوسفير ــ إلا وتدخل فيها الماء . ولعل من أهم هذه العمليات وأظهرها عمليات تغذية النبات التى تتم بفضل خاصتين مميزتين هامتين أودعهما الخالق الوهاب فى هذا السائل العظيم ــ الماء ــ ألا وهما الخاصية الشعرية الناشئة عن الارتفاع غير العادى للشد السطحى للماء ــ الذى يعتبر أكبر شد سطحى للسوائل جميعا ــ والقدرة الهائلة للإذابة بهاتين الخاصتين يذيب الماء الأملاح النافعة فى التربة وينقلها بالخاصية الشعرية خلال شعيرات النباتات (فى الجذور والسيقان) فتسرى فيها بشريان الغذاء والنماء وتنبت من كل الثمرات .

هذا ويقرر كل المشتغلين بالكيمياء الحيوية ــ شأنهم فى ذلك شأن المشتغلين بالفيزيقا الفلكية ــ أن الحياة بصورها المتعددة تعتمد فى وجودها أكثر ما تعتمد على المياه التى ثبت أنها تعمل كوسط أساسى لتكوين المركبات العضوية المتراكبة الداخلة فى بناء الأجسام والكائنات الحية . حقا إنها لصنعة عزيز متعال قوى قادر ــ يحاجى بها الكفار ويحكى قصة الخلق وإرادة أن كن فيكون فى قوله تعالى :

﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ﴾ (٣٠ ــ الأنبياء) .

وتتبين أهمية الماء للحياة على الأرض وللكائنات الحية فى المحيطات والبحار من نبات وحيوان فى عبور سريع على دورة الماء فى الطبيعة خاصة فيما بين الأنهار والبحار ، فتحمل الأنهار يوميا ٣٥ ألف كيلو متر مكعب من الماء من اليابسة لتصبها فى المحيطات (أو البحار) وتحمل هذه المياه معها ما يعادل حوالى ٣,٥ مليارات من الأطنان من المواد المذابة والعالقة سنويا نظراً للقدرة الفائقة للماء على الإذابة مما تجعل تيارها قادرا على نحت أعتى الصخور الجرانيتية ، ومن ثم فإن مياه البحار والمحيطات تصبح غنية بالأملاح والمعادن ــ ويقدر عدد العناصر التى أمكن التعرف عليها فى مياه المحيطات بحوالى الخمسين عنصراً . وأن وجود هذه الأملاح والمعادن يعتبر أساسا لتغذية الكائنات الحية التى تعيش أو تنبت فى هذه المياه أو فى قيعان المحيطات كما تسهم فى إذابة نسبة كافية من الأكسجين أكبر منها فى الهواء تحفظ التنفس

على الأسماك والحيوانات المائية . وتتبخر مياه المحيطات تدريجياً فتكون السحب وتسقط هذه الماء العذب على الأرض فيقيم الحياة فوقها وتسرى الأنهار محملة بالمزيد من الأملاح والمعادن فتصب فى المحيطات (أو البحار) وهكذا تسير الدورة مؤكدة قانونا طبيعيا حافظا ومنظما للحياة . ويقول العلم كما ينطق الواقع بأنه بدون هذه العلاقة الموزونة بين الماء العذب الفرات فى الأنهار والماء الملح الأجاج فى المحيطات (والبحار) فإنه لا حياة على كوكب الأرض . يقول تعالى :

﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (١٢ ــ فاطر) .

وتتجلى أهمية المياه فى حياتنا على كوكب الأرض إلى جانب كونها وسطا أساسيا لتكوين المادة الحية وتطورها ، فى أن المحيطات تستطيع أن تحمى الكثير من المواد العضوية من التأكسد إذ أن المحيطات تحوى فى قيعانها الكثير من المواد العضوية من النباتات والمخلفات الحيوانية فتحفظها بعيدة عن تأثير أكسجين الجو المؤكسد ومن ثم تقيها من التلف وبمثل ما تحمى طبقة الأوزون فى الطبقات العليا من جو الأرض ، تحمى الأرض من تسرب المقادير الزائدة من الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها أشعة الشمس وفقاً لما تقتضيه ظروف الحياة على الأرض ، فإن الماء يمتص كذلك قدراً من هذه الأشعة مما يولد حماية إضافية للكائنات والمواد الحية الموجودة فى أعماق المحيطات والبحار وتبقيها خزنا للرزق والغذاء تغترف منه البشرية عند الحاجة التى تتزايد مع الانفجار السكانى والتقدم العمرانى فى عصر ثورة العلوم والتكنولوجيا .

ولعله من المفيد فى صدد الحديث عن مياه المحيطات (والبحار) أن نشير إلى ما دلت عليه الحسابات والتقديرات عن مقاديرها الهائلة ، وما يحاول العلم أن يفسر به هذه المقادير العظيمة التى تتزايد مع الزمن . فقد تبين أن المحيطات تحتوى على ما يقرب من مليار ونصف مليار كيلو متر مكعب من المياه ، أى : ما يعادل تقريباً جزءاً من ثمانمائة جزء من حجم الكرة الأرضية ولما كانت هذه الكميات تعادل ما يمكن أن تصبه الأنهار خلال ثمانية وثلاثين ألف عام ، فإن البحث والعلم كانا وما يزالان وراء هذه الحقيقة الناطقة يحاولان لها تعليلاً ولحدوثها تفسيرا . وهناك من الشواهد والدلائل العلمية ما يشير إلى أن جزءاً من مياه المحيطات مصدره المياه تحت الأرضية المصاحبة لخروج الغازات متفجرة من باطن الأرض من مختلف الأعماق ، وتعتبر البراكين كذلك مصادر لمقادير محسوسة من المياه سواء فى الجو أو فى المحيطات تقدر سنويا بما يعادل عشر كيلو متر مكعب من المياه .

هذا عن المياه ومصادرها وعن دورها العام فى الحياة ، أما عن دورها كمصدر مهم للطاقة فى المستقبل فإن ذُلك يعتبر نتيجة أساسية لتحضير الماء الثقيل بكميات كبيرة وبالتالى الحصول على الهيدروجين الثقيل ـــ الديوتيريوم والقليل من التريتيوم وهو أساس توليد الطاقة الحرارية النووية عن طريق الانصهار

النووى الذى يحوّل الهيدروجين إلى الهليوم مصاحبا بتصاعد مقادير هائلة من الطاقة .

ويحضر الماء الثقيل من عمليات التحليل الكهربائى المستمرة لأوقات طويلة للماء العادى والمحاليل المائية أثناء تحضير غاز الهيدروجين اللازم لكثير من الصناعات أهمها صناعة النشادر والأسمدة النتروجينية (شركة كيما بأسوان مثلاً) .

وختاما لهذا الحديث عن الماء ـــ وما أعذب الحديث عنه وأغزره دعنا نرنو بأبصارنا ونجول بخواطرنا ونناقش ما يحمله العلم لمستقبل المياه فنحن نعلم أن الأرض تفقد الماء فى الطبقات العليا لجوها الواقعة فى مدى ٧٠ إلى ٩٠ كيلو متراً فوق سطح الأرض ، وذلك نتيجة للتفكك الشديد الذى يصيب جزئيات الماء بفعل الدفعات الكثيفة المركزة من الأشعة فوق البنفسجية التى تبعث بها الشمس . ويتبع ذلك تصاعد غاز الهيدروجين الناتج ـــ وهو أقل الغازات كثافة ـــ إلى الطبقات العليا متجاوزًا جو الأرض إلى الفضاء الخارجى ، وهذه تصل فى ارتفاعها إلى ما يقرب من ٦٥٥ كيلو متراً ، ويسبح آنئذ فى أجواء الكواكب الأخرى . وقد توصل العلماء إلى التعرف على ما يسمى (برياح الشمس) وهى تيارات تسبح فى الفضاء بين الكواكب بسرعة تتراوح بين ٣٠٠ كيلو متر فى الثانية فى حالات هدوء الشمس ، وبين ٩٠٠ كيلو متر فى الثانية عندما تكون الشمس فى أوج نشاطها ومقابل هذا الفقد لجزئيات الماء فى الطبقات العليا ، هناك من الدلائل العليا ما يؤكد احتمال تكون جزئيات للماء بطريقة مباشرة فى الطبقات العليا من جو الأرض نتيجة لاتحاد الأكسجين الموجود فيها مع الهيدروجين الذى تدفعه رياح الشمس (أو الزوابع الشمسية) إلى هذه المستويات ، ويطلق بعض العلماء على الماء المتكون عن هذا الطريق تعبير « أمطار الشمس » وفى ذلك ما يعوض الفقد الذى أشرنا إليه . سبحان الله يحفظ على عباده النعمة ويجزل العطاء ويهب الحياة إنه رحمن عزيز مفضال :

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل * له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون * قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ (٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ـــ الزمر) .

المحيطات مصادر للخير وأمل للمستقبل

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ (٥٩ ـــ الأنعام) .

ـــ يزداد تعداد السكان فى العالم ازديادا مضطردا بمرور الزمن لأسباب عدة أهمها تقدم العلوم والطب والتكنولوجيا والثقافة وكذلك نتيجة للتحولات الاجتماعية . وقد كان عدد سكان الأرض منذ ألف عام أقل من ٣٠٠ مليون ، وفى بداية القرن العشرين قفز هذا العدد إلى ١٥٠٠ مليون ، وفى سنة ١٩٦٤ أصبح ٣٢٠٠ مليون ، ويقدر خبراء الأمم المتحدة أن يصل التعداد إلى ٦٠٠٠ مليون نسمة عند نهاية هذا القرن .

وليس هناك صعوبات ضخمة سوف تواجه مشكلة إيواء هؤلاء السكان حيث إنهم منتشرون على مساحات واسعة من العالم ، كما أن تقدم فنون العمارة والإسكان أتاحت الامتداد الرأسى فى المبانى وأمكن إنشاء العمائر الضخمة التى تمتد إلى مئات من الطوابق ، ولكن المشكلة الرئيسية هى مشكلة الغذاء التى يعانى منها عالمنا الحاضر إذ أن نصف سكانه تقريبا يعانون نقصا فى الغذاء ، ويقدر المتخصصون أن مصادر الغذاء يلزم أن تتضاعف ثلاث مرات بينما تزداد المنتجات الحيوانية ست مرات مع نهاية هذا القرن لكى تفى بحاجة سكان الأرض آنئذ .

وقد دعا ذلك — وسوف يزداد هذا الاتجاه امتدادا مع الزمن — إلى الاتجاه نحو المياه والمحيطات بوجه خاص كمصادر للغذاء ومخازن للمعادن وغيرها من الثروات الطبيعية . وقبل أن نعدد هذه الخيرات نشير إلى إحصائية طريفة تبين أن الكوكب الذى خلقنا الله فيه والكون المحتوى له قادر بإذن الله أن يمد أضعاف أضعاف سكان الأرض من الإنسان والنبات والحيوان بالغذاء والكساء والرزق . فإذا أخذنا طاقة الشمس نجد أن النباتات تمتص ٥٥ ٪ من الطاقة الساقطة عليها وتعكس منها حوالى ٢٧,٥ ٪ وينفذ خلالها ١٧,٥ ٪ من هذه الطاقة . ومن كل هذه الطاقة الممتصة الهائلة لا يتحول منها إلى شغل مفيد إلا ٢,٢ ٪ فى المائة تستهلك فى عملية التمثيل الغذائى للنباتات الخضراء بينما يستهلك الجزء الباقى فى تبخير الماء . ومن الحساب السابق يتبين أن حوالى ٣١ ٪ فقط من طاقة الشمس البالغة ٦٣٨ مليار كيلو وات ساعة — التى تصل إلى سطح الأرض هو الذى تمتصه النباتات الخضراء ، منه ٢٠ ٪ فقط تمتصه نباتات اليابس والثمانين فى المائة الباقية تمتصها نباتات الماء فى المحيطات والبحار .

وعلى الأساس السابق يمكن القول بأنه إذا ما كانت كل النباتات الخضراء محتوية على الغذاء أو على المحاصيل الغذائية فإن مقدار طاقة الشمس التى يمتصها السطح اليابس من الأرض يمكن أن يوفر غذاء لحوالى ٥٠ ألف مليون نسمة من البشر ، ويقفز هذا العدد إلى ٢٩٠ ألف مليون إذا ما استخدمت مصادر الغذاء فى المحيطات والبحار . سبحان الله خلاق منعم وهاب رزاق مانح . هذا والمجال مفتوح أمام البشر لمحاولة زيادة قدرة امتصاص النباتات الخضراء لطاقة الشمس ومن ثم زيادة مصادر الغذاء والكساء للبشر واستيعاب المزيد من سكانها .

ولما كانت النسبة العظمى من هذه الطاقة من نصيب نباتات المحيطات والبحار فإن أمل المستقبل يتركز بصفة خاصة فى حسن الاستفادة من حصيلة هذه الطاقة من غذاء وخيرات لنفع البشرية وقوامة الحياة على الأرض ، خاصة إذا علمنا أن هذا النتاج يمكن أن يصل فى مجموعه إلى حوالى ألف ضعف لما تنتجه الأرض اليابسة . حيث إن سمك أكثر طبقات مياه البحر إنتاجا للنبات يبلغ حوالى ١٠٠ — ٢٠٠ متر بينما يبلغ سمك تربة اليابسة من أخصب أراضيها مالا يزيد على ثلاثة أمتار . وبالإضافة إلى ذلك فإن أعشاب البحر تحتوى على أربعة أو خمسة أضعاف ما يحتويه نبات التربة اليابسة من المواد البروتينية العضوية ، فضلاً عن أنها تتكاثر بنسبة تفوق كثيرا جدا تكاثر النباتات الأرضية ، ويستهلك

جزء ملحوظ من هذه الأعشاب لتغذية المملكة الحيوانية لحيوانات البحر من أسماك وغيرها وهذه بالتالى مصادر هائلة للغذاء . يقول تعالى :

﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . (١٤ — النحل) .

ويعتقد بعض العلماء أنه لن يمر وقت طويل حتى تؤدى أغذية البحر النباتية إلى تغيير جذرى فى عاداتنا الغذائية ، حيث يبلغ نسبة البروتين فى أعشاب البحر ٥٠ ٪ مقارنة بحوالى ٢١ ٪ فى اللحم ، كما أن هذه الأعشاب غنية بالدهون التى تكون من ربع إلى خمس وزنها الكلى ومن مزايا أعشاب البحر فضلا عن كونها صالحة لغذاء الإنسان والحيوان فإنها مخصبات ممتازة للتربة ، وتعتبر خامات أساسية للعديد من الصناعات الغذائية وصناعات النسيج وغيرها من الصناعات مما يمثل أملا عظيما للمستقبل . فيسكن أعماق البحار ٥٥ نوعاً من الحيوانات من بين ٦٣ نوعا تعيش فى كوكبنا ، ولم يستفد الإنسان حتى الآن إلا من النزر اليسير من هذه الثروة البيولوجية ، حتى بالنسبة للثروة السمكية فلا يستهلك منها سنويا إلا حوالى ٥٠ مليون طن من حوالى ٥٠٠ أو ألف مليون طن قابلة للاستغلال ، وما بالنا لو زادت العناية بتنمية الثروة السمكية على المستوى العالمى فيما يطلق عليه (الحقول السمكية) . هذا ويمكن استئناس بعض حيوانات البحر بإعداد المكان الملائم والغذاء المناسب والحقول المهيأة وبالتالى يمكن تنظيم تكاثرها واستغلالها على نطاق واسع . وبالإضافة إلى ما تقدم فإن المحيطات والبحار تختزن مقادير هائلة من المواد المذابة تشتمل تقريبا على جميع العناصر المعروفة للإنسان ، ويمثل ملح الطعام الجزء الأكبر من هذه المواد المذابة إذ تقدر كميته فى جملتها بحوالى ٤٨ ألف بليون طن ، ونعلم ما لهذا الملح من استخدامات فائقة لا كغذاء فحسب بل فى صناعات كثيرة منها صناعة الصودا الكاوية والكلور وحمض الهيدروكلوريك وكربونات الصودا وكلها من المواد الأولية الهامة .

وما يقال عن المواد المذابة فى الماء من المحيطات والبحار يقال بنفس الدرجة عن الرواسب المعدنية الهائلة فى قاع هذه المحيطات والبحار فقد تم اكتشاف رواسب معدنية تبلغ عدة أضعاف ما يوجد فى باطن الأرض ، ولم يستغل الإنسان منها إلا ما يوجد على قرب من الشواطىء .

وقد تبين وجود كميات ضخمة من خامات الفيرو منجنيز المحتوية على الحديد والمنجنيز فى الطبقات العليا من قاع البحر وما زالت تنتظر الوقت لاستغلالها غير المحدود كما يوجد البترول تحت سطح الماء بمقادير ضخمة ويوجد الفحم والكبريت وغيرهما من العناصر .

هذا ومن المشكلات الهامة التى يواجهها الإنسان النقص فى مصادر المياه العذبة وفقا لمتطلبات الحياة وخاصة استخدام الأراضى الشاسعة البعيدة عن الأنهار والآبار . ومن ثم برزت أهمية إزالة الملوحة من مياه المحيطات والبحار وسارت شوطا كبيرا نحو التطبيق على أسس اقتصادية باستخدام الطاقة النووية ، ومن المقدر أن إنشاء محطات قوى من هذا النوع سوف تكون متعددة الأغراض ، بالإضافة إلى إنتاج

المياه العذبة سوف تنتج مقادير كبيرة من الأملاح لاستخدامها كمواد أولية فى الصناعة ، ومثل هذه المحطة لو كانت تنتج مليون كيلو وات ساعة تكون قادرة على إنتاج حوالى ٤ مليون طن من الماء العذب يوميا تغذى احتياجات مساحة يقطنها ٤ مليون نسمة بما فى ذلك الاحتياجات الصناعية . وبالإضافة إلى ذلك يمكن إنتاج ١٠٠ ألف طن من ملح الطعام ، ٣٥٠٠ طن من البوتاسيوم، ٥٠٠ طن من المغنسيوم ، ٣٠٠ طن من البروم وأكثر من عشرة آلاف طن من حمض الكبريتيك يوميا .

وبعد فهذه بعض من كل ما تزخر به المحيطات والبحار من خيرات ومنافع ودليل آخر من جملة أدلة على عظمة الوجود وقدرة الموجد وعزته وفضله سبحانه خالق السموات والأرض **المانح الوهاب**.

تركيب وشكل أعماق المحيطات

وقد دخلت جيولوجيا المحيطات فى السنوات الأخيرة عمراً جديداً صاحب التقدم الكبير فى علوم البحار ــ بفروعها المختلفة الطبيعية والكيميائية والجيولوجية ــ والتطور العظيم فى الأجهزة والأدوات العلمية . ولقد أضافت الدراسات الجيولوجية إلى مجالات بحثها وفحصها على سطح الأرض ــ البالغة مساحته حوالى ٦١ مليون ميل مربع ــ ما يقرب من ١٥٠ مليون ميل مربع من قيعان المحيطات .

ولعل من أهم الاكتشافات الجيولوجية الحديثة فى ميدان المحيطات والبحار ذلك الحدث الكبير الذى يتمثل فى اكتشاف الأخدود العجيب بين وسط المحيط الأطلنطى ووسط المحيط الهندى ، الذى يتكون من سلاسل جبلية ضخمة الأبعاد تبدأ شمالا قرب رايكجان فى جزيرة ايسلنده وتمتد نحو الجنوب موازية لشواطىء أوربا ، وشمال أمريكا ، وأفريقيا ، وأمريكا الجنوبية ، ثم تلتف بالقرب من رأس الرجاء الصالح فتدخل المحيط الهندى وتستمر حتى تنتهى عند شبه الجزيرة العربية . ويتصل بهذا التكوين الضخم الهائل فروع تتجه شرقاً وغرباً . وقد كان هذا الاكتشاف الذى تم فى أعقاب جهود علمية وتكنولوجية رائعة دوى عظيم فتح الباب للعديد من البحوث والدراسات ووضعت من أجله النظريات والتفسيرات وكلها تنطق بعظمة الخالق ودقة الصنع يقول تعالى :

﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ (٣١ ــ لقمان) .

ومازالت معلوماتنا عن طبيعة وتكوين السلاسل الجبلية الرئيسية غير كاملة ويحتاج التعرف على تفاصيلها إلى المزيد من البحث والفحص والدرس وما نعلمه عن الفروع المتشعبة منها ما زال أقل بكثير من معرفتنا بالسلسلة الأصلية . وتنقسم هذه السلاسل الضخمة إلى جبال تفصلها وديان يتراوح عددها بين اثنين وسبعة وديان . وتقع أشد المناطق عمقا فى المحيط الأطلنطى ــ تلك المنطقة الواقعة تحت خط الاستواء تماماً والتى يطلق عليها أعماق رومانشى ويصل عمقها إلى حوالى ٤,٥ ميل بحرى .

وخلافاً لهذا التركيب الجبلى العجيب فى المحيط الأطلنطى ممتدا إلى المحيط الهندى ، لم يستدل على وجود مثل هذا التكوين فى المحيط الهادى ، وإن كان قد أمكن التعرف على وجود بعض المرتفعات الواسعة الممتدة كالدروع فى قاع هذا المحيط مثل سلسلة هاواى وسلسلة وسط المحيط الهادى التى ترتكز عليها الجزر الممتدة من هاواى إلى ميداوى وجزر مارشال . وقد دلت الدراسات المختلفة أن هذه السلاسل تختلف تماما فى الشكل والتركيب عن الجبال الموجودة فى قاع الأطلنطى فمثلاً وجد أن سلسلة هاواى شبه السطحية تمتد لمسافة ٢٥٠٠ ميلا ، وهى تختلف ارتفاعا وفى التركيب تماما عن جبال المحيط الأطلنطى .

ومن دلائل الاختلاف بين طبيعة قاع المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى أنه بينما يلاحظ أن أخدود وسط الأطلنطى يمثل من هنا أو هناك مراكز وآثار الزلازل متوسطة القوة ، يلاحظ أن الأغوار العميقة التى توجد فى مواقع مختلفة من المحيط الهادى تعتبر مواقع لأشد الزلازل وأقواها ، إذ تنتقل طاقاتها السيزمية بصفة مستمرة خلال باطن الأرض ومن حول كوكبنا . ولم يستدل على وجود أمثال هذه الفجوات العميقة فى قاع الأطلنطى فيما خلا فجوة رونسون شمالى بورتوريكو ، مما يرجح أن هذا الجزء من المحيط قد يكون تابعاً من حيث طبيعته الأرضية للمحيط الأطلنطى .

ــ هذا ويوجد اختلاف ثالث هام بين طوبوغرافية (تخطيط) المحيطين الهادى والأطلنطى وهو تلك النتوءات العديدة المنفردة الموجودة بارزة فى بعض المناطق بالمحيط الهادى والتى تم اكتشافها قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ، بينما لم تكتشف مثل هذه النتوءات الجبلية فى المحيط الأطلنطى . وهذه النتوءات فى المحيط الهادى ذات طبيعة بركانية شأنها شأن البراكين المعروفة : فيزوف واتنا وفيوجيوما ، وتتميز هذه النتوءات بأنها ترتفع تحت سطح المحيط بأطوال مرتفعة تصل فى بعضها إلى مسافة ٤٥٠٠ قدم وفى البعض الآخر إلى ١٥٠٠ قدم تحت السطح أو أقل من ذلك . ومن الملفت للانتباه أنه أمكن بواسطة كراكات خاصة الحصول على أحافير أصيلة من أمثال هذه النتوءات البحرية مثل نتوء « هيس » ــ يرجع عمرها إلى ما بين الدهرين الكريتارى الأسفل والأوسط ، وتتألف هذه الأحافير من صدفات وقواقع وأحجار مرجانية من الأنواع التى توجد فى المياه الضحلة مما يدل على أن هذه النتوءات كانت قائمة قريبة من السطح ثم أخذت فى الغوص تحته مع الزمن .. وقد دلت عمليات الحفر على وجود طبقات سميكة من هذه الهياكل مما يثبت عمليات الهبوط المستمرة للنتوءات تحت المائية فى هذا المحيط العظيم .

ولعل من الاكتشافات المذهلة التى توصل إليها العلم عن طريق الحفريات الحديثة هو الوصول إلى القاعدة البازلتية للجبل تحت الدهر المبكر الثالث أى من المرجان الأيوسينى ، وترجع أهمية ذلك إلى حقيقة أنه لم يتم التعرف على أى تركيب جيولوجى مماثل لهذا فى أية منطقة من مناطق الأرض يمكن انتماؤه إلى الدهر الكريتارى المبكر ، أى منذ حوالى ١٣٠ مليون سنة ويكون تركيبها مستمرا بنفس التخطيط وذات القانون والنظام البنائى الهندسى .

وبعد فهذه بعض الملامح عن هذا التكوين العجيب لأحواض المحيطات وبعض ما كشف عنه العلم من خفايا عالم الأعماق أو ما يسمونه الفضاء الداخلى ، وناهيكم عما تزخر به هذه الأعماق من فضل وخير من نبات وحيوان ورزق عميم يفتح أمام البشرية آفاقاً وآمالا وينطق بفضل الله ورحمته الواسعة ، ويشهد بعظمته وقدرته ويدفع إلى مزيد من الإيمان واليقين . وإلى سعى صادق وعمل دائب لاستجلاء المزيد من الدلائل على عظمة خالق الوجود . صدق الله العظيم القائل فى كتابه الحكيم :

﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجوراً ﴾ (٥٣ ــ الفرقان) .

﴿ أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٦١ ــ النمل) .

الماء وبعض خصائص حياة النبات

تمثل المملكة النباتية ــ كأصل للحياة ــ واحدة من أوسع الموجودات تنوعا وتعددا وانتشارا ، بل إنها تتميز بقدرة فائقة على التجدد والتأقلم والاستمرار فى دورات متواليات . كلما بذرت أينعت فأخرجت فأثمرت وكلما أخذت أعطت ، وكلما حصدت أربت ، وإذا أعيد الزرع أو البذر عادت فأخرجت ، وهكذا دواليك فى حياة متجددة وفى قدرة خالصة مطلقة على البقاء لفترات محدودة فى أطوار محدودة تحت الظروف المواتية من حيث الطقس والبيئة . ولعل أهم دور للنبات كأصل للحياة البيولوجية هو قدرته التى بثها فيه الخالق ــ عز وجل ــ على تكوين الكربوهيدرات (السكريات) اللازمة للحياة من المواد غير العضوية . وتحويلها ذاتيا إلى المواد الحية فى الخلايا ، وهناك الكثير من النباتات ما تستخلص كذلك نتروجين الهواء الذى يدخل أيضا فى تكوين المواد الحية . ومن ثم فإن النبات يقوم ذاتياً بعمليات البناء اللازمة لنموه مختلفا فى ذلك عن غيره من الكائنات الحية ...

وجدير بالذكر أن خاصية البناء الذاتى فى النبات لا تكفى وحدها لعمليات استزراع المناطق الجرداء ، بل يجب الاستعانة فى ذلك بالكائنات الحية العضوية التى تمتد حياتها فى غالب الأحيان لأزمنة طويلة فى ظروف بيئية قد لا تسمح بحياة النبات متمثلة فى مختلف صورها من عمليات تحول المواد أو النمو أو الإيناع والإزهار والإثمار . وفى مثل تلك المناطق الجرداء حيث درجة الحرارة والرطوبة النسبية تكونان قاصرتين عن إقامة الحياة النباتية المتطورة ، فإن النبات فى مثل تلك الظروف ــ أو بعض أجزائه ــ يكون متعرضا لحالة نقص شديد فى الماء يجعله فى حالة يمكن أن يطلق عليها حالة « توقف الحياة » حيث تكون بذور النباتات الورقية ، والطحالب « الأشن » ونبات عش الغراب وكذلك البكتريا فى حالة من

الجفاف لا تحتوى إلا على نسبة ضئيلة من الماء لا تتعدى ١٠ ــ ١٥ فى المائة ، ومن ثم لا تظهر عليها أية دلائل من مظاهر الحياة ...

ــ والماء أساس هام لحياة النبات ومعيار أساسى من المعايير المحدودة لظروف بقاء النبات ، فالماء مكون رئيسى للخلايا الحية ، ووسط هام لمختلف التفاعلات الكيميائية والحيوية التى تتم فيها . ومع هذه الأهمية القصوى للماء فإن النبات ــ شأنه شأن سائر الكائنات الحية ــ يحتاجه بقدر وميزان ، فلو زاد الماء فى التربة التى ينمو فيها النبات عن مقنن معلوم تعرض النبات للتلف أو الفساد وربما للموت والانتهاء ، وإذا شح الماء كان الضعف أو الجدب ووهنت مظاهر الحياة أو انقطعت . يقول تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ (١٠ ، ١١ ــ النحل)

﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون** ﴾ (١٨ ١٩ ــ المؤمنون) .

هذا وقد ثبت أن العامل الرئيسى الذى يتحكم فى تزود النبات بالماء هو ضغط الماء فى التربة ، ويختلف ذلك من نبات إلى آخر ، فالأجزاء الممتدة تحت سطح الماء من النباتات الزهرية لا تستطيع أن تحتفظ بحياتها على أبعاد أكثر من خمسة أمتار تحت السطح رغما عن أنها تستطيع أن تأخذ أكثر من حاجتها من الضوء ، الأمر الذى يعود أثره إلى ضغط الماء . وفى مثل هذه النباتات يكون ضغط الماء هو العامل المتحكم ــ بعد الضوء ــ فى حياة النبات . وبالتالى فى صلاحية التربة للإنبات . وقد ثبت علميا أنه إذا زاد ضغط الماء على حوالى نصف جوى اضطربت عمليات التمثيل الغذائى والتحول خاصة عند مرحلة التحضير إلى حد أن النمو يتعرض إلى تعطل واضطراب شديدين . ولكن النباتات الدنيا يمكن أن تتحمل ضغوطا أعلى من ذلك كثيرا ، بينما البكتريا يمكن أن تحتفظ ببقائها الحى تحت ضغوط تصل إلى عدة آلاف مثل الضغط الجوى .

وهناك عامل آخر هام يتحكم فى عمليات الإنبات والنمو ألا وهو ما يسمى بالعامل الكيميائى سواء من حيث تكوين التربة أو من حيث ملوحة المياه ، فإذا ما زادت نسبة الأملاح عن الحد المعين ــ يختلف من نبات إلى آخر ــ أصبحت عملية النمو فى النبات غير ممكنة ، وأصبح من المستطاع التعرف على نسبة الملوحة فى أية تربة عن طريق استخدام نباتات تجارب مختلفة يطلق عليها اسم النباتات الكشافة ، ومتابعة نموها ، وذلك دون استخدام أجهزة التحليل الكيميائى المتداولة . وتقع البكتريا والطحالب الزرقاء فى مواقع الجدارة بالنسبة لقدرتها على احتمال ملوحة التربة .. وغنى عن البيان أن موضوع الملوحة أو القلوية ، وعموما التكوين الكيميائى للتربة ، يلقى عناية كبيرة من العلماء لا ستزراع الأراضى البور أو الجرداء واستنباط المحاصيل والنباتات التى يمكن أن تتأقلم تحت مثل هذه الظروف . ونعلم أيضا أن

عمليات الإنبات والنمو تحتاج إلى عناصر رئيسية أهمها النتروجين والفسفور والبوتاسيوم يلزم تزويد التربة بها على هيئة أسمدة إذا ما كانت مفتقرة إليها .

والخلاصة أن النباتات على تنوعها وتعددها وتصنفها تتحكم فيها عدة عوامل بيئية متشابكة ، وإن جهد الإنسان قد امتد إلى إمكانية التحكم فى بعض هذه العوامل أو كلها بطرق صناعية حتى يستطيع أن يستغل الأرض أحسن استغلال وأن ينهل من رزق الله الوافر ما وسعه النهل وأن يواجه فى النهاية مشاكل الانفجار السكانى ونقص الغذاء .

والحقيقة الخالدة أن الخالق الرازق الوهاب يهيء للإنسان دائماً مصادر الحياة ويسخر له ما فى الأرض جميعا من نبات وحيوان ومعادن وخيرات لتبهى حياته وتحفظ بقاءه . إنه عزيز مفضال .

﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾

(٦ — يس) .

تفسير

قوله تعالى : **﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾** .

قوله تعالى : **﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾** أى : ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم وكان هذا فى ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد هكذا روى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وقتادة .

وقوله : **﴿ ليجزى قوما بما كانوا يكسبون ﴾** أى : إذا صفحوا عنهم فى الدنيا فإن الله — عز وجل — مجازيهم بأعمالهم السيئة فى الآخرة ولهذا قال تعالى : **﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾** أى : تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

قوله تعالى : **﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾** .

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعل الملك فيهم ولهذا قال تبارك وتعالى : **﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات ﴾** أى : من المآكل والمشارب **﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾** أى : فى زمانهم **﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾** أى : حججا وبراهين وأدلة قاطعات فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة وإنما كان ذلك بغيا منهم بعضهم على بعض **﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا**

فيه يختلفون ﴾أى : سيفصل بينهم بحكمه العدل وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم ولهذا قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين * هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر** ﴾ الشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ومعنى جعلناك على شريعة من الأمر أى على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق ، وقال ابن عباس : (على شريعة من الأمر) أى : على هدى من الأمر وقال قتادة : الشريعة الأمر والنهى والحدود والفرائض .

وقوله تعالى : ﴿ **فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾ أى : فاتبع ما أوحى إليك ، ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون الذين لا يعلمون توحيد الله ولا شرائعه لعباده وهم كفار قريش ومن وافقهم . قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * افحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾[1]

وقال تعالى : ﴿ **وكذلك أنزلناه حكماً عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق** ﴾[2]

وههنا قال تعالى : ﴿ **إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى : إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا ، ﴿ **وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى : أصدقاء وأنصار وأحباب قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أحباب اليهود

وقوله تعالى : ﴿ **والله ولى المتقين** ﴾ أى : ناصرهم ومعينهم . كقوله تعالى : ﴿ **إن وليى الله الذى**

(١) سورة المائدة الآيات : ٤٨ ـ ٥٠

(٢) سورة الرعد الآية : ٣٧

نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين * والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ أى : هذا القرآن وحده ــ وليس غيره ــ دلائل للناس فيما يحتاجون إليه من أمر الدين ، وبينات تبصرهم وجه الفلاح ، وتعرفهم سبيل الهدى ، وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته ، وهو تنزيل من رب العالمين ، وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى ورحمة ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه دون من كذب به من أهل الكفر فإنه عليهم عمى .

كلمة فى الشريعة الإسلامية

قال الدكتور عبد الله ناصح علوان رحمه الله :

الشريعة الإسلامية هى كل ما جاء به محمد ﷺ عن الله ــ عز وجل ــ سواء ما يتعلق بإصلاح العقيدة لتحرير العقل البشرى من رق الوثنية والتقليد والخرافات .. وما يتعلق بإصلاح الأخلاق لتحرير الإنسان من زيغ الأهواء ، وفتنة الشهوات .. وما يتعلق بإصلاح المجتمع لتحرير الأمة من الظلم والفوضى والاستبداد .

ومن أجل هذا كله جاءت الشريعة بنظام مدنى ينظم علائق الناس بعضهم مع بعض ، وعلائقهم بالسلطة الحاكمة ، ويصون لهم حقوقهم ويؤمن للجميع مصالحهم ، ويحقق فى الأرض عزتهم وسيادتهم . وعلى ضوء ما ذكرناه يتضح أن الشريعة تقوم على ثلاث دعائم أساسية عقيدة عقلية ، وعبادة روحية ، ونظام قانونى قضائى وهذا يدل ــ بما لا يقبل الجدل والشك ــ على أن الإسلام دين ودولة . ومن هنا ندرك معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ (المائدة : ٣)

خصائص الشريعة ومزاياها

من الأمور المسلم بها ، والمجمع عليها لدى فقهاء الشريعة وعلماء القانون .. أن لكل نظام من الأنظمة سواء كان ربانياً أو وضعياً .. لابد له من مزايا يعرف بها ، وخصائص تكشف عن هويته وتفصح عن حقيقته . فإذا كان الأمر كذلك فما هى المزايا والخصائص التى تتصف بها شريعة الإسلام على غيرها ؟ وبعبارة أدق : ما هى طبيعة نظمها ومبادئها ؟

---

(١) سورة الأعراف الآيتان : ١٩٦ ، ١٩٧

أرى أن هذه المزايا والخصائص تتركز فى المبادىء التالية :

١ ــ الربانية :

نقصد بالربانية أن أحكام هذه الشريعة وأنظمتها ليست من وضع بشر يحكمه القصور والعجز ، والتأثر بمؤثرات المكان والزمان والثقافة ومؤثرات الوراثة والمزاج والهوى .. وإنما شارعها صاحب الخلق والأمر فى هذا الكون ورب كل من فيه وما فيه الذى أحسن كل شيء خلقه .

والمؤمن حين يطبق المنهج الربانى على نفسه يندفع إليه بكليته وهو مسرور مرتاح عن رغبة وصدق وإخلاص . لماذا ؟

ــ لأنه يعلم علماً أكيدا أن الله ــ سبحانه ــ هو الخالق المبدع القادر ــ فله أن يتصرف فى شئون خلقه كما يريد وحيث يشاء . وليس للإنسان المخلوق الضعيف القاصر إلا أن يمتثل ما اختاره الله له دون توقف أو تردد .. قال تعالى : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون** ﴾ (القصص : ٦٨)

ــ ولأنه يعلم علماً أكيدا أن الله ــ سبحانه ــ هو العليم بكل شيء .. فهو أعلم بما يشرع لعباده من أحكام ، وأدرى بما يحقق لهم من مصالح ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟** ﴾ (الملك : ١٤)

ــ ولأنه يعلم علماً أكيداً أن الله ــ سبحانه ــ هو العليم الحكيم فى كل ما يشرعه ويخلقه ، وحكمته جل جلاله معناها أن يضع كل شيء فى موضعه المناسب بالشكل الذى يؤدى إلى درء المفاسد وتحقيق المصالح ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ (الأنفال ٧١) .

ــ ولأنه يعلم علما أكيدا أن الإنسان مهما نضج علمه وارتقت ثقافته .. ضعيف فى ذاته ، عاجز عن أن يصل إلى مرتبه الكمال .

﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا** ﴾ (النساء ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨)

عدا عن أن الإنسان ــ كما ألمحنا ــ يتأثر بالبيئة ، ويتأثر بالهوى ويتأثر بالوراثة ، ويتأثر بالعقيدة التى يعتنقها ويتأثر بالنزعة التى تختلج نفسه بها ..

والواقع الدولى ، والصراع الاجتماعى ، والتناقض الفكرى ، الذى آلت إليه المجتمعات البشرية اليوم أعظم برهان على أن الإنسان يتأثر بهذه المؤثرات جميعا ، وأن عقله مهما سما قاصر ، وأن علمه مهما اتسع محدود ، وأنه عاجز عن وضع التشريع لنفسه مهما بلغ درجة النضج والكمال ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ (يوسف : ٧٦) .

لهذا كله نجد المؤمن الواعى المتبصر المتفهم لحقيقة نفسه ــ يندفع بكليته ، وينطلق من ذاته إلى تطبيق المنهج الربانى ، لاعتقاده أن كمال شخصيته ، وبناء إنسانيته هو اتباع من اختص بالكمال ، والانقياد إلى من تنزه عن النقص ، والاستسلام إلى من تميز بالعظمة والإبداع والإتقان وهو الله وحده ﴿ **ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟** ﴾ (المائدة : ٥٠) من أجل هذه الربانية لم يكن للمسلم خيار فى قبول هذه الشريعة أو رفضها لأن قبولها من مقتضيات الإيمان ، ومستلزمات الفطرة ..

وصدق الله العظيم القائل فى محكم تنزيله : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾ (الأحزاب : ٣٦)

٢ ــ العالمية :

هذه الشريعة فى كل أحكامها وأنظمتها ومبادئها ذات صبغة إنسانية ، وخصيصة عالمية .. **فهى رحمة للعالمين** ، وهى هداية للناس كافة ، وهى منهاج للبشرية عامة .. فليست تشريعا لجنس خاص من البشر ، أو لإقليم معين من الأرض ، أو لفئة خاصة من الناس ، بل هى للإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو أرضه ــ **فلا عنصرية فى هذه الدعوة ، ولا عصبية فى هذا التشريع ، ولا طبقية فى هذا الإسلام** ــ وإنما الناس فيه سواء ، **لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وهذه العالمية للتشريع قد بينها الله** ــ عز وجل ــ فى أكثر من آية .

قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (الأنبياء : ١٠٧)

وقال تعالى : ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾ (الأعراف : ١٥٨) .

وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾ (سبأ : ٢٨) .

وأكدها عليه الصلاة والسلام فى أكثر من مناسبة .

روى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، وأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة »[1] .

ــ وثبت فى الصحيح أنه صلوات الله وسلامه عليه أرسل إلى الملوك والرؤساء فى عصره كالنجاشى ، وكسرى ، وقيصر ، والمقوقس ــ كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكان شعاره فى ذلك :

« أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين »[2] أى : العامة من الفلاحين وغيرهم .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب المساجد ــ حديث رقم ٢٩٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الجهاد ــ باب كتاب النبى ــ ﷺ ــ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام رقم ١١٦٢

ومن المؤيدات العالمية للتشريع تكليف الله ــ عز وجل ــ أمة الإسلام فى كل زمان ومكان أمانة الدعوة ورسالة التبليغ حتى يصل الإسلام إلى كل بلد فى العالم .

قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ (آية : ١١١) .

وقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ (آية : ١٤٢) .

فانطلاقا من هذه التوجيهات الربانية فى عالمية الدعوة انطلق المسلمون فى أرجاء الأرض ، وآفاق الدنيا .. يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وشعارهم الذى رفعوه على مسامع الدنيا « ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

ــ وهذه الميزة العالمية إنما هى أثر من آثار الصبغة الربانية فى هذا التشريع ، فلو كان واضعه فردا ، أو فئة من الناس لتعصبت بوعى أو بلا وعى ــ لجنسها وطبقتها ومصالحها ولكن المشرع هنا رب الناس ، ــ ملك الناس ــ فهم جميعا عباده ، لا فضل لفرد منهم على فرد ، ولا لفئة على أخرى بحكم الخلق والنشأة إلا بالتقوى .

٣ ــ الشمول :

ونقصد بالشمول أن الشريعة الإسلامية الغراء اشتملت على نظم وأحكام وقوانين .. فى كل جانب من جوانب التكوين والبناء والإصلاح .. وفى كل ناحية من نواحى المجتمع والحياة .. سواء ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، أو ما يتعلق بالقوانين العامة من مسائل مدنية وأمور جنائية ، وأحوال شخصية ، ونظم اجتماعية ، وعلاقات دولية . أو ما يتعلق بأسس الحكم وقواعد الاقتصاد ، وركائز المجتمع الفاضل . كل ذلك فى مبادىء دقيقة محكمة ، وفى تشريعات ربانية خالدة تعطى ولا تأخذ ، وتجمع ولا تفرق ، وتؤلف ولا تبدد ، وتبنى ولا تهدم ،تنزيل من حكيم حميد . والقرآن قد أفصح عن شمولية الشريعة وذخر مبادئها وأنظمتها أوضح بيان قال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾[1] وقال أيضا فى سورة النحل : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[2] .

ولنستمع إلى ما يقوله أساطين الفقه ، وعباقرة القانون فى العالم عن شمولية الشريعة ، ومبادئها الحية الباقية ، نسوقها لمن لا يؤمن بالفكرة إلا إذا هبت ريحها من ديار الغرب .

يقول الدكتور « إيزكو إنساباتو » : « إن الشريعة الإسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الغربية ، بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً » .

(١) سورة الأنعام الآية : ٣٨

(٢) سورة النحل الآية : ٨٩

ويقول العلامة الكبير « ساتيلانان : « إن فى الفقه الإسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم إن لم نقل ما يكفى الإنسانية كلها » .

ويقول الدكتور « هوكنج » أستاذ الفلسفة فى جامعة (هارفارد) : « إن فى نظام الإسلام استعداداً داخلياً للنمو ، وإنى أشعر بأنى على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض إلى غير ذلك من هذه الأقوال الكثيرة والشهادات العديدة المتنوعة .

٤ ــ الأصالة والخلود فى نصوص الشريعة :

ومن أميز خصائص شريعة الإسلام أنها تتصف بالأصالة الباقية والخلود الأبدى فى نصوصها ومصادرها دون أن يتطرق إليها تحريف أو يطرأ عليها أى تبديل أو تغيير .

فالقرآن الكريم الذى هو المصدر الأول من مصادر التشريع قد تكفل الله بحفظه وبقائه إلى يوم البعث والنشور دون أن تناله يد بتحريف أو تبديل ، وها هو ذا قد مضى على نزول القرآن الكريم أربعة عشر قرناً فالقرآن الكريم هو القرآن الكريم فى لفظه ومعناه وتجويده وأدائه .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (الحجر : ٩) .

ولقد شهد لأصالة هذا القرآن وخلوده الأبدى على مدى الأجيال منصفون من رجالات الغرب ، فقد قالوا كلمة الحق بنزاهة وتجرد ، ووضحوا الحقيقة بدقة وأمانة من هؤلاء البروفوسور « رينولد نيكسلون » حيث يقول فى كتابه « التاريخ الأدبى للعرب » بالحرف الواحد : « إن القرآن الكريم وثيقة إنسانية رائعة توضح بدقة سر تصرفات محمد ﷺ فى جميع أحداث حياته ، حتى إننا لنجد فيه مادة فريدة لا تقبل الشك ولا الجدل ، نستطيع خلالها أن نتتبع سير الإسلام منذ نشأته وظهوره فى التاريخ المبكر ، وهذا مالا تجد له مثيلاً فى البوذية ، أو المسيحية أو أى دين من الأديان القديمة » .

• والسنة النبوية التى هى المصدر الثانى من مصادر الشريعة ، بل هى المبينة للقرآن الكريم ، والمكملة لأنظمة الإسلام ــ هذه السنة قد هيأ الله لها من يحفظها من عبث العابثين ، ووضع الملفقين ودس المغرضين .. هيأ لها علماء أثباتاً ، ومحدثين أفذاذاً ورجالات ثقات .. لم يشهد التاريخ الإنسانى أنبه منهم ، ولا أدق فى بيان درجة الحديث ، ومعرفة أحوال السند والمتن وأصول الرواية والدراية .. حتى وصلت السنة إلينا نقية خالصة لم يعتورها أية شبهة ، ولم يطرأ عليها أية علة ، وكل إنسان حين يرجع إلى أسفار السنة ، ومراجع الحديث الكبرى ، يعرف درجة أى حديث يريد التحقق منه من حيث الصحة أو الضعف ، ويتحقق من كل سند من حيث التعديل أو الجرح .. وما ذاك إلا بجهود أهل الحديث الثقات الأثبات الأفذاذ على مدى العصور .

وإليكم هذه الحادثة التاريخية التى تؤيد ما نقول : سمع الخليفة العباسى « هارون الرشيد » أن زنديقاً لفق أحاديث مكذوبة ، ونسبها إلى رسول الله ﷺ والرسول لم يقل منها حرفا واحدا ، فأمر باستدعائه والمثول بين يديه فلما أقر عرضه على السيف ، وقبل أن يقتل قال الزنديق للخليفة : أين أنت من الأحاديث التى وضعتها فيكم ، وقد أحللت فيها الحرام ، وحرمت فيها الحلال ، والرسول لم يقل منها حرفا واحدا ؟ فقال له الخليفة على الفور : أين أنت يا زنديق من أبى إسحق الغزارى وعبدالله بن المبارك فإنهما سيخرجانها حتما ، وينخلانها حرفا حرفا ؟ ثم أمر بقتله فقتل .

وإذا كان الله ــ عز وجل ــ قد تكفل بحفظ القرآن الكريم إلى يوم الدين ــ فمن الطبيعى أن يتكفل بحفظ السنة النبوية إلى قيام الساعة باعتبارها المبنية للقرآن ، والمكملة لأنظمة الإسلام ــ كما سبق ذكره ــ فالقرآن والسنة إذن شيئان متلازمان لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر ، فحفظ الله للقرآن الكريم معناه ضمناً حفظ للسنة ، وهذا الحفظ قائم لازم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (الحجر ــ ٩) .

والذى أخلص إليه بعد ما تقدم :

أن القرآن الكريم ، والسنة المطهرة شيئان متلازمان ، بل هما وثيقتان أصليتان ، ومصدران خالدان .. للحفاظ على مبادىء الشريعة وخلود أحكامها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

٥ ــ التيسير ورفع الحرج .

قال تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

وقال سبحانه : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ (الحج : ٧٨) .

وقال جل جلاله : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

فهذه النصوص وغيرها تؤكد تأكيدا جازما أن الإسلام بمبادئه السمحة لا يكلف الإنسان فوق طاقته ، ولا يحمله من المسئوليات فوق إمكانه لكى لا يكون لهذا الإنسان أى عذر أو حجة فى التخلى عن أمر شرعى ، أو ارتكاب محظور دينى .

٦ ــ رعاية مصالح البشر

المقصد العام للتشريع الإسلامى ــ كما هو معلوم ــ هو رعاية مصالح البشر بكفالة ضرورياتهم ، وتوفير حاجياتهم ، وتأمين تحسيناتهم . فكل حكم شرعى من أحكام الشريعة ما قصد إلا واحداً من هذه الثلاثة التى تتكون منها مصالح الناس .

ولكن والمراد شرعاً بالضرورى وبالحاجى وبالتحسينى ؟

فأما الأمر الضرورى : فهو ما تقوم عليه حياة الناس ، ولابد منه لاستقامة مصالحهم ، واذا فقد اختل نظام حياتهم ، ولم تستقم مصالحهم ، وعمت فيهم الفوضى والمفاسد ــ والأمور الضرورية للناس بهذا

المعنى ترجع إلى حفظ خمسة أشياء : الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، والمال . فحفظ كل واحد منها ضرورى للناس .

وأما الأمر الحاجى : فهو ما يحتاج إليه الناس لليسر والسعة ، واحتمال مشاق التكليف ، وأعباء الحياة .. وإذا فقد لا يختلى نظام حياتهم ، ولا تعم فيهم الفوضى ولكن إذا فقد ينالهم الحرج والضيق والأمور الحاجيه للناس بهذا المعنى ترجع إلى رفع الحرج عنهم والتخفيف عليهم وأما الأمر التحسينى : فهو ما تقضيه المروءة والآداب وسير الأمور على أقوم منهاج ، وإذا فقد لا يختل نظام حياة الناس كما اذا فقد الأمر الضرورى ، ولا ينالهم حرج ولا مشقة كما إذا فقد الأمر الحاجى ؟ ولكن عند فقد الأمر التحسينى ــ تكون حياتهم غير مقبولة وغير سعيدة فى تقدير أصحاب العقول الراجحة والفطر السليمة .. والأمور التحسينية للناس بهذا المعنى ترجع إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات وتوفير أسباب السعادة والهناء .. وكل ما يقصد به سير الناس فى حياتهم الدنيوية على أحسن منهاج .

٧ ــ التوازن بين المادة والروح :

ومن عظمة التشريع الإسلامى أنه لا يباعد بين المادة والروح ، ولا يفصل بين الدنيا والآخرة ــ بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة فى أداء الحقوق سواء ما يتعلق بأداء الإنسان حق ربه أو حق نفسه أو حق غيره . والقرآن الكريم قد حض على هذا التوازن بين المادة والروح فى كثير من آياته التى تلامس المشاعر والوجدان قبل أن تخاطب عقل الإنسان ففى تذكير القرآن بأداء حق الله فى العبادة : فى غمرة الانهماك فى الأعمال الدنيوية ، والمصالح التجارية يقول فى سورة النور : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ (آية ٣٧١)

وفى تذكيره بأداء حق النفس فى التكسب وابتغاء الرزق : فى غمرة المفاجأة الربانية ، والنفحات المسجدية يقول فى سورة الجمعة : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ (الآية ١٠)

وفى تذكيره بأداء حق الغير فى البر والإحسان والتكافل : يقول فى سورة البقرة : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب** ﴾

(آية : ١٧٧) .

٨ ــ التلازم بين العقيدة والحياة :

والشريعة فى مفهومها لا يمكن أن تفصم بين العقيدة والحياة ، ولا يمكن أن تفصل بين العبادة والسلوك ، ولا يمكن أن يكون المسلم مسلماً حتى تنعكس عقيدته الربانية على سائر أعماله الدينية

والدنيوية ، ولا يمكن أن يكون المؤمن مؤمنا حتى تظهر عبادته الخالصة لله على سائر تصرفاته الفردية والاجتماعية .

وبالاختصار نقول :

فإذا كانت الشريعة تمتاز بالربانية والعالمية والشمول . وإذا كانت تختص بالتوازن ، ورفع الحرج ، ورعاية مصالح البشر وإذا كانت تعرف بالربط بين العقيدة والحياة ، والعبادة والسلوك فهى شريعة تستحق البقاء ، وتستأهل الخلود ، وتضىء للدنيا أنوار الحق والمدنية والعرفان ، وترفع فى سماء الانسانية ألوية العلم والحضارة والنهوض ، وتسطر فى ضمير الزمن كلمات المجد والعظمة والخلود وصدق الله العظيم القائل فى محكم تنزيله : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ (المائدة ١٥ ، ١٦) . أ . هـ

فرية والرد عليها .

يقول الدكتور أحمد محمد جمال فى كتابه « مفتريات على الإسلام » تحت عنوان : فرية اقتباس التشريع الإسلامى من القانون الرومانى :

يقول : ومن الغريب المتنكر أن القانونى المصرى الأستاذ عبد الرازق السنهورى زعم فى « مجلة القانون ـ لسنة ١٤٨ » أن الفقه الإسلامى كالقانون الرومانى من حيث المتانة والصيانة ، وقابلية التطور ، وهو مثله صالح أن يكون قانوناً عالمياً .. ذلك أن الفقه الإسلامى من عمل الفقهاء صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاته القانون الرومانى وهو زعم باطل مردود من أربعة وجوه :

• (أولاً) لأن الفقه الإسلامى لم يكن من صنع الفقهاء ، وإنما هو مستخرج من أحكام القرآن وسنة الرسول ﷺ ، وحتى ما استنبطه الفقهاء من أحكام بالقياس أو الإجماع إنما ردوه إلى أصل أو نص من القرآن أو السنة النبوية وكل حكم اجتهادى أو قياسى يتعارض مع القرآن أو الحديث النبوى باطل مردود : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) .

• (ثانيا) لأن الشريعة الإسلامية لم تكتف بتكليف الإنسان بظاهر القانون والقضاء . بل كلفته أن ينصف غيره من نفسه ، ولو حكم له القاضى بمدعاه حسب الظاهر ، وهو يعلم أنه لا حق له عند خصمه ، لأن القضاء لا يحلل حراما ولا يحرم حلالا وذلك ما يشير إليه التوجيه النبوى« إنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه ، فإنما أقضى له بقطعة من النار فلا يأخذها »[1] متفق عليه .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الأقضية ـ باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة حديث رقم ١١١٤

ولذلك يفرق الفقهاء الإسلاميون بين الجانب القضائى والجانب الديانى ، وبهذه (الديانة) التى تلزم القاضى والمتقاضين إليه ، أو ما يجوز أن نسميه (ضمير) ـــ امتاز التشريع الإسلامى دون تشريعات العالم قديمها والحديث .

• (ثالثا) من مزايا التشريع الإسلامى : النظرة السواء إلى المتقاضين أو المؤاخذين . فلا فرق بين أبيض وأسود ، ولا امتياز لمالك على مملوك أو المخدوم على خادم : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد .. وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[1] » . (متفق عليه) .

أما التشريع الرومانى فأساسه التمييز العنصرى بين المتحاكمين والمذنبين فهو يفرق بين من هو من أصل رومانى وبين من لم يمت إلى الرومان بنسب ، كما يفضل الخاصة على العامة ، إذ يجعل للأولين الزعامة والقيادة والحماية ويفرض على الآخرين الخضوع والانقياد والطاعة .

جاء فى مدونة (جوستيان) القانونية : « من يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء ، فعقوبته مصادرة أمواله إن كان من عائلة كريمة ، وإن كان من بيئة ذميمة ، فعقوبته الجلد والنفى من الأرض .

• (رابعاً) إن التشريع الإسلامى حرم وأد البنات الذى كان متبعاً فى العصر الجاهلى .. فهل حرم التشريع الرومانى قتل الأطفال الضعاف بإغراقهم فى دنان النبيذ ، على مقترفيه من الرومانيين ؟

واتفق لى بعد كتابه ما سبق ـــ أن قرأت للدكتور محمد محمد أبى شهبة عميد كلية أصول الدين فى مصر رأيا فى علماء القانون ونظرتهم إلى الشريعة الإسلامية ـــ يقول فيه : « إنه مما يؤسف له أن علماء القانون لا تزيد معارفهم فى الفقه الإسلامى عن طالب العلم المتوسط . ولو أن علماء القانون تضلعوا فى الشريعة الإسلامية ووقفوا على مصادرها وكتبها وشروحها لدافعوا عنها ، وكانوا من الدعاة لها ـــ ثم يخص الدكتور أبو شهبه الدكتور السنهورى بقوله : هل السنهورى هو كل علماء القانون ؟ لو أن الدكتور السنهورى درس كتب الشريعة الإسلامية من صغره ، واستوعبها لبدا له من كنوزها أكثر مما بدا له .. أ هـ .

قوله تعالى : **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾** .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الحدود ـــ باب حد السرقة صـ ٤٢١ رقم ١١٠٠

يقول تعالى : « لا يستوى المؤمنون والكافرون » كما قال عز وجل : ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾[1] وقال تبارك وتعالى ههنا : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات** ﴾ أى : عملوها وكسبوها ﴿ **أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟** ﴾ أى : نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ أى : ساء ما ظنوا بنا وبعد لنا أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة وفى هذا الدار .

وقد روى الطبرانى من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى الضحى عن مسروق أن تميماً الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾ فلم يزل يكررها ويبكى حتى أصبح[2] ، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعرى من أى الفريقين أنت ؟ وقد أثر عن كثير من الناسكين المخبتين لربهم أنهم كانوا يبكون عند تلاوة هذه الآية حتى سموها مبكاة العابدين .

قوله تعالى : ﴿ **وخلق الله السموات والأرض بالحق** ﴾ أى : لم يخلق الله السموات والأرض باطلاً ﴿ **ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟** ﴾

وقوله تعالى : ﴿ **ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ أى : وليثيب كل عامل بما هو له أهل ، فلا يبخس المحسن ثواب إحسانه ، أو يحمل عليه جرم غيره فيعاقبه به أو يجعل للمسىء ثواب إحسان غيره .

ثم يبين سبحانه أحوال الكافرين وذكر جناياتهم على أنفسهم فقال تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾ .

أى : انظر واعجب من حال من ركب رأسه ، وترك الهدى ، وأطاع الهوى فكأنه جعله إلها يعبده من دون الله ، فهو لا يهوى شيئا إلا فعله ، لا يخاف رباً ، ولا يخشى عقاباً ، ولا يفكر فى عاقبة ما يعمل .

وفى هذا إيماء إلى ذم الهوى ، ومن ثم قال وهب بن منبه : اذا شككت فى خبر أمرين فانظرا أبعدهما من هواك فأته . وقال سهل التسترى : هواك دؤاك فإن خالفته فدواؤك وقال البوصيرى فى بردته :

---

(١) سورة الحشر الآية : ٢٠

(٢) المعجم الكبير للطبرانى صـ ٢ صـ ٣٧ رقم ١٢٥٠

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محّضاك النصح فاتهم

وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوى فى القرآن إلا ذمه : قال تعالى :
﴿ **واتبع هواه فمثله كمثل الكلب** ﴾[١] وقال ﴿ **واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾[٢] وقال ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾[٣]

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان » :
والفتنة نوعان : فتنة الشبهات وهى أعظم الفتنتين ، وفتنة الشهوات ،ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد ، وحصول الهوى ، فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت فى ضلال سيء القصد ، الحاكم عليه الهوى لا الهدى ، مع ضعف بصيرته ، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله فهو من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** ﴾[٤] وقد أخبر الله ـــ سبحانه ـــ أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾[٥]

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق ، وهى فتنة المنافقين ، وفتنة أهل البدع ، على حسب مراتب بدعهم . فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التى اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل ، والهدى بالضلال .
ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ، وتحكيمه فى دق الدين وجله ، ظاهره وباطنه ، عقائده وأعماله ، حقائقه وشرائعه فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ..

وأما النوع الثانى من الفتنة ففتنةالشهوات ،وقد جمع الله ـــ سبحانه ـــ بين ذكر الفتنتين فى قوله :
﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا** ﴾[٦] أى : تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها ، والخلاق هو النصيب المقدر ، ثم قال : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٦
(٢) سورة الكهف الآية : ٢٨
(٣) سورة ص الآية : ٢٦
(٤) سورة النجم الآية : ٢٣
(٥) سورة ص الآية : ٢٦
(٦) سورة التوبة الآية : ٦٩

فأشار سبحانه فى هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق ، والخوض بالباطل ، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول : هو البدع وما والاها ، والثانى : فسق الأعمال .

فالأول فساد من جهة الشبهات ، والثانى من جهة الشهوات .

ولهذا كان السلف يقولون « احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى قد فتنه هواه ، وصاحب دنيا أعمته دنياه .

وكانوا يقولون : « احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأى على الشرع والهوى على العقل ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾[١]

وقوله تعالى : ﴿ **وأضله الله على علم** ﴾ قال ابن كثير : يحتمل قولين (أحدهما) وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك (والآخر) وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه والثانى يستلزم الأول ولا ينعكس .

وقوله تعالى : ﴿ **وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة** ﴾ أى : فلا يسمع ما ينفعه ولا يعى شيئاً يهتدى به ، ولا يرى حجة يستضىء بها ولهذا قال تعالى : ﴿ **فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾[٢]

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وماهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات وما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، قل الله يحيكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا** ﴾ أى : وقال المشركون الذين سبق ذكر بعض أوصافهم : لا حياة بعد هذه الحياة التى نحن نعيش فيها ، فنموت نحن وتحيا أبناؤنا من بعد — وهذا تكذيب صريح منهم للبعث والمعاد . ﴿ **وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ أى : وما يفنينا إلا مر الليالى والأيام ، فمرورها هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، ويضيفون كل حادث إلى الدهر وأشعارهم ناطقة بذلك ، وقد كان العرب فى جاهليتهم إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا يا خيبة الدهر ، وقد جاء النهى عن سب الدهر ، فجاء الحديث القدسى « يقول الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار »[٣] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٨

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٨٦

(٣) صحيح البخارى — كتاب التوحيد — باب قول الله تعالى : يريدون أن يبدلوا كلام الله ٩ /١٧٥

قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ﷺ : « لاتسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله ، كان العرب فى الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهرويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة ، فلذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ثم نعى عليهم مقالهم هذا الذى لا دليل عليه فقال تعالى :

﴿ **وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون** ﴾ أى : وما لهم بقصر الحياة على حياة الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدهر علم يستند إلى عقل أو نقل ، وقصارى أمرهم الظن والتخمين من غير أن يكون لهم ما يتمسكون به من حجة نافذة .

ثم ذكر شبهتهم على إنكار البعث فقال :

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** ﴾ أى : وإذا تلى على هؤلاء المشركين الذين سبق القول فى جرائمهم ــ آيات الكتاب الدالة على أن البعث حق ، لم يكن لهم من حجة فى دحض هذا إلا أن قالوا إن كان ما يقولونه حقا فانشروا لنا آباءنا الأولين وابعثوهم من قبورهم أحياء حتى نعتقد صحة ما تقولون .

وهذا قول وكلام لا يصدر من عاقل ، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشىء فى الحال كإعادة آبائهم التى طلبوها فى الدنيا ــ امتناعه فيما بعد إذا قامت القيامة وبعث الله الموتى من قبورهم للعرض والحساب وتسمية كلامهم الزائف حجة ــ ضرب من التهكم بهم .

ثم أمر سبحانه رسوله أن يرد عليهم فقال :

﴿ **قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾

أى : قل لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث : الله يحييكم ما شاء أن يحييكم فى الدنيا ، ثم يميتكم فيها متى شاء ، ثم يجمعكم جميعا أولكم وآخركم ، صغيركم وكبيركم يوم القيامة ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ فهو واقع لا محالة ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أى : ولكن أكثر الناس ينكرون البعث ويستبعدون عودة الأجساد بعد موتها وحين تكون عظاما نخرة كما قال تعالى : ﴿ **إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا** ﴾ أى : يرون وقوعه بعيدا والمؤمنون يرونه قريبا وما دعاهم إلى ذلك إلا جهلهم وقصر نظرهم لا لأن فيه شائبة ريب .

الله وحده مالك الملك

قال تعالى :

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

معانى المفردات

(جاثية) أى : باركة على الركب مستوفزة ، وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر ما يكره (إلى كتابها) أى : إلى صحيفة أعمالها التى كتبها الحفظة لتحاسب على ما قيد فيها (ينطق) أى : يشهد (نستنسخ) أى : نجعل الملائكة تكتب وتنسخ . (الفوز المبين) أى : الظاهر أنه لا فوز وراءه (وعد الله) أى : بأنه محيى الموتى من قبورهم (بمستيقنين) أى : بمتحققين (وبدا) أى : ظهر ، (سيئات ما عملوا) أى : عقوباتها (وحاق) أى : حل (ننساكم) أى : نترككم (كما نسيتم) أى : كما تركتم آيات الله . (آيات الله) حججه ، (غرتكم) أى : خدعتكم (الحياة الدنيا) أى : زينتها (يستعتبون) أى : يطلب منهم العتبى بالتوبة من ذنوبهم ، (الكبرياء) العظمة والسلطان .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت سبحانه فيما سلف أنه تعالى قادر على الإحياء مرة ثانية كما قدر على ذلك فى المرة الأولى — ذكر هنا دليلاً آخر على ذلك ، وهو أنه تعالى مالك الكون كله ، فهو قادر على التصرف فيه بالإحياء فى الإعادة كما أحياه فى البدء ، ثم ذكر من أهوال هذا اليوم وأن أعمال كل أمة تعرض عليها ، ويقال لهم : هذا ما كتبته الحفظة فى الدنيا فهو شهادة صدق ، لا شك فيها ،ثم أردف ذلك ببيان أنه بعد انتهاء هذا الموقف يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، ويوبخ الكافرين على ما فرط منهم فى الدنيا فلا مأوى لهم إلا جهنم ولا مخرج لهم منها ولا عتبى حينئذ فلا تنفع توبة مما فرط منكم من الذنوب،ويختم هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة بالحمد للكبير المتعال وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين

التفسير

قوله تعالى :

﴿ **ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ۞ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ۞ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، بيده ملكوت كل شيء وهو سبحانه مالك يوم الدين لذا يقول سبحانه : ﴿ **ويوم تقوم الساعة** ﴾ أى : يوم القيامة﴿ **يخسر المبطلون** ﴾وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات .

وقوله تعالى : ﴿ **وترى كل أمة جاثية** ﴾ أى : على ركبها من شدة هذا اليوم كما قال سبحانه : ﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً** ﴾[1] فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم . ينفرد كل واحد منهم بنفسه ينادى : نفسى نفسى ،فيا هول ذلك وأنت تنادى معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه فما ظنك بيوم ينادى فيه آدم ، والخليل إبراهيم والكليم موسى ، والنبى عيسى ، مع كرامتهم على الله عز وجل ، كل ينادى نفسى نفسى ، شفقاً من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم فى إشفاقك فى ذلك اليوم واشتغالك بحزنك وخوفك ؟

(١) سورة مريم الآية : ٦٨

﴿ **وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾[1] فتوهمها حين اضطربت وفارت وثارت ، ونظرت إلى الخلائق من بعد مكانها ، فشهقت إليهم ، وزفرت نحوهم ، وجذبت خزانها ، متوثبة على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه فتوهم صوت زفيرها وشهيقها وقد امتلأ منه سمعك ، وارتفع له فؤادك وطار فزعاً ورعباً ، ففر الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم ، وتساقطوا على ركبهم جثاة حول جهنم ، فأرسلوا الدموع من أعينهم ﴿ **وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها** ﴾ يعنى إلى كتاب أعمالها ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغير ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **اليوم تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ أى تجازون بأعمالكم ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون** ﴾[3].

وقوله سبحانه : ﴿ **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق** ﴾ أى : هذا كتابنا الذى كتبته الحفظة ودونت فيه أعمالكم ــ يشهد عليكم شهادة حق دون زيادة ولا نقص ، فهو صورة تطابق ما فعلتموه . ﴿ **إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾ أى : إنا كنا نأمر الحفظة بنسخ أعمالكم وكتابتها وإثباتها عليكم أول فأول ، فهى وفق ما عملتم بالدقة والضبط .

•

قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين ، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين** ﴾

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى : آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة وهى الخالصة الموافقة للشرع (**فيدخلهم فى رحمته** ﴾ وهى الجنة كما بينت فى الصحيح « أن الله تعالى قال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء »[4] ﴿ **ذلك هو الفوز المبين** ﴾ أى : البين الواضح فتوهم نفسك إن عفاالله عنك فى تلك الرحمة

---

(١) سورة الفجر الايات : ٢٣ ــ ٢٥.

(٢) سورة الكهف الآيات : ٤٩

(٣) سورة الحاقة الآيات : ١٩ ــ ٣٧

(٤) صحيح البخارى ــ كتاب التفسير ــ تفسير سورة ق ٦ / ١٧٣

مسروراً مع مسرورين ، بأبدان قد طهرت ، ووجوه قد أشرقت وأنارت ، فهى كالبدر ، قد سطع من أعراضهم كشعاع الشمس . ذلك هو الفوز المبين ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين** ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخا كقوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾[٢] :

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما تدرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ، وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون** ﴾

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها** ﴾ أى : إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ **قلتم ما ندرى ما الساعة** ﴾ أى : لا نعرفها ﴿ **إن نظن إلا ظنا** ﴾ أى : إن نتوهم وقوعها إلا توهما ولهذا قال : ﴿ **وما نحن بمستيقنين** ﴾ أى : بمتحققين .

قوله تعالى : ﴿ **وبدا لهم سيئات ما عملوا** ﴾ أى : وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى : أحاط بهم العذاب والنكال .

وقوله تعالى : ﴿ **وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين** ﴾ : أى : اليوم نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى يارب فيقول أفظننت أنك ملاقى ؟ فيقول لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتنى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾[٣] .

---

(١) سورة الدخان الآيات : ٥١ ــ ٥٧

(٢) سورة الزمر الآية : ٧١

(٣) صحيح مسلم ــ كتاب الزهد والرقائق ــ ٤ / ٢٢٧٩ رقم ٢٩٦٨